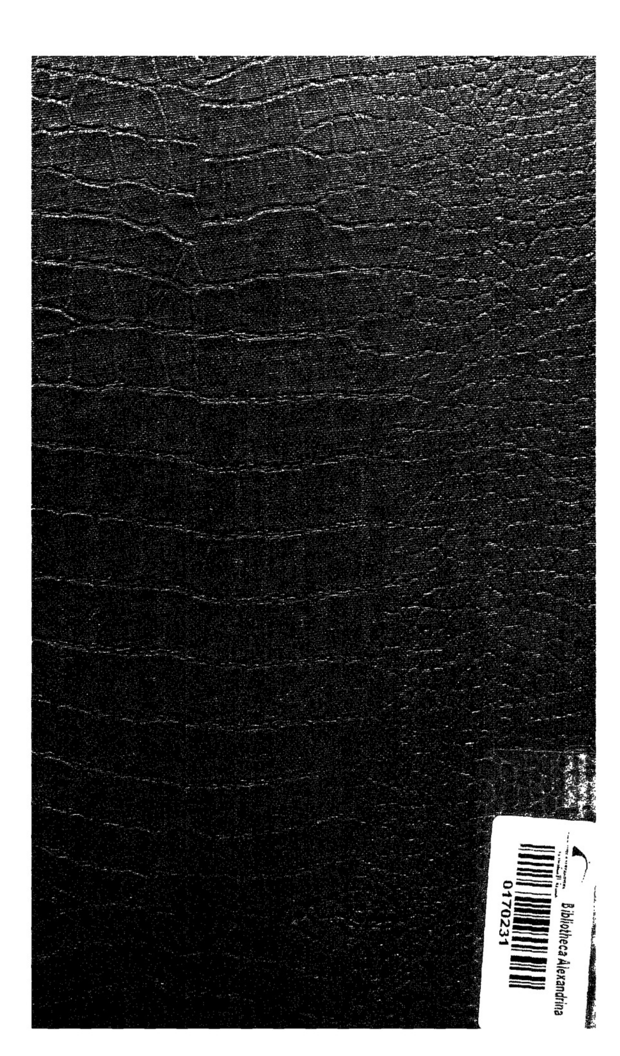
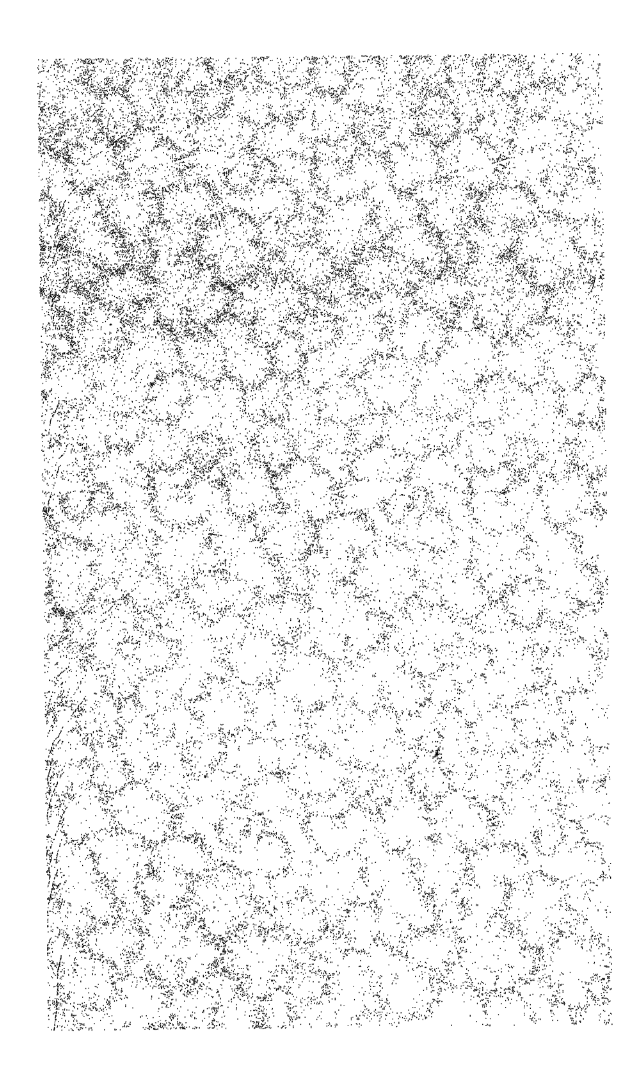
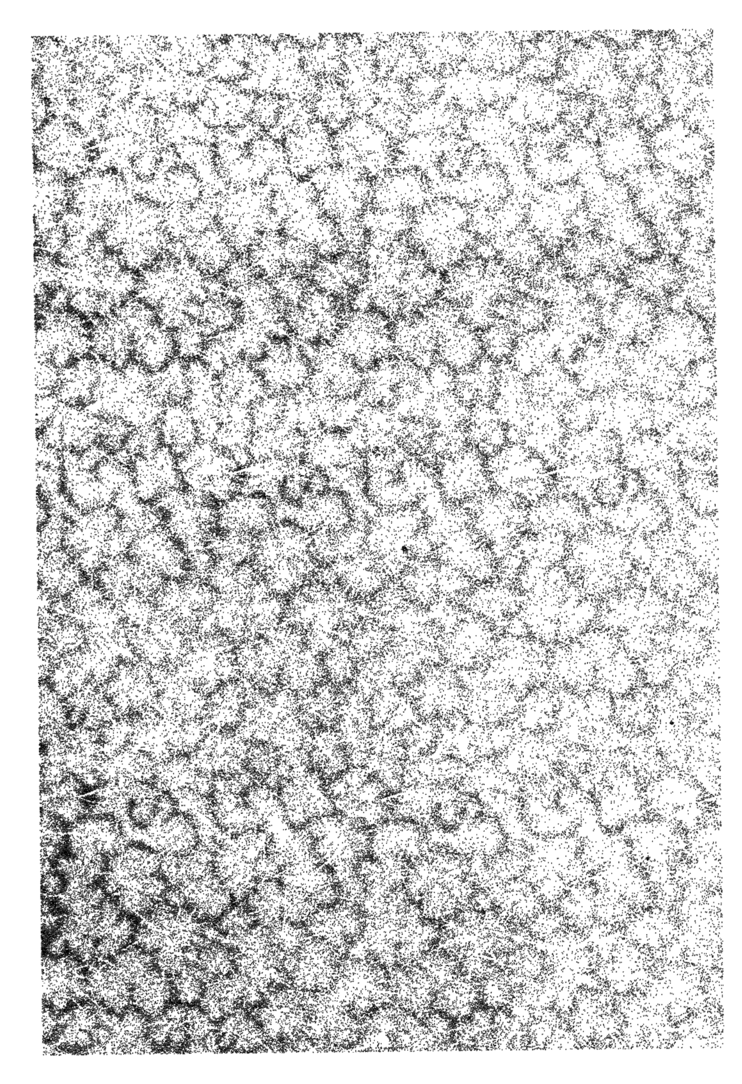


Bibliotheca Alexandrina
0170231





دار الكتب المصرية

القسم الأدبي



الجزء الحادي عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

فهــرس الجــزء الحــادى عشر

تفســير ســورة الكهف

صفحة

تفسير سورة مريم

صفحة

تفسير سورة طه عليه السلام

صفحة

تفسير سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل : الضمير عائد على إبليس وذريته؛ أى لم أشاورهم فى خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أى أنفس المشركين فكيف آتخذوهم أولياء من دونى؟ . وقيل : الكناية فى قوله : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ » ترجع إلى المشركين، و إلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجّمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط فى هذه الأشياء . وقال آبن عطية : وسمعت أبى رضى الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدىّ بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلىّ يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل فى هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين . قال آبن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته؛ وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن؛ حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادى؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأوّل بالمضلّين؛ وتندرج هذه الطوائف فى معناهم . قال الثعلبى : وقال بعض أهل العلم «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردّ على المنجّمين أن قالوا : إنّ الأفلاك تُحدث فى الأرض وفى بعضها فى بعض، وقوله : «والأرض» ردّ على أصحاب الهندسة حيث قالوا :

إن الأرض كرية والأفلاك تجرى تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله : « ولا خلق أنفسهم» ردّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هى الفاعلة فى النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقون بالتاء بدليل قوله : «وما كنت متخذ» يعنى ما ٱستعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . ﴿ عَضُدًا ﴾ أى أعوانا . يقال : ٱعتضدتُ بفلان إذا ٱستعنتَ به وتقويتَ . والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال: عَضَده وعَاضَده على كذا إذا أعانه وأعزّه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخصّ المضلّين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر الجَحْدَرى «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء؛ أى وما كنت يا محمد متخذ المضلّين عضدا . وفى عضد ثمانية أوجه: «عَضُدًا» بفتح العين وضم الضاد وهى قراءة الجمهور، وهى أفصحها . و «عَضْدًا» بفتح العين وإسكان الضاد، وهى لغة بنى تميم . و « عُضُدًا » بضم العين والضاد ، وهى قراءة أبى عمرو والحسن . و «عُضْدًا» بضم العين وإسكان الضاد، وهى قراءة عكرمة . و «عِضَدًا» بكسر العين وفتح الضاد، وهى قراءة الضحاك . و «عَضَدًا» بفتح العين والضاد وهى قراءة عيسى بن عمر . وحكى هرون القارئ « عَضِدًا » . واللغة الثامنة «عِضْدا» على لغة من قال: كِتْف وفِخْذ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى ٱذكروا يوم يقول الله : أين شركائى ؟ أى ٱدعوا الذين أشركتموهم بى فليمنعوكم من عذابى . وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « نقول » بنون . الباقون بالياء ؛ لقوله : « شركائى » ولم يقل : شركائنا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى فعلوا ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم إلى نصرهم، ولم يكفّوا عنهم شيئا . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ قال أنس ابن مالك : هو وادٍ فى جهنم من قيح ودم . وقال ابن عباس : أى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيل : بين الأوثان وعبدتها ، نحو قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْبِقا » قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِق . وكذلك قال نَوْف البِكَاليّ إلا أنه قال : يحجز بينهم و بين المؤمنين . عِكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافتيه حيات مثل البغال الدّهم، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم آستغاثوا منها بالآقتحام في النار . وروى زيد بن درهم[1] عن أنس بن مالك قال : « مَوْبقا » وادٍ من قيح ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إيباقا . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهري : وَبَق يبِق وبوقا هَلَك، والمَوْبِق مثل الموعد مَفعِل من وعد يعِد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم موبقا » . وفيه لغة أخرى : وَبِق يَوْبَق وَبَقًا . وفيه لغة ثالثة : وَبِق يَبِق بالكسر فيهما، وأوبقه أي أهلكه . وقال زهير :

ومن يشترى حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ ＊ يَصُنْ عِرضَه من كلّ شَنْعاءَ مُوبِقِ

قال الفرّاء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهلِكا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ « رأى » أصله رَأَيَ؛ قلبت الياء ألفا لآنفتاحها وآنفتاح ما قبلها؛ ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فأما البصريون الحذّاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف، ولا فرق بين ذوات الياء و بين [ذوات][2] الواو في الخط، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضُحًا جمع ضَحْوة، وكُسًا جمع كِسوة، وهما من ذوات الواو بالياء، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل .

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ « فظنّوا » هنا بمعنى اليقين والعلم، كما قال[3] :

＊ فَقلْتُ لهمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجِ ＊

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف ؛ والتصويب عن « التهذيب » .　(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .
(٣) هو دريد بن الصمة ؛ وتمام البيت : ＊ سراتهم في الفارسي المسرد ＊

أى أيقنوا، وقد تقدّم[١] . قال ابن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها . وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم فى الحال . وفى الخبر : "إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة" . والمواقعة ملابسة الشيء بشدّة . [وعن علقمة أنه قرأ][٢] « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَافُّوهَا » أى مجتمعون فيها ، واللّفف الجمع . ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب . وقال القتبى : معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجئون إليه ؛ والمعنى واحد . وقيل : ولم تجد الأصنام مصرفا للنار عن المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من تفسير «البحر المحيط» .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية . الثانى — ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في «سبحان»(١) ؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثانى بيان . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أى جدالا ومجادلة ، والمراد به النضر بن الحرث وجداله فى القرآن . وقيل : الآية فى أبيّ بن خلف . وقال الزجاج : أى الكافر أكثر شيء جدلا ؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله : « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول رب آمنتُ بك وصدّقت برسلك وعملتُ بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يارب إنى لا أقبل ما فى هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندى ولا من جهتى فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أمّ الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تُجِرنى من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدا علىّ من نفسى فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذى يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإنّ بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكنّ الله فعنكنّ كنتُ أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكْتَم حديثا فذلك قوله تعالى « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا . وفى صحيح مسلم عن علىّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال : " ألا تصلّون " فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى سنتنا فى إهلاكهم ؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكمى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة الأوّلين عادة الأوّلين فى عذاب الاستئصال . وقيل: المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأوّلين فحذف . وسنة الأوّلين معاينة العذاب ، فطلب المشركون ذلك ، وقالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلًا ﴾[1] نصب على الحال ، ومعناه عِيانا ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : هو السيف يوم بَدْر . وقال مقاتل : فجأة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى « قُبُلًا » بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كلّه ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل . النحاس : ومذهب الفراء أن « قُبُلا » جمع قَبِيل أى متفرّقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى عِيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته « قِبَلًا » ومعناه عِيانا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ أى بالجنة لمن آمن . ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى مخوّفين بالعذاب من كفر . وقد تقدّم . ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ قيل : نزلت فى المقتسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدّم[2] . ومعنى «يدحضوا» يزيلوا ويبطلوا . وأصل الدَّحْض الزَّلَق . يقال : دَحَضتْ رِجلُه أى زَلِقت ، تَدْحَض دَحْضًا ، ودَحَضتِ الشمسُ عن كبد السماء زالت ، ودَحَضت حُجّتُه دُحوضا بَطَلت ، وأدحضها الله . والإدحاض الإزلاق . وفى وصف الصراط : " ويُضرَب الجسرُ على جهنم وتَحِلُّ[3] الشفاعةُ فيقولون اللهم سَلِّم سَلِّم " قيل : يا رسول الله وما الجسر؟ قال : " دَحْضٌ مَزْلَقة " أى تَزلَق فيه القدم . قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فِهبتَهُ ❊ وحِدْتَ كما حَادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ

---

(١) هذه قراءة «نافع» التى كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تحل : تقع و يؤذن فيها ، وهو (بكسر الحاء) وقيل : (بضمها) . النووى .

﴿ وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ من الوعيد ﴿ هُزُوًا ﴾ . و «ما» بمعنى المصدر أى والإنذار . وقيل : بمعنى الذى ؛ أى اتخذوا القرآن والذى أنذروا به من الوعيد هزوا أى لعبا وباطلا ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(١) بيانه . وقيل : هو قول أبى جهل فى الزُّبد والتَّمر هـذا هو الزقّوم . وقيل : هو قولهم فى القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأوّلين ، وقالوا للرسول : « هَلْ هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » و « مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه ، فتهاون بها وأعرض عن قبولهـا . ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها ؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المعنى نسى ما قدّم لنفسه وحصّل من العذاب ؛ والمعنى متقارب . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ بسبب كفرهم ؛ أى نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم . ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ أى إلى الإيمـان ﴿ فَلَنْ يَهْتَـدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ نزل فى قوم معينين ، وهو يردّ على القَدَرية قولهم ؛ وقد تقدّم معنى هذه الآية فى «سبحان»(٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَـةِ ﴾ أى للذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليـل قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . « ذو الرحمة » فيـه أربع تأويلات : أحدها — ذو العفو . الثانى — ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمـان دون الكفر . الثالث — ذو النعمة . الرابع — ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمـان والكفر ، لأنه ينعم فى الدنيـا على الكافر كإنعامه على المؤمن . وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن ٱهتدى به المؤمن دون الكافر . ومعنى قوله : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَـا كَسَبُوا ﴾ أى من الكفر والمعاصى ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ولكنه يمهل . ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ أى أجل مقدّر يؤخرون إليه . نظيره « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ، « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أى ملجأ؛ قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاه الجوهرىّ فى الصحاح . وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلًا وَوُءُولًا على فُعول أى لجأ، وواءَلَ منه على فاعل أى طلب النجاة . وقال مجاهد : مَحْرِزا . قتادة : وليًّا . وأبو عبيدة : مَنْجًى . وقيل : مَحيصا؛ والمعنى واحد . والعرب تقول : لا وَأَلَتْ نفسُه أى لا نَجَت؛ ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلَتْ نفسُك خَلَّيْتَها * للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَمِ

وقال الأعشى :

وقد أُخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ * وقد يُحاذِرُ مِنّى ثم ما يَئِلُ

أى ما ينجو .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . «القرى» نعت أو بدل . و « أهلكناهم » فى موضع الخبر محمول على المعنى؛ لأن المعنى أهل القرى . ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول](1) من قال : زيدا ضربته ؛ أى وتلك القرى التى قصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا . ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِمْ مَوْعِدًا﴾(2) أى وقتا معلوما لم تَعْدُه . و «مُهْلَك» من أُهلِكوا . وقرأ عاصم « مَهْلَكهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَك . وأجاز الكسائى والفراء «لِمَهْلِكِهم» بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكسائى](3) وهو أحبّ إلىّ لأنه من هلك . الزجاج : اسم للزمان والتقدير : لوقت مَهْلِكهم، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِها(4) .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .
(٢) هذه قراءة الجمهور كما فى البحر وغيره .
(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .
(٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها، وأتت الناقة على مضربها : أى على الزمن والوقت الذى ضربها الفحل فيه ؛ جعلوا الزمان كالمكان .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور فى القرآن ليس فيه موسى غيره . وقالت فرقة منها نَوْف البِكَالىّ : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران . وقد ردّ هذا القول ابن عباس فى صحيح البخارى وغيره . وفتاه : هو يوشع بن نون . وقد مضى ذكره فى « المائدة »[1] وآخر « يوسف »[2] . ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون . « لَا أَبْرَحُ » أى لا أزال أسير؛ قال الشاعر[3] :

وأَبرحُ ما أدامَ اللهُ قومِى * بحمد الله مُنْتَطِقًا مُجِيدَا

وقيل : « لَا أَبْرَحُ » لا أفارقك . ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى ملتقاهما . قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ؛ وقاله مجاهد . قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب فى أرض فارس من وراء أَذْرَبيجان ، فالركن الذى لاجتماع البحرين مما يلى بَرّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول . وقيل : هما بحر الأُرْدُنّ وبحر القُلْزُم . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ؛ قاله محمد بن كعب . وروى عن أُبَىّ بن كعب أنه بأفريقية . وقال السدى : الكُرّ والرَّس[4] بأرمينية . وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ؛ حكاه النقاش ؛ وهذا مما يذكر كثيرا . وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر ؛ وهذا قول ضعيف ؛ وحكى عن ابن عباس ، ولا يصح ؛ فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما وُسِم له بحر ماء . وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أُبَىّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيبا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٣) هو خداش بن زهير؛ يقول : لا أزال أجنب فرسى جوادا؛ ويقال : إنه أراد قولا يستجاد فى الثناء على قومى . وفى (اللسان) : « على الأعداء » بدل « بحمد الله » .

(٤) الكر والرس : نهران .

فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتَب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتَل فحيثما فَقَدتَ الحُوت فهو ثَمّ " وذكر الحديث، واللفظ للبخارى .

وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكّرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكّرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوّهم، واستخلفهم فى الأرض، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى علىّ محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا؛ فقال له رجل من بنى إسرائيل : عَرَفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله؟ قال : لا؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل : أن ياموسى وما يدريك أين [أضع][(1)] علمى؟ بلى ! إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك؛ وذكر الحديث . قال علماؤنا : قوله فى الحديث " هو أعلم منك " أى بأحكام وقائع مفصّلة، وحُكم نوازل معينة، لا مطلقا، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتا مالحا فى مِكْتَل — وهو الزنبيل — فحيث يحيا وتفقده فثَمّ السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طلبا قائلا : «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» . ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً ﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر، والجمع أحقاب . وقد تسكن قافه فيقال : حُقْب . وهو ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . والجمع حِقاب . والحِقْبة بكسر الحاء واحدة الحِقَب وهى السنون .

---

(1) الزيادة من كتب التفسير .

الثانيـــة — فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعـدت أقطارهم، وذلك كان فى دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم فى العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضـل أفضل الأقسام . قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث .

الثالثـــة — قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » للعلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها — أنه كان معه يخدمه، والفتى فى كلام العرب الشاب، ولمـا كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم عبـدى ولا أمتى وليقل فَتاىَ وفتاتى " فهذا ندبٌ إلى التواضع؛ وقد تقدم هـذا فى « يوسف »[(١)] . والفتى فى الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم ابن يوسف عليه السلام . ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام . وقيل : إنمـا سمى فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأول . وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى : « وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ » وقال : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » قال ابن العربى : فظاهر القرآن يقتضى أنه عبـد، وفى الحديث : أنه كان يوشع بن نون . وفى « التفسير » أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : « أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا » قال عبد الله بن عمر : والحُقب ثمانون سنة . مجاهد : سبعون خريفا . قتادة : زمان . النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحُقب والحِقبة زمان من الدهر مبهـم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محـدود : وجمعه أحقـاب .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ الضمير فى قوله : « بينهما » للبحرين؛ قاله مجاهد . والسَّرَب المسلك؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : جَمَد المـاء فصار كالسَّرَب . وجمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سـلوكه فارغا ، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت ، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة فى البحر ، وفيها وجد الخضر . وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما » وإنمـا كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى؛ نسى أن يُعـلِم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة ، كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من الملح ، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسـل منكم » وإنما الرسل من الإنس لا من الجن . وفى البخارى ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلِّفتَ كثيرا ؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذ قال موسى لفتاه » يوشـع بن نون — ليست عن سعيد[1] — قال فبينا هو فى ظل صخرة فى مكانٍ ثَرْيَانَ[2] إذ تَضَرَّبَ[3] الحوتُ وموسى نائم

---

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير . (قسطلانى) .

(٢) ثريان : يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان فى ترابهما بلل وندى . (٣) تضرب : اضطرب وتحرك إذ حيى فى المكتل .

فقال فتاه : لا أوقظه؛ حتى إذا آستيقظ نسى أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنّ أثَرَه فى حَجَر؛ قال لى عمرو (١) : هكذا كأنّ أثره فى حَجَر وحَلَّقَ بين إبهاميه واللتين تَليانِهما . وفى رواية : وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماءِ فصار مثل الطاق (٢) ، فلما آستيقظ نسى صاحبُه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً » ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمر الله به ، فقال له فتاه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نسيا » فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذى أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا؛ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعنى الحوت هناك منسيا — أى متروكا — فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكا فى النسيان؛ لأن النسيان التأخير؛ من ذلك قولهم فى الدعاء : أنسأ الله فى أجلك . فلما مضيا من الصخرة أخّرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيه مسئلة واحدة ، وهو آتخاذ الزاد فى الأسفار، وهو ردٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار (٣) ، الذين يقتحمون المهامه والقفار، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار؛ هذا موسى نبى الله وكليمه من أهل الأرض قد آتخذ الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد . وفى صحيح البخارى : إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى « وتزودوا » . وقد مضى هذا فى « البقرة » (٤) . واختلف فى زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتا مملوحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما آنتهيا إلى

(١) أى قال ابن جريج قال لى عمرو... الخ.　(٢) الطاق : عقد البناء.　(٣) الأغمار جمع غمر (بالضم) : وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور.　(٤) راجع جـ ٢ ص ٤١١ وما بعدها طبعة ثانية .

الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت جرى البحر فتحرك الحوت في المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى. وقيل: إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله في الحديث: احمل معك حوتا في مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثَمَّ، على هذا فيكون تزوّدا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وآختاره. وقال آبن عطية: قال أبي رضي الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهريّ يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوما لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بَشَر لحقه الجوع في بعض يوم. وقوله: «نَصَباً» أي تعبا، والنصب التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط. وفي قوله: «وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في «أنسانيه» وهو بدل الظاهر من المضمر، أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان؛ وفي مصحف عبد الله «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الآعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت؛ فقال: ما كَلَّفتَ كثيرا؛ فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ أي آتخذ الحوت سبيله عجبا للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «وآتخذ سبيله في البحر» تمام الخبر، ثم آستأنف التعجيب فقال من نفسه: «عجبا» لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقّه الأيسر ثم حَيِيَ بعد ذلك. قال أبو شجاع في كتاب «الطبري»: رأيته — أتيت به — فإذا هو شقّ حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء. قال ابن عطية: وأنا رأيته والشقّ الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة. ويحتمل أن يكون قوله: «وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ» إخبارا من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه آتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أي تعجب منه. وإمّا أن يخبر

عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجبا للناس . ومن غريب ما روى فى البخارى عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما حيي لأنه مسّه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حَيِي . وفى « التفسير » : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت؛ فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحيي . وقال الترمذى فى حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[1] ﴾ أى قال موسى لفتاه أمرُ الحوت وفقدُه هو الذى كنا نطلب، فإن الرجل الذى جئنا له ثَمَّ؛ فرجعا يقصّان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفى البخارى : فوجدا خضرا على طِنْفِسة خضراء على كَبِد البحر مُسَجًّى بثوبه، قد جعل طَرَفه تحت رجليه، وطَرَفه تحت رأسه، فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام؟! من أنت؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال جئتُ لتعلّمنى مما علّمت رشدا؛ الحديث . وقال الثعلبى فى كتاب «العرائس» : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجه الماء وهو مُتَشِّح بثوب أخضر فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه فقال : وأَنَّى بأرضنا السلام؟! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبىّ بنى إسرائيل، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أنّى نبىّ بنى إسرائيل ؟ قال : الذى أدراك بى ودلّك علىّ[2]؛ ثم قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل، قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك، ثم جلسا يتحدّثان، فجاءت خُطّافة وحملت بمنقارها من الماء؛ وذكر الحديث على ما يأتى .

---

(١) فى الأصل : « نبغى » بالياء وهى قراءة «نافع» .	(٢) الذى فى كتاب « العرائس » للثعلبى : «فقال أنا موسى، فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم؛ قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ... الخ» ولعل ما هنا زيادة فى بعض النسخ .

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام فى قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يعتد بقوله، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيرى، قال : وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر؛ بذلك ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى آخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما سُمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء" هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض؛ قاله الخطّابى وغيره . والخضر نبى عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبى، والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يَتّبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبى من ليس بنبى . وقيل : كان ملَكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن . والأوّل الصحيح؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة . وقيل : النعمة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى علم الغيب . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه، لا تُعطى ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ » هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما فى الحديث: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » حسب ما تقدم بيانه فى « المائدة »[1] .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضّله الله؛ فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبيّ والنبي أفضل من الوليّ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة . والله أعلم . « ورشدا » مفعول ثان بـ«علمني» . ﴿قال﴾ الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هى علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ والأنبياء لا يُقِرّون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير . أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحُكمك . وانتصب « خُبْرًا » على التمييز المنقول عن الفاعل . وقيل : على المصدر الملاقى فى المعنى، لأن قوله : « لَمْ تُحِطْ » معناه لم تخبُرْه، فكأنه قال : لم تخبره خُبرا؛ وإليه أشار مجاهد . والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أى سأصبر بمشيئة الله . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى قد ألزمت نفسي طاعتك . وقد اختلف فى الاستثناء، هل هو يشمل قوله : «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أم لا؟ فقيل: يشمله كقوله : « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . وقيل : استثنى فى الصبر فصبر، وما استثنى فى قوله : « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » فاعترض

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٦٥ طبعة أولى أو ثانية .

وسأل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك منه ؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفىُ المعصية معزوم عليه حاصل فى الحال، فالاستثناء فيه ينافى العزم عليه . ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركه، فإن ذلك كله مكتسب لنا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض، فتعين الفراق والإعراض.

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — فى صحيح مسلم والبخارى : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا فى السفينة لم يَفْجأ [موسى][1] إلا والخضر قد قلع منها لوحا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وكانت الأولى من موسى نِسيانا" قال : وجاء عصفور فوقع على حَرْف السفينة فنقر نَقْرة فى البحر، فقال له الخضر : ما عِلمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر . قال علماؤنا : حَرْف السفينة طرفها وحَرْف كل شىء طرفه، [ومنه حَرْف الجبل][2] وهو أعلاه المحدّد . والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال :

(١) الزيادة من البخارى . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أى من معلوماته ، وهــذا من الخضر تمثيل ؛ أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثرلها فى علم الله ، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثرله بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنمــا مثّل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده ممــا بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قصد به التمثيل والتفهيم ، إذ لا نقص فى علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته . وقد أوضح هــذا المعنى البخارى فقال : والله ما علمى وما علمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر . وفى « التفسير » عن أبى العالية : لم يرالخضرَ حين خرق السفينة غيرُ موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة . وقيــل : خرج أهــل السفينة إلى جزيرة ، وتخلف الخضر لخرق السفينة . وقال ابن عباس : لمــا خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية ، وقال فى نفسه : ماكنت أصنع بمصاحبة هــذا الرجل ! كنت فى بنى إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشيّة فيطيعونى ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بمــا حدّثتَ به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا . قال : صدقت؛ ذكره الثعلبي فى كتاب « العرائس » .

الثانيـــة — فى خرق السفينة دليل على أن للولىّ أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا، مثل أن يخاف على رَيْعه ظالمــا فيخرّب بعضَه . وقال أبو يوسف : يجوز للولىّ أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض . وقرأ حمــزة والكسائى « لِيَغْرَقَ » باليــاء « أَهْلُهَا » بالرفع فاعل يغرَق، فاللام على قراءة الجماعة فى « لِتغرِق » لام المآل مثل « لِيَكُونَ لَهُــمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . وعلى قراءة حمزة لام كى، ولم يقل لتغرقنى؛ لأن الذى غلب عليــه فى الحــال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم . و « إِمْرًا » معناه عجبا؛ قاله القتبىّ . وقيــل : منكرا؛ قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة؛ وأنشد :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّى نُكْرَا * داهِيــةً دَهْيَاءَ إدًّا إِمْرَا

وقال الأخفش : يقال أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَرُ [أَمْرًا][1] إذا اشتدّ، والاسم الإِمْر .

(١) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ فى معناه قولان : أحدهما — يروى عن ٱبن عباس، قال : هذا من معاريض الكلام . والآخر — أنه نسى فاعتذر؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضى المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره؛ وقد تقدّم . ولو نسى فى الثانية لاعتذر .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فى البخارى قال يَعْلَى قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، « قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » لم تعمل بالحِنْث (١) . وفى الصحيحين وصحيح الترمذى : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فٱقتلعه بيده فقتله، قال له موسى : «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » قال (٢) : وهذه أشد من الأولى . « قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . لفظ البخارى . وفى « التفسير » : إن الخضر مرّ بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاما ليس فيهم أضوأ منه، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دَمَغه، فقتله . قال أبو العالية : لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام .

---

(١) لأنها لم تبلغ الحلم، وهو تفسير لقوله : « زكية » أى أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث بغير نفس . ولأبى ذرّ : لم تعمل الخبث (بخاء معجمة وموحدة مفتوحتين) . قسطلانى . (٢) هو سفيان بن عيينة، كما فى القسطلانى . وقيل : كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة « لك » .

قلت : ولا آختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دَمَغه أوّلا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم آقتلع رأسه؛ والله أعلم بمـا كان من ذلك؛ وحسبك بما جاء في الصحيح . وقرأ الجمهور « زَاكِيَةً » بالألف . وقرأ الكوفيون وآبن عامر « زَكِيَّةً » بغير ألف وتشديد اليـاء ؛ قيل : المعنى واحد ؛ قاله الكسائي . وقال ثعلب : الزكية أبلغ . قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب قط، والزكية التي أذنبت ثم تابت .

قوله تعالى : « غلاما » آختلف العلماء في الغلام هل كان بالغا أم لا ؟ فقال الكلبي : كان بالغا يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأمه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه عن جسده . قال الكلبي : وآسم الغلام شمعون . وقال الضحاك : حيسون . وقال وهب : آسم أبيه سلاس وآسم أمه رُحْمَى . وحكى السهيلي أن اسم أبيه كازير وآسم أمه سهوى . وقال الجمهور : لم يكن بالغا ؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب . وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام؛ فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ، وتقابله الجارية في النساء . وكان الخضر قتله لِمـا علم من سِرّه، وأنه طُبع كافرا كما في صحيح الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرا . وقتلُ الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك؛ فإن الله تعالى الفعّال لمـا يريد، القادر على ما يشاء . وفي كتاب « العرائس » إن موسى لمـا قال للخضر : « أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً » — الآية — غضب الخضر وآقتلع كتف الصبي الأيسر، وقشر اللحم عنـه، وإذا في عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا . وقد آحتج أهـل القول الأول بأن العرب تبقي على الشاب آسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية [(١)] :

شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضَالِ الذِي بِها * غُـلام إذا هَزَّ القَنَـاةَ سَـقَاهَا

وقال صفوان لحسان [(٢)] :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّـيفِ عَـنِّي فإنَّني * غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشاعِرِ

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف ؛ وقبله :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة * تتبـع أقصى دائهـا فشفاها

(٢) قد كان حسان رضي الله عنه قال شعرا يعرض فيه بصفوان بن المعطل و بمن أسلم من العرب من مضر، فاعترضه آبن المعطل وضربه بالسيف وقال البيت . (راجع القصة في سيرة ابن هشام) .

وفى الخبر : إن هـذا الغلام كان يفسد فى الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما فعل، فيقسمان على قسمه، ويحميانه ممن يطلبه ، قالوا وقوله : « بِغَيْرِ نَفْسٍ » يقتضى أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كِبَر الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا . قال ابن عباس : كان شابا يقطع الطريق . وذهب ٱبن جبير إلى أنه بلغ سنّ التكليف لقراءة أبيّ وٱبن عباس « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين، ولا يطلق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعية لأبويه ، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه ٱسم الكافر إلا بالبلوغ ، فتعين أن يصار إليه . والغلام من الاغتلام وهو شدة الشَّبَق .

قوله تعالى : ﴿ نُكْرًا ﴾ ٱختلف النـاس أيهما أبلغ « إمرا » أو قوله « نكرا » فقالت فرقة : هذا قَتلٌ بيِّن، وهناك مُترقَّب؛ ف« نكرا » أبلغ . وقالت فرقة : هذا قَتلُ واحدٍ وذاك قتلُ جماعة ف« إمرا » أبلغ . قال ٱبن عطية : وعندى أنهما لمعنيين وقوله : « إِمْرًا » أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و« نُكْرًا » بيّن فى الفساد لأن مكروهه قد وقع ؛ وهذا بيّن . قوله : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم ، وأحقّ الشروط أن يُوفَّى به ما التزمه الأنبياء ، والتزم للأنبياء . وقوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ يدل على قيام الاعتـذار بالمرة الواحدة مطلقا ، وقيام الحجـة من المرة الثانية بالقطع ؛ قاله ٱبن العربى . ٱبن عطية : ويشـبه أن تكون هـذه القصة أيضا أصلا للآجال فى الأحكام التى هى ثلاثة ، وأيام المتلوم ثلاثة ؛ فتأمله .

قوله تعالى : «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أى تتابعنى . وقرأ الأعرج «تَصَحَبَنِّي» بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرئ « تَصْحَبْنِي » أى تتبعنى . وقرأ يعقوب «تُصْحِبْنِي» بضم التاء وكسر الحاء؛ ورواها سهل عن أبى عمرو؛ قال الكسائى : معناه فلا تتركنى أصحبك . « قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » أى بلغت مبلغا تُعـذر به فى ترك مصاحبتى . وقرأ الجمهور : « مِنْ لَدُنِّي » بضم الدال ، إلا أن نافعا وعاصما خفَّفا النون، فهى « لدن » ٱتصلت بهـا ياء

المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكُسر ما قبل اليـاء كما كُسر في هـذه . وقرأ أبو بكر عن عاصم «لَدْنِي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون . وروى عن عاصم «لُدْنِي» بضم اللام وسكون الدال ؛ قال ابن مجاهد : وهي غلط؛ قال أبو علي : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ، فأما على قياس العربيـة فهي صحيحة . وقرأ الجمهور «عُذْراً» . وقرأ عيسى «عُذُرا» بضم الذال . وحكى الداني (١) أن أبيًّا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «عُذْرِي» بكسر الراء وياء بعدها .

مســـئلة — أسند الطبريّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه، فقال يوما : "رحمـة الله علينا وعلى موسى لو صَبَر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»" . والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحمـة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامة ولو صَـبَر لرأى العجب" قال : وكان إذا ذَكَر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أخي كذا . وفي البخاري عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "يرحم الله موسى لوددْنا أنه صَـبَر حتى يقص علينا من أمرهما" . الذَّمامة بالذال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذال وكسرها ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مَذَمَّة ومَذِمَّة وذَمَامة . وكأنه ٱستحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

قوله تعـالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْـلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَـا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَـا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

(١) في بعض النسخ : « وحكى الداراني » .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ فى صحيح مسلم عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : لئاما؛ فطافا فى المجالس فـ ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقول : مائل قال : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ الخضر بيده قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيّفونا، ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله موسى لوَدِدْتُ أنه كان صَبَرَ حتى يقصّ علينا من أخبارهما " .

الثانيــة — واختلف العلماء فى القرية؛ فقيل : هى أُبُلَّة؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد ابن سيرين، وهى أبخل قرية وأبعدها من السماء . وقيل : أَنْطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس؛ روى ذلك عن أبى هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء . وقالت فرقة : هى بَاجَرْوان وهى بناحية أَذْرَبيجان . وحكى السهيلىّ وقال : إنها برقة . الثعلبى : هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى؛ وهذا كله بحسب الخلاف فى أى ناحية من الأرض كانت قصة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثــة — كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتى شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ٱبتداء، وفى القرية سألا القوت؛ وفى ذلك للعلماء انفصالات كثيرة؛ منها أن موسى كان فى حديث مَدْين منفردا وفى قصة الخضر تبعا لغيره .

قلت : وعلى هذا المعنى يتمشى قوله فى أوّل الآية لفتاه « آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع؛ والله أعلم .

وقيل : لما كان هذا سفر تأديب وُكِل إلى تكلّف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت .

الرابعــة — فى هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردّ جوعه خلافا لجهال المتصوفة . والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة،

بدليل قوله : « فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » فآستحق أهـل القرية لذلك أن يُذَمّوا ، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة في هـذه الآية : شر القُرَى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقّـه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبـة ، وأن الخضر وموسى إنمـا سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهـذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء . وقد تقدّم القول في الضيافة في «هود»(١) والحمد لله . ويعفو الله عن الحريري(٢) حيث آستخف في هذه الآية وتمجّن، وأتى بخطل من القول وزلّ ؛ فآستدل بها على الكُدْيَة(٣) والإلحاح فيها ، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال :

وإنْ رُدِدْتَ فمـا في الردِّ مَنقصةٌ * عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قلت : وهـذا لعب بالدين، وآنسلال عن آحترام النبيين، وهي شِنْشِنَة أدبية، وهفوة سخافية؛ ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا : مهما كنت لاعبا بشيء فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسـة — قوله تعالى : « جِدَارًا » الجدار والجَدْر بمعنًى؛ وفي الخبر : "حتى يبلغ المـاء الجدر"(٤) . ومكان جَدِيرٌ بُنِيَ حواليه جدار ، وأصله الرفع . وأجدرت الشجرةُ طلعت؛ ومنه الجدريّ .

السادسـة — قوله تعالى : «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحـديث بقوله : "مائل" فكان فيه دليـل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور . وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحيّ الناطق متى أسـندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي آستعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير؛ فمن ذلك قول الأعشى :

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو صاحب المقامات المشهورة، والبيت الآتي الذي لمح فيه إلى الآية من مقامته « الصعدية » .

(٣) الكدية : تكفف الناس .

(٤) الحديث في مخاصمة الزبير لرجل من الأنصار في سيول شريج الحرّة فقال صلى الله عليه وسلم : "آسق يا زبير ثم آحبس المـاء حتى يرجع إلى الجدر" أراد ما رفع حول المزرعة كالجدار .

أَتَنْتَهون ولا يَنْهَى ذَوِى شَــطَطٍ[1] * كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ

فأضاف النهى إلى الطعن . ومن ذلك قول الآخر :

يُرِيــدُ الرمحُ صــدر أَبِى بَرَاءٍ * ويرغبُ عن دماء بنى عقيـل

وقال آخر :

إنّ دهرا يُلُفّ شَمْلِى بِجُمْلٍ * لَزَمانٌ يَهُـمُّ بالإحسان

وقال آخر :

فى مهمــه فُلِقت به هاماتُهـا * فَلْقَ الفئُوس إذا أردن نُصُـولَا

أى ثبوتا فى الأرض ؛ من قولهم : نَصَـل السيفُ إذا ثَبَت فى الرميّـة ؛ فشبّه وقع السيوف على رءوسهم بوقـع الفئوس فى الأرض، فإن الفأس يقـع فيها ويثبت لايكاد يخرج . وقال حسان بن ثابت :

لَوَ أنَّ اللُّؤمَ يُنسبُ كان عَبْــدًا * قبيـحَ الوجهِ أَعْوَرَ من ثَقِيف

وقال عَنْــتَرة :

فَٱزْوَرَّ من وَقْعِ القَنـا بِلَبَانهِ * وشَكَا إلىّ بعَـبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

وقد فسّر[2] هذا المعنى بقوله :

* لوكان يَدْرى ما المُحَاوَرةُ ٱشتكَى *

وهذا فى هـذا المعنى كثير جدا . ومنـه قول الناس : إن دارى تنظر إلى دار فلان . وفى الحـديث : "ٱشتكت النارُ إلى ربّها" . وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن ، منهم أبو إسحق الإسْفَراينى وأبو بكر محمـد بن داود الأصبهانى وغيرهمـا ، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حمـله على الحقيقة أولى بذى الفضـل والدِّين ؛ لأنه يقصّ الحق كما أخبر الله تعالى فى كتابه . وممـا ٱحتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز

---

(١) الشطط : الجور والظلم؛ يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن الجائف الذى يغيب فيه الفتل .

(٢) أى عنترة، وتمـام البيت :

* ولكانَ لو عَلِم الكلامَ مُكلّمِى *

أيضا ، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضى العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال تعالى : « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » وقال تعالى : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » وقال تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى » و "اشتكت النار إلى ربها" "واحتجت النار والجنة" وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذى أنطق كل شيء أنطقها . وفى صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه انطقى فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك لِيُعذِر(١) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يَسخط الله عليه". هذا فى الآخرة . وأمّا فى الدنيا ؛ ففى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لا تقومُ الساعةُ حتى تكلم السباع الإنسَ وحتى تُكلِّم الرجلَ عذَبةُ سَوْطِهِ وشراكُ نعله وتُخبره فخذُه بما أَحدثَ أهلُهُ من بعده " [قال أبو عيسى](٢) : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة — قوله تعالى : « فَأَقَامَهُ » قيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فقال موسى للخضر : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » لأنه فعلٌ يستحق أجرا . وذكر أبو بكر الأنبارى عن ابن عباس عن أبى بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه » قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جارٍ من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير](٣) قرآن فى موضع فسَرى أن ذلك قرآن نَقصَ من مصحف عثمان ؛ على ما قاله بعض الطاعنين . وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء . وفى بعض الأخبار : إن سُمْك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، فأقامه الخضر

---

(١) ليعذر : بالبناء للفاعل من الإعذار ، والمعنى : ليزيل الله عذره من قبل نفسه .

(٢) الزيادة من صحيح الترمذى .　　(٣) زيادة يقتضيها السياق . وفى الأصل : «أدخل قرآنا ... الخ»

عليه السلام أى سوّاه بيده فآستقام؛ قاله الثعلبى فى كتاب « العرائس » . فقال موسى للخضر: « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى طعاما تأكله ، ففى هذا دليل على كرامات الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام فى هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة ؛ هذا إذا تنزلنا على أنه ولىّ لا نبىّ .

وقوله تعالى : «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى» يدل على نبوّته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول؛ والله أعلم .

الثامنة — واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع فى المشى إذا كان مارا عليه؛ لأن فى حديث النبى عليه الصلاة والسلام "إذا مرّ أحدكم بطِرْبالٍ مائل فليُسرِع المشى" . قال أبو عبيد القاسم بن سلام : كان أبو عبيدة يقول : الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة، والبناء المرتفع؛ قال جرير :

أَلْوَى بها[1] شَذْبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ[2] * فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ

يقال منه : وَكَن يَكِن إذا جلس . وفى الصحاح : الطِّرْبال القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطَرابيل الشام صوامعها . ويقال : طَرْبل بَوْلَه إذا مدّه إلى فوق .

التاسعة — كرامات الأولياء ثابتة، على مادلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء — على ما تقدم — وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيّة؛ على الخلاف . ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار . قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال كان نبيا؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

(١) ألوى : ذهب بها حيث أراد .

(٢) شذب العروق : ظاهر العروق لقلة اللحم، من قولهم : رجل مشذب أى خفيف قليل اللحم .

الآحاد، لاسيما وقد روى من طريق التواتر — من غير أن يحتمل تأويلا — بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام: "لا نبيّ بعدى" وقال تعالى: «وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» والخضر و[إلياس][1] جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، إلا ما قامت الدلالة فى حديث عيسى أنه ينزل بعده.

قلت: الخضر كان نبيا — على ما تقدم — وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، أى يدعى النبوّة بعده أبدا؛ والله أعلم.

العاشـرة — اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ أم لا؟ على قولين: أحدهما — أنه لا يجوز؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرا واستدراجا له؛ وقد حكى عن السّرىّ أنه كان يقول: لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح: السلام عليك يا ولىّ الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولىّ لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن. ومن شرط الولىّ أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا» ولأن الولىّ من كان مختوما له بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدرى أحد ما يختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالخواتيم".

القول الثانى — أنه يجوز للولىّ أن يعلم أنه ولىّ؛ ألا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولىّ، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولىّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك. وقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام من حال العَشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن فى ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبة؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم. وكان الشبلىّ يقول: أنا أَمَانُ هـذا الجانب؛ فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، وآستولوا على بغداد، ويقول الناس: مصيبتان موت الشبلىّ وعبور الديلم. ولا يقال: إنه يحتمل أن يكون ذلك آستدراجا لأنه

(١) فى الأصل: «دانيال» وهو تحريف.

لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ وولى الله، لجواز أن يكون ذلك آستدراجا، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات . وما روى من ظهور الكرامات على يدى بلعام وآنسلاخه عن الدين بعدها لقوله : «فانسلخ منها» فليس فى الاية أنه كان وليا ثم آنسلخت عنه الولاية . وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجرى مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم ؛ والله أعلم . والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الأستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار . وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى ، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك . وقد تقدم فى مقدّمة الكتاب شرائط المعجزة ، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له . وأما الأحاديث الواردة فى الدلالة على ثبوت الكرامات ، فمن ذلك ما خرجه البخارى من حديث أبى هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رَهْط سَرِيَّةً عَيْنًا وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصارىّ[1] وهو جدّ[2] عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأَة وهى بين عُسفان ومكة ذُكروا لحىّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا إليهم قريبا من مائتى راجل كلهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا : هذا تمر يثرب ؛ فآقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدْفَد[3]، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: آنزلوا فاعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة : أما فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيّك، فرَمَوا بالنّبل فقتلوا عاصما فى سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خُبَيْب الأنصارىّ وآبن الدَّثِنة ورجل آخر[4]، فلما آستمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث : هذا أوّل الغدر ! والله لا أصحبكم ؛ إن لى فى هؤلاء لأسوة — يريد القتلى — بجزروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه؛ فانطلقوا بخُبيب وآبن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذى قتل الحرث بن

(١) وقيل : أمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى . (٢) قال القسطلانى : هذا وهم ؛ وإنما هو خال عاصم ؛ لأن أم عاصم جميلة بنت ثابت . (٣) فدفد : رابية مشرفة . (٤) الرجل الآخر هو عبد الله بن طارق .

عام يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيرا ؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين آجتمعوا آستعار منها موسى يَسْتحدُّ بها فأعارته ،فأخذ آبنٌ لى وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته مجلسَه على فخذه والموسى بيده ، ففزعتُ فزعة عرفها خُبيب فى وجهى ؛ فقال : أتخشَيْن أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيرا قطّ خيرا من خُبيب ؛ والله لقد وجدته يوما يأكل قِطْف عنب فى يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر ؛ وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله تعالى خُبيبا ؛ فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحلّ قال لهم خُبيب : دعونى أركع ركعتين ؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع من الموت لزدت ؛ ثم قال : اللهمَّ أَحْصِهِم عددا ، وآقتلهم بَدَدًا ، ولا تُبْق منهم أحدا ؛ ثم قال :

ولست أبالى حين أُقْتَلُ مُسْلِماً * على أىِّ شِقٍّ كان لله مَصْرَعِى
وذلك فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ * يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله بنو الحرث ، وكان خُبيب هو الذى سنّ الركعتين لكل آمرئ مسلم قُتل صَبْراً ؛ فآستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب ؛ فأُخبر النبىّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا . وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم حين حُدّثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرفونه ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ؛ فبعث الله على عاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْر[1] فحمته من رُسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا . وقال ابن إسحق فى هذه القصة : وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد ، وقد كانت نذرت حين أصاب آبنيها بأُحُد لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربنّ فى قِحْفِه[2] الخمر فمنعهم الدَّبْر ، فلما حالت بينه وبينهم قالوا : دعوه حتى يُمسى فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تعالى الوادى فاحتمل عاصما فذهب ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألّا يمسّ مشركا ولا يمسّه مشركٌ أبدا فى حياته ، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما آمتنع منه فى حياته . وعن عمرو بن أمية الضَّمْرىّ :

---

(١) الدبر : الزنابير أو ذكور النحل . (٢) القحف : الجمجمة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عينا وحده فقال : جئت إلى خشبة خُبَيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته ، فوقع فى الأرض ، ثم آقتحمت فانتبذت قليلا ، ثم آلتفت فكأنما آبتلعته الأرض . وفى رواية أخرى زيادة : فلم نذكر لخبيب رِمّة حتى الساعة ؛ ذكره البيهقى .

الحادية عشرة — ولا ينكر أن يكون للولى مال وضَيْعة يصون بها ماله وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابة آسق حديقةَ فلان فتنحّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه فى حَرّة[1] فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراج قد آستوعبت ذلك الماء كلّه فتتبع الماءَ فإذا رجلٌ قائم فى حديقته يُحوِّل الماءَ بمسحاته[2] فقال يا عبد الله ما آسمك قال فلان الاسم الذى سمعه فى السَّحابة فقال له يا عبد الله لم سألتنى عن آسمى قال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول آسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأرد فيها ثلثه " وفى رواية " وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وآبن السبيل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا الضَّيْعة فتركنوا إلى الدنيا " خرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه محمول على من آتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها ، وأما من آتخذها معاشا يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهى من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " . وقد أكثر الناس فى كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

الثانية عشرة — قوله تعالى : « لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهى سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتى بيانه فى سورة « القصص »[3] إن شاء الله تعالى . وقرأ الجمهور « لَاتَّخَذْتَ » وأبو عمرو « لَتَخِذْتَ » وهى قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة ، وهما

---

(١) حرة : أرض ذات حجارة سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) المسحاة : المجرفة من الحديد.
(٣) فى تفسير قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت آستأجره ... الخ » آية ٢٦

لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك : تَبِع واتّبع، وتَقى واتّقى. وأدغم بعض القراء الذال في التاء، ولم يدغمها بعضهم . وفي حديث أبيّ بن كعب : لو شئت لأوتيت أجرا . وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » بحكم ما شرطت على نفسك. وتكريره « بيني وبينك » وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد . قال سيبويه : كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منّا . وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق. وقال وهب بن مُنَبِّه : كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » تأويل الشيء مآله ؛ أي قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ . وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجّة على موسى ، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !

قوله تعالى : أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ آستدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى فى سورة « براءة »(١) . وقد قيل : إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قلّة فى لجة بحر، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عبّر عنهم بمساكين؛ إذ هم فى حالة يُشفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقول لرجل غنيّ وقع فى وَهْلَة أو خَطْب : مسكينٌ . وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم ؛ خمسة زَمْنَى، وخمسة يعملون فى البحر . وقيل : كانوا سبعة لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر . وقد ذكر النقاش أسماءهم ؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما، والثانى أعور، والثالث أعرج ، والرابع آدَر ، والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم ؛ والخمسة الذين لا يطيقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيه ما بين فارس والروم ؛ ذكره الثعلبى . وقرأت فرقة : « لِمَسَّاكِينَ » بتشديد السين ، وآختلف فى ذلك فقيل : هم مَلَّاحو السفينة، وذلك أن المسّاك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مسّاكين . وقالت فرقة : أراد بالمسّاكين دبغة المُسُوك وهى الجلود واحدها مَسْك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها : إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى أجعلها ذات عيب، يقال : عِبتُ الشيء فعاب إذا صار ذا عَيب، فهو معِيب وعائب . وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير « صحيحةٍ » وقرأ أيضا آبن عباس وعثمان بن عفان «صالحةٍ» . و «وراء» أصلها بمعنى خلف؛ فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى «وراء» هنا أمام؛ يعضُده قراءة آبن عباس وآبن جبير «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا» . قال ابن عطية : « وراءهم » هو عندى على بابه؛ وذلك

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحدث المقدّم الموجود هو الأمام، والذى يأتى بعده هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادى الرأى، وتأمل هذه الألفاظ فى مواضعها حيث وردت تجـدها تطرد ، فهـذه الآية معناها : إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتى بعده فى الزمان غصب هذا الملك؛ ومن قرأ «أمامهم» أراد فى المكان، أى كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليـه الصلاة والسـلام : " الصلاةُ أمامك "(١) يريد فى المكان، وإلا فكونهم فى ذلك الوقت كان أمام الصلاة فى الزمان؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ؛ ووقع لقتادة فى كتاب الطبرى «وكان وراءهم ملك» قال قتادة : أمامهم ألا تراه يقول : مِن « ورائِهم جهنم » وهى بين أيديهم؛ وهذا القول غير مستقيم، وهذه هى العجمة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضجّ منها؛ قاله الزجاج .

قلت : وما ٱختاره هـذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك ٱبن عرفة؛ قال الهَروى: قال ٱبن عرفة : يقول القـائل كيف قال «من ورائه» وهى أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علىّ قُطْرُب أن هـذا من الأضداد، وأن وراء فى معنى قدام، وهـذا غير محصّل ؛ لأن أمام ضد وراء، وإنمـا يصلح هـذا فى الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال : ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيرى وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك؛ قال الفراء : وجوزه غيره؛ والقوم ما كانوا عالمين بخـبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيّب السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال المـاوردىّ : ٱختلف أهل العربية فى ٱستعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز ٱستعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : «وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» أى من أمامهم : وقال الشاعر(٢) :

أَترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِى وطاعَتى * وقَوْمِى تَمِيمٌ والفَـلَاةُ وَرَائِيَـا

---

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمامى . والثـانى — أن وراء تستعمل فى موضع أمام فى المواقيت والأزمان لأن الإنسان يَجُـوزها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثـالث — أنه يجـوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها؛ وهذا قول على بن عيسى . واختلف فى اسم هـذا الملك فقيـل : هُدَد بن بُدَد . وقيـل : الجَلَنْدى؛ وقاله السهيلى . وذكر البخارى آسم الملك الآخذ لكل سفينة غصبا فقال : هو [هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول] آسمه جَيْسور، وهكذا قيدناه فى «الجـامع» من رواية يزيد المَرْوزىّ، وفى غير هذه الرواية حَيْسور بالحاء وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حَيْسون . وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصبا فلذلك عابها الخضر وخرقها؛ ففى هـذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المـال بإفساد بعضه ، وقد تقدّم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قـوله : فإذا جاء الذى يسـخرها وجدها منخرقة فتجاوزَها، فأصلحوها بخشبة؛ الحديث . وتحصّل من هذا الحضّ على الصبر فى الشدائد، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء فى صحيح الحـديث : "أنه طُبع يوم طُبع كافرا" وهذا يؤيّد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغا؛ وقد تقـــدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذى يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين؛ أى خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وكان الله قد أباح له الآجتهاد فى قتل النفوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبّر الخضر؛ قال الطبرىّ : معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أى فعلمنا، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أُبيًّا قرأ « فَعَلِمَ ربك» . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة؛ يقال : فرّقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أى كراهة

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها ٱستعارة، أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود «نخاف ربك» وهذا بين فى الآستعارة، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترجٍّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون . و «يرهقهما» يجشّمهما ويكلّفهما؛ والمعنى أن يلقيهما حبُّه فى آتّباعه فيضلّا ويتدينا بدينه .

قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال. وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال؛ أى أن يرزقهما الله ولدا . ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ أى دينا وصلاحا؛ يقال : بدّل وأبدل مثل مهّل وأمهل ونزّل وأنزل . ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ قرأ ابن عباس «رُحُماً» بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ * ومنها اللِّينُ والرُّحُمُ

الباقون بسكونها؛ ومنه قول رُؤْبَة بن العجّاج :

يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إدريسَا * ومُنْزِلَ اللَّعْنِ على إبليسَا

وآختلف عن أبى عمرو . و « رحما » معطوف على « زكاة » أى رحمة؛ يقال : رَحِمه رحمة ورحما؛ وألفه للتأنيث، ومذكره رُحْم . وقيل : الرُّحم هنا بمعنى الرِّحم؛ قرأها آبن عباس «وأَوْصَلَ رُحْماً» أى رَحِما ، وقرأ أيضا «أزكى منه» . وعن آبن جبير وآبن جريج أنهما بُدِّلا جارية؛ قال الكلبي فتزوّجها نبيّ من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . قتادة : ولدت آثنى عشر نبيا . وعن ابن جريج أيضا أنّ أمّ الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وعن آبن عباس : فولدت جارية ولدت نبيا ؛ وفى رواية : أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبيا؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تُعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم ؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلّم للقضاء

أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل آمرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا يُتْم بعد بلوغ " هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما آسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم[1] أن اليتم فى الناس من قِبل فقد الأب ؛ وفى غيرهم من الحيوان من قبل فَقْد الأم . ودل قوله : « فى المدينة » على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث " أُمِرتُ بقرية تأكل القُرَى "[2] وفى حديث الهجرة "لمن أنت" فقال الرجل : من أهل المدينة ؛ يعنى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ آختلف الناس فى الكنز ؛ فقال عِكرمة وقتادة : كان مالا جسيما[3] وهو الظاهر من آسم الكنز إذ هو فى اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول فيه . وقال ابن عباس : كان عِلما فى صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة ، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دِنْيَةً[4] . وقيل : هو الأب السابع ؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : العاشر فحُفِظا فيه وإن لم يُذْكَر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشحا ؛ قاله مقاتل . وآسم أمهما دنيا[5] ؛ ذكره النقاش . ففيه ما يدل على أن الله تعالى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية . (٢) القرية هى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدى أهلها من المدن ، و يصيبون من غنائمها . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٤) دنية : لحا ، وهو الأب الأقرب . (٥) فى روح المعانى : دهنا .

يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده وإن بعدوا عنه . وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ يقتضى أن الخضر نبي ؛ وقد تقدم الخلاف فى ذلك . ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أى تفسير . ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قرأت فرقة «تَسْتَطِعْ» . وقرأ الجمهور «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم : كذا نقرأ كما فى خط المصحف . وهنا خمس مسائل :

الأولى — إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر فى أول الآية ولا فى آخرها ، قيل له : ٱختلف فى ذلك؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلّد، وأخذه العالم فطبّق عليه سفينة ثم أرسله فى البحر ، وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه . قال القشيرى : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون؛ فإن يوشع بن نون قد عُمّر بعد موسى وكان خليفته؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر . وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون ٱكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانيــة — إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال فى خرق السفينة : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة فى الجدار إلى الله تعالى لأنها فى أمر مستأنف فى زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريده . وقيل : لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأسند الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما

قال تعالى: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» وٱقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شىء قدير، وهو بكل شىء خبير . ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى وٱستطعمتُك فلم تُطعمنى وٱستسقيتك فلم تَسقنى » فإن ذلك تَنزُّلٌ فى الخطاب، وتلطُّف فى العتاب، مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال، و بمقادير ثواب هذه الأعمال . وقد تقدّم هذا المعنى . والله تعالى أعلم . ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة . جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا . وقال فى الغلام : « فأردنا » فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى . والأشد كمال الْخَلْق والعقل . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »(1) والحمد لله .

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم . وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، و يعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما ٱتفق للخضر، فإنه ٱستغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفُهوم . وقد جاء فيما ينقلون : ٱستفت قلبك وإن أفتاك المُفْتون . قال شيخنا رضى الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما عُلم من الشرائع؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه و بين خلقه، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه؛ ٱختارهم لذلك، وخصّهم بما هنالك؛ كما قال تعالى : « اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

(1) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » وقال تعـالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[(١)] » وقال تعالى : « كَانَ النَّـاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغني عن الرسل فهـو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معـه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيّ بعده ولا رسول . وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوّة، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : " إن روح القدس نَفَثَ في رَوْعي " الحديث .

الرابعـــة ــ ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقـة : حيّ لأنه شرب من عين الحيـاة، وأنه باق في الأرض، وأنه يحـج البيت . قال ابن عطيـة : وقد أطنب النقّاش في هـذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليّ ابن أبي طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الإسـلام ظهور؛ والله العليم بتفاصيل الأشـياء لا ربّ غيره . وممـا يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة السلام : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ " .

قلت : إلى هـذا ذهب البخاري واختاره القاضي أبو بكر بن العربي؛ والصحيح القول الثاني وهو أنه حيّ على ما نذكره . والحديث خرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلّم قام فقال : " أرأيتكم ليلتكم هـذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ "

(١) في الأصل : «رسالاته» وهي قراءة نافع التي كان يقرأ بها المفسر .

قال ٱبن عمر : فوَهَلَ[1] الناسُ فى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدّثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام : "لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد" يريد بذلك أن يَنْخَرِم ذلك القَرْن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : "تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة[2] تأتى عليها مائة سنة" وفى أخرى قال سالم : تذاكرنا أنها "هى مخلوقة يومئذ" . وفى أخرى : "ما من نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ" . وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال : نقص العمر . وعن أبى سعيد الخدرى نحو هذا الحديث . قال علماؤنا : وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بنى آدم موجودا فى ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : "ما من نفس مَنْفوسة" وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك ، ولا الحيوان غير العاقل ؛ لقوله : "ممن هو على ظهر الأرض أحد" وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل ، فتعين أن المراد بنو آدم . وقد بين ٱبن عمر هذا المعنى ؛ فقال : يريد بذلك أن يَنْخَرِم ذلك القَرْن . ولا حجة لمن ٱستدل به على بطلان قول من يقول : إن الخضر حى لعموم قوله : "ما من نفس منفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكّد الاستغراق فليس نَصًّا فيه ، بل هو قابل للتخصيص ، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام ، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حىّ بنص القرآن ومعناه ، ولا يتناول الدجال مع أنه حىّ بدليل حديث الجَسّاسة[3] ، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهدا للناس ، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضا ، فمثل هذا العموم لا يتناوله . وقد قيل : إن أصحاب الكهف أحياء

---

(١) وهل إلى الشيء كضرب ؛ أى غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب ، والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهم غلطوا وذهب وهمهم إلى خلاف الصواب فى تأويل مقالة النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول : تقوم الساعة عند ٱنقضاء مائة سنة ؛ فبين ٱبن عمر مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن . ويجوز وهل كتعب . (٢) منفوسة : مولودة . (٣) الجساسة : دابة الأرض التى تخرج آخر الزمان ، وسميت جساسة لتجسسها الأخبار للدجال .

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تقدّم . وكذلك فتى موسى فى قول ابن عباس كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبي فى كتاب «العرائس» له : والصحيح أن الخضر نبيّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] عن عبد الله بن [شوذب] (١) قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس، وإلياس من بنى إسرائيل يلتقيان كل عام فى الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر وإلياس لا يزالان حيين فى الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى اللخمى فى شرح الرسالة له للقشيرى حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما . وقد جاء فى صحيح مسلم : " أن الدجال ينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس — أو — من خير الناس " الحديث؛ وفى آخره قال أبو إسحق : يعنى أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الهواتف » بسند يوقفه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه لقى الخضر وعلمه هذا الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله فى أثر كل صلاة، وهو : يامن لا يشغله سمع عن سمع ، ويامن لا تغلطه المسائل، ويامن لا يتبرم من إلحاح الملحين، أذقنى بَرْد عفوك، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الدعاء بعينه نحوا مما ذكر عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى سماعه من الخضر . وذكر أيضا اجتماع إلياس مع النبى عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت فى كل حول، وأنهما يقولان عند افتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس فيأتى فى « والصافات » (٢) إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر

---

(١) الزيادة والتصويب من « عقد الجمان » للعينى نقلا عن الثعلبي . وفى الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل من عبد الله بن سوار » .　　(٢) فى تفسير قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » آية ١٢٣ .

آبن عبد البر فى كتاب « التمهيـد » عن على رضى الله تعالى عنه قال : لمـا توفى النبى صلى الله عليه وسلم وسُجِّى بثوب هتف هاتف من ناحيـة البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السـلام عليكم أهل البيت ، «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» — الآية — إن فى الله خَلَفًا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعَزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليـه الصلاة السلام . يعنى أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام . والألف واللام فى قوله : "على الأرض" للعهـد لا للجنس وهى أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها و إليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقاصى جزر الهنـد والسند ممـا لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلَم علمه . ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلى : وآختلف فى آسم الخضر اختلافا متباينا ؛ فعن آبن منبه أنه قال : أَبْلَيا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح . وقيـل : هو آبن عاميل بن سماحين آبن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحق، وأن أباه كان مَلِكا، وأن أمه كانت بنت فارس وآسمها ألمى، وأنها ولدته فى مغارة، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربّاه ، فلمـا شَبَّ وطلب الملِكُ — أبوه — كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التى أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممن أقدم عليه من الكتّاب آبنه الخضر وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطه ومعرفته، وبحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس، ثم إن الخضر فرّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها، فهو حىّ إلى أن يخرج الدجال، وأنه الرجل الذى يقتله الدجال و يقطعه ثم يحييه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى : إنه مات قبل آنقضاء المـائة، من قوله عليه الصلاة والسلام : "إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد" يعنى من كان حيا حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبيّنا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم .

الخامســة — قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني؛ قال : كن بسّاما ولا تكن ضحّاكا، ودع اللّجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم، وآبك على خطيئتك يا ٱبن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ قال ابن إسحق : وكان من خبر ذى القرنين أنه أوتى ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سُلِّط على أهلها ، حتى ٱنتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدّثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندر،

وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليه . قال ابن إسحق : وقد حدّثنى ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعىّ — وكان خالد رجلا قد أدرك الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " . وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غَفْرا أما رضيتم أن تُسَمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال علىّ : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عَبْد ملِك (بكسر اللام) صالحٌ نصح اللهَ فأيّده . وقيل : هو نبىّ مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الدارقطنىّ فى كتاب الأخبار أن ملكا يقال له رباقيل[1] كان ينزل على ذى القرنين، وذلك الملك هو الذى يطوى الأرض يوم القيامة ، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة[2]؛ فيما ذكر بعض أهل العلم . وقال السهيلىّ : وهذا مشاكل بتوكيله بذى القرنين الذى قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان فى تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكل بها، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبى خَيْثَمة فى كتاب البدء له خالد بن سِنان العبسىّ وذكر نبوّته، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوّته أن نارا يقال لها نار الحدثان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . واختلف فى اسم ذى القرنين وفى السبب الذى سمى به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليونانى المقدونى ، وقد تشدّد قافه فيقال : المقّدونى . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى قصص الأنبياء للثعلبى « رفائيل » وفى الدر المنثور « زرافيل » .

(٢) الساهرة : أرض يجدّدها الله يوم القيامة .

ابن ذى يزن الحميرى من ولد وائل بن حمير؛ وقد تقدّم قول ابن إسحق . وقال وهب بن منبه : هو رومى . وذكر الطبرى حديثا عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم . وهو حديث واهى السّند؛ قاله ابن عطية . قال السُّهيلى : والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما – كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال : إنه الذى قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام . والآخر – أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام . وقيل : إنه أفريدون الذى قتل بيوراسب بن أروندasب الملك الطاغى على عهد إبراهيم عليه السلام ، أو قبله بزمان . وأما الاختلاف فى السبب الذى سمّى به ، فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمى بهما ؛ ذكره الثعلبى وغيره . والضفائر قرون الرأس؛ ومنه قول الشاعر[1] :

فَلَثِمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا * شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس ، فسمى بذلك ذا القرنين . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرنى الدنيا . وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمى بذلك ذا القرنين ؛ أو قرنى الشيطان بها . وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته . وسأل ابن الكَوّاء عليا رضى الله تعالى عنه عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ فقال : لا ذا ولا ذا ، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنه ، ثم دعاهم فشجّوه على قرنه الآخر، فسمى ذا القرنين . واختلفوا أيضا فى وقت زمانه ، فقال قوم : كان بعد موسى . وقال قوم : كان فى الفترة بعد عيسى . وقيل : كان فى وقت إبراهيم وإسمعيل . وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم ؛ وقد ذكرناه فى « البقرة »[2] . وبالجملة فإن الله تعالى مكّنه وملّكه ودانت له الملوك ، فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها

---

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ؛ والنزيف : المحموم الذى منع من الماء، والسكران . والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو، والكوز الصغير اللطيف أيضا .	(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر؛ وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهدىّ . وقد قيل : إنما سمى ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه آنقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حىّ . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : سخر له السحاب ، ومُدّت له الأسباب، وبُسط له فى النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفى حديث عقبة ابن عامر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذى القرنين فقال : "إن أوّل أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له آنظر ما تحتك قال أرى مدينتى وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذى تراه محيطا بها هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فَسِرْ فى الأرض فعلِّم الجاهل وثبِّت العالم" الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال آبن عباس : من كل شىء علما يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شىء . ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قرأ آبن عامر وعاصم وحمزة والكسائى «فَأَتْبَعَ سَبَبًا» مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «فَٱتَّبَعَ سَبَبًا» بوصلها؛ أى آتبع سببا من الأسباب التى أوتيها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى؛ مثل ردِفته وأردفته، ومنه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ » ومنه الإتباع فى الكلام مثل حَسَنٌ بَسَنٌ وقَبِيح شَقِيح . قال النحاس : وآختار أبو عبيد قراءة

أهل الكوفة قال : لأنها من السَّيْر، وحكى هو والأَصْمَعيّ أنه يقال : تَبِعه وأَتْبَعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه؛ قال أبو عبيد : ومثله « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . قال النحاس : وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعلّة أو دليل . وقوله عز وجل : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه ٱنطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تَبِع وٱتّبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق وألّا يكون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ ٱبن عاصم وعامر وحمزة والكسائي « حامِيةٍ » أي حارّة . الباقون « حَمِئة » أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول : حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حَمْأَتها . وحَمِئت البئرُ حَمَأً (بالتحريك) كثرت حَمْأَتها . ويجوز أن تكون « حامِيةٍ » من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمْأة. وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : " نار الله الحامية لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " . وقال ابن عباس : أقرأنيها أُبَيّ كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم « في عين حَمِئَة »؛ وقال معاوية : هي « حامية » فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين؛ فجعلوا كعبا بينهم حَكَمًا وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا في التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيّ :

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِمًا * مَلِكًا تدين له الملوك وتَسْجُدُ
بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يبتغي * أسبابَ أمرٍ من حكيمٍ مُرْشِدِ
فرأى مَغِيبَ الشَّمْسِ عند غروبها * في عين ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ (١)

الخُلُب : الطين . والثأط : الحمأة . والحَرْمَد : الأسود . وقال القفّال قال بعض العلماء : ليس المراد أنه ٱنتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسّها؛ لأنها تدور

(١) حرمد (بالفتح والكسر) بجعفر وزبرج .

مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض، بل هى أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، بل المراد أنه آنتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض؛ ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم . وقال القتبى : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ؛ والله أعلم . ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند العين ، أو عند نهاية العين، وهم أهل جَابَرْس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا؛ يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح؛ ذكره السُّهيلى . وقال وهب آبن منبّه : كان ذو القرنين رجلا من الروم آبن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان آسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : ياذا القرنين! إنى باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف : أمتان بينهما طول الأرض كله، وأمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل؛ وأما الأخرى التى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فقال ذو القرنين : إلهى ! قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت؛ فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوّة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم ؟ وبأى لسان أناطقهم؟ فكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندى قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شىء، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحفظك الظلمة من ورائك؛ فلما قيل له ذلك سار بمن آتبعه، فآنطلق إلى الأمة التى عند مغرب الشمس؛ لأنها

كانت أقرب الأمم منه وهى ناسك، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة و بأسا لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواء مُتشتّتة، فكاثرهم بالظّلمة؛ فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم فى مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى و إلى عبادته، فمنهم من آمن به ومنهــم من كفر وصدّ عنــه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم و بيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنا؛ فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا فى دعوته، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جنــدا واحدا، ثم آنطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامهم يقوده و يدله، وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التى فى قطر الأرض الأيمن وهى هاو يل، وسخر الله تعــالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها فى ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكترث بحمــله، فانتهى إلى هاو يل وفعل بهم كفعــله بناسك فآمنوا، ففرغ منهــم، وأخذ جيوشهم وآنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى آنتهى إلى منسك عنــد مطلع الشمس، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله فى الأولى، ثم كرَّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاو يل، وهى الأمة التى تقابل هاو يل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها، ثم عطف إلى الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس و يأجوج ومأجوج، فلما كان فى بعض الطريق ممــا يلى منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحــة من الإنس : ياذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعــالى كثيرا ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم؛ يأكلون العشب، و يفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع، و يأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذى روح ممــا خلق الله تعــالى فى الأرض، وليس لله تعــالى خلق ينمو نمــاءهم فى العام الواحد، فإن طالت المــدة

فسيملئون الأرض، ويجلون أهلها، فهل نجعل لك خَرْجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ وذكر الحديث؛ وسيأتى من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ قال القشيرى أبو نصر : إن كان نبيا فهو وحى، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى . ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ قال إبراهيم بن السرى : خيّره بين هذين كما خيّر محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزجاج : المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس : وردّ على بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: «ثم يردّ إلى ربه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذبه» فيخاطب بالنون؟ قال : التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا ياذا القرنين . قال أبو جعفر النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شىء . أما قوله : « قلنا يا ذا القرنين » فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »، وأما إشكال « فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه » فإن تقديره أن الله تعالى لما خيّره بين القتل فى قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» وبين الاستبقاء فى قوله جل وعز : «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» قال لأولئك القوم : ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾أى أقام على الكفر منكم : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى بالقتل : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أى يوم القيامة : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾ أى شديدا فى جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى تاب من الكفر : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » قال : ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإمّا هو، كما قال :

فسيرا فإما حاجة تقضيانها ✽ وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ

﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و « الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة؛ أى له جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله :

«حقُّ اليقينِ» ، «ولدارُ الآخرةِ» ؛ قاله الفراء . ويحتمل أن يريد بـ «الحسنى» الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين ؛ أي أعطيه وأتفضل عليه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون «الحسنى» في موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحق «فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى» إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين «فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى» منصوبا منونا ؛ أي فله الحسنى جزاءً . قال الفراء : «جزاءً» منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال ؛ أي مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق «فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى» منصوبا غير منون . وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى» في أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاءَ الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تقدّم معناه أن أتبع وآتّبع بمعنى ، أي سلك طريقا ومنازل . ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وقرأ مجاهد وآبن محيصن بفتح الميم واللام ؛ يقال : طَلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعا ومطلَعا . والمطلَع والمطلِع أيضا موضع طلوعها ؛ قاله الجوهري . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾ . وقد آختلف فيهم ؛ فعن وهب بن منبه ما تقدّم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهي مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاويل ومنسك ؛ حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، ويتهارجون تهارج الحمر . وقيل : هم أهل جَابَلْق ، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ . ووراء جَابَلْق أمم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج . وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ؛ مرّ بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه ،

ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه؛ ذكره السهيلي وقال : آختصرت هذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الطبرى مسندا إلى مقاتل يرفعه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال قتادة : لم يكن بينهم و بين الشمس ستر؛ كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء، وهم يكونون فى أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم؛ يعنى لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . وقال أمية : وجدت رجالا بسمرقند يحدّثون الناس، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقيل لى : إن بينك و بينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينيهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبي يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشى علىّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما آرتفعت أدخلونى سربًا لهم، فلما آرتفع النهار وزالت الشمس عن رءوسهم خرجوا يصطادون السمك ، فيطرحونه فى الشمس فينضج . وقال آبن جريج : جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها : لاتطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا : مانبرح حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال : فولوا هاربين فى الأرض . وقال الحسن : كانت أرضهم لاجبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء، فإذا آرتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السّرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأَذْرَبيجان . روى عطاء الخراسانى عن ابن عباس : « بين السدين » الجبلين أرمينية وأَذْرَبيجان . ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ أى من ورائهما : ﴿ قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى « يُفْقِهُونَ » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أى لا يفقهون غيرهم كلاما . الباقون بفتح الياء والقاف ، أى يعلمون . والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ أى قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ . قال الأخفش : من همز « يأجوج » بجعل الألفين من الأصل يقول : يأجوج يَفْعول ومأجوج مَفْعول كأنه من أجيج النار . قال : ومن لا يهمز ويجعل الألفين زائدتين يقول : « ياجوج » من يَجَجت وماجوج من مَجَجت وهما غير مصروفين ؛ قال رؤبة :

لو أن ياجوجَ وماجوجَ معًا * وعادَ عادٌ واستجاشوا تُبَّعا

ذكره الجوهرى . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما آسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين؛ علتاهما فى منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب من أَجَّ وأَجَّجَ علتاه فى منع الصرف التعـريف والتأنيث . وقال أبو علىّ : يجـوز أن يكونا عربيين ؛ فمن همز « يأجوج » فهو على وزن يفعول مثل يربوع، من قولك أَجَّت النارُ أى ضويت، ومنه الأجيج، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مفعول من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مَجَّ، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه آسم للقبيلة . وآختلف فى إفسادهم؛ سـعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بنى آدم . وقالت فرقـة : إفسادهم إنما كان متوقعا، أى سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : " ولد لنوح سام وحام و يافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسـودان " . وقال كعب الأحبار : آحتلم آدم عليه السـلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسِف فخلقوا من ذلك المـاء، فهم متصلون بنا من جهـة الأب لا من جهـة الأم . وهذا فيه نظر ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل " . يعنى يأجوج ومأجوج . وقال أبو سـعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخـرج من صلبه ألف رجل ، ذكره القشيرى . وقال عبـد الله بن مسعود : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام : " يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف [أمة][1] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل

(١) الزيادة من الدر المنثور .

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح" قيل : يارسول الله صفهم لنا . قال : " هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأَرْز[1] — شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه و يلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه و يأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة و بيت المقدس " . وقال على رضى الله تعالى عنه : وصنف منهم فى طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحرّ والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السدّ حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان، فيقولون : ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون ، و يتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالنَّغَف[2] فى رقابهم . ذكره الغزنوى . وقال علىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " .

قلت : وقد جاء مرفوعا من حديث أبى هريرة ، خرجه ابن ماجه فى السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه و يخرجون على الناس فَيَنْشِفون الماء[3] و يتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدمُ[4] — الذى أحفظ — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نَغَفًا فى أقفائهم فيقتلهم بها " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَرُ شَكَرًا من لحومهم " قال الجوهرى

(١) الأرز: شجر الصنوبر . (٢) النغف (بالتحريك) : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة.
(٣) ينشفون الماء : أى ينزحونه . (٤) هذا من كلام الراوى . (هامش ابن ماجه) .

شَكِرت الناقةُ تَشكَرُ شَكَرًا فهي شكِرة ؛ وأشكر الضرع ٱمتلأ لبنا . وقال وهب بن منبه : رآهم ذو القرنين ، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخاليب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، وهم هُلْبٌ عليهم من الشعر ما يواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان ، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى ، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكرا ، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى . وقال السدى والضحاك : الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت فى هذا الجانب . قال السُّدى : بُنى السدّ على إحدى وعشرين قبيلة ، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك . وقاله قتادة .

قلت : وإذا كان هذا ، فقد نعت النبي صلى الله عليه وسلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر ويمشون فى الشّعر" فى رواية "ينتعلون الشّعر" خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحِدّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام : "ٱتركوا الترك ما تركوكم" . وقد خرج منهم فى هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى ، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم . وروى أبو داود عن أبى بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ينزل ناس من أمتى بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين — قال ابن يحيى قال أبو معمر — وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان فى آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء" . الغائط المطمئن من الأرض . والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة . وبنو قنطوراء هم الترك . يقال : إن قنطوراء ٱسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ولدت له أولادا جاء من نسلهم الترك .

قوله تعــالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَــلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب . « خَرْجًا » أى جعــلا . وقرئ « خراجا » والخرج أخص من الخراج . يقــال : أدِّ خَرْجَ رأسك وخَرَاجَ مدينتك . وقال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفىء، ويقع على الجزية، وعلى الغلة . والخراج اسم لمــا يخرج من الفرائض فى الأموال . والخرج : المصدر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى ردما؛ والردم ماجعل بعضه على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أى مرقع، قاله الهروى . يقال : ردمت الثلمة أردِمها بالكسر ردما أى سددتها . والردم أيضا الاسم وهو السدّ . وقيــل : الردم أبلغ من الســدّ إذ السدّ كل مايسدّ به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض . ومنــه قول عنترة :　　　* هل غادر الشعراء من متردَّمِ (1) *

أى من قول يُرَكَّب بعضه على بعض . وقرئ « سَــدًّا » بالفتح فى السين؛ فقــال الخليــل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد . وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ماكان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا «سَدًّا» بالفتح، وقبــله « بين السُّدَّيْنِ » بالضم ، وهى قراءة حمــزة والكسائى . وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ماقال أبو عبيدة . وقال ابن أبى إسحق : مارأته عيناك فهو سُــد بالضم، وما لا ترى فهو سَدّ بالفتح .

الثانيــــة ــ فى هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لمــا يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه .

---

(1) تمــامه :　　　* أم هل عرفت الدار بعــد توهم *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله تعالى لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان ؛ أى برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السدّ . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولو كلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج . وقرأ ابن كثير وحده «مَا مَكَّنَنِى» بنو نين . وقرأ الباقون « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى » .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم ، وسدّ فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التى تنىء عليهم ، وحقوقهم التى تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفذتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط : الأول — ألا يستأثر عليهم بشىء . الثانى — أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث — أن يسوّى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصْرَف بتدبير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكفّ عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » أى اخدموا بأنفسكم معى ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوّع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أعطونى زبر الحديد وناولونيها . أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التى بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للمناولة ،

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان . « وَزُبَرَ الْحَدِيدِ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبْرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . وزبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ردما آيتونى » من الإتيان الذى هو المجىء؛ أى جيئونى بزبر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر (١) :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ ... *

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زُبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها؛ وكل ذلك جمع زُبْرة وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى ﴾ يعنى البناء فحذف لقوة الكلام عليه . ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبا الجبل ، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس؛ كأنه يعرض عن الآخر؛ من الصدوف؛ قال الشاعر :

كِلَا الصَّدَفَين يَنْـفُذُهُ سَنَاهَا * تَوَقَّدُ مثـلَ مِصباحِ الظَّلَامِ

ويقال للبناء المرتفع صدف تشبيه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيد : الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصَّدَفان الجبلان المتناوحان (٢) ولا يقال للواحد صَدف، وإنما يقال صَدَفان للاثنين ؛ لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحمزة والكسائى « الصَّدَفَيْنِ » بفتح الصاد وشدّها وفتح الدال، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصُّدُفين » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصُّدْفَيْنِ » بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف، فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بين الصَّدْفَين » بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحان .

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى . والبيت بتمامه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٢) التناوح : التقابل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا ﴾ إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطـر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن آستوى العمل فصار جبلا صَلْدا . قال قتادة : هو كالبُرْد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يارسول الله ! إنى رأيت سـدّ يأجوج ومأجوج ، قال : "كيف رأيته" قال : رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد رأيتَه " . ومعنى « حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا » أى كالنار . ومعنى ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى أعطونى قطرا أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « ٱئتونى » فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليـه نحاسا . والقطر عنـد أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر المـاء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهـم آبن الأنبارى : الرصاص المذاب ؛ وهو مشتق من قَطَر يَقطُر قَطْرا . ومنه « وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما آستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام . وآرتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فـرسخ ، وفى عرضه خمسون فـرسخا ؛ قاله وهب بن منبـه . ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لبعـد عرضه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه" وعقد وهب بن منبه بيده تسعين — وفى رواية — وحَلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها ؛ وذكر الحديث . وذكر يحيى بن سـلّام عن سـعد بن أبى عَرُوبة عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " إن يأجوج ومأجوج

يخرقون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم آرجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم آرجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدّم .

قوله تعالى : « فَمَا ٱسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هى لغة بمعنى آستطاعوا . وقيل : بل آستطاعوا بعينه كثر فى كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : آسطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : آستاع يستيع بمعنى آستطاع يستطيع ، وهى لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده « فما آسطّاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد آستطاعوا ، ثم أدغم التاء فى الطاء فشدّدها ، وهى قراءة ضعيفة الوجه ؛ قال أبو على : هى غير جائزة[1] . وقرأ الأعمش « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا » بالتاء فى الموضعين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى ﴾ القائل ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوّة عليه ، والآنتفاع به فى دفع ضرر يأجوج ومأجوج . وقرأ ابن أبى عَبْلة « هذه رَحْمَةٌ مِنْ ربى » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أى يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم . ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى مستويا بالأرض ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن عرفة : أى جعلت مستوية لا أكمة فيها ، ومنه قوله تعالى : « جعله دكا » قال اليزيدى : أى مستويا ؛ يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها . وقال القتبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الكلبى : قطعا متكسرا ؛ قال :

* هل غيرُ غادٍ دَكَّ غارا فانهدم *

---

(١) وقال النحاس : لا يقدر أحد أن ينطق بها ، لأن السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة ، وقال سيبويه : هذا محال .

وقال الأزهرى : يقال دككته أى دققته . ومن قرأ « دَكَّاءَ » أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهى الرابية التى لا تبلغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات . قرأ حمزة وعاصم والكسائى « دكاء » بالمدّ على التشبيه بالناقة الدكاء، وهى التى لا سنام لها، وفى الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاء؛ ولابدّ من تقدير هذا الحذف . لأن السدّ مذكر فلا يوصف بدكاء . ومن قرأ « دَكًّا » فهو مصدر دَكَّ يدك إذا هدم ورَضّ ؛ ويحتمل أن يكون « جعل » بمعنى خلق . وينصب «دَكًّا» على الحال . وكذلك النصب أيضا فى قراءة من مدّ يحتمل الوجهين .

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ الضمير في « تركنا » لله تعالى؛ أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أي وقت كمال السدّ يموج بعضهم في بعض . وٱستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردّد بعضهم في بعض ، كالمولهين من همّ وخوف؛ فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم ٱنفتاح السدّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنه تقدّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ تقدّم في « الأنعام »(١) . ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ يعني الجن والإنس في عرصات القيامة . ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أبرزناها لهم . ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ . ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في موضع خفض نعت « للكافرين » . ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صمّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ظن . وقرأ عليّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن « أَفَحَسْبُ » بإسكان السين وضم الباء؛ أي كفاهم . ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يعني عيسى والملائكة وعزيرا . ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ولا أعاقبهم؛ ففي الكلام حذف . وقال الزجاج : المعنى؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزْنًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » ــ الآية ــ فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر . روى البخاري عن مصعب قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سألت أبى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » أهم الحرورية ؟ قال : لا ؛ هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا: لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ؛ أى قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ؛ فهم الأخسرون أعمالا ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس: يريد كفار أهل مكة. وقال علىّ: هم الخوارج أهل حروراء . وقال مُرَّة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالا فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية: ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنما هذه صفة مشركى مكة عبدة الأوثان؛ وعلىّ وسعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالا » نصب على التمييز . و « حبِطت » قراءة الجمهور بكسر الباء . وقرأ ابن عباس « حبَطت » بفتحها .

الثانيــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ قراءة الجمهور « نقيم » بنون العظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلا يقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ » . قال عبيد بن عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة الرأى ، وقد ثبت معناه مرفوعا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتى الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » " . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

بجبال تهامة فلا تزن شيئا . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ؛ والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه ذمّ السِّمن لمن تكلّفه، لما فى ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم؛ بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به التَّرفه والسِّمن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين " . ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرنى ثم الذين يلونهم — قال عِمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة — ثم إن من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ويَنذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمن " وهذا ذمّ . وسبب ذلك أن السِّمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة فى الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذمّ الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم فى كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام ؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائما، وليلَه نائما . وقد مضى فى « الأعراف »[1] هذا المعنى؛ وتقدّم فيها ذكر الميزان[2]، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش[3] ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : " تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض " . فدل هذا على أن الأشخاص توزن؛ ذكره الغزنوى .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ « ذلك » إشارة إلى ترك الوزن، وهو فى موضع رفع بالابتداء « جزاؤهم » خبره و ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ بدل من المبتدإ الذى هو « ذلك » و « ما » فى قوله : ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ مصدرية، والهزء الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) حمش الساق : دقيقها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها . وقال أبو أمامة الباهلى : الفردوس سرة الجنة . وقال كعب : ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس؛ فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله و برسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال : "إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية . الفراء : هو عربى . والفردوس حديقة فى الجنة . وفردوس اسم روضة دون اليمامة . والجمع فراديس، قال أمية بن أبى الصلت الثقفى :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَراديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس موضع بالشام . وكَرْمٌ مُفَرْدَس أى مُعرَّش . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى دائمين . ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو علىّ . وقال الزجاج : حال من مكانه حِوَلًا كما يقال : عَظُم عِظَمًا . قال : ويجوز أن يكون من الحيلة، أى لا يحتالون منزلا غيرها . قال الجوهرى : التحول التنقل من موضع إلى موضع، والاسم الحِوَل، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفد الشيء إذا تم وفرغ؛ وقد تقدّم . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أى زيادة على البحر عددا أو وزنا . وفى مصحف أبىّ « مِداداً » وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد . وانتصب « مددا » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أوتى التوراة فقــد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْــرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، ثم زعمت أنك لاعلم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهى بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّى » أى مواعظ ربى . وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لاغاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنــه بلفظ الجمع لمــا فيه من فرائد الكلمات ، ولأنه ينوب منابها ، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما؛ وقال الأعشى :

ووجهٌ نقيُّ اللون صافٍ يَزِينُــــهُ * مع الجِيــــدِ لَبَّاتٌ لهــا ومَعَاصِمُ

فعبر باللّبات عن اللبة . وفى التنزيل « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » و« إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه ناب مناب أمة . وقيل : أى ما نفدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى . وقال السدىّ : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنــة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . ونظير هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ » . وقرأ حمزة والكسائىّ « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بالياء لتقدّم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَــا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أعلم إلا ما يعلّمنى الله تعالى، وعلم الله تعالى لايحصى، وإنمــا أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أى يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ قال ابن عباس : نزلت فى جُنْدَب بن زهير العامرىّ، قال : يا رسول الله إنى أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا آطّلــع عليه سَرَّنى؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله طيّبٌ ولا يقبــل إلا الطيب ولا يقبل ماشُورِكَ فيه " فنزلت الآية . وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله! إنى أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكانى فنزلت

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إنى أتصدق وأصل الرَّحِم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منّى وأُحمَد عليه فيسرّنى ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأنزل الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدّم فى سورة « هود »[١] حديث أبى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس . وقد تقدّم فى سورة « النساء »[٢] الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية . وقال الماوردى وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » إنه لا يرائى بعمله أحدا . وروى الترمذى الحكيم رحمه الله تعالى فى « نوادر الأصول » قال : حدّثنا أبى رحمه الله تعالى قال : حدّثنا مكى بن إبراهيم قال : حدّثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نُسَىّ قال : أتيت شداد بن أوس فى مصلاه وهو يبكى ، فقلت : ما الذى أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، إذ رأيت بوجهه أمرا ساءنى فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : " أمرا أتخوفه على أمتى من بعدى " قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : " الشرك والشهوة الخفية " قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال : " يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم " قلت : والرياء شرك هو؟ قال : " نعم " . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : " يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر " قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرنى عن الرياء أشرك هو؟ قال : نعم ، أما تقرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » . وروى إسمعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبى بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ابن أوس جالسين، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يرائى بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائى به فقد أشرك " ثم تلا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه فى « النساء [1] » . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلى ولا من صنيعى، وتذكر قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها فى الدنيا؛ قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه و بين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضى الله تعالى عنهم : وقد يفضى الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبى عبد الله المروزى : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك عن مسئلة فأجبتنا عن مسئلتين . وحكى الأصمعى أن أعرابيا صلى فأطال و إلى جانبه قوم، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف، فقيل له إنك خففت؛ فقال : إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفى الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته؛ وقد تقدم فى « النساء [2] » دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل . وروى الترمذى الحكيم حدثنا أبى رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحمانى قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن معقل بن يسار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك، قال : " هو فيكم أخفى من دبيب النمل

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ طبعة أولى أو ثانية.   (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لاأعلم تقولها ثلاث مرات". وقال عمر بن قيس الكندى سمعت معاوية تلا هـذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ » فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوحى إلى أنه من قرأ « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » رفع له نور مابين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له " . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء " وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إنى أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبنى النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أى ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضى الله تعالى عنه . وفى مسند الدرامى أبي محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن عبدة عن زر بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فجربناه فوجدناه كذلك . قال ابن العربى : كان شيخنا الطُّرْطُوشي الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان فى مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهى مكية بإجماع . وهى تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي ، وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم مَنْ عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثهما، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أميــة الضَّمْري، وكتب معه إلى النجاشي، فقــدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ ســورة مريم «كهيعص» وقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». وقرأ إلى قوله: «الشاهــدين». ذكره أبو داود. وفي السيرة؛ فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: اقرأه عليّ. قال: فقرأ «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أخضــل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحــاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم؛ فقال النجاشي: هــذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا؛ وذكر تمــام الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعــالى: كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تقدّم الكلام فى أوائل السور (١) . وقال ابن عباس فى « كٓهيعٓصٓ » : إن الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابن عزيز القشيرى عن ابن عباس؛ معناه كافٍ لخلقه، هاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق فى وعده؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدى ومجاهد والضحاك . وقال الكلبي أيضا : الكاف من كريم وكبير وكافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى؛ وعن علىّ رضى الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص آغفر لى؛ ذكره الغزنوى . السدى : هو اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عنه . وقيل : هو اسم للسورة؛ وهو آختيار القشيرى فى أوائل الحروف؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهيعص » كأنه إعلام باسم السورة، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع فى المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وآبن عامر وحمزة بالعكس، وأمالهما جميعا الكسائى وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكى غيره أنه كان يضم ها، وحكى إسمعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والهاء والياء؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

من أحسن ما فى هذا، والإمالة جائزة فى هَا و يَا . وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بيّنه هرون القارئ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع؛ فمعنى هذا أنه كان يومئ ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئ إلى الواو، ولهــذا كتبها فى المصحف بالواو . وأظهــر الدال من هجــاء « ص » نافع وابن كثير وعاصم و يعقوب، وهو آختيار أبى عبيد؛ وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فيــــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ فى رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال الفراء : هو مرفوع بـ«كهيعص» ؛ قال الزجاج : هــذا محال؛ لأن « كهيعص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا ، وقــد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به ، وليس « كهيعص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذى يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك . وقيل : «ذكر رحمة ربك» رفع بإضمار مبتدإ؛ أى هذا ذكر رحمة ربك ؛ وقرأ الحسن « ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » أى هذا المتلو من القرآن ذَكَّر رحمة ربك . وقرئ « ذَكِّرْ » على الأمر . « ورحمة » تكتب و يوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها ، لا اختلاف فيها بين النحويين، واعتلوا فى ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسمــاء فرقا بينها و بين الأفعال .

الثانيــــة ــ قوله تعالى : ﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش : هو منصوب بـ«رحمة» . «زكريا» بدل منه؛ كما تقول : هذا ذكر ضرب زيد عمرا؛ فعمرا منصوب بالضرب، كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ فـ«عبده» منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء . وقرأ بعضهم « عَبْــدُهُ زَكَرِيَّا » بالرفع؛ وهى قراءة أبى العاليــة . وقرأ يحيى بن يعمر « ذَكَرَ » بالنصب على معنى هــذا القرآن ذَكَرَ رحمة عبده زكريا . وتقدمت اللغات والقراءة فى « زكريا » فى « آل عمران »[(١)] .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مثل قوله : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وقـد تقدّم[1] . والنـداء الدعاء والرغبـة؛ أى ناجى ربه بذلك فى محرابه . دليله قوله : « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ » فبيّن أنه استجاب له فى صلاته، كما نادى فى الصـلاة . وٱختلف فى إخفائه هذا النداء؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسئلة الولد عنـد كبر السن؛ ولأنه أمر دنيوى، فإن أجيب فيـه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل : مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى . وقيل : لمـا كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل : « خَفِيًّا » سِرًّا من قومه فى جوف الليل؛ والكل محتمل والأوّل أظهر؛ والله أعلم . وقد تقدّم أن المستحب من الدعاء الإخفاء فى ســورة « الأعراف »[2] وهــذه الآية نص فى ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا . وروى إسمعيل قال حدّثنا مســدد قال حدّثنا يحيى بن ســعيد عن أسامــة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ٱبن أبى كبشة عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى " وهذا عام . قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعو الإمام فى القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صـوت، وتلا يونس « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . قال ٱبن العربى : وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعى، والجهر به أفضل؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ » قرئ « وَهَنَ » بالحركات الثـلاث أى ضعف . يقال : وَهَنَ يَهِن وَهْنا إذا ضعف فهو واهنٌ . وقال أبو زيد يقـال : وَهَنَ يَهِن ووَهِن يَوْهَن . وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشـدّ ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

منه . ووحّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام، وأشدّ ما تركّب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً ﴾ أدغم السين فى الشين أبو عمرو . وهـذا من أحسن الاستعارة فى كلام العرب . والاشتعال انتشار شعاع النار، شبه به انتشار الشيب فى الرأس ؛ يقول : شخت وضعفت، وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأس . ولم يُضِف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيبا » فى نصبه وجهان : أحدهما — أنه مصدر لأن معنى اشتعل شاب ؛ وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثــة — قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر فى دعائه نِعَمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : « وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » إظهار للخضوع . وقوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » إظهار لعادات تفضله فى إجابته أدعيته ؛ أى لم أكن بدعائى إياك شقيا ؛ أى لم تكن تخيب دعائى إذا دعوتك ؛ أى إنك عودتنى الإجابة فيما مضى . يقال : شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه فى وقت كذا؛ فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا؛ وقضى حاجته .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وإنى خِفْتُ الموالِىَ » قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على وعلى ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ويحيى بن يعمر « خَفَّتِ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من «الموالى» لأنه فى موضع رفع «بخفت» ومعناه انقطعت بالموت . وقرأ الباقون « خِفْتُ » بكسر الخاء وسكون الفاء وضم التاء ونصب الياء من « المَوَالِىَ » لأنه

فى موضع نصب بـ«خفت» . و « الموالى » هنا الأقارب و بنو العم والعصبة الذين يلونه فى النسب . والعرب تسمى بنى العم الموالى؛ قال الشاعر(١) :

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا * لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونَا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله ؛ لأن الأنبياء لا تُورَث. وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية،وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" وفى كتاب أبى داود : "إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما ورَّثوا العلم" . وسيأتى فى هذا مزيد بيان عند قوله : « يرثنى » .

الثانية — هذا الحديث يدخل فى التفسير المسند؛ لقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ وعبارة عن قول زكريا : « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » وتخصيص للعموم فى ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالاً خلّفه داود بعده؛ و إنما ورث منه الحكمة والعلم ، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب ؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، و إلا ما روى عن الحسن أنه قال: «يرثنى» مالاً «ويرث من آل يعقوب» النبوّة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبى صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمر . قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال؛ ويحتمل قول النبى صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم؛ فتأمله . والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة . ألا ترى أنه لما طلب وليا ولم يخصص ولدا بلّغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة.

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ قرأ ابن كثير بالمدّ والهمز وفتح الياء . وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصايَ . الباقون بالهمز والمدّ وسكون الياء . والقراء على قراءة «خِفت» مثل نِمت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهي قراءة شاذة بعيدة جدا؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالي من بعدي أي من بعد موتي وهو حيّ؟! . النحاس : والتأويل لها ألا يعني بقوله : «من ورائي» أي من بعد موتي، ولكن من ورائي في ذلك الوقت؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا في ذلك الوقت وقلّوا، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : «أيهم يكفل مريم» . ابن عطية : «من ورائي» من بعدي في الزمن، فهو الوراء على ما تقدّم في «الكهف»(1) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ امرأته هي إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل، وهي أخت حنة بنت فاقوذا؛ قاله الطبريّ . وحنة هي أم مريم حسب ما تقدم في «آل عمران»(2) بيانه . وقال القتبي : امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفي حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : "فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى" شاهدا للقول الأول(3) . والله أعلم . والعاقر التي لا تلد لكبر سنها؛ وقد مضى بيانه في «آل عمران»(4) . والعاقر من النساء أيضا التي لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعالى : «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» . وكذلك العاقر من الرجال؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً ✱ جبانا فما عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

الخامسة — قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء . ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة؛ وهو أشبه؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره؛ ولذلك قال : «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» . وقالت طائفة : بل طلب الولد،

(1) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء . (2) راجع جـ ٤ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(3) المراد بالقول الأول هنا قول القتبي . (4) راجع جـ ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ثم طلب أن تكون الإجابة فى أن يعيش حتى يرثه ، تحفظا من أن تقع الإجابة فى الولد ولكن يُخْتَرم ، ولا يتحصل منه الغرض .

السادسة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام فى الولد إنما كان لإظهار دينه ، وإحياء نبوّته ، ومضاعفة لأجره لا للدنيا ، وكان ربه قد عوّده الإجابة ، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى بدعائى إياك . وهذه وسيلة حسنة ؛ أن يتشفّع إليه بنعمه ، يستدر فضله بفضله ؛ روى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله ؛ فقال له حاتم : من أنت؟ قال : أنا الذى أحسنتَ إليه عام أول ؛ فقال : مرحبا بمن تشفّع إلينا بنا . فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسئلة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجواب أن ذلك جائز فى زمان الأنبياء . وفى القرآن ما يكشف عن هذا المعنى ؛ فإنه تعالى قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه فى إجابة دعوته ؛ فقال تعالى : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد ، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد ، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك ؛ فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ماتقدّم فى « آل عمران »(1) بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه فى الدنيا والآخرة ، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة . وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته " فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدّى إليه الإكثار من الهلكة . وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه فى هداية ولده ، ونجاته فى أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء ؛ وقد تقدم فى « آل عمران »(2) بيانه .

(1) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَرِثُنِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة « يَرِثُنِي وَيَرِثُ » بالرفع فيهما . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيبويه، إنما تقديره إن تهبه يرثني ويرث؛ والأوّل أصوب في المعنى لأنه طلب وارثا موصوفا؛ أي هب لي من لدنك الولي الذي هذه حاله وصفته، لأن الأولياء منهم من لا يرث؛ فقال : هب لي الذي يكون وارثي؛ قاله أبو عبيد، ورد قراءة الجزم؛ قال : لأن معناه إن وهبت ورث، وكيف يخبر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه؟ ! النحاس : وهذه حجة متقصاة؛ لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة؛ تقول : أطع الله يدخلك الجنة؛ أي إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانية — قال النحاس : فأما معنى « يرثني ويرث من آل يعقوب » فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة ؛ قيل : هي وراثة نبوّة . وقيل : هي وراثة حكمة . وقيل : هي وراثة مال . فأما قولهم وراثة نبوّة فمحال؛ لأن النبوّة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبيّ مرسل . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن؛ وفي الحديث "العلماء ورثة الأنبياء" . وأما وراثة المال فلا يمتنع، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "لا نورث ما تركنا صدقة" فهذا لا حجة فيه؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يُؤوّل هذا بمعنى : لا نُورث الذي تركناه صدقة ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخلّف شيئا يورث عنه، وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا؛ فإن قيل : ففي بعض الروايات "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" ففيه التأويلان جميعا؛ أن يكون « ما » بمعنى الذي . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : وٱختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : "لا نورث ما تركنا صدقة" على قولين : أحدهما — وهو

الأكثر وعليه الجمهور — أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة . والآخر — أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة فى فضيلته، كما خُصّ فى النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَية، وسائر علماء المسلمين على القول الأوّل .

الثالثة — قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَعْقُوب » قيل : هو يعقوب إسرائيل، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أخى موسى، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب، وكانت النبوّة فى سبط يعقوب بن إسحق . وقيل : المعنىّ بيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبى مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بنى إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أخى موسى . وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله — تعالى — زكريا ما كان عليه من ورثته" . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمى .

الرابعة — قوله تعالى : « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيا فى أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ فى الكلام حذف؛ أى فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها — إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى — إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث — أن يفرد بتسميته ؛ وقد تقدّم معنى تسميته فى « آل عمران »(1) . وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حَيِي بين أب شيخ وأم عجوز؛ وهذا فيه نظر؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيما لا تلد . والله أعلم .

---

(1) راجع ج ٤ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم نسمّ أحدا قبل يحيى بهذا الاسم ؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدى . ومَنَّ عليه تعالى بأن لم يَكِل تسميته إلى الأبوين . وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا ، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المساماة والسمو ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأنه لا يفضّل على إبراهيم وموسى ؛ اللهم إلا أن يفضّل فى خاص كالسؤدد والحصر حسب ما تقدّم بيانه « فى آل عمران » . وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القَبْل ؛ لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامى السُّنُع[1] جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز حتى قال قائل :

سُنْعُ الأسَامِى مُسْبِلِى أُزُر * حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدُب

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العَجَّاج ؛ فقال : قَصَّرتَ وعَرَّفتَ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقيل : غير هذا مما تقدّم فى « آل عمران »[2] بيانه . ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يعنى النهاية فى الكبر واليبس والجفاف ؛ ومثله العُسِى ؛ قال الأصمعى : عَسَا الشىءُ يَعْسُو عُسُوًّا وعَسَاء ممدود أى يَبِس وصَلُب ، وقد عسا الشيخُ يَعسو عُسِيّا وَلّى وكَبِر مثل عَتَا ؛ يقال : عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيا وعِتيًّا كبر وولّى ، وعتوت يا فلان تعتو عتوا وعتيا . والأصل عتوّ لأنه من ذوات الواو ، فأبدلوا من الواو ياء ؛ لأنها أختها وهى أخفّ منها ، والآيات على الياءات ، ومن قال : « عِتِيًّا » كره الضمة مع الكسرة والياء ؛ وقال الشاعر :

إنما يُعــذَرُ الوليــدُ ولا يُعْـ * ـذَرُ من كان فى الزّمان عِتِيًّا

---

(١) الجميلة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ ابن عباس «عُسِيًّا» وهو كذلك فى مصحف أبىّ . وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص « عِتِيا » بكسر العين وكذلك « جِثيا » و « صِليا » حيث كن . وضم حفص «بُكِيًّا» خاصة، وكذلك الباقون فى الجميع، وهما لغتان . وقيل : « عِتيا » قَسِيّا؛ يقال : ملك عاتٍ إذا كان قاسى القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى قال له الملَك « كذلك قال ربك » والكاف فى موضع رفع؛ أى الأمر كذلك؛ أى كما قيل لك : « هو على هين » . قال الفراء : خَلْقه علىّ هيّن . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل يحيى . وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنون وألف بالجمع على التعظيم . والقراءة الأولى أشبه بالسواد . ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه، وبعد قوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » زيادة طمأنينة؛ أى تمم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان؛ لأن إبليس أوهمه ذلك . قاله الضحاك وهو معنى قول السدى؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ماتقدّم فى «آل عمران» . ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدّم فى «آل عمران»[(١)] بيانه فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» أى أشرف عليهم من المصلى . والمحراب أرفع المواضع، وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما آرتفع من الأرض؛ دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتى . وآختلف الناس فى اشتقاقه؛ فقالت فرقة :

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات . وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحَرَب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقى منه حربا وتعبا ونصبا .

الثانيــة — هذه الآية تدل على أن آرتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعا عندهم في صلاتهم . وقــد آختلف في هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصــة المنبر . ومنع مالك ذلك في الآرتفاع الكثير دون اليسير، وعَلَّل أصحــابه المنع بخوف الكِبْر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر؛ وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أَمَّ الناس بالمدائن على دكان ، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هــذا — أو — يُنهَى عن ذلك ! قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتني . وروى أيضا عن عدى بن ثابت الأنصارى قال : حدّثني رجل أنه كان مع عمــار بن ياسر بالمدائن ، فأقيمت الصلاة فتقدّم عمار بن ياسر ، وقام على دكان يصلى والناس أسفل منه ، فتقدّم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمــار حتى أنزله حذيفة ، فلما فرغ عمــار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أَمَّ الرجلُ القوم فلا يقم في مكان أرفعَ من مقامهم " أو نحو ذلك ؛ فقال عمّار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدى .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهى عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبــه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . وممــا يدل على نسخه أن فيــه عملا زائدا في الصلاة ، وهو النزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما آعتذر به أصحابنا من أن النبي صلى الله عليــه وسلم كان معصوما من الكِبْر ؛ لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا كِبْر عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا ؛ والله أعلم .

قوله تعــالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبي وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار . القتبي : أومأ . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب في كتاب . والوحى في كلام العرب الكتابة ؛ ومنه قول ذى الرُّمة :

سوى الأربع الدُّهْم اللواتى كأنّها * بَقِيَّـةُ وَحْيٍ فى بُطونِ الصَّحَائفِ

وقال عَنْـترة :

كوحيِ صحائفٍ من عهد كسرى * فأهـداها لأعجـم طِمْطِمِىِّ (١)

و « بكرة وعشيا » ظرفان . وزعم الفراء أن العشى يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمتَ؛ قال : وقد يكون العشىّ جمع عشية .

الرابعـــة — قد تقدّم الحكم فى الإشارة فى « آل عمران » (٢) . واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا ، أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوى مشافهته ، ثم رجع فقال : لا ينوى فى الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله . قال ٱبن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليـه . وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الحالف ؛ وهذا بيّن ؛ لأنه لم يكلمه ولا ٱبتدأه بكلام ، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليـه يخرج قول ابن القـاسم . فإن حلف ليكلمنه لم يبرّ إلا بمشافهته ؛ وقال ابن المـاجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلِمنّـه أو ليُخبِرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولا برّ ، ولو علماه جميعا لم يبر ، حتى يُعلِمه لأن علمهما مختلف .

الخامســـة — وٱتفق مالك والشافعى والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه ؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أُصمِت أياما فكتب لم يجز من ذلك شيء . قال الطحاوى : الخرس مخالف للصمت العارض ، كما أن العجز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوما أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منه الجماع ، نحو الجنون فى باب خيار المرأة فى الفرقة .

قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . وهذا اختصار يدل الكلام عليه . و « الكتاب » التوراة بلا خلاف . « بقوة » أى بجد وٱجتهاد ؛ قاله مجاهد . وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيـه ؛ قاله زيد بن أسـلم ؛ وقد تقدّم

(١) الطمطمى : الأعجم الذى لا يفصح . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانيـة .

فى « البقرة » . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [١] قيل: الأحكام والمعرفة بها . وروى مَعْمَر أن الصبيان قالوا ليحيى : ٱذهب بنا نلعب؛ فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى « وآتيناه الحكم صبيا » . وقال قتادة : كان ٱبن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ٱبن ثلاث سنين . و « صبيا » نصب على الحال . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا . وروى فى تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذَنْب إلا ما كان من يحيى بن زكريا" . وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ولا هَمَّ بٱمرأة . وقال مجاهد : وكان طعام يحيى عليه السلام العشب ، وكان للدمع فى خدّيه مجار ثابتة . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « وَسَيِّدًا وَحَصُورًا » [٢] فى « آل عمران » .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا » «حنانا» عطف على «الحكم» . وروى عن ٱبن عباس أنه قال : والله ما أدرى ما « الحنان » ؟ . وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة؛ وهو فعل من أفعال النفس . النحاس : وفى معنى الحنان عن ٱبن عباس قولان: أحدهما — قال : تعطّف الله عز وجل عليه بالرحمة . والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك . وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك؛ قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانيك تثنية الحنان . وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يا رب وحنانيك يارب بمعنى واحد؛ تريد رحمتك . وقال ٱمرؤ القيس :

وَيَمْنَحُها بَنُو شَمَجَى بنِ جَرْمٍ * مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ [٣]

وقال طرفة :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فَٱسْتَبِقِ بَعْضَنَا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشرى : « حنانا » رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة؛ وأنشد سيبويه :

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بِكَ هَاهُنَا * أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحيِّ عارفُ

(١) راجع ج ١ ص ٤٣٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) (حنانك ذا الحنان) معناه : رحمتك يا رحمن .

قال ابن الأعرابى : الحنّان من صفة الله تعالى مشددا الرحيم . والحنَان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من من الأمور فى ذات الله تعالى؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل فى حديث بلال : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حَنَانا ؛ وذكر هذا الخبر الهروى؛ فقال : وفى حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذَّب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حَنَانا؛ أى لأتمسحنّ به . وقال الأزهرى : معناه لأتعطفن عليه ولأترحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف، وكذا قال مجاهد . و « حنانا » أى تعطفا منا عليه أو منه على الخلق؛ قال الحطيئة :

تحنَّنْ علىَّ هَـدَاكَ المليكْ * فإنّ لكلّ مقـامٍ مَقَالَا

عكرمة : محبة . وحَنَّة الرجل امرأته لتوادهما؛ قال الشاعر :

فقالتْ حنـانٌ ما أَتَى بكَ.هاهنا * أذو نسبٍ أم أنتَ بالحىّ عارفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر؛ أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء عليه كما تزكى الشهود إنسانا . وقيل: « زكاة » صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لله تعـالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلمّ بها .

قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البرّ. و﴿ جَبَّاراً ﴾ متكبرا. وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعـالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبرى وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنمـا الشرف فى أن سلم الله عليه، وحياه فى المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة فى سورة « سبحان »[1] عند قتل يحيى . وذكر الطبرى عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا — وهما آبنا الخالة — فقال يحيى لعيسى: آدع الله لى فأنت خير منى؛ فقال له عيسى: بل أنت ادع الله لى فأنت خير منى؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسى؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية فى التسلم فضل عيسى؛ بأن قال: إدلاله فى التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التى آقتضت ذلك حين قرر وحكى فى محكم التنزيل أعظم فى المنزلة من أن يسلم عليه . قال آبن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ القصة إلى آخرها . هذا ٱبتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرِّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا . ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ ﴾ أى تنحت وتباعدت . والنبذ الطرح والرمى؛ قال الله تعالى : « فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » . ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أى ممن كان معها . و « إذ » بدل من « مريم » بدل اشتمال ؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والانتباذ الاعتزال والانفراد . وٱختلف الناس لم ٱنتبذت؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من النـاس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام . فقوله : ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى مكانا من جانب الشرق . والشَّرْق بسكون الراء المكان الذى تشرق فيـه الشمس . والشَّرَق بفتح الراء الشمس . و إنمـا خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبرى . وحكى عن ٱبن عباس أنه قال : إنى لأعلم الناس لم ٱتخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عز وجل : « إذ ٱنتبـذت من أهلها مكانا شرقيا » فٱتخـذوا ميلاد عيسى عليـه السلام قبلة ؛ وقالوا : لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السـلام فيه . وٱختلف الناس فى نبوّة مريم؛ فقيل : كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك . وقيل : لم تكن نبية و إنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل فى صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى مستوفى فى « آل عمران »(1) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح فى جسد عيسى عليه السلام الذى خلقه فى بطنها . وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السلام؛ لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أى تمثل الملك لها . ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال . ﴿ سَوِيًّا ﴾ أى مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل فى صورته . ولما رأت رجلا حسن الصورة فى صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء ف﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أى ممن يتق الله . البِكَالىّ : فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . الثعلبىّ : كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا . وقيل : تق فعيل بمعنى مفعول أى كنت ممن يُتَّقى منه . فى البخارى قال أبو وائل : علمت مريم أن التقىّ ذو نُهْيةٍ حين قالت : « إن كنت تقيا » . وقيل : تق اسم فاجر معروف فى ذلك الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكى وغيره . آبن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص . فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « لِيَهَبَ لَكِ » على معنى أرسلنى الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالهمز محمول على المعنى ؛ أى قال : أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة . فلما سمعت مريم ذلك من قوله آستفهمت عن طريقه ف﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أى بنكاح . ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى زانية . وذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما آستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج فى المستقبل أم يخلقه الله آبتداء ؟ وروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ فى جيب درعها وكمها ؛ قاله آبن جريج . ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . قال الطبرى : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع آثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة . وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ متعلق بمحذوف؛ أى ونخلقه لنجعله : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ مقدرا فى اللوح مسطورا .

قوله تعالى : ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى تنحت بالحمل إلى مكان بعيد؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى، وهو وادى بيت لحم بينه و بين إيلياء أربعة أميال؛ وإنما بعدت فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ «أجاءها» اضطرها؛ وهو تعدية جاء بالهمز . يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال : ذهب به وأذهبه . وقرأ شبيل ورويت عن عاصم « فاجأها » من المفاجاة . وفى مصحف أبىّ « فلما أجاءها المخاض » . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ معتمدًا إلينَا * أَجَاءَتْهُ المخَافَةُ والرَّجاءُ

وقرأ الجمهور « المَخَاضُ » بفتح الميم . وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدّة الولادة وأوجاعها . مَخِضت المرأة تَمْخَض مَخَاضا ومِخَاضا . وناقة ماخض أى دنا ولادها . « إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ» كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثانى — لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحدّ يكون تمنى الموت جائزا، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « يوسف »(١) عليه السلام . والحمد لله .

قلت : وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يُعبَد من دون الله فحزنت لذلك، و﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾ . النَّسى فى كلام العرب الشيء الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للسافر ونحوه .

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : آحفظوا أنساءكم؛ الأنساء جمع نِسى وهو الشيء الحقير يغفل فينسى . ومنه قول الكميت رضى الله تعالى عنه :

أتجعلنا جِسْراً لكلبِ قُضَاعةٍ * ولستُ بِنِسْيٍ فى مَعَدٍّ ولا دَخل

وقال الفراء : النِّسى ما تلقيه المرأة من خِرَق آعتلالها؛ فقول مريم : «نسيا منسيا» أى حيضة ملقاة . وقرئ « نَسْياً » بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجْر والحَجْر والوِتْر والوَتْر . وقرأ محمد بن كعب القرظى بالهمز « نِسْئًا » بكسر النون . وقرأ نوف البِكَالىّ « نَسْئًا » بفتح النون من نسأ الله تعالى فى أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والدّانى عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسًّا » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبرى فى قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدى فذلك قوله : « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بنى إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها فى المسجد وطوّل فى ذلك . قال الكلبى : قيل ليوسف — وكانت سميت له أنها حملت من الزنى — فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهمّ فى الطريق بقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضى أنها حملت ، وآستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر . قاله عكرمة ؛ ولذلك قيل : لا يعيش آبن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى . وقيل : ولدته لتسعة . وقيل : لستة . وما ذكرناه عن آبن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها . قال ابن عباس : المراد بـ « من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله فيها مراد عظيم . وقوله :

﴿ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ تفسير النداء ، « وأَنْ » مفسّرة بمعنى أى؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك . ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ يعنى عيسى . والسرىّ من الرجال العظيم الخصال السيّد . قال الحسن : كان والله سريّا من الرجال . ويقال : سَرِى فلان على فلان أى تكرم . وفلان سرىٌّ من قوم سَرَاة . وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة . قال ابن عباس : كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سَرِيًّا لأن الماء يسرى فيه؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِىَّ منه أَزْوَرَا * إذا يَعُبُّ فى السَّرِىِّ هَرْهَرَا (١)

وقال لبيد :

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِىِّ وصَدَّعَا (٢) * مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَّامُهَا

وقيل : ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها؛ والأول أظهر . وقرأ ابن عباس « فناداها مَلَك مِن تحتِها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَهُزِّى » أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع . والباء فى قوله : « بجذع » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام، وأعط بيدك؛ قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سببا . وقيل : المعنى؛ وهزى إليك رطبا على جذع النخلة . « وتَسَّاقَطْ » أى تتساقط فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة « تَسَاقَطْ » مخففا فحذف التى أدغمها غيره . وقرأ عاصم فى رواية حفص « تُسَاقِطْ » بضم التاء مخففا وكسر القاف . وقرئ « تَتَسَاقَطْ » بإظهار التاءين و « يَسَّاقَطْ » بالياء وإدغام التاء « وتُسْقِط »

(١) السلم : الدلو التى لها عرقوة واحدة كدلو السقائين . والدالى : المستقى بالدلو . والهرهرة : صوت الماء إذا جرى . (٢) أى شق العير والأتان النبت الذى على الماء . ومسجورة : عين مملوءة . والمتجاور المتقارب والقلام : نبت؛ وقيل : هو القصب . والبيت من معلقته .

و « يُسْقِط » و « تَسقط » و « يَسقط » بالتاء للنخلة و بالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه. « رطبا » نصب بالهز؛ أى إذا هززت الجذع هززت بهزه « رطبا جنيا » . وعلى الجملة فـ « رطبا » يختلف نصبه بحسب معانى القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة . « وجنيا » معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهى من جنيت الثمرة . ويروى عن ابن مسعود — ولا يصح — أنه قرأ « تساقط عليك رطبا جنيا بَرْنيًّا (١) » . وقال مجاهد : « رطبا جنيا » قال : كانت عجوة . وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطبا جنيا » فقال : لم يذو . قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح . قال الفراء : الجنىّ والمجنىّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح . وقال غير الفراء : الجنىّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار فى رياض أريضة * وأغصان أشجار جَنَاها على قُرْبِ

يريد بالجَنَى ما يجنى منها أى يقطع و يؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعا نخرا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخضر فصار بلحا ثم احمر فصار زَهْوا، ثم رطبا؛ كل ذلك فى طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء .

الثانية — استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وَكَل ابن آدم إلى سعى مّا فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز .

الثالثة — الأمر بتكليف الكسب فى الرزق سنة الله تعالى فى عباده، وأن ذلك لا يقدح فى التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة ؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه . وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

(١) البرنى : ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمر؛ واحدته برنية .

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً » الآية . فلما ولدت أمرت بهـزّ الجذع . قال علماؤنا : لمـا كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده . وحكى الطبرى عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزنى ؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أى شئ عذرى عند الناس ؟ ! « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسْياً مَنْسِياًّ » فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعـــة — قال الربيـع بن خيثم : ما للنفساء عنـدى خير من الرطب لهـذه الآية ، ولو علم الله شيئا هو أفضـل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمـر عادة للنفساء من ذلك الوقت ، وكذلك التّحنيك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لهـا خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسـل ؛ ذكره الزمخشرى . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطبا جنيا » الجنىّ من التمر ما طاب من غير نَقْش ولا إفساد . والنَّقْش أن يُنقَش من أسـفل البسرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشىء قبل وقته ، فلا ينبغى لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوّزا لبيعه ؛ ولا حُكْما بطيبه . وقد مضى هذا القول فى الأنعام[1] . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جِنِياًّ » بكسر الجيم للإتباع ؛ أى جعلنا لك فى السرىّ والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، الثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو [معنى[2]] قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أى فكلى من الجنىّ ، واشربى من السرىّ ، وقرّى عينا برؤية الولد النبىّ . وقرئ بفتح القاف وهى قراءة الجمهور . وحكى الطبرىّ قراءة « وَقِرِّى » بكسر القاف وهى لغة نجد . يقال : قَرَّ عينا يَقُر ويَقِر بضم القاف وكسرها ؛ وأقـر الله عينه فقرّت . وهو مأخوذ من القُرّ والقِرّة وهما البَرْد . ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة . وضعّف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن ؛ وفلان قُرة عينى ؛ أى

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من الكشاف للزمخشرى .

نفسى تسكن بقربه . وقال الشيبانى : « وقرّى عينا » معناه نامى؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقرّ الله عينه أى أنام عينه ، وأذهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز؛ كقولك : طب نفسا . والفعل فى الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين؛ وينصب الذى كان فاعلا فى الحقيقة على التفسير . ومثله طبت نفسا ، وتفقأت شحما ، وتصببت عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ » الأصل فى ترين تَرْأَيِينَ[1] فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار « تريين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار تَرَيْنَ ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقى تَرَيْ ، ثم دخله نون التوكيد وهى مثقلة ، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيِنَّ وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

* إما تَرَيْ رأسىَ حاكَى لونُه[2] *

وقول الأفوه : * إما تَرَيْ رأسىَ أَزْرَى به[3] *

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة « ما » كما يوطّئ لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « تَرَيْنَ » بسكون الياء وفتح النون خفيفة؛ قال أبو الفتح : وهى شاذة .

الثانية — قوله تعالى : « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار؛ أى فسألك عن ولدك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا » أى صمتا؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفى قراءة أُبىّ بن كعب « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمنِ صَوْماً صَمْتاً » . وروى عن أنس .

---

(١) أى قبل التوكيد ودخول الجازم ، وهى بوزن تمنعين .

(٢) تمامه : * طرة صبح تحت أذيال الدجى *

(٣) تمامه : * مأس زمان ذى انتكاس مئوس *

وعنه أيضا « وصمتا » بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيرا لا قرآنا؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذى تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس « وصمتا » بواو، وأن الصمت كان عندهم فى الصوم ملتزما بالنذر، كما أن من نذر منا المشى إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام — أو ابنها على الخلاف المتقدم — بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها فى ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآيةُ فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التى فى الآية، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى « قولى » بالإشارة لا بالكلام . الزمخشرى : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة — من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قُربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لايجوز فى شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام فى الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت فى تلك الشريعة لا فى شريعتنا؛ وقد تقدّم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث أبى إسرائيل، خرجه البخارى عن ابن عباس [1] . وقال ابن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن فى الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان أحدكم صائما فلا يَرفُث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم" . وقال عليه الصلاة والسلام: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه" .

(١) الحديث كما فى البخارى عن ابن عباس قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم و يصوم؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه " .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَـٰمَرْيَمُ لَقَـدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ روى أن مريم لمـا ٱطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعـالى سيبين عذرها ، أتت به تحمله من المكان القصى الذى كانت انتبذت فيه . قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من النهار . وقال الكلبي : ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوما للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلمـا رأوها ومعها الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، فقالوا منكرين : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى جئت بأمر عظيم كالآتى بالشيء يفتريه . قال مجاهد : « فريا » عظيما . وقال سعيد بن مسعدة : أى مختلقا مفتعلا ؛ يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد . والولد من الزنى كالشيء المفترَى . قال الله تعـالى : « وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » أى بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منـه . يقال : فلان يفرى الفرِيّ أى يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفرِيّ العجيب النادر ؛ وقاله الأخفش . قال : فريا عجيبا . والفَرْى القطع كأنه ممـا يخرق العادة ، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا . وقال قطوب : الفرى الجديد من الأسقية ؛ أى جئت بأمر جديد بديع لم تسبقى إليه . وقرأ أبو حيوة : «شَيْئًا فَرْيًا» بسكون الراء . وقال السدى ووهب بن منبه : لمـا أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدّت ٱمرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحُملت كذلك . وقال آخر : ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول و يلينون؛ فقالوا : «يا مريم لقد جئت شيئا فريا» أى عظيما؛ قال الراجز:(1)

(1) هـو زرارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية ، وكان قد خرج معها فى سفر يمتارون من اليمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زرارة بن صعب يأخذه بطنه ، فكان يتخلف خلف القوم فقالت العامرية :

لقـد رأيت رجلا دهريا ✽ يمشى وراء القـوم سيتهيا

✽ كأنه مضطغن صبيا ✽

تريد أنه امتلأ بطنه ؛ فأجابها زرارة بالأبيات . و « جحريا » منسوب إلى جحر اليمامة وهو قصبتها .

قد أَطعمتْنِي دَقَلًا حَوْلِيَّا * مُسوِّسًا مُدَوِّدًا حَجْرِيًّا

* قد كنتِ تَفْرِين بِهِ الفرِيَّا *

أى [تعظمينه] [1] .

قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ ٱختلف الناس فى معنى هذه الأخوة، ومن هرون؟ فقيل : هو هرون أخو موسى؛ والمراد من كنا نظنها مثل هرون فى العبادة تأتى بمثل هذا . وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هرون أخى موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده؛ كما يقال للتميمى : يا أخا تميم، وللعربى يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها ٱسمه هرون؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى إسرائيل تبركا باسم هرون أخى موسى، وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل؛ قاله الكلبى . وقيل : هرون هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هرون . وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان فى بنى إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هرون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : إن مريم ليست بأخت هرون أخى موسى؛ فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما من المدة ستمائة سنة . قال : فسكتت . وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمتُ نجران سألونى فقال إنكم تقرءون « يا أخت هرون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال : " إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم " . وقد جاء فى بعض طرقه فى غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هى أخت هرون و بينهما فى المدة ستمائة سنة؟ ! قال المغيرة : فلم أدر ما أقول؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم وافق اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء؛ والله أعلم .

(١) فى الأصل : « تطعمينه » وهو تحريف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد . الزمخشري : كان بينهما و بينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهرون؛ و إن صح فكما قال السدى لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة : يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " إن أخا صُداء(١) قد أذّن فمن أذّن فهو يُقيم " وهذا هو القول الأوّل . ابن عطية : وقالت فرقة بل كان فى ذلك الزمان رجل فاجر آسمه هرون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ؛ ذكره الطبرى ولم يسمّ قائله .

قلت : ذكره الغزنوى عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مَثَلا فى الفجور فنسبت إليه . والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض الذى يقوم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتى فى سورة « النور » القول فيه إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه ، ولا غبار عليه . والحمد لله . وقرأ عمر بن لجأ التَّيْمىّ «مَا كَانَ أَبَاكِ آمْرُؤُ(٢) سَوْءٍ» .

قوله تعالى : فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد فى هذه الآية أنها نطقت

(١) هو زياد بن الحرث الصدائى ، كان قد أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم : " إن أخا صداء قد أذن ... " الحديث . . . (٢) قال فى « البحر » : يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة .

بـ « إنى نذرت للرحمن صوما » وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال : إن أمرها بـ « فقولى » إنما أريد به الإشارة . ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا : آستخفافها بنا أشدّ علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » و«كان» هنا ليس يراد بها الماضى ؛ لأن كل واحد قد كان فى المهد صبيا، وإنما هى فى معنى هو [الآن][1] . وقال أبو عبيدة : « كان » هنا لغو؛ كما قال[2] :

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ *

وقيل : هى بمعنى الوجود والحدوث كقوله : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » وقد تقدّم . وقال ابن الأنبارى : لايجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صبيا »، ولا أن يقال « كان» بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول : كان الحرّ وتكتفى به . والصحيح أن « من » فى معنى الجزاء و « كان » بمعنى يكن؛ التقدير : من يكن فى المهد صبيا فكيف نكلمه؟ ! كما تقول : كيف أعطى من كان لايقبل عطية ؛ أى من يكن لايقبل . والماضى قد يذكر بمعنى المستقبل فى الجزاء؛ كقوله تعالى: « تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى إن يشأ يجعل . وتقول : من كان إلىّ منه إحسان كان إليه منى مثله ، أى من يكن منه إلى إحسان يكن إليه منى مثله . « والمهد » قيل : كان سريرا كالمهد . وقيل : « المهد » هاهنا حجر الأم. وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وهى :

الثانيـــة — فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، وآتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و «قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ» فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته ، ردا على من غلا من بعده فى شأنه . والكتاب الإنجيل؛ قيل : آتاه فى تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوّة كما علم آدم

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) هو الفرزدق؛ وصدر البيت :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلى . وهذا فى غاية الضعف على ما نبينه فى المسئلة بعد هذا .
وقيل : أى حكم لى بإيتاء الكتاب والنبوة فى الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا فى الحال؛
وهذا أصح . ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ أى ذا بركات ومنافع فى الدين والدعاء إليه ومعلما له .
التُّسْتَرِىّ : وجعلنى آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم،
وأغيث الملهوف. ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى لأؤدّيهما إذا أدركنى التكليف،وأمكننى
أداؤهما، على القول الأخير الصحيح. ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام
حياتى . ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ قال ابن عباس : لما قال « وَبَرًّا بِوَالِدَتِي » ولم يقل بوالدىّ
علم أنه شىء من جهة الله تعالى . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أى متعظما متكبرا يقتل ويضرب على
الغضب . وقيل : الجبار الذى لا يرى لأحد عليه حقّا قطّ . ﴿ شَقِيًّا ﴾ أى خائبا من الخير.
ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يجعلنى تاركا لأمره فأشقى كما شقى إبليس
لما ترك أمره .

الثالثة — قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى فى هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر!
أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى
فى قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا
لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة
الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه
لا أنه كان ممن يعقل فى تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم يُنْقَل
أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه
ووعظه وصلاته فى صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على
فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم فى المهد خلافا لليهود
والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحَدّ . وإنما صحّ براءتها من الزنى
بكلامه فى المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم

السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ فى شريعة أمره . وكان عيسى عليه السلام فى غاية التواضع؛ يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوى حيث جنّه الليل، لا مسكن له، صلى الله عليه وسلم .

الرابعــة — الإشارة بمنزلة الكلام، وتُفهِم ما يُفهِم القول . كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا فى «آل عمران»[1] مستوفى .

الخامســة — قال الكوفيون : لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه . وروى مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعيّ وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفا؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة . قالوا : واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع . قال ابن القصار : قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ماعدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس . وما ذكروه من الإجماع فى شهادة الأخرس فغلط . وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ . قال ابن المنذر : والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغى أن يكون القذف مثل ذلك . قال المهلب : وقد تكون الإشارة فى كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : "بعثت أنا والساعة كهاتين" نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة . وفى إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون فى بعض المواضع أقوى من الكلام . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ أى السلامة علىّ من الله تعالى . قال الزجاج : ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن فى الثانية ذكر الألف واللام . وقوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ يعنى فى الدنيا . وقيل : من همز الشيطان كما تقدم فى «آل عمران»[2] . ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعنى

(١) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

فى القبر . ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعنى فى الآخرة؛لأن له أحوالا ثلاثة : فى الدنيا حيا،وفى القبر ميتا ، وفى الآخرة مبعوثا ؛ فسلم فى أحواله كلها ؛ وهو معنى قول الكلبى . ثم انقطع كلامه فى المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان . وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رأته آمرأة يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص فى سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذى حملك، والثدى الذى أرضعك؛ فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى وآتبع ما فيه وعمل به .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك آعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنه الإله أو ابن الإله . ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ قال الكسائى : « قَوْلُ الْحَقِّ » نعت لعيسى؛ أى ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق](١) . وسمى قول الحق كما سمى كلمة الله ؛ والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : « وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » أى الوعد الصدق . وقال :

(١) زيادة يقتضيها المقام .

« وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى ولا الدار الآخرة . وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر « قَوْلَ الْحَقِّ » بالنصب على الحال ؛ أى أقول قولا حقا . والعامل معنى الإشارة فى « ذلك » . الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء . وقرأ عبد الله «قَالُ الحقِّ» . وقرأ الحسن «قُولُ الحقِّ» بضم القاف ، وكذلك فى «الأنعام» « قَوْلُهُ الْحَقُّ » . والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب. ﴿ الَّذِي ﴾ من نعت عيسى . ﴿ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون؛ أى ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون القول الحق . وقيل : « يمترون » يختلفون . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : آجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه، قال : هو آبن الله وهم النّسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله و رسوله و روحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع — على ما قال — فاقتتلوا فظُهِر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : «وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بِالقسطِ مِن الناسِ» . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فَآختلفَ الأحزابُ مِنْ بينِهِم » اختلفوا فيه فصاروا أحزابا فهذا معنى قوله : « الذى فيه تمترون» بالتاء المعجمة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن السُّلَمى وغيره . قال ابن عباس : فمر بمريم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها آثنتى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا يخافونه ؛ ذكره الماوردى .

قلت : ووقع فى تاريخ مصر فيما رأيت وجاء فى الإنجيل ؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد فى بيت لحم كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكا ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

فى الحُلم وقال له : قم فخـذ الصبى وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه : وامتثل أمر ربه ، وأخذ السـيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفى حال مجيئه إلى مصر نزل ببـئر البَلَسان التى بظاهر القـاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبَلَسان لا يطلع ولا ينبت إلا فى تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذى يخالط الزيت الذى تعمّد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة فى أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقـع فى نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعا جليلا جدا ، وتكون أحبّ إليهم من كل هدية لها قدر . وفى تلك السَّفْرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين(١) وقسقام(٢) المعروفة الآن بالمحرقة(٣) ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها فى عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أى ما ينبغى له ولا يجوز ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام ؛ أى أن يتخذ ولدا . و « أن » فى موضع رفع اسم « كان » أى ما كان لله أن يتخذ ولدا ؛ أى ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد . ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فإنما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تقدم فى «البقرة»(٤) مستوفى . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن » بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أُبَىّ « كُنْ فَيَكُون . إنَّ اللهَ » بغـير واو على العطف على « قَالَ إِنِّى عبدُ اللهِ » . وفى الفتح أقوال : فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربى وربكم ، وكذا « وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » فـ « أن » فى موضع نصب عندهما . وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا فى موضع

---

(١) الأشمونين : إحدى قرى مركز ملوى . (٢) قسقام : هى القوصية الآن إحدى قرى مركز منفلوط .
(٣) المحرقة : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفلوط . (٤) راجع جـ ٢ ص ٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خفض بمعنى؛ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا و بأن الله ربى وربكم . وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بمعنى؛ والأمر أن الله ربى وربكم . وفيها قول خامس: حكى أبوعبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى : وقضى أن الله ربى وربكم؛ فهى معطوفة على قوله : «أمرا» من قوله : «إِذَا قَضَى أَمْرًا» والمعنى إذا قضى أمرا وقضى أن الله . ولا يبتدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث . ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية . ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى دين قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ «من» زائدة؛ أى اختلف الأحزاب بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله . والملكانية ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله؛ فأفرطت النصارى وغلت، وفرطت اليهود وقصرت. وقد تقدّم هذا فى «النساء»[1] . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى من شهود يوم القيامة، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور . ويجوز أن يكون الحضور لهم، و يضاف إلى الظرف لوقوعه فيه، كما يقال : ويل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أى من حضوره ذلك اليوم . وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلائق، كالمحشر للموضع الذى يحشر إليه الخلق . وقيل : فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب؛ فتقول : أسمع بزيد وأبصر بزيد أى ما أسمعه وأبصره . قال : فمعناه أنه عَجّب نبيه منهم . قال الكلبى : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : «أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ» . وقيل : «أسمع»

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم لله فى ذلك اليوم . ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ يعنى فى الدنيا. ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وأىّ ضـلال أبين من أن يعتقـد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب، وأحدث واحتاج أنه إله ؟! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنه لا ينفعه ذلك؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعـالى : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى فُرِغ من الحساب ، وأدخل أهـل الجنة الجنة وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[1] فيوقف بين الجنة والنار فيقال يأهـل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — ثم يقال يأهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هـذا الموت — قال — فيؤمر به فيذبح ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون» " خرجه البخارى بمعناه عن ابن عمر، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وبينا هناك أن الكفار مخلّدون بهذه الأحاديث والآى ردا على من قال : إن صفة الغضب تنقطع، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى نميت سكانها فنرثها . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازى كلًّا بعمله، وقد تقدّم هذا فى « الحجر »[2] وغيرها .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النقى البياض .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ المعنى: واذكر فى الكتاب الذى أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره . وقد تقدّم معنى الصدّيق فى « النساء »[1] واشتقاق الصدق فى « البقرة »[2] فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : ٱقرأ عليهم يا محمد فى القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر وقد تقدّم[3] . ﴿يَا أَبَتِ﴾ قد تقدّم القول فيه فى « يوسف »[4] ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أى لأى شىء تعبد : ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

شَيْئًا ﴾ يريد الأصنام . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أى من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت ، وأن من عبد غير الله عذب ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ إلى ما أدعوك إليه . ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أى أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئا فى معصية فقد عبده . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ « كان » صلة زائدة . وقيل : بمعنى صار . وقيل : بمعنى الحال؛ أى هو للرحمن . وعصيا وعاص بمعنى واحد؛ قاله الكسائى . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى إن متّ على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إنى أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ أى قرينا فى النار . ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى أترغب عنها إلى غيرها . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال الحسن : يعنى بالحجارة . الضحاك : بالقول؛ أى لأشتمنك . ابن عباس : لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ . قال ابن عباس : أى اعتزلنى سالم العرض لا يصيبك منى معرة؛ واختاره الطبرى، فقوله : « مليا » على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن ومجاهد : « مليا » دهرا طويلا؛ ومنه قول المهلهل :

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموته ✽ وبَكَتْ عليه المُرمِلاتُ مليّاً

قال الكسائى : يقال هجرته مليًّا ومَلْوة ومُلْوة ومَلَاوة ومُلَاوة، فهو على هذا القول ظرف، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التى هى المتاركة لا التحية ؛ قال الطبرى : معناه أمنة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيها ؛ كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم فى معنى تسليمه : هو تحية مفارق ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال : نعم؛ قال الله تعالى : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين

ولم يخرجوكم من ديارِكم أَنْ تبروهم وتُقْسِطُوا إليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المقسِطين » . وقال : « قد كانتْ لكُم أُسْوَةٌ حسنة فِى إبراهِيم » الآية؛ وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة؛ وفى الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم فى الطريق فاضطروه إلى أضيقه" خرجه البخارى ومسلم. وفى الصحيحين عن أسامة آبن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فَدَكيّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد؛ وهو يعود سعد بن عبادة فى بنى الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول، وفى المجلس عبد الله بن رَوَاحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة، خمر عبد الله بن أبىّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلّم عليهم النبى صلى الله عليه وسلم؛ الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله . والحديث الثانى يجوز ذلك . قال الطبرى : ولا يعارَض ما رواه أسامة بحديث أبى هريرة، فإنه ليس فى أحدهما خلاف للآخر؛ وذلك أن حديث أبى هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص. وقال النَّخَعى : إذا كانت لك حاجة عند يهودى أو نصرانى فابدأه بالسلام؛ فبان بهذا أن حديث أبى هريرة "لا تبدءوهم بالسلام" إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قِبلهم، أو حقّ صحبة أو جوار أو سفر. قال الطبرى : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفعله آبن مسعود بدهقان صحبه فى طريقه؛ قال علقمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ ! قال : نعم؛ ولكن حقّ الصحبة . وكان أبو أسامة إذا آنصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصرانى ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ فقيل له فى ذلك فقال : أمرنا أن نفشى السلام . وسئل الأوزاعى عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، و إن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد ٱحتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذى معناه التحية إنما خص به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة" الحديث؛ ذكره الترمذىّ الحكيم؛ وقد مضى فى الفاتحة بسنده[1] . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » . وارتفع السلام بالٱبتداء، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقرنت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ : الحفى المبالغ فى البرّ والإلطاف؛ يقال : حَفِى به وتحفّى إذا برّه . وقال الكسائى يقال : حَفِى بى حَفاوة وحِفوة . وقال الفراء : «إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا » أى عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدّم فى « الكهف »[2] بيانها . وقوله : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالٱعتزال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى آنسنا وحشته بولد؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقيل : « عسى » يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا فى المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالهداية . و« عسى » شك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى أثنينا عليهم ثناء حسنا؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث؛ وقد تقدّم[3] .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٤ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ﴾[1] فى عبادته غير مرائى . وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام؛ أى أخلصناه فجعلناه مختارا . ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ أى كلمناه ليلة الجمعة . ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى يمين موسى، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر؛ قاله الطبرى وغيره؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال ؛ أى كلمناه من غير وحى . وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه . وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا » أى أدنى حتى سمع صرير الأقلام . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ وذلك حين سأل فقال : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي » .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : هو إسمعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضى بثوابه، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسمعيل الذبيح أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن الذبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم ويأتى فى «والصافات»[2] إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(١) بكسر اللام قراءة «نافع» . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى ... الخ » . آية ١٠٢

الثانيــة — صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضدّه وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدّم بيـانه فى « براءة »[1] . وقـد أثنى الله تعالى على نبيه إسمعيل فوصفه بصدق الوعد . وآختلف فى ذلك ؛ فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى . هذا فى قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا أن يلقـاه فى موضع فجاء إسمعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء ؛ فقال له : مازلت هاهنا فى انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسـلم قبل بعثه ؛ ذكره النقـاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبـد الله بن أبى الحمْساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام، فجئت فإذا هو فى مكانه؛ فقال : "يافتى لقد شققت علىّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك" لفظ أبى داود . وقال يزيد الرقاشى : انتظره إسمعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره المـاوردىّ . وفى كتاب ابن سـلام أنه انتظره سنة . وذكره الزمخشرى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره فى مكان فانتظره سنة . وذكره القشيرى قال : فلم يبرح من مكانه سـنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن التـاجر الذى سألك أن تقعـد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهـذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسمعيل لم يَعِد شيئا إلا وَفَّى به، وهـذا قول صحيح، وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية؛ والله أعلم .

الثالثـة — من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العِدة دَيْن" . وفى الأثر "وأْى[2] المؤمن واجب" أى فى أخلاق المؤمنين . وإنمـا قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجمـاع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمـال ما كان لِيَضْرِب به مع الغرماء ؛ فلذلك قلنـا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتـدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقـلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجـةٍ * نَعَـمْ يقضِها والحـرُّ لِلوأْيِ ضامن

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) الوأى : الوعد .

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمـد والشكر، وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بنذره؛ وكفى بهذا مدحا وثناء، وبمـا خالفه ذما .

الرابعـة — قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فمـا أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك فى قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم، وثَمَّ رجال يشهدون عليه فمـا أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه آثنان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ والشافعى وسائر الفقهاء : إن العدة لا يلزم منها شىء لأنها منافع لم يقبضها فى العارية لأنهـا طارئة ، وفى غير العارية هى أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفى البخارى « وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ »؛ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد وذكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب. قال البخارى[1] : ورأيت إسحق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أَشْوَع .

الخامسـة — ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ قيل : أرسـل إسمعيل إلى جُرْهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسمعيل بالذكر تشريفا له . والله أعلم .

السادسـة — ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ قال الحسن : يعنى أمته . وفى حرف ابن مسعود « وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة » . ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى رضيا زاكيا صالحا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضىّ بنـاه على رضيت ؛ قالا . وأهل الحجـاز يقولون : مرضوّ . وقال الكسائى والفراء : من العرب من يقول رِضَوَان ورِضَيَان[2] فرضوان على مرضوّ، ورضيان على مرضىّ ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضـوان وربوان . قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون فى الخط فيكتبون ربا بالياء ثم يخطئون فيما هو أشدّ من هذا فيقولون رِبيان ولا يجوز إلا رِبَوان ورِضَوان؛ قال الله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » .

---

(١) قاله فى « التاريخ الأوسط » كما فى « تهذيب التهذيب » . (٢) أى فى تثنية الرضا .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوّل من نظر فى علم النجوم والحساب وسيرها . وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما فى حديث أبى ذر . الزمخشرى : وقيل سمى إدريسُ إدريسَ لكثرة درسه كتاب الله تعالى ؛ وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح؛ لأنه او كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمى وليس من الإبلاس كما يزعمون؛ ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت؛ ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام فى تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوى مشتقا من الدرس . قال الثعلبى والغزنوى وغيرهما : وهو جدّ نوح وهو خطأ ؛ وقد تقدّم فى «الأعراف»[1] بيانه . وكذا وقع فى السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبى فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم، وخط بالقلم . ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدرى وغيرهما : يعنى السماء الرابعة . وروى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال ابن عباس والضحاك : يعنى السماء السادسة؛ ذكره المهدوى .

قلت : ووقع فى البخارى عن شريك بن عبد الله بن أبى نَمِر قال سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث، وفيه : كل سماء فيها أنبياء — قد سماهم — منهم إدريس فى الثانية . وهو وَهَمٌ، والصحيح أنه فى السماء

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة؛ كذلك رواه ثابت الْبُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره مسلم في الصحيح. وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة". خرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يارب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خَفِّف عنه من ثقلها. يعني الملك الموكل بفلك الشمس؛ يقول إدريس: اللهم خَفِّف عنه من ثقلها وٱحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف، فقال: يارب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: «أما إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته» فقال: يارب ٱجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزداد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها؛ فقال للملك: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسي. قال نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لي صديق من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت علمه أعلمته متى يموت. قال: «نعم» ثم نظر في ديوانه، فقال: إنك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال «وكيف»؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك؛ قال: ٱنطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملك فوجده ميتا. وقال السدّي: إنه نام ذات يوم، وٱشتدّ عليه حرّ الشمس، فقام وهو منها في كرب؛ فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها، فإنه يمارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه؛ فقال ملك الشمس: يارب من أين لي هذا؟. قال: «دعا لك رجل من بني آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أني لو رأيت الجنة.

قال : فرفعه على جناحه ، ثم طار به ، فبينما هو فى السماء الرابعة التقى بملك الموت ينظر فى السماء ، ينظر يمينا وشمالا ، فسلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ؛ فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأى معنى رفعته هنا ؟ قال : رفعته لأريه الجنة . قال : فإن الله تعالى أمرنى أن أقبض روح إدريس فى السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة ، فنزلت فإذا هو معك ؛ فقبض روحه فرفعها إلى الجنة ، ودفنت الملائكة جثته فى السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض فى زمانه ، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له ، فأتاه فى صورة آدمى ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار ؛ فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل . ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ؛ وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت ؛ استأذنت ربى أن أصحبك فأذن لى ؛ فقال : إن لى إليك حاجة . قال : وما هى ؟ قال : أن تقبض روحى . فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه ؛ فقبضه وردّه إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة فى قبض روحك ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشدّ استعدادا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لى إليك حاجة أخرى . قال : وما هى ؟ قال : أن ترفعنى إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ؛ فأذن الله تعالى له فى رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرنى الجنة ؛ فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرّك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما ، فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذقته ، وقال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها ؛ وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » فكيف أخرج ؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « بإذنى دخل الجنة وبأمرى يخرج » . فهو حى هنالك فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : فإدريس تارة يرتع فى الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة فى السماء .

قوله تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس وحده . ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم وحده . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسمعيل و إسحق ويعقوب. ﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسرائيل﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيي وعيسى. فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسمعيل و إسحق و يعقوب شرف القرب من إبراهيم. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أى إلى الاسلام: ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ بالإيمان. ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾. وقرأ شبل بن عباد المكى «يتلى» بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل. ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء. وقد مضى فى « سبحان »(١) . يقال بكى يبكى بكاء وبُكًى وبُكِيًّا، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن؛ أى ليس معه صوت كما قال الشاعر(٢) :

بكت عيني وحُقّ لها بكاها * وما يغني البكاءُ ولا العَوِيلُ

«وسجدا» نصب على الحال «و بكيا» عطف عليه .

الثانيــة — فى هـذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا فى القلوب . قال الحسن « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجـدا و بكيا » فى الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها، و يبكون عند ذكرها . والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون و يبكون

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب، رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك فى أبيات .

عند تلاوته؛ قال الكيا : وفى هـذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذى كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه .

الثالثة — احتج أبو بكر الرازى بهـذه الآية على وجوب سجـود القرآن على المستمع والقارئ . قال الكيا : وهـذا بعيد، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى . وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعة — قال العلماء : ينبغى لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة « الم تنزيل » قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة « سبحان » قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك .

قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى أولاد سوء . قال أبو عبيدة: حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحى هذه الأمة

أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة زنًى. وقد تقدّم القول فى «خَلْفٌ» فى « الأعراف »[1] فلا معنى للإعادة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾وقرأ عبد الله والحسن «أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ» على الجمع . وهو ذمّ ونص فى أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يو بق بها صاحبها ولا خلاف فى ذلك . وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لمـاسواها أضيع . واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود . وقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد أيضا وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان ؛ أى يكون فى هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهـذه الآية . واختلفوا أيضا فى معنى إضاعتها ؛ فقـال القرظى : هى إضاعة كفر وجحد بها . وقال القاسم بن مخيمرة ، وعبد الله بن مسعود : هى إضاعة أوقاتها ، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح ، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصح ولا تجزئ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى صـلى وجاء فسلم عليــه "ارجع فصل فإنك لم تصل" ثلاث مرات خرجه مسلم ، وقال حذيفة لرجل يصلى فطفّف[2] : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين عاما . قال : ما صليت ، ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطـرة محمد صلى الله عليه وسـلم . ثم قال : إن الرجل ليخفف الصـلاة و يتم ويحسن . خرجه البخارى واللفظ للنسائى ، وفى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل" يعنى صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال : حديث حسن صحيح ؛ والعمل على هـذا عند أهل العلم من أصحـاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والسـجود ؛ قال الشافعى وأحمـد و إسحق : من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاسـدة ؛ قال صلى الله عليه وسـلم "تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشـيطان قام فنقرها أربعـا لا يذكر الله فيها إلا قليلا" . وهـذا ذم لمن يفعل ذلك . وقال فروة بن خالد بن سـنان : استبطأ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى نقص ، والتطفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص .

أصحاب الضحاك مرة أميرا فى صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقرأ الضحاك هذه الآية، ثم قال : والله لأن أدعها أحبّ إلى من أن أضيّعها . وجملة القول فى هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، ولا دين لمن لاصلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » أى اللذات والمعاصى .

الثالثة — روى الترمذى وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبى أنه أتى المدينة فلق أبا هريرة فقال له : يافتى ألا أحدّثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى . قال : " إن أوّل مايحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فإن كان له تطوّع قال أكملوا لعبدى فريضته من تطوّعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك " . قال يونس : وأحسبه عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبى داود . وقال : حدّثنا موسى بن إسمعيل حدّثنا حماد حدّثنا داود بن أبى هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الدارىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : " ثم الزكاة مثل ذلك" " ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" . وأخرجه النسائى عن همام عن الحسن عن حُرَيث بن قَبِيصة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر — قال همام : لاأدرى هذا من كلام قتادة أو من الرواية — فإن انتقص من فريضته شىء قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك " . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شىء قال انظروا هل تجدون له من

تطوع يكمل ماضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك ". قال النسائى : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدّثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها وإلا قال الله عز وجل انظروا لعبدى من تطوّع فإن وجد له تطوّع قال أكملوا به الفريضة ". قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوّع فإنما يكون — والله أعلم — فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك؛ وأما من تركها، أو نسى ثم ذكرها، فلم يأت بها عامدا ، واشتغل بالتطوّع عن أداء فرضها وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضة من تطوعه ، والله أعلم . وقد روى من حديث الشاميين فى هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السَّكُونى عن عبد الله بن قُرْط عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم ". قال أبو عمر : وهذا لايحفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه، وليس بالقوىّ؛ وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه وليست فى الحكم بتامة .

قلت : فينبغى للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه يقرّبه من ربه، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث . فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه فى المعنى حكم الفرض . ومن لايحسن أن يصلى الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل؛ لا جرم تنفل الناس فى أشدّ ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم ، وتهاونهم به ، حتى كأنه غير معتد به . ولعمر الله لقد يشاهد فى الوجود من يشار إليه ، ويظن به العلم تنفله كذلك؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم معرفته بالحديث ؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون . وقد قال العلماء : ولا يجزئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين، حتى يعتدل راكعا وواقفا

وساجدا وجالسا . وهذا هو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر . وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] . وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: « وٱتبعوا الشهواتِ » هو من بنى [المشيد][2] وركب المنظور، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه . وفي الصحيح : " حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات " . وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قال ابن زيد : شرا أو ضلالا أو خيبة، قال[3] :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ＊ ومن يَغْوَ لا يعدمْ على الغَيِّ لائما

وقال عبد الله بن مسعود : هو وادٍ في جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هذا الغيّ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن الغيّ اسم للوادي سمي به لأن الغاوين يصيرون إليه . قال كعب : يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أي هلاكا وضلالا في جهنم . وعنه : غيٌّ واد في جهنم أبعدها قعرا، وأشدّها حرا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم . وقال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وأن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعدّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .　(٢) في الأصل : «من بنى الشديد» .

(٣) البيت للرقش كما في اللسان .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربه . ﴿ وَآمَنَ ﴾ به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر « يُدْخَلُونَ » بفتح الخاء . وفتح الياء الباقون . ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعمائة . ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدلا من الجنة فانتصبت . قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز « جَنَّاتُ عَدْنٍ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةَ عدنٍ » لأن قبله « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أى من عبده وحفظ عهده بالغيب . وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه؛ تقول: أتت علىّ ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل إلىّ من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتبي : « مأتيا » بمعنى آتٍ فهو مفعول بمعنى فاعل . و « مأتيا » مهموز لأنه من أتى يأتى . ومن خفف الهمزة جعلها ألفا . وقال الطبرى : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة؛ أى يأتيها أولياؤه . ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى فى الجنة . واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به . ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " ويروى " لغيت " وهى لغة أبى هريرة؛ كما قال الشاعر[1] :

وَرَبِّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ * عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى؛ أى كلامهم فى الجنة حمد الله وتسبيحه . ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاستثناء المنقطع ، يعنى سلام بعضهم على بعض، وسلام الملك عليهم، قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا؛ أى فى قدر هذين الوقتين؛ إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشيا؛

---

(١) هو رؤبة ونسبه ابن برى للعجاج . « اللسان » .

كقوله تعالى : «غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ» أى قدر شهر؛ قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما . وقيل : عرّفهم اعتدال أحوال أهل الجنة؛ وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا . قال يحيى بن أبي كثير وقتادة : كانت العـرب فى زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم؛ فنزلت . وقيـل : أى رزقهم فيها غير منقطع، كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول: أنا أصبح وأمسى فى ذكرك. أى ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشى بعد فراغهم من لذاتهم ؛ لأنه يتخللها فترات آنتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأوّل . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبى أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين فى اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ثم قال : وعوّض الله عز وجل المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [تختلف][1] عن صفة العشاء وهيئته؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوك . وكذلك يكون فى الجنـة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهـم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا قال رجل : يا رسول الله هل فى الجنة من ليل؟ قال : " وما هيّجك على هـذا " قال سمعت الله تعـالى يذكر فى الكتاب « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقلت : الليل بين البكرة والعشى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يَرُدُّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة" وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» . وقال العلماء : ليس فى الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم فى نور أبدا ؛ إنمـا يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزىّ والمهدوىّ وغيرهما .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُوَرِّثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب » . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ قال ابن عباس : أى من آتقانى وعمل بطاعتى . وقيل: هو على التقديم والتأخير، تقديره : نورث من كان تقيا من عبادنا .

قوله تعالى : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" قال: فنزلت هذه الآية «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية . قال هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدّثنا خلاد بن يحيى حدّثنا عمر بن ذرّ قال سمعت أبى يحدّث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك » " الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه، فقال : " ما الذى أبطأك " قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبكم(١) ، ولا تستاكون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبى: آحتبس جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوما . وقال مجاهد : آثنتى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما؛ وقيل : ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أبطأت علىّ حتى

(١) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل؛ واحدها راجبة .

ساء ظنى وٱشتقت إليك" فقال جبريل عليه السلام : إنى كنت أشوق، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت، و إذا حُبست احتبست، فنزلت الآية : «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» وأنزل «وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» . ذكره الثعلبي والواحدى والقشيرى وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك. وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة . «وَمَا نَتَنَزَّلُ» أى قال الله تعالى : قل يا جبريل «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» . وهذا يحتمل وجهين : أحدهما — إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . الثانى — إذا أمرك ربك نزّلنا عليك ، فيكون الأمر على الأول متوجها إلى النزول، وعلى الوجه الثانى متوجها إلى التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ﴾ أى لله . ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أى علم ما بين أيدينا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ» من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : «له ما بين أيدينا» من امر الآخرة «وما خلفنا» ما مضى من الدنيا «وما بين ذلك» ما بين النفختين و بينهما أربعون سنة . الأخفش : «ما بين أيدينا» ما كان قبل أن نخلق «وما خلفنا» ما يكون بعد أن نموت «وما بين ذلك» ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : «ما بين أيدينا» من الثواب والعقاب وأمور الآخرة . «وما خلفنا» ما مضى من أعمالنا فى الدنيا «وما بين ذلك» أى ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . ويحتمل خامسا : «ما بين أيدينا» السماء «وما خلفنا» الأرض «وما بين ذلك» أى ما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس فى رواية : «له ما بين أيدينا» يريد الدنيا إلى الأرض «وما خلفنا» يريد السموات — وهذا على عكس ما قبله — «وما بين ذلك» يريد الهواء؛ ذكر الأول الماوردى والثانى القشيرى . الزمخشرى : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التى نحن فيها . ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ماذكرنا؛ كما قال : «لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ»

أى بين ما ذكرنا . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها، ولا ينسى شيئا منها .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما؛ فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ أى وحّده لذلك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى؛ كما يقوله أهل الحق، وهو القول الحق؛ لأن الرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض، دخل فى ذلك اكتساب الخلق، ووجبت عبادته؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحى عنك، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل اصطبر اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأبدل من التاء طاء؛ كما تقول من الصوم : اصطام . ﴿ هل تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولدا أى نظيرا، أو مثلا، أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المساماة . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجلّ إسناد علمته روى فى هذا الحرف، وهو قول صحيح؛ لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا مبينا فى البسملة[1] . والحمد لله . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد « هل تعلم له سميا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكلبى : هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله، أو يقال له الله إلا الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ الإنسان هنا أبيّ ابن خلف، وجد عظاما بالية ففتها بيده، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت؛ قاله الكلبي؛ ذكره الواحدى والثعلبي والقشيرى . وقال المهدوى : نزلت فى الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس . واللام فى « لسوف أخرج حيا » للتأكيد . كأنه قيل له : إذا مامت لسوف تبعث حيا فقال : « أئذا مامت لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا فجاءت اللام فى الجواب كما كانت فى القول الأول، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مامت » على الخبر . والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة « لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا » ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى :﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى أو لا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر «أَوَلَا يَذَّكَّرُ» . وقرأ شيبة ونافع وعاصم « أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف . والاختيار التشديد وأصله يتذكر؛ لقوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب » وأخواتها . وفى حرف أبيّ «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة لخط المصحف . ومعنى « يَتَذَكَّرُ » يتفكر، ومعنى « يَذْكُرُ » يتنبه و يعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أى ولنحشرن الشياطين قرناء لهم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة؛ كما قال : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . الزمخشرى : والواو فى « والشَّيَاطِين » يجوز أن تكون للعطف و بمعنى مع ، وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم؛ يقرنون كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم فى المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسرورا إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم ، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عَتْلا [(١)] على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف ، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم . وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو؛ قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » على الحالة المعهودة فى مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب . لما فى ذلك من الاستيفاز [(٢)] والقلق ، وإطلاق الحُبَا خلاف الطمأنينة ؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا . وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم . على أن «جثيا» حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب ، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب . ويقال : إن معنى ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

(١) العتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . (٢) الاستيفاز : عدم الاطمئنان ؛ قال الجوهرى : قعد مستوفزا أى غير مطمئن .

أى جثيا على ركبهم؛ عن مجاهد وقتادة؛ أى أنهم لشدّة ماهم فيه لا يقدرون على القيام . « وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أى داخله مطيفين به ؛ فقوله : « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول . ويجوز أن يكون قبل الدخول . و « جثيا » جمع جاثٍ . يقال : جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثيا على فعول فيهما . وأجثاه غيره . وقوم جُثِيّ أيضا؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس، وجِثِيّ أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر . وقال ابن عباس : « جثيا » جماعات. وقال مقاتل : جمعا جمعا؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوة وجِثْوة ثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع؛ فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا؛ قال طرفة :

ترَى جُثْوَتين من تُرابٍ عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنضَّدِ

وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب . وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدّم . وذلك لضيق المكان ؛ أى لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما . وقيل : جثيا على ركبهم للتخاصم ؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » . وقال الكميت :

هم تركوا سَرَاتَهُم جثيًّا * وهم دون السَّراة مقرَّنينا

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أى لنستخرجن من كل أمة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ النحاس : وهذه آية مشكلة في الإعراب ؛ لأن القراء كلهم يقرءون « أيهم » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه : « ثم لننزعن من كل شيعةٍ أَيَّهُمْ » بالنصب أوقع على أيهم لننزعن . قال أبو إسحق في رفع « أيهم » ثلاثة أقوال؛ قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذى يقال من أجل عتوه أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وأنشد الخليل، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ * فأبيت لا حرِجٌ ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له لا هو حرج ولا محروم . وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت أبا إسحق يختار هذا القول ويستحسنه؛ قال : لأنه معنى قول أهل التفسير . وزعم أن معنى

« ثم لننزعن من كل شيعة » ثم لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى . كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدّهم عتيا ثم الذى يليه؛ وهذا نص كلام أبى إسحق فى معنى الآية. وقال يونس: « لننزعن » بمنزلة الأفعال التى تلغى ورفع « أيهم » على الابتداء . المهدوى : والفعل الذى هو «لننزعن» عند يونس معلق؛ قال أبو على : معنى ذلك أنه يعمل فى موضع « أيهم أشدّ » لا أنه ملغى . ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعن» ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه . وقال سيبويه : « أيهم » مبنى على الضم لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل ومن أفضل كان قبيحا، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف فى « أيهم » جائز . قال أبو جعفر : وما علمت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه فى هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما؛قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهى مفردة لأنها تضاف، فكيف يبنيها وهى مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هـذه الثلاثة الأقوال . أبو علىّ : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه، كما حذف فى « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التى ذكرها أبو إسحق؛ قال الكسائى : « لننزعن » واقعة على المعنى، كما تقول : لبست من الثياب، وأكلت من الطعام، ولم يقع « لننزعن » على « أيهم » فينصبها . زاد المهدوى : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شيعة » وقوله : « أيهم أشد » جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء؛ ولا يرى سيبويه زيادة « من » فى الواجب. وقال الفراء : المعنى ثم لننزعن بالنداء ، ومعنى « لننزعن » لننادين . المهدوى : ونادى فعل يعلق إذا كان بعـده جملة، كظننت فتعمل فى المعنى ولا تعمل فى اللفظ . قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول فى « أيهم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا، كما تقول: ضربت القوم أيهم غضب ؛ والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهـذه ستة

أقوال، وسمعت على بن سليمان يحكى عن محمد بن يزيد قال : «أيهم» متعلق «بشيعة» فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى : ثم لننزعن من الذين تشايعوا أيهم، أى من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وهــذا قول حسن . وقــد حكى الكسائى أن التشايع التعاون . و«عتيا» نصب على البيان . ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا[1] ﴾ أى أحق بدخول النار . يقال : صَلِيَ يَصْلَى صُليا، نحو مضى الشيء يمضى مُضِيا إذا ذهب، وهوى يهوى هُوِيا . وقال الجوهرى : ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها؛ فإن ألقيتــه فيها إلقــاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليتــه بالألف وصَلَّيته تصلية . وقرئ «ويُصَلَّى سَــعِيراً» . ومن خفف فهو من قولهم : صَلِي فلان بالنار (بالكسر) يصلى صُليا احترق؛ قال الله تعالى : «هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا» . قال العجاج[2] :

* واللهِ لولا النارُ أن نصلاها *

ويقال أيضا : صلِي بالأمر إذا قاسى حره وشدّته . قال الطُّهَوِى :

وَلَا تَبْــلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ * صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حِينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها . قال أبو زبيد :

وقــد تَصلَّيْتُ حَرَّ حَرْبِهــمُ * كما تَصلَّى المَقْرُورُ من قَرَسِ

وفلانٌ لا يُصطلَى بناره إذا كان شجاعا لا يُطاق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَإِنْ مِنْكُمْ» هذا قسم، والواو يتضمنه . ويفسره حديث النبي صلى الله عليــه وسلم "لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تَحِلَّة

(١) «صليا» بضم الصاد قراءة «نافع» وعليها التفسير .

(٢) ونسبه فى اللسان مادة «قيه» إلى الزفيان، وأورده فى أبيات هى :

ما بال عين شوقها استبكاها * فى رسم دار لبست بلاها

تالله لولا النار أن نصلاها * أو يدعو النــاس علينا الله

* لمــا سمعنــا لأمير قاها *

القــاه : الطــاعة .

القسم[١]" قال الزهرى : كأنه يريد هـذه الاية : « وإن منكم إلا واردها » ذكره أبو داود الطيالسى؛ فقوله : « إلا تحلة القسم » يخرج فى التفسير المسند؛ لأن القسم المذكور فى هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » . وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : « والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » والأول أشهر؛ والمعنى متقارب .

الثانيــة ــ وآختلف الناس فى الورود؛ فقيـل : الورود الدخول؛ روى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " الورود الدخول لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » " أسنده أبو عمر فى كتاب « التمهيـد » . وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ «وإن منكم إلا واردها» الورود الدخول ؛ على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقـه بالقرآن . وفى مسند الدرامى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرد النـاس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كلمح البصر ثم كالريح ثم كحُضْر[٢] الفرس ثم كالراكب المجدّ فى رَحْله ثم كشدّ الرجل فى مشيته " . وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجى : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها، أما أنا فينجينى الله منها، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق كثير من العلمـاء من تحقق الورود والجهل بالصدر ؛ وقـد بيناه فى « التذكرة » . وقالت فرقة : الورود المر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى، ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقاله الحسن أيضا؛ قال : ليس الورود الدخول، إنمـا تقول : وردت البصرة ولم أدخلها . قال : فالورود أن يمرّوا على الصراط . قال أبو بكر الأنبارى : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغـة، وآحتجوا بقول الله تعـالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

(١) " إلا تحلة القسم " : أى لا يدخل النار ليعاقبه بها ؛ ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقـدر ما يبر الله به قسمه .

(٢) الحضر (بالضم) : العدو؛ وشدّ الرجل : عدوه أيضا .

مُبْعَدُونَ » قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثَمَّ » بفتح الثاء « نُنَجِّي الَّذِينَ ٱتَّقَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : « أولئك عنها مبعدون » عن العذاب فيها ، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها ، ولا يحس منها وجعا ولا ألما ، فهو مبعد عنها في الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى : « ثم ننجي الذين ٱتقوا » بضم الثاء ؛ فـ « ثم » تدل على نجاء بعد الدخول .

قلت : وفي صحيح مسلم " ثم يُضرَبُ الجسر على جهنم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون اللَّهُمّ سَلِّم سَلِّمْ " قيل : يا رسول الله وما الجِسرُ ؟ قال : " دَحْضٌ مَزِلَّةٌ(١) فيه خَطَاطيفُ وكَلَاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكة يقال لها السَّعْدان فيمرُّ المؤمنون كطَرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّمٌ ومخدوشٌ مُرْسَل ومَكْدُوس في نار جهنم " الحديث . وبه ٱحتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف وٱطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين ٱتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أي يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » أي أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا(٢) جِمَامُهُ * وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية " قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَمَه « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » " . أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر ، قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة . الحديث . ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » . وقال مجاهد :

(١) دحض مزلة : هما بمعنى ، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر . (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان صافيا . وجمام جمع جم وجمة ، وهو الماء المجتمع . والحاضر : النازل على الماء . والمتخيم : المقيم ، وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . يصف زهير الظعائن بأنهن في أمن ومنعة ، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو في أهله ووطنه . والبيت من معلقته .

ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها . روى أبو هريرة أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عاد مريضا من وعك به، فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم : "أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول « هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظّه من النار »" أسنده أبو عمر قال : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن إسمعيل الصائغ قال حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسمعيل بن عبيد الله [عن أبى صالح][1] الأشعرى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضا فذكره . وفى الحديث "الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار". وقالت فرقة : الورود النظر إليها فى القبر، فينجّى منها الفائز، و يصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعـالى . واحتجوا بحديث ابن عمـر : "إذا مات أحدكم عرض عليـه مقعده بالغداة والعشيّ" الحـديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعـالى : « وإِن مِنكم إلا واردها » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « و إن مِنهم » ردا على الآيات التى قبلها فى الكفار : قوله « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا . ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا . وَإِنْ مِنْهُمْ » وكذلك قرأ عكرمة و جماعة، وعليها فلا شعب فى هـذه القراءة . وقالت فرقة : المراد بـ « منكم » الكفرة، والمعنى : قل لهم يا محمد . وهذا التأويل أيضا سهل التناول؛ والكاف فى « منكم » راجعة إلى الهاء فى « لنحشرنهم والشياطين . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهـاء، فقد عرف ذلك فى قوله عز وجل : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » معناه كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهـاء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله ، ولا بد من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف فى الورود . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة

(١) الزيادة من « تهذيب التهذيب » وتفسير الطبرى .

والسلام : "فتمسّه النار" لأن المسيس حقيقته فى اللغة المماسة، إلا أنها تكون بردًا وسلاما على المؤمنين، و ينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجِّى منها . نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما، وخرج منها غانما . فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا : لا نطلق هذا، ولكن نقول: إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أوّل الباب؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ . وقال ابن الأنبارى محتجا لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب؛ كما قال : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» فأبدل الكاف من الهاء . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس » (1) .

الثالثة — الاستثناء فى قوله عليه السلام : "إلا تَحِلَّةَ القَسَم" يحتمل أن يكون استثناء منقطعا : لكن تحلة القسم؛ وهذا معروف فى كلام العرب؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلا؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ "إلا تحلة القسم" أى لكن تحلة القسم لا بد منها فى قوله تعالى : « وإن مِنكم إلا وارِدها » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون فى ذلك شيء من مسيس؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : "لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار" والجُنّة الوقاية والستر، ومن وُقِى النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلا، ولو مسّته لما كان موقى .

الرابعة — هذا الحديث يفسر الأوّل لأن فيه ذكر الحِسْبة؛ ولذلك جعله مالك بأثره مفسرا له . ويقيد هذا الحديث الثانى أيضا مارواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم "من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث كان (2) له حجابا من النار — أو —

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ ومابعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) "كان" : بالإفراد وٱسمها ضمير يعود على الموت المفهوم مما سبق؛ أى كان موتهم له حجابا . ولأبى ذرعن الكشميهنى كانوا له حجابا" . « قسطلانى » .

دخل الجنة " فقوله عليه السلام : " لم يبلغوا الحِنْث " — ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم حِنْث — دليل على أن أطفال المسلمين فى الجنة — والله أعلم — لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم آستحال أن يُرحَموا من أجل [من] (١) ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء فى أن أطفال المسلمين فى الجنة ، ولم يخالف فى ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية بجعلتهم فى المشيئة؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم ، ولا يجوز على مثلهم الغلط ، إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول؛ وأن قوله عليه الصلاة والسلام : " الشقىّ من شقى فى بطن أمه والسعيد من سعد فى بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد فى بطن أمه ولم يشقَ بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : " يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم " ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذى يرويه ضعيف لا يحتج به . وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرّج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له آبن صغير فوَجد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما يَسرك ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يَستفتح لك " فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : " بل للمسلمين عامة " قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح؛ يعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ؛ وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندى فى هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، وآجتنب الكبائر ، وصبر وآحتسب فى مصيبته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه فى ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قولُه : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مُبْعَدُونَ » وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها . وفي الخبر : " تقول النار للؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " .

الخامسة — قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً » الحتم إيجاب القضاء ؛ أي كان ذلك حتما . «مقضيا» أي قضاه الله تعالى عليكم . وقال ابن مسعود : أي قسما واجبا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي نخلصهم ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾ وهذا مما يدل على أن الورود الدخول ؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يخلّد . وقد مضى بيان هذا في غير موضع . وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة « ثُمَّ نُنْجِي » مخففة من أنجى . وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي . وثقّل الباقون . وقرأ ابن أبي ليلى « ثَمَّهْ » بفتح الثاء أي هناك . و « ثَمَّ » ظرف إلا أنه مبني لأنه غير محصّل فبني كما بني ذا ؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاء .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : « أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً » . وقال فيهم : « ونذر الظالمين فيها جثيا » أي هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعزّزوا بالدنيا، وقالوا : فما بالنا — إن كنا على باطل — أكثر أموالا وأعز نفرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

المحقّ فى دينه، وكأنهم لم يروا فى الكفار فقيرا ولا فى المسلمين غنيا، ولم يعلموا أن الله تعالى نَحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها . و « بينات » معناه مرتّلات الألفاظ، ملخصة المعانى، مبينات المقاصد؛ إما محكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تُحدّى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا و براهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة؛ كقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا . ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركى قريش النضر بن الحرث وأصحابه . ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت فيهم قشافة، وفى عيشهم خشونة، وفى ثيابهم رثاثة؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم، و يدهنون رءوسهم، و يلبسون خير ثيابهم، فقالوا للؤمنين : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مُقَامًا » بضم الميم وهو موضع الإقامة . و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقون « مَقَامًا » بالفتح؛ أى منزلا ومسكنا . وقيل : المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمور الجليلة؛ أى أىّ الفريقين أكثر جاها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجلسا؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا المنظر وهو المجلس فى اللغة وهو النادى . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم . وناداه جالسه فى النادى . قال : * أنادى به آل الوليد وجعفرا *

والندىّ على فعيل مجلس القوم ومتحدّثهم، وكذلك الندوة والنادى [والمُنْتَدَى](١) والمُتَنَدَّى، فإن تفرق القوم فليس بندىّ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أى من أمة وجماعة . ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أى متاعا كثيرا؛ قال(٢) :

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ * أَثِيثٍ كقِنْوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ

---

(١) الزيادة من « الصحاح » للجوهرى . (٢) هو امرؤ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم الشديد السواد . وأثيث : كثير أصل النبات . والقنو : العذق وهو الشمراخ . والمتعثكل الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته . وقيل : المتدلى .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جدّ من الفَرْش والخُرْثىّ ما لُبس منها، وأنشد الحسن ابن علىّ الطوسى فقال :

تقادم العهد من أم الوليد بنا * دهرا وصار أثاث البيت خُرْثِيّا

وقال ابن عباس : هيئة . مقاتل : ثيابا . « وَرِئْيًا » أى منظرا حسنا . وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة « ورِيًّا » بغير همز . وقرأ أهل الكوفة « ورِئيا » بالهمز . وحكى يعقوب أن طلحة قرأ « وَرِيًا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس : « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وزِيًّا » بالزاى ؛ فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق : ويجوز « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ورِيئًا » بياء بعدها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة فى هذا حسنة وفيها تقديران : أحدهما — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء، وأدغمت الياء فى الياء . وكان هذا حسنا لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى هذا قال ابن عباس : الرِّئى المنظر؛ فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولباسا . والوجه الثانى — أن جلودهم مرتوية من النعمة؛ فلا يجوز الهمز على هذا . وفى رواية ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر « ورئيا » بالهمز تكون على الوجه الأول . وهى قراءة أهل الكوفة وأبى عمرو من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مُصَرِّف « ورِيًا » بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا . وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء، ثم حذفت إحدى اليائين . المهدوى : ويجوز أن يكون « رِيئًا » فقلبت ياء فصارت رييا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت . وقد قرأ بعضهم « ورِيًّا » على القلب وهى القراءة الخامسة . وحكى سيبويه رَاَءَ بمعنى رأى . الجوهرى : من همزه جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى فقال :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا * بذى الرِّئْى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رَوِيت ألوانهم وجلودهم رِيًّا ؛ أى امتلأت وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبىّ ابن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى

ويزيد البربرى « وزيا » بالزاى فهو الهيئة والحسن . ويجوز أن يكون من زَوَيْتُ أى جمعت ، فيكون أصلها زِويا فقلبت الواو ياء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " زُويت لى الأرض " أى جمعت ؛ أى فلم يغن ذلك عنهم شيئا من عذاب الله تعالى ؛ فليعش هؤلاء ما شاءوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا ؛ أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى فى الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فليدعه فى طغيان جهله وكفره؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر؛ أى من كان فى الضلالة مدّه الرحمن مدا حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه . نظيره : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقوله : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ومثله كثير؛ أى فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه فى العمر؛ فمصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية فى التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالى فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمدد » خبرا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و «إذا» مع الماضى بمعنى المستقبل؛ أى حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى تنكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

قوله تعالى : وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم فى النّصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم؛ قال معناه الكلبى ومقاتل .

ويحتمل ثالثا — أى « ويزيد الله الذين اهتدوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة؛ والمعنى متقارب . وقد تقدّم القول فى معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى فى « آل عمران »[1] وغيرها . ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ تقدّم فى « الكهف »[2] القول فيها . ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أى جزاء : ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أى فى الآخرة مما افتخر به الكفار فى الدنيا . و « المَرَدّ » مصدر كالرد ؛ أى وخير ردا على عاملها بالثواب ؛ يقال : هذا أَرَدّ عليك ، أى أنفع لك . وقيل : « خير مردا » أى مرجعا فكل أحد يردّ إلى عمله الذى عمله .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن خباب قال كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لى : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال : فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال : وإنى لمبعوث من بعد الموت ؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش؛ فنزلت هذه الآية « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . فى رواية قال : كنت قينا[3] فى الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه . خرجه البخارى أيضا . وقال الكلبى ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته؛ فقال العاص : ما عندى اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضينى ؛ فقال العاص ياخباب مالك ؟ ! ما كنت هكذا، وأن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : إنى كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك . قال : أولستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟ قال خباب : بلى . قال : فأخرنى حتى أقضيك

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) القين : الحداد والصائغ .

فى الجنة — استهزاء — فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأقضيك فيها، فوالله لا تكون أنت ياخباب وأصحابك أولى بها منى، فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا » يعنى العاص ابن وائل؛ الآيات . ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ قال ابن عباس : أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ ! . وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أفى الجنة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال قتادة والثورى : أى عملا صالحا . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبى: عاهد الله تعالى أن يدخله الجنة . ﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ عليه ؛ أى لم يكن ذلك؛ لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدوّن فى الصحاح . وقرأ حمزة والكسائى « وَوُلْدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . واختلف فى الضم والفتح على وجهين : أحدهما — أنهما لغتان معناهما واحد، يقال وَلد ووُلْد كما يقال عَدَم وعُدْم . وقال الحرث بن حِلِّزة :

ولقد رأيتُ معاشرًا * قد ثَمَّروا مَالًا ووُلْدَا

وقال آخر :

فليتَ فلانا كان فى بطن أُمِّه * وليت فلانا كان وُلْدَ حِمارِ

والثانى — أن قيسا تجعل الوُلد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الماوردى : وفى قوله تعالى : « لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » وجهان : أحدهما — أنه أراد فى الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ قاله الكلبى . الثانى — أنه أراد فى الدنيا، وهو قول الجمهور؛ وفيه وجهان محتملان : أحدهما — إن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى لأوتين مالا وولدا . الثانى — ولو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبى أشبه بظاهر الأحاديث، بل نصها يدل على ذلك؛ قال مسروق : سمعت خبّاب بن الأرتّ يقول : جئت العاصى بن وائل السَّهْمِى أتقاضاه حقا لى عنده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟ ! . فقلت : نعم . فقال : إن لى هناك مالا وولدا فأقضيك؛ فنزلت هذه الآية؛ قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » ألفه ألف ٱستفهام لمجىء « أم » بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله أاطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدّة بعد الألف فقالوا : آطلع كما قالوا : « آلله خير» « آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ » قيل له : كان الأصل فى هذا « أالله » « أالذكرين » فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الآستفهام والخبر، وذلك أنهم لو قالوا : الله خير بلا مدّ لالتبس الاستفهام بالخبر، ولم يحتاجوا إلى هذه المدّة فى قوله : «أطلع» لأن ألف الآستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة، وذلك أنك تقول فى الاستفهام: أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفى ؟ أستغفرت ؟ بفتح الألف، وتقول فى الخبر: اِطلع، اِفترى، اِصطفى، اِستغفرت لهم بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعـالى : « كَلَّا » ليس فى النصف الأول ذكر « كلّا » (١) وإنما جاء ذكره فى النصف الثـانى . وهو يكون بمعنيين : أحدهما بمعنى حقّا . والثانى بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتـدئ « كلا » أى حقّا . وإذا كانت بمعنى لا، كان الوقف على « كلا » جائزا، كما فى هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف على قوله : « عَهْدًا » وتبتدئ « كلا » أى حقا « سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » . وكذا قوله تعالى : « لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كلا » وعلى « تركت » . وقوله : « وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا » الوقف على « كلا» لأن المعنى؛ لا — وليس الأمر كما تظن « فاذهبا » . فليس للحق فى هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كلا » بمنزلة سوف لأنها صلة، وهى حرف ردّ فكأنها «نعم» و «لا» فى الآكتفاء. قال: وإن جعلتها صلة لمـا بعدها لم تقف عليها؛ كقولك: كلّا وربِّ الكعبة؛ لا تقف على كلّا؛ لأنه بمنزلة إى ورب الكعبة . قال الله تعـالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ » فالوقف على « كلّا » قبيح لأنه صـلة لليمين . وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول فى « كلا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

(١) أى من القرآن؛ قال الألوسى : « وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن، وقد تكرر فى النصف الأخير فوقع فى ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الردع والزجر . وقال أبو بكر بن الأنبارى : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على «كلا» فى جميع القرآن ؛ لأنهـا جواب والفائدة تقع فيما بعـدها . والقول الأول هو قول أهـل التفسير .

قوله تعـالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أى سنحفظ عليـه قوله فنجازيه به فى الآخرة . ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى سنزيده عذابا فوق عذاب . ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أى نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أى نرثه المـال والولد بعد إهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعـالى : وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَـةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ يعنى مشركى قريش . و «عِزًّا» معنـاه أعوانا ومنعة ؛ يعنى أولادا . والعِزّ المطر الجُـودُ[(١)] أيضا ؛ قاله الهروى . وظاهر الكلام أن «عزا» راجع إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله . ووحد لأنه بمعنى المصدر ؛ أى لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أى ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أوتجحد الآلهة عبادة المشركين لها ؛ كما قال : «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ» . وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة . ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم . عن مجـاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتنطق ، وتقول : يارب عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك . و «كلا» هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا ؛ أى حقا «سيكفرون بِعبادتهم» . وقرأ

(١) المطر الجود : الغزير .

أبو نهيك : « كَلًّا سيكفرون » بالتنوين . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها . قال المهدوى : « كلا » ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم، وقد تقع لتحقيق مابعدها والتنبيه عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى » فلا يوقف عليها على هذا، ويوقف عليها فى المعنى الأول؛ فإن صلح فيها المعنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها . فمن نون « كلا » من قوله : « كَلًّا سيكفرون بِعِبادتِهِم » مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ؛ ونصبه بفعل مضمر؛ والمعنى كَلَّ هذا الرأى والاعتقاد كَلًّا ، يعنى اتخاذهم الآلهة « لِيكونوا لهم عِزا » فيوقف على هذا على « عِزا » وعلى « كَلًّا » . وكذلك فى قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ، والتحقيق لما بعدها . ومن روى ضم الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضا بفعل مضمر، كأنه قال : سيكفرون « كُلًّا سيكفرون بِعِبادتِهِم » يعنى الآلهة .

قلت : فتحصل فى « كَلّا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا، والنفى، والتنبيه، وصلة للقسم، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائى : «لا» تنفى فحسب، و «كلا» تنفى شيئا وتثبت شيئا، فإذا قيل: أكلت تمرا، قلت: كلا إنى أكلت عسلا لا تمرا، ففى هذه الكلمة نفى ما قبلها، وتحقق مابعدها . والضد يكون واحدا ويكون جمعا ، كالعدو والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر؛ أى ويكونون عليهم عونا؛ فلهذا لم يجمع، وهذا فى مقابلة قوله : « لِيكونوا لهم عِزا » والعز مصدر، فكذلك ماوقع فى مقابلته . ثم قيل : الآية فى عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل؛ جريا على توهم الكفرة . وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى سلطناهم عليهم بالإغواء ، وذلك حين قال لإبليس : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ » . وقيل : « أرسلنا » أى خلينا؛ يقال: أرسلت البعير أى خليته ،أى خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم . الزجاج : قَيَّضنا . ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : آمض آمض فى هذا الأمر، حتى توقعهم فى النار . حكى الأول الثعلبى، والثانى الماوردى، والمعنى واحد . الضحاك : تغويهم إغواء . مجاهد : تشليهم إشلاء، وأصله الحركة والغَلَيان، ومنه الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم " قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء " . وائتزت القِدر ائتزازا اشتد غليانها . والأَزُّ التهييج والإغراء، قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريهم على المعاصى . والأز الاختلاط . وقد أززت الشىء أؤزّه أزًّا أى ضممتُ بعضه إلى بعض . قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تطلب العذاب لهم . ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال الكلبى : آجالهم؛ يعنى الأيام والليالى والشهور والسنين إلى آنتهاء أجل العذاب . وقال الضحاك : الأنفاس . ابن عباس : أى نعدّ أنفاسهم فى الدنيا كما نعدّ سنيهم . وقيل: الخطوات . وقيل: اللذات . وقيل : اللحظات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعدّ أعمالهم عدًّا . وقيل: لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثما . روى : أن المأمون قرأ هذه السورة ، فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد . وقيل فى هذا المعنى :

حياتُك أنفاسٌ تُعَدُّ فكلما * مَضَى نَفَسٌ منك آنتقصت به جُزْءَا
يميتك ما يحييك فى كل ليلة * ويَحْدُوك حَادٍ ما يُريد به الهُزءا

ويقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : آثنا عشر ألف نفس فى اليوم، وآثنا عشر ألفا فى الليلة — والله أعلم — فهى تعد وتحصى إحصاء، ولها عدد معلوم، وليس لها مدد، فما أسرع ما تنفد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ في الكلام حذف ، أي إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » وكما في الخبر "من كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله ورسوله" . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْم وفَطْر وزَوْر؛ فهو جمع الوافد، مثل رَكْب وراكب وصَحْب وصاحب، وهو من وفد يفد وَفْدا ووفودا ووِفادة، إذا خرج إلى ملك في فتح أو أمر خطير . الجوهري : يقال وفد فلان على الأمير، أي ورد رسولا فهو وافد، والجمع وفد مثل صاحب وصَحْب، و جمع الوفد وِفاد ووفود، والاسم الوِفادة وأوفدته أنا إلى الأمير، أي أرسلته . وفي التفسير : « وفدا » أي ركبانا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوافد في الغالب يكون راكبا،والوفد الركبان ووحد؛لأنه مصدر. ابن جريج : وفدا على النجائب . وقال عمرو بن قيس المُلَائي: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك . فيقول : كذلك كنتُ في الدنيا أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم، وتلا «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا» و إن الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن ريح ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك . فيقول : كذلك كنتُ في الدنيا أنا عملك السيئ طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قِبل إسناده . قاله ابن العربي في « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، عن ابن عباس بلفظه ومعناه . وقال أيضا عن ابن عباس: من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تَبول ، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض، وسروجها من السندس والإستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من ياقوت، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال . وقال أيضا عن علي رضي الله عنه : ولما نزلت الاية قال علي رضي الله عنه : يارسول الله !

إنى قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفدا إلا ركبانا فما وفد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما إنهم لايحشرون على أقدامهم ولايساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة" . ولفظ الثعلبي فى هذا الخبر عن علىّ أبين . وقال علىّ لما نزلت هذه الآية قلت : يارسول الله! إنى رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا. قال: "ياعلىّ إذا كان المنصرَف من بين يدى الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ »" .

قلت : وهـذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسـون إلا من الموقف، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاةً حُفاةً عُراة غُرلًا[(١)] إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: "يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله — تعالى — حُفَاةً عُراة غُرْلًا" الحديث خرجه البخارى ومسلم، وسيأتى بكماله فى سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى . وتقـدّم فى « آل عمران[(٢)] » من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى . ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابن عباس مخصوصا؛ والله أعلم . وقال أبو هريرة : « وفدا » على الإبل . ابن عباس : ركبانا يؤتون بنوق من الجنة؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها . وقال علىّ : مايحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رحالها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن هَمُّوا بها سارت وإن حركوها طارت . وقيل : يفدون على مايحبون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدّم عن ابن عباس . والله أعلم . وقيل : إنمـا قال « وفدا » لأن من شأن الوفود عنـد العرب أن يقدموا بالبشارات، وينتظرون الجـوائز، فالمتقون ينتظرون العطـاء والثواب . ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السوق الحثّ على السير . و « وِردا » عِطاشا؛ قاله ابن عباس

---

(١) الغرل (جمع الأغرل) : وهو الأقلف . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

وأبو هريرة رضى الله عنهما والحسن . والأخفش والفراء وابن الأعرابى : حفاة مشاة . وقيل : أفواجا . وقال الأزهرى : أى مشاة عِطاشا ، كالإبل ترد الماء؛ فيقال : جاء وِرد بنى فلان . القشيرى : وقوله « وِردا » يدل على العطش ؛ لأن الماء إنما يورد فى الغالب للعطش . وفى « التفسير » : مشاة عِطاشا تتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار لحشر المتقين إلى الجنة . وقيل : « وِردا » أى الورود، كقولك : جئتك إكراما لك أى لإكرامك، أى نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عِطاشا حفاة مشاة أفواجا . قال ابن عرفة : الوِرد القوم يردون الماء، فسمى العطاش وردا لطلبهم ورود الماء؛ كما تقول : قوم صَوْم أى صيام، وقوم زَوْر أى زوّار، فهو اسم على لفظ المصدر، واحدهم وارد. والوِرد أيضا الجماعة التى ترد الماء من طير وإبل . والورد الماء الذى يوردُ . وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء . والورد الجزء [من القرآن][1] يقال : قرأت وِردى . والوِرد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قَليبا[2] .

* يَطْمو إذا الوِرْدُ عليه التَكّا[3] *

أى الورّاد الذين يريدون الماء .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشيء من غير جنسه ؛ أى لكن « مِن اتخذ عِند الرحمن عهدا » يشفع ؛ فـ « مَن » فى موضع نصب على هذا . وقيل : هو فى موضع رفع على البدل من الواو فى « يملكون » ؛ أى لا يملك أحد عند الله الشفاعة « إلا مَن اتخذ عِند الرحمن عهدا » فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء

---

(١) الزيادة من « اللسان » . (٢) القليب : البئر . (٣) صدره :

* صبحن من وشحى قليبا سكا *

وشحى : اسم بئر . والسك : الضيقة . والتك الورد : ازدحم وضرب بعضه بعضا . وطمت البئر تطمو طموا وتطمى طميا : امتلأت .

متصلا . و «المجرمين» فى قوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » يعم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لايملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لى" خرجه مسلم بمعناه، وقد تقدّم . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفَّعون ؛ وعلى القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله : « وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم؛ أى لا تنفعهم شفاعة، كما قال : «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » . وقيل : أى نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة « إلا مَنِ ٱتخذ عِند الرحمٰن عهدا » أى إذا أذن له الله فى الشفاعة . كما قال : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » . وهذا العهد هو الذى قال « أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا » وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التى يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضا : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوّة [إلا][(1)] لله، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا" قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : "يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى هذه الحياة بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك [فلا تكلنى إلى نفسى][(2)] فإنك إن تكلنى إلى نفسى تباعدنى من الخير وتقرّبنى من الشر وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة" .

---

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) الزيادة من رواية الترمذى .

قوله تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله . وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم وخلف : « وُلْدًا » بضم الواو وإسكان اللام، في أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : «لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوُلْدًا » وقد تقدّم، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وُلْدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا » . وفي سورة نوح : « مَالُهُ وَوُلْدُهُ » . ووافقهم في « نوح » خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب . والباقون في الكل بالفتح في الواو واللام، وهما لغتان مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم . قال :

ولقد رأيت معاشرا * قد ثَمَّرُوا مالاً ووُلْدا

وقال آخر :

وليتَ فلانا كان في بطنِ أمّـه * وليت فلانا كان وُلْد حمارِ

وقال في معنى ذلك النابغة :

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّر من مالٍ ومن وَلَدِ

ففتح . وقيس يجعلون الوُلْد بالضم جمعا والوَلَد بالفتح واحدا . قال الجوهري : الوَلَد قد يكون واحدا وجمعا، وكذلك الوُلْد بالضم . ومن أمثال بني أسد : وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ[(١)] . وقد يكون الوُلْد جمع الوَلَد مثل أُسْد وأَسَد: والوِلد بالكسر لغة في الوُلْد . النحاس : وفرق

(١) أي من نفست به فأدمى النفاس عقبيك فهو ابنك .

أبو عبيدة بينهما ؛ فزعم أن الوَلَد يكون للأهل والوَلَد جميعا . قال أبو جعفر : وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة؛ ولا يكون الوَلَد والوُلْد إلا ولد الرجل، ووَلَد وَلَده، إلا أن وَلَدا أكثر فى كلام العرب؛ كما قال :

مَهْلاً فداءً لَكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّر مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون وُلْد جمع وَلَد، كما يقال وَثَن ووُثْن وأَسَد وأُسْد، ويجوز أن يكون وَلَد ووُلْد بمعنى واحد؛ كما يقال عَجَم وعُجْم وعَرَب وعُرْب كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى منكرا عظيما؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . قال الجوهرى : الإدّ والإدّة الداهية والأمر الفظيع؛ ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » وكذلك الآدّ مثل فاعل . وجمع الإدة إِدَدٌ . وأَدّت فلانا داهيةٌ تؤدّه أَدًّا (بالفتح) . والإدّ أيضا الشدّة . [والأَدّ الغلبة والقوة](١) قال الراجز :

نَضَوْنَ عَنّى شِدَّةً وأَدًّا * من بَعْدِ ما كنتُ صُمُلًّا جَلْداً(٢)

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن السلمى « أَدًّا » بفتح الهمزة . النحاس : يقال أد يؤد أدًّا فهو آد والاسم الإدّ؛ إذا جاء بشىء عظيم منكر . وقال الراجز :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنّى نُكْرَا * داهيةً دهياء إدًّا إِمْرَاً

عن غير النحاس؛ الثعلبى : وفيه ثلاث لغات « إدًّا » بالكسر وهى قراءة العامة ، « وأَدًّا » بالفتح وهى قراءة السُّلَمى، و « آدٌّ » مثل مادّ، وهى لغة لبعض العرب؛ رويت عن ابن عباس وأبى العالية؛ وكأنها مأخوذة من الثقل [يقال] : آدَه الحمل يَئُوده أَوْداً أثقله .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة هنا وفى « الشورى » بالتاء . وقراءة نافع ويحيى والكسائى « يكاد » بالياء لتقدم الفعل . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى يتشققن . وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفى « الشورى » .

---

(١) فى الأصل : الأد القوة والشدة؛ وصوابه كما فى اللسان : الإد بالكسر الشدة والأد بالفتح الغلبة والقوة .

(٢) الصمل الشديد الصلب . وورد فى كتب اللغة : « صملا نهدا » والنهد : القوى الشديد .

ووافقهم حمزة وابن عامر فى « الشورى » . وقرأا هنا « ينفطرن » من الانفطار : وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل فى السورتين . وهى اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » . وقوله : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أى تتصدع . ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس : هدما أى تسقط بصوت شديد . وفى الحديث " اللهم إنى أعوذ بك من الهدّ والهَدَّة " قال شمر قال أحمد بن غياث المروزى : الهدّ الهدم والهدّة الخسوف . وقال الليث : هو الهدم الشديد؛ كحائط يهدّ بمرة؛ يقال : هدّنى الأمر وهدّ ركنى أى كسرنى و بلغ منى؛ قاله الهروى . الجوهرى : وهدّ البناء يهدّه هدّا كسره وضعضعه، وهدّته المصيبة أى أوهنت ركنه، وانهدّ الجبل انكسر . الأصمعى : والهدّ الرجل الضعيف؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إنى لَغير هدٍّ أىْ غير ضعيف . وقال ابن الأعرابى : الهدّ من الرجال الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف فهو الهِدّ بالكسر؛ وأنشد[1] :

لَيسُوا بهِـدِّين فى الحُرُوب إذا * تُعْقَدُ فوقَ الحَرَاقِفِ النُّطُقُ

والهَدَّة صوت وقع الحائط ونحوه؛ تقول منه : هَدَّ يهِدُّ (بالكسر) هَدِيدًا . والهادُّ صوت يسمعه أهل الساحل ، يأتيهم من قبل البحر له دوىٌّ فى الأرض، وربما كانت منه الزلزلة ، ودويُّه هديده . النحاس : « هَدًّا » مصدر؛ لأن معنى « تَخِرُّ » تُهَدّ . وقال غيره : حال أى مهدودة : ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ « أن » فى موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا، فموضع « أن » نصب بسقوط الخافض . وزعم الفراء أن الكسائى قال : هى فى موضع خفض بتقدير الخافض . وذكر ابن المبارك : حدثنا مِسْعر، عن واصل، عن عون بن عبدالله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يافلان هل مر بك اليوم ذاكر لله؟[2] فإن قال نعم سُرَّ به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية؛ قال : أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير؟! . قال : وحدّثنى عوف عن غالب بن عجرد[3] قال:

---

(١) البيت للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . والحراقف (جمع حرقفة) : مجتمع رأس الفخذ . والنطق (جمع نطاق) : ما تشد به الأوساط . (٢) أى قال عون كما فى « الدر المنثور » وغيره .

(٣) كذا فى الأصل؛ ولعله « غالب بن حجرة » وما هنا تحريف .

حدّثنى رجل من أهــل الشام فى مسجد منى ، قال : إن الله تعالى لمـا خلق الأرض وخلق مافيها من الشجر، لم تك فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منهـا منفعة، وكان لهم منها منفعة، فـلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بنى آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : ٱتخذ الرحمن ولدا؛ فلما قالوها ٱقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من ذلك الشوك فى الحيتان، وفى الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضا وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميـع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشـجر، وٱكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : ٱتخـذ الله ولدا . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَـدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » قال ابن العربى : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن البارى تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمـان المؤمن، ولا يزيد هـذا فى ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لمـا جرى شيء من هـذا على الألسنة ، ولكنه القـدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بمـا يقول المبطلون .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد؛ لأن الولد يقتضى الجنسـية والحدوث على ما بيناه فى « البقرة »[1] أى لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز فى حقه؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس . قال[2] :

فى رأس خَلْقَاء من عَنْقَاء مُشْرِفةٍ * ما ينبغى دونها سَهْلٌ ولا جَبَـلُ

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو ابن أحمر الباهلى يصف جبلا . والخلقاء : الصخرة ليس فيها وصم ولا كسر أى الملساء . والعنقاء : أكمة جبل مشرف .

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ « إن » نافية بمعنى ما، أى ما كل من فى السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرا له بالعبودية، خاضعا ذليلا كما قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء؛ أى الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عز وجل؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . و « آتى » بالياء فى الخط، والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف .

الثانيــة — فى هــذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد، خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه . وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها . وفى الحديث الصحيح "لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه" خرجه مسلم . فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته عليه، فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثــة — ذهب إسحق بن راهويه فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : "من أعتق شركا له فى عبد" أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركا فى أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس، كما قال تعالى : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى عبدة فى المؤنث .

الرابعــة — روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لى كفوا أحد " وقد تقدم فى « البقرة »[1] وغيرها وإعادته فى مثل هذا الموضع حسن جدا .

(١) تقدم الحديث فى جـ ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أى علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ تأكيد؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ؛ خرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإسفراينى : ومنها المحصى ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، وآشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى واحدا لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ماقدم من عمل ، وقال : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيرى : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له مالا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا ، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى قد أحببت فلانا فأحبه — قال — فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وُدًّا » وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريلَ إنى أبغضت فلانا فينا دِى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض » " قال هـذا حديث حسن صحيح . وخرجه البخارى ومسلم بمعناه ، ومالك فى الموطأ ، وفى نوادر الأصول . وحدّثنا أبو بكر بن سابق الأموى قال حدّثنا أبو مالك الْجَنْبى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة فى صدور الصالحين والملائكة المقربين — ثم تلا — « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ". واختلف فيمن نزلت ؛ فقيل فى على رضى الله تعالى عنه ؛ روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " قل يا على اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى قلوب المؤمنين مودة " فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى . وقال ابن عبـاس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له فى قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظّمه . وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعـالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهـم . وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودّة فى قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوبا فى الدنيا فهو كذلك فى الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا ، ولا يرضى إلا خالصا نقيا ؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعـالى إذا أحب عبدا دعا جبريلَ عليه السلام فقال إنى أحب فلانا فأحِبّه فيحبه جبريل ثم ينادِى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهـل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام وقال إنى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادِى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض " .

قوله تعـالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى القرآن؛ يعنى بيناه بلسانك العربى وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ اللّد جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى : « أَلَدُّ الْخِصَامِ » وقال الشاعر :

أبيتُ نجِيًّا للهمومِ كأنّنى * أخاصم أقواما ذَوِى جَدلٍ لُدّا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل . الحسن : اللد الصُّمّ عن الحق . قال الربيع : صم آذان القلوب . مجاهد : فجارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل . ابن عباس : شدادا فى الخصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم؛ والمعنى واحد . وخصوا بالإنذار؛ لأن الذى لا عناد عنده يسهل انقياده .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس؛ يخوّف أهل مكة . ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى هل ترى منهم أحدا وتجد . « أو تسمع لهم رِكزا » أى صوتا؛ عن ابن عباس وغيره؛ أى قد ماتوا وحصلوا أعمالهم . وقيل : حِسًّا؛ قاله ابن زيد . وقيل : الركز مالا يفهم من صوت أو حركة ؛ قاله اليزيدى وأبو عبيدة؛ كركز الكتيبة؛ وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيس فراعَها * عن ظَهْر غيبٍ والأَنِيس سَقامُها (١)

وقيل : الصوت الخفى . ومنه رَكَزَ الرُّمحَ إذا غيّب طرَفه فى الأرض . وقال طرفة :

وَصادِقَتا سَمْعِ التَّوَجُّس للسُّرَى * لِرِكْزٍ خَفِيٍّ أو لصَوْتٍ مُنَدَّدِ (٢)

---

(١) توجست : تسمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس . والأنيس سقامها معناه : والأنيس هلاكها : أى يصيدها . (٢) يصف طرفة فى هذا البيت أذنى ناقته ؛ يعنى أذنيها لا تكذبها النبأة . والمندد صفة للصوت ؛ والصوت المندد المبالغ فى النداء . ويروى : «لصوت مندد» بالإضافة وكسر الدال ، والأولى هى الرواية الجيدة .

وقال ذو الرُّمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجسَ رِكْزًا مقفِرٌ نَدُسٌ * بِنبأةِ الصوتِ ما فى سمعه كذب

أى ما فى آستماعه كذب ؛ أى هو صادق الاستماع . والنَّدِس الحاذق ؛ يقال : نَدِسٌ ونَدُس، كما يقال : حَذِر وحَذُر، ويَقِظٌ ويَقُظ . والنبأة الصوت الخفىّ، وكذلك الرِّكز، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة طـه عليه السلام

سورة طـه عليه السلام مكية فى قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه . روى الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف؛ فقيل له : إن خَتَنك قد صَبَوا(١) فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبّاب ، وكانوا يقرءون «طـه» . فقال : أعطونى الكتاب الذى عندكم فأقرؤه — وكان عمر رضى الله عنه يقرأ الكتب — فقالت له أخته : إنك رِجْس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضى الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ « طـه » . وذكره ابن إسحق مطوّلا : فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتْله ، فلقيه نعيم ابن عبد الله ؛ فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ، الذى فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟ ! . فقال : وأى أهل بيتى؟ . قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خبّاب بن الأَرَتّ معه صحيفة فيها

(١) صبأ الرجل : خرج من دين إلى دين آخر .

« طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خبّاب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما ؛ فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (١) التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال لها : لا تخافى وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وأنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر واغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب " فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك : فدلنى يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم ؛ وذكر الحديث .

مسئلة — أسند الدارمىّ أبو محمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا " قال ابن فورك معنى قوله : " إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » " أى أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة فى ذلك الوقت ؛ والعرب تقول : قرأت الشىء إذا تتبعته ، وتقول : ما قرأت هذه

---

(١) الهينمة : الكلام الخفى لا يفهم .

الناقة فى رحمها سَلًا قط؛ أى ما ظهر فيها ولد؛ فعلى هذا يكون الكلام سائغا، وقرأته أسماعه وأفهامه بعبارات يخلقها وكتابة يحدثها . وهى معــنى قولنا : قرأنا كلام الله ، ومعنى قوله : «فَٱقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» ، «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . ومن أصحابنا من قال معنى قوله : "قرأ" أى تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذواقا بمعنى آختبرته . ومنه قوله : «فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أى آبتلاهم الله تعالى به ،فسمى ذلك ذوقا ، والخوف لا يذاق على الحقيقة؛ لأن الذوق فى الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح . قال ابن فورك : وما قلناه أولا أصح فى تأويل هذا الخبر؛ لأن كلام الله تعالى أزلى قديم سابق لجملة الحوادث ، وإنمــا أسمعَ وأفهمَ من أراد من خلقــه على ما أراد فى الأوقات والأزمنة؛ لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

قوله تعــالى : طــه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قوله تعــالى : ﴿ طه ﴾ آختلف العلماء فى معناه؛ فقال الصدّيق رضى الله تعالى عنه : هو من الأسرار؛ ذكره الغزنوى . ابن عباس : معناه يا رجل؛ ذكره البيهقى . وقيل : إنها لغة معروفة فى عُكْلٍ . وقيل : فى عَكّ؛ قال الكلبى : لو قلت فى عَكّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه . وأنشد الطبرى فى ذلك فقال[1] :

دعوت بطه فى القتال فلم يُجِبْ * فخفتُ عليــه أن يكون مُوَائِلا

(١) هو متمم بن نويرة، وواءل : طلب النجاة .

ويروى : مُزايلا . وقال عبد الله بن عمرو : يا حبيبى بلغة عَكّ ؛ ذكره الغزنوى . وقال قطرب : هو بلغة طىّء ؛ وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إنّ السّفاهةَ طَهَ من شمائلكم * لا بارك الله فى القوم الملاعين

وكذلك قال الحسن : معنى « طه » يا رجل . وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريانية كذلك ؛ ذكره المهدوىّ ، وحكاه الماوردى عن ابن عباس أيضا ومجاهد . وحكى الطبرىّ : أنه بالنَّبَطيّة يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير وابن عباس أيضا ؛ قال :

إن السفاهة طه من خلائقكم * لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال عكرمة أيضا : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبى . والصحيح أنها وإن وجدت فى لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية فى عَكّ وطىّء وعُكل أيضا . وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقَسَمٌ أقسم به . وهذا أيضا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى عند ربى عشرة أسماء " فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها . وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه . وقيل : إنها حروف مُقطَّعة ، يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف فى ذلك ؛ فقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشيء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقال سعيد بن جبير : الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادى . وقيل : «طاء» ياطامع الشفاعة للامة ، «هاء» يا هادى الخلق إلى الله . وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : ياطاهرا من الذنوب ، ياهادى الخلق إلى علام الغيوب . وقيل : الطاء طُبول الغُزاة ، والهاء هيبتهم فى قلوب الكافرين . بيانه قوله تعالى : « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» وقوله : «وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» . وقيل : الطاء طرب أهل الجنة فى الجنة ، والهاء هوان أهل النار فى النار . وقول سادس : إن معنى «طه» طوبى لمن اهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى « طه » طَإِ الأرض؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصــلاة حتى كادت قدماه تتورم، ويحتاج إلى الترويح بين قدميــه، فقيل له : طإ الأرض؛ أي لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح؛ حكاه ابن الأنبارى . وذكر القاضي عياض فى « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليــه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعــالى « طه » يعنى طَإِ الأرض يا محمــد « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » . الزمخشرى : وعن الحسن « طَهْ » وفُسّر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، وأن الأصل طَأْ فقلبت همزته هاء كما قلبت [ألفا][1] فى « يطا » فيمن قال :

* ... ... لا هَنَاكِ المرتَع *[2]

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآية . وقال الكلبى : لمــا نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة، وآشتدّت عبادته، فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلى وينام، فنسخت هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى؛ فأنزل الله تعالى «طه» يقول: يا رجل «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أى لتتعب؛ على ما يأتى . وعلى هذا القول: إن «طه» [طاها أى][3] طإ الأرض؛ فتكون الهاء والألف ضمــير الأرض ، أى طَإِ الأرض برجليــك فى صلواتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفا ساكنة . وقرأت طائفة «طَهْ» وأصله طَأْ بمعنى

---

(١) الزيادة من تفسير الزمخشرى . (٢) الشعر للفرزدق وتمام البيت :

راحت بمسلمة البغال عشية * فارعى فزارة لا هناك المرتع

قال هــذا حين عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق، ووليها عمر بن هبيرة الفزارى، فهجاهم الفرزدق، ودعا لقومه ألا يهنئوا النعمة بولايته . وأراد بغال البريد التى قدمت بمسلمة عند عزله . « شواهد سيبويه » .

(٣) الزيادة من كتب التفسير .

طَإِ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت . وقال زرّ بن حبيش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود «طَهَ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتشقى» فقال له عبد الله : « طِهِ » فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجله أو بقدميه . فقال : « طِهِ » كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الهاء وفتحا الطاء . وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختاره أبو عبيد . الباقون بالتفخيم . قال الثعلبى : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : إحداهما أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة؛ والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وقرئ « مَا نُزِّلَ عَلَيكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى » . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفى ، و بعضهم يقول لام الجحود . وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمدّ ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فمعنى لتشقى «لتتعب» بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتُذكِّر، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وروى أن أبا جهل — لعنه الله تعالى — والنضر بن الحرث قالا للنبى صلى الله عليه وسلم : إنك شقىّ لأنك تركت دين آبائك؛ فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وعلى الأقوال المتقدّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورّمت قدماه؛ فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا؛ أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة، وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من «تشقى» أي ما أنزلناه إلا تذكرة . النحاس : وهذا وجه بعيد؛ وأنكره أبو علي من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أي أنزلناه لتذكّر به تذكرة، أو على المفعول من أجله ،أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة. وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير، مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، ولئلا تشقى. ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ مصدر ؛ أي نزّلناه تنزيلا . وقيل : بدل من قوله : « تذكرة » . وقرأ أبو حيوة الشامي «تنزيل» بالرفع على معنى هذا تنزيل. ﴿ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا ﴾ أي العالية الرفيعة، وهي جمع العُليا ؛ كقوله : كُبْرى وصُغرى وكُبَر وصُغَر ؛ أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحق : الخفض على البدل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . النحاس : يجوز الرفع بالابتداء، والخبر « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فلا يوقف على «استوى» وعلى البدل من المضمر في « خلق » فيجوز الوقف على « اسْتَوَى » . وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف ؛ ولا يوقف على « العُلا » . وقد تقدم القول في معنى الاستواء « في الأعراف »[1] . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كَيْف، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعني الأرض السابعة . ابن عباس[2] : الأرض على نون، والنون على البحر، وأن طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش؛ والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهي التي قال الله تعالى فيها « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ» ؛ والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع،

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات وقد تكلم العلماء في هذه الرواية وأمثالها .

بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال ابن عباس : السر ما حدّث به الإنسان غيره فى خفاء، وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدّث به غيره . وعنه أيضا : السر حديث نفسك، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ؛ أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تُسرّ به غدا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّه غدا؛ والمعنى : الله يعلم السّر وأخفى من السّر . وقال ابن عباس أيضا : « السر» ما أسر ابن آدم فى نفسه، «وأَخْفَى» ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة . وقال قتادة وغيره : «السر» ما أضمره الإنسان فى نفسه، «وأخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال ابن زيد : « السر » من الخلائق، « وأخفى » منه سره عز وجل؛ وأنكر ذلك الطبرى، وقال : إن الذى « أخفى » ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه كما قال ابن عباس . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ « الله » رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدإ، أو على البدل من الضمير فى « يعلم » . وحّد نفسه سبحانه؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » وهو واحد وأسماؤه كثيرة ؛ ثم قال : « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » وقد تقدم التنبيه عليها فى سورة « الأعراف » [1] .

---

(١) جـ ٧ ص ٣٢٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه؛ أليس قد أتاك؟ وقيل : معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا آمرأته؛ فأخطأ الرفقة — لما سبق فى علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة فى الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا ﴾ أى أقيموا بمكانكم ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرت . قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار فى شجرة عناب، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوى : فرأى النار — فيما روى — وهى فى شجرة من العُلَّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردى : كانت عند موسى نارا، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهُ ٱمْكُثُوا » بضم الهاء، وكذا فى « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت بِهُ يارجل؛ فجاء به على الأصل، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة. وقال : «ٱمكثوا» ولم يقل أقيموا، لأن الإقامة تقتضى الدوام، والمكث ليس كذلك . « وآنست » أبصرت، قاله ابن الأعرابى . ومنه قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أى علمتم . وآنست الصوت سمعته، والقبس شعلة من نار، وكذلك المِقباس . يقال : قبَستُ منه نارا أقبِس قَبْسا فأقبسنى أى أعطانى منه قَبَسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أى ٱستفدته، قال اليزيدى : أَقبستُ الرجل علما وقَبَسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته نارا أو علما سواء . وقال : وقبسته أيضا فيهما . « هُدًى » أى هاديا .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعنى النار ﴿نُودِيَ﴾ أى من الشجرة كما فى سورة «القصص» أى من جهتها وناحيتها على ما يأتى ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجُبّة صوف وكُمّة صوف وسراويلُ صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت " قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج [حميد — هو ابن على الكوفى (١) —] منكر الحديث، وحميد ابن قيس الأعرج المكى صاحب مجاهد ثقة؛ والكمة القلنسوة الصغيرة . وقرأ العامة « إنى » بالكسر؛ أى نودى فقيل له ياموسى إنى، واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

(١) الزيادة من الترمذى .

وابن محيصن وحميد « أَنِّى » بفتح الألف بإعمال النداء . واختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين . والخلع النزع . والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض . فقيل : أمر بطرح النعلين؛ لأنها نجسة إذ هى من جلد غير مُذَكًّى ؛ قاله كعب وعكرمة وقتادة . وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادى المقدس، وتمس قدماه تربة الوادى ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن وابن جريج . وقيل : أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما لذلك الموضع كما أن الحرَم لا يُدخَل بنعلين إعظاما له . قال سعيد بن جبير : قيل له طَإِ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه؛ ولا تبالى كانت نعلاه من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة ، والجثة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصَاصِيّة وهو يمشى بين القبور بنعليه : "إذا كنت فى مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال : فخلعتهما . وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل . وكذلك هو فى التعبير : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . وقيل : لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغى أن يطأ بساط رب العالمين بنعله . وقد يحتمل أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّل فرض عليه؛ كما كان أوّل ما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانيــة — فى الخبر أنّ موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادى . وقال أبو الأحوص : زار عبد الله أبا موسى فى داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى؛ فقال أبو موسى لعبد الله : تقدّم . فقال عبد الله : تقدّم ؛ أنت فى دارك . فتقدّم وخلع نعليه؛ فقال عبد الله : أبالوادى المقدس أنت ؟ ! وفى صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى نعلين؟ قال: نعم. ورواه النّسائى عن عبدالله ابن السائب: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حملكم على إلقائكم نعالكم" قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما قَذَرا" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذرا أو أذًى فليمسحه وليصلِّ فيهما". صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء فى جواز الصلاة فى النعل إذا كانت طاهرة من ذكىّ، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» على ما تقدّم. وقال إبراهيم النخعى فى الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة — فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للمقبرى: آخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموما فى الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جُبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة — فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بنى آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعى وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أو لا؟ قولان عندنا. وأَطلَقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعىّ وأبو ثور. وقال

أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ماعدا البول، فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل . وقال الشافعي : لا يطهّر شيئا من ذلك كله إلا المـاء . والصحيح قول من قال : إن المسح يطهّره من الخفّ والنعـل؛ لحديث أبي سـعيد . فأما لو كانت النعـل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليـه الزُّهريّ والليث ، على ما تقدّم بيانه في سورة « النحل »(١) . ومضى في سورة « براءة »(٢) القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَـدَّسِ طُوًى﴾ المقـدّس : المطهّـر . والقُدْس : الطهارة، والأرض المقدّسة أي المطهرة؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعـل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض،ولبعض الحيوان كذلك. ولله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين و إسكان المؤمنين؛ فقد شاركه في ذلك غيره . و « طُوًى » اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثـل الطَّوِيّ . وقرأ عِكْرِمة « طِوًى » . البـاقون « طُوًى » . قال الجوهري : « طـوى » اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، و يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة،ومن لم يصرفه جعله بلدة و بقعة وجعله معرفة. وقال بعضهم : «طُوًى» مثل « طِوًى » وهو الشيء المَثْنِيّ،وقالوا في قوله «الْمُقَدَّسِ طُوًى» : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس . وقال الحسن : ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرّتين . وذكر المهدوي عن ابن عبـاس رضي الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال : « إنك بِالوادِ المقدسِ » الذي طويته طوى ؛ أي تجاوزته فطويته بسـيرك . الحسن : معناه أنه قدّس مرتين؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضا .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ أى اصطفيتك للرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائى « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » . وقرأ حمزة « وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ » . والمعنى واحد؛ إلا أنّ « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ » وعلى هذا النَّسق جرت المخاطبة؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ فيه مسئلة واحدة — قال ابن عطية : وحدثنى أبى — رحمه الله — قال سمعت أبا الفضل الجوهرى رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « ٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفا .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ » وذم على خلاف هذا الوصف فقال : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبّه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح وغَضّ البصر، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع، و يغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، و يحصر عقله فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، و يعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عُيَيْنة : أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له فى قلبه نورا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف فى تأويل قوله : « لِذِكْرِي » فقيل : يحتمل أن يريد لتذكرنى فيها ، أو يريد لأذكرك بالمدح فى عليين بها ، فالمصدر على هـذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل و إلى المفعول . وقيل : المعنى ؛ أى حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هى تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ؛ وعلى هـذا فالصلاة هى الذكر . وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فى قوله : « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصلّ كما فى الخبر " فليصلّها إذا ذكرها " . أى لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانيـــة — روى مالك وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » " . وروى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج — وهو حجاج الأول الذى روى عنه يزيد بن زُرَيع — قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة و يغفل عنها قال : "كفارتها أن يصليها إذا ذكرها " تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجـاج ، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الدارقطنى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من نسى صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله : " فليصلّها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل ، كثرت الصلاة أو قلّت ، وهو مذهب عامّة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعـالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية وغيرها من الآى . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لمـا أمر به ، ولا ثواب له على فعـله وهو عاصٍ ؛ وعلى هـذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليـه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت فى غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء ؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول .

الثالثة — فأما من ترك الصلاة متعمدا ، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصيا إلا داود . ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعرى الشافعى ،حكاه عنه ابن القصّار. والفرق بين المتعمد والناسى والنائم ، حط المأثم ؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون . والحجة للجمهور قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها . وهو أمر يقتضى الوجوب . وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى ، مع أنهما غير مأثومين ، فالعامد أولى . وأيضا قوله : "من نام عن صلاة أو نسيها" والنسيان الترك ؛ قال الله تعالى : « نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا يَنْسَى وإنما معناه تركهم و « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا » أى نتركها . وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره . قال الله تعالى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى» وهو تعالى لا ينسى وإنما معناه عَلِمت . فكذلك يكون معنى قوله : " إذا ذكرها " أى علمها . وأيضا فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه . وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة . فإن قيل فقد روى عن مالك : من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا . فالإشارة إلى أن مامضى لا يعود ، أو يكون كلاما خرج على التغليظ ؛ كما روى عن ابن مسعود وعلىّ : أن من أفطر فى رمضان عامدا لم يكفّره صيام الدهر وإن صامه . ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، أو إتباعه بالتوبة ، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء . وقد روى أبو المُطَوِّس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه" وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود . وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح ، وفى بعضها قضاء اليوم ، والحمد لله تعالى .

الرابعة — قوله عليه الصلاة والسلام : "من نام عن صلاة أو نسيها" الحديث ؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ " والمراد بالرفع

هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه ، وليس هـذا من باب قوله : "وعن الصبي حتى يحتلم" و إن كان ذلك جاء فى أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل .

الخامسـة ــ اختلف العلماء فى هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو فى آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو فى صلاة ، فجملة مذهب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتى نسى إذا كان خمس صلوات فأدنى، و إن فات وقت هذه . و إن كان أكثر من ذلك بدأ بالتى حضر وقتها، وعلى نحو هـذا مذهب أبى حنيفة والثورى والليث ؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب فى اليوم والليلة إذا كان فى الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت . فإن خشى فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عنـدهم . وقد روى عن الثورى وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير . وهو تحصيل مذهب الشافعى . قال الشافعى : الاختيار أن يبـدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل و بدأ بصلاة الوقت أجزأه . وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب فى صلاة ستين سنة فأكثر . وقال : لا ينبغى لأحد أن يصلى صلاة وهو ذاكر لمـا قبلها لأنها تفسد عليـه . وروى الدَّارَقُطْنى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام : "إذا ذكر أحدكم صلاة فى صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صلى التى نسى" وعمر بن أبى عمر مجهول[1] .

قلت : وهذا لو صح كانت حجة للشافعى فى البداءة بصلاة الوقت. والصحيح مارواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصـلى العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "فوالله إنْ صَلَّيتُها[2]" فنزلنا البطحان[3] فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها

---

(١) عمر بن أبى عمر : هو أحد رواة هـذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس . ولفظ الحديث فى الدارقطنى هكذا : "إذا نسى أحدكم الصلاة فذكرها وهو فى صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صـلى التى نسى" .

(٢) إن نافية ؛ أى ما صليتها .　(٣) بطحان (بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء) : موضع بالمدينة .

المغرب . وهذا نصّ فى البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيّق غير ممتد فى الأشهر عندنا ، وعند الشافعى كما تقدم . وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله آبن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ماشاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالا فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء . وبهـذا آستدل العلماء على أن من فاتته صلاة ، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها فى وقت واحد . وآختلفوا إذا ذكر فائتـة فى مضيّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبـدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدّمناه . الثانى — يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبى وابن وهب من أصحابنا . الثالث — يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القـاضى عياض . وآختلفوا فى مقدار اليسير ؛ فعن مالك : الخمس فدون ، وقد قيـل : الأربع فدون لحديث جابر ؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادســة — وأما من ذكر صلاة وهو فى صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به ، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صـلاته . والأصل فى هـذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال : " إذا نسى أحدكم صـلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التى نسى ثم ليعد صلاته التى صلّى مع الإمام " لفظ الدارقطنى ؛ وقال موسى بن هرون : وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانىّ ، قال : حدثنا سعيد [به][1] ورفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووهم فى رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعـه فقد وفق للصواب . ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصـلى التى ذكر ، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين . وهـو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر الخِـرَقى[2] عن

(١) الزيادة من الدارقطنى . (٢) هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو فى أخرى فإنه يتمها ويقضى المذكورة، وأعاد التى كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن خشى خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألّا يعيدها ، وقد أجزأته ويقضى التى عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهو فى صلاة قد صلى منها ركعتين سَلَّم من ركعتيه، فإن كان إماما ٱنهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت . هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة فى صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلّم . ولو ذكرها فى صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو ٱنهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى .

السابعة — روى مسلم عن أبى قَتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضأة بطوله ، وقال فيه ثم قال : " أَمَا لكم فىّ أُسوة " ثم قال : " أَمَا إنه ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجىء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها " وأخرجه الدارقطنى هكذا بلفظ مسلم سواء، فظاهره يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتى ؛ ويعضد هذا الظاهر ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال فى آخرها : "فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحا فليقضِ معها مثلها".

قلت : وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة؛ لما رواه الدارقطنى عن عِمران ابن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غَزاة — أو قال فى سريّة — فلما كان وقت السحر عَرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حرُّ الشمس ، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعا دَهِشا، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارْتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس، فقضى القوم حوائجهم، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة؛ فقلنا : يا نبى الله ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم ". وقال الخطّابى : لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا، ويشبه

أن يكون الأمر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت فى القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام : " أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم " ولأن الطّرق الصحاح من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيء، إلا ما ذكر من حديث أبى قتادة وهو محتمل كما بيناه .

قلت : ذكر الكيا الطبرى فى « أحكام القرآن » له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : " من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد . وهذا قول بعيد شاذ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ آية مشكلة ؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قرأ « أَكَادُ أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة ؛ قال : أظهرها . « لِتُجْزَى » أى الإظهار للجزاء؛ رواه أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وِقَاء بن إياس عن سعيد ابن جبير . وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد ؛ حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى؛ ح — وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحِمانىّ حدثنا محمد بن سهل . قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبير : أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بضم الهمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبير « أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنبارى قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته . وأنشد الفراء لامرئ القيس :

فإنْ تدفِنُوا الدّاءَ لانَخْفِه * وإنْ تبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

أراد لا نظهره؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون « أُخْفِيهَا » بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خَفيتُ الشيء وأَخفيته إذا أظهرتَه ؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . وقال أبو عبيدة : خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد . النحاس : وهذا حسن؛ وقد

حكاه عن أبى الخطّاب[1] وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك فى صدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإنْ تكتُموا الداءَ لا نُخْفِه * وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

كذا رواه أبو عبيدة عن أبى الخطاب بضم النون . وقال آمرؤ القيس أيضا :

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنَّ كأنما * خفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[2]

أى أظهرهن . وروى : « من سحاب مركَّب » بدل « من عَشىٍّ مجلِّب » . وقال أبو بكر الأنبارى : وتفسير للآية آخر : « إن الساعة آتية أكاد » انقطع الكلام على « أكاد» وبعده مضمر أكاد آتى بها ، والابتداء « أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ » . قال ضابئ البُرْجمىّ[3] :

هَمَمْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتَنِي * تَركتُ على عثمانَ تَبكى حَلائِلُهْ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه فى القرآن .

قلت : هذا الذى اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذى قبله فقال يقال : خَفَى الشىءَ يخفيه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال : وقد رأيت على بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أُخْفِيها » عدل إلى هذا القول ، وقال : معناه كمعنى « أَخْفيها » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و « أَخْفيها » قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتى بها ؛ ودل « آتية » على آتى بها ؛ ثم قال : «أُخْفيها» على الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التى هى القيامة ، والساعة التى يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

---

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد . (٢) خفاهن : أظهرهن . والأنفاق (جمع نفق) : وهو الجحر . والودق : المطر . والمجلب : الذى له جلبة . وقبله :

ترى الفار فى مستنقع القاع لاحبا * على جدد الصحراء من شدّ ملهب

يقول : وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفار من جحرتها لأنه ظنه مطرا .

(٣) قاله وهو محبوس ؛ حبسه سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه لهجائه بعض بنى جرول بن نهشل ؛ ولم يزل فى حبسه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام فى « لِتجزى » متعلقة بـ« أُخفِيها » . وقال أبو على : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، ومعنى « أُخفِيها » أزيل عنها خفاءها، وهو سترها بِخفاء الأخفية [وهى الأكسية] والواحد خفاء بكسر الخاء [ما تلف به](١) القربة، و إذا زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيته، أى أزلت شكواه، وأعديته أى قبلت آستعداءه ولم أحوجه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن« كاد» زائدة مؤكدة . قال : ومثله « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » لأن الظلمات التى ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن جبير، والتقدير : إن الساعة آتيـة أخفيها لتجزى كل نفس بمـا تسعى . وقال الشاعر(٢) :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ ✽ فما إِنْ يَكَـادُ قِـرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد فمـا يتنفَّس . وقال آخر :

وألَّا ألوم النفسَ فيما أصابنى ✽ وألَّا أكاد بالذى نِلتُ أَنجحُ

معناه : وألا أنجح بالذى نلت ؛ فأكاد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أى أقارب ذلك ؛ لأنك إذا قلت : كاد زيد يقـوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم . ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب: قاربت الفعل ولم أفعل،وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول الله عزت عظمته «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم . وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد . وقيل: معنى « أَكَادُ أُخْفِيها » أريد أخفيها . قال الأنبارى : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر :

كادتْ وكِدتُ وتلكَ خـيرُ إِرادةٍ ✽ لو عَادَ من لَهْـوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عبـاس وأكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبى : إن المعـنى أكاد أخفيها من نفسى ؛ وكذلك هو فى مصحف أبىّ . وفى مصحف ابن مسعود : أكاد

---

(١) الزيادة من كتب اللغة . (٢) هو زيد الخيل .

أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق . وفى بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب فى كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ فى كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسى . والله تعالى لا يخفى عليه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

أيامَ تَصحبنى هندٌ وأخبرُهَا * ما أكتم النفسَ من حَاجِى وأسْرَارِى

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" الزمخشرى وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسى، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف؛ ومحذوف لا دليل عليه مُطَّرح، والذى غرهم منه أن فى مصحف أبىّ : أكاد أخفيها من نفسى ؛ وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسى ؛ أى إن إخفاءها كان من قِبلى ومن عندى لا من قِبل غيرى . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسى؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاها . وهذا على أن كاد زائدة . أى إن الساعة آتية أخفيها، والفائدة فى إخفائها التخويف والتهويل . وقيل : تعلق «لتجزى» بقوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى أقم الصلاة لتذكرنى « لِتجزى كل نفسٍ بِما تسعى » أى بِسعيها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا » . والله أعلم . وقيل : هى متعلقة بقوله : « آتية » أى إن الساعة آتية لتجزى . ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ . ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أى فتهلك . وهو فى موضع نصب بجواب النهى .

قوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قيل : كان هـذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا؛ لأنه قال : « فَٱسْتَمِعْ لِمَـا يُوحَى » ولابد للنبي فى نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوّة نفسه ، فأراه فى العصا وفى نفســه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه فى الشــجرة آية كافية له فى نفسه ، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد ، وبرهانا يلق به قومه . وٱختلف فى «ما» فى قوله : « وَمَا تِلْكَ » فقال الزجاج والفراء : هى ٱسم ناقص وصلت ؛ « بيمينك » أى ما التى بيمينك؟ وقال أيضا : «تلك» بمعنى هذه؛ ولو قال : ما ذلك لجاز؛ أى ما ذلك الشيء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى؛ ليثبت الحجة عليه بعد ما اعترف ، و إلا فقد علم الله ما هى فى الأزل . وقال ابن الجوهرى : وفى بعض الآثار أن الله تعـالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفســه فى ذلك الموطن؛ فقيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك . وقرأ ابن أبى إسحق «عَصَيَّ» على لغة هُذيل؛ ومثله «يابُشْرَيَّ» و «مَحْيَيَّ» وقد تقدّم . وقرأ الحسن «عَصَايِ» بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ» . وعن ابن أبى إسحق سكون الياء .

الثانيـــة ــ فى هـذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لمـا قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » ذكر معانى أربعة : وهى : إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا ؛ والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصـاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك . وفى الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال : "هو الطَّهورُ ماؤه الحِـلُّ مَيتته" . وسألته ٱمرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال "نعم ولك أجر" . ومثله فى الحديث كثير .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أى أتحامل عليها فى المشي والوقوف ؛ ومنه الاتكاء . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ «وَأَهِشُّ» أيضا؛ ذكره النحاس . وهى قراءة النَّخَعي[1]، أى أخبط بها

(١) وروى عن النخعي أيضا أنه قرأ « وأهش» بضم الهمزة والشين من «أهش» رباعيا .

الورق، أي أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي تناوله فتأكله .
قال الراجز :

أَهُشُّ بالعَصَا على أَغنامي * من ناعِم الأَراكِ والبَشامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء في المستقبل . وهشَّ إلى الرجل يَهَش بالفتح .
وكذلك هشّ للعروف يَهَشّ وهشِشت أنا : وفي حديث عمر : هشِشْت يوما فقبّلت وأنا صائم .
قال شِمْر : أي فرحتِ وآشتهيت . قال : ويجوز هَاشَ بمعنى هَشَّ . قال الراعي :

فكبَّرَ للرؤْيَا وهَاشَ فـؤادُهُ * وبَشَّرَ نفسًا كان قبل يَلُومها

أي طَرِب . والأصل في الكلمة الرخاوة . يقال : رجل هَشٌّ وزوج هَشٌّ . وقرأ
عكرمة «وأَهُسُّ» بالسين غير معجمة؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : معناهما مختلف؛
فالهشّ بالإعجام خبط الشجر، والهس بغير إعجام زَجْر الغنم؛ ذكره الماوردي؛ وكذلك ذكر
الزمخشري . وعن عكرمة : « وأَهُسُّ » بالسين أي أنحى عليها زاجرا لها والهَسّ زَجْر الغنم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حوائج . واحدها مأْرُبة ومأْرَبة
ومأْرِبة . وقال : «أخرى» على صيغة الواحد؛ لأن مآرب في معنى الجماعة، لكن المَهْيَع (١) في توابع
جمع ما لا يعقل الإفراد والكناية عنه بذلك؛ فإن ذلك يجرى مجرى الواحدة المؤنثة؛ كقوله
تعالى : « وِللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » وكقوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » وقد تقدّم هذا
في « الأعراف » (٢) .

الخامسة — تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس؛ قال : إذا انتهيت
إلى رأس بئر فقَصُر الرِّشا وصلته بالعَصَا ، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض
وألقيت عليها ما يظلني ، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها
على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

---

(١) المهيع : الطريق الواضح الواسع البين .   (٢) جـ ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وروى عنه ميمون بن مِهْران قال: إمساك العصا سنة للانبياء، وعلامة للؤمن. وقال الحسن البصرى: فيها ست خصال؛ سنة للانبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغمّ المنافقين، وزيادة فى الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعيا. ولقى الحَجّاجُ أعرابيا فقال: من أين أقبلت يا أَعرابى؟ قال: من البادية. قال: وما فى يدك؟ قال: عصاىَ أَرْكزها لصَلَاتى، وأعدّها لِعداتى، وأسوق بها دابتى، وأقوى بها على سفرى، وأعتمد بها فى مشيتى لتتسع خطوتى، وأثب بها النهر، وتؤمننى من العَـثْر، وألقى عليها كسائى فيقينى الحر، ويُدفئنى من القرّ، وتدنى إلىّ ما بعد منى، وهى مَحْمِل سُفْرتى، وعلاقة إداوتى؛ أعصى بها عند الضِّراب، وأقرع بها الأبواب، وأتّقى بها عَقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح فى الطّعان، وعن السيف عند منازلة الأقران؛ ورثتها عن أبى، وأورِّثها بعدى ابنى؛ وأهشّ بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخل فى مواضع من الشريعة: منها أنها تتخذ قبلة فى الصحراء؛ وقد كان للنبى عليه الصلاة والسلام عنَزة[(١)] تُركز له فيصلّى إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبة فتوضع بين يديه فيصلّى إليها؛ وذلك ثابت فى الصحيح. والحَرْبة والعَنَزَة والنَّيْزك والآلة اسم لمسمى واحد. وكان له مِحْجَن وهو عصا معوجّة الطّرَف يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبّله؛ ثابت فى الصحيح أيضا. وفى الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبىّ بن كعب وتميما الدارىّ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصىّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغ الفجر. وفى الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة[(٢)]. والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكّئا على سيف أو عصا، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل. وقد جمع الله لموسى

(١) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا، وفيها سنان مثل سنان الرمح. (٢) المخصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكئ عليه. النهاية.

فى عصاه من البراهين العظـام، والآيات الجسام، ما آمن به السـحرة المعاندون . وآتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته . وكان ابن مسـعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعَنَزَته ؛ وكان يخطب بالقضيب — وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا — وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عنـد الكلام، وفى المحافل والخطب . وأنكرت الشُّـعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعانى . والشُّعوبية تبغض العرب وتفضل العجم . قال مالك : كان عطاء بن السائب يمسك المِخصرة يستعين بهـا . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفى مشيته كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشى على رجلين معتـــمدًا * فصرتُ أمشى على أخرى من الخشَبِ

قال مالك رحمه الله ورضى عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصى يتوكئون عليها، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيّهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليـه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم، ويصلح حاله وحالهم معه . ومنه قوله عليه السلام : " وأما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه " (1) فى إحدى الروايات . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : " لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم فى الله " رواه عبادة بن الصامت؛ خرجه النسائى . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " علِّق سوطك حيث يراه أهلك " وقد تقدم هذا فى «النساء» (2) . ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشى على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إنى أعلم أنى مسافر، وأنها دار قُلعة، وأن العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملتُ العصا لا الضّعف أوجبَ حملَها * علىّ ولا أنى تحنّيتُ من كِبَرْ
ولكنّنى ألزمتُ نفسىَ حمْلَها * لِأُعلمها أنّ المقيمَ على سَـــفَرَ

---

(1) هذا من حديث فاطمة بنت قيس ، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومعاوية بن أبي سفيان خطباها فقال : " أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما معاوية فصعلوك لا مال له " الترمذى .

(2) راجع جـ ٥ ص ١٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدرِّبه فى تلقى النبوّة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها . وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فمًا ، وصارت حيـة تسعى أى تنتقل ، وتمشى وتلتقم الحجارة؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فـ « ولَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ » فقال الله له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » وذلك أنه « أَوْجَس فى نَفْسِهِ خِيفَةً » أى لحقه ما يلحق البشر . وروى أن موسى تناولها بكمى جُبّته فنُهى عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهى سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون . ويقال : إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله ، وتضىء له الشُّعبتان بالليل كالشّمع ؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشّعبتان كالدلو ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فى الأرض فأثمرت تلك الثمرة . وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : أتاه جبريل بها . وقيل : مَلَك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيـده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ النحاس : ويجوز «حَيَّةً» ؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالسا . والوقف « حَيَّه » بالهاء . والسعى المشى بسرعة وخفة . وعن ابن عباس : انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شىء خافه ونفر منه . وعن بعضهم : إنما خاف منه لأنه عرف ما لقى آدمُ منها . وقيل لما قال له ربه : « لَا تَخَفْ » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها . ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ سمعت على بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » قال : ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيّرها .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ يجوز فى غير القرآن ضُمّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل . ويجوز الضم على الإتبـاع . ويَدٌ أصلها يَدْىٌ على فَعْـل؛ يدل على ذلك أيدٍ . وتصغيرها يُدَيَّة . والجنـاح العضد؛ قاله مجاهد. وقال: «إلى» بمعنى تحت . قطرب : «إِلَىٰ جَنَاحِكَ» إلى جيبك؛ ومنه قول الراجز :

* أَضُمُّه للصدر والجَنَـاح *

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل فى محل الجناح . وقيل : إلى عندك . وقال مقاتل : « إلى » بمعنى مع أى مع جناحك . و﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير برص نورا ساطعا، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا . عن ابن عباس وغيره : فخرجت نورا مخالفة للونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفى التأنيث لا يزايلانها فكأن لزومهما علّة ثانية ،فلم ينصرف فى النكرة، وخالفتا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » «من» صلة «بيضاء» كما تقول : ابيضت من غير سوء . ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ سوى العصا . فأخرج يده من مِدْرَعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشى البصر . و « آيَةً » منصوبة على البـدل من بيضاء؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آتيناك آية أخرى أو نؤتيـك ؛ لأنه لمـا قال : « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُـوءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾ يريد العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة، وإنما قال «الكبرى» لوفاق رءوس الآى . وقيل : فيه إضمار؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعـالى : ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ لما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون ، وأن يدعوه . و « طغى » معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي ﴾ طلب الإعانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرنى أن آتيه وقد ربطت على قلبه ؛ فأتاه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي » أى وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوّة . « وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي » أى سهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي » يعنى العجمة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رُتّة . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها فقال فرعون لآسية : هذا عدوّى فهات الذبّاحين . فقالت آسية : على رِسْلك فإنه صبىّ لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطَسْتين فجعلت فى أحدهما جمرا وفى الآخر جوهرا، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه، فكانت تلك الرّتة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ . ولما دعاه قال : إلى أىّ ربٍّ تدعونى؟ قال : إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزتَ عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قَصْعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الرّتة؛ فقيل : زالت بدليل قوله : «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» . وقيل : لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » . ولأنه لم يقل : احلل كل لسانى ، فدل على أنه بقى فى لسانه شىء من الاستمساك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « أُوتِيتَ سُؤْلَكَ » وإنما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » لأنه عرف منه تلك العقدة فى التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يبين » حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أي يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه في كلام العرب الفهم . قال أعرابي لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : فَقِه الرجل بالكسر . وفلان لا يَفْقَه ولا يَنْقَه[(1)] . وأفقهتك الشيء . ثم خُصّ به علم الشريعة، والعالم به فقيه . وقد فَقُه بالضم فَقَاهة وفقّهه الله وتَفَقّه إذا تعاطى ذلك . وفاقهته إذا باحثته في العلم؛ قاله الجوهري . والوزير المؤازر كالأكيل للمؤاكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله . في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد : سمعت عمتي تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه " . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله " رواه البخاري . فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيرا ، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصورا على الوزارة حتى لا يكون شريكا له في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسئلة . وعيّن فقال : «هَـٰرُونَ» . وٱنتصب على البدل من قوله : « وَزِيرًا » . ويكون منصوبا بـ « ٱجعل » على التقديم والتأخير، والتقدير : واجعل لي هرون أخي وزيرا . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث .

﴿ ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أي ظهري . والأزر الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه تقوى به نفسي؛ والأزر القوة ، وآزره قوّاه . ومنه قوله تعالى : « فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ » . وقال أبو طالب[(2)] :

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَه * وأَوْصى بنيه بالطِّعانِ وبالضَّرْبِ

وقيل : الأزر العون . أي يكون عونا يستقيم به أمري . قال الشاعر :

شَددتُ به أَزْرِي وأَيقنتُ أنّهُ * أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبُه

---

(1) معناه لا يعلم ولا يفهم . ونقهت الحديث أنقهه إذا فهمته .

(2) هذا البيت في قصيدة له قالها في أمر الشعب والصحيفة .

وكان هرون أكثر لحما من موسى، وأتم طولا ، وأبيض جسما، وأفصح لسانا . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان فى جبهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التى فى لسانه . والله أعلم . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أى فى النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتى هو هرون، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه؛ فقال له موسى : إن الله أمرنى أن آتى فرعون فسألت ربى أن يجعلك معى رسولا . وقرأ العامة « أخى ٱشْدُدْ » بوصل الألف « وَأَشْرِكْهُ » بفتح الهمزة على الدعاء، أى آشدد يارب أزرى ، وأشركه معى فى أمرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حَيْوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحق « أَشْدُدْ » بقطع الألف « وَأُشْرِكْه » أى أنا يارب « فى أمرى » . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله : « ٱجْعَلْ لِي وَزِيراً » وهذه القراءة شاذة بعيدة؛ لأن جواب مثل هذا إنما يخرج بمعنى الشرط والمجازاة ؛ فيكون المعنى : إن تجعل لى وزيرا من أهلى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . وأمره النبوة والرسالة، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه فى النبوة . وفتح الياء من « أَخِى » ابن كثير وأبو عمرو . ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ قيل : معنى « نسبحك » نصلى لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أى ننزهك عما لا يليق بجلالك . « وَكَثِيراً » نعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نعتا لوقت . والإدغام حسن؛ وكذا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ قال الخطابى : البصير المبصر، والبصير العالم بخفيات الأمور، فالمعنى؛ أى عالما بنا ، ومدركا لنا فى صغرنا فأحسنت إلينا، فأحسن إلينا كذلك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي

وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ﴾ لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ماذكر، أجاب سؤله، وأتاه طِلْبته ومرغوبه . والسؤل الطِّلْبة؛ فُعْل بمعنى مفعول، كقولك خُبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ أى قبل هذه، وهى حفظه سبحانه له من شر الأعداء فى الآبتداء؛ وذلك حين الذبح . والله أعلم . والمنّ الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ قيل : « أوحينا » ألهمنا . وقيل : أوحى إليها فى النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين . ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونَجَره وكان آسمه حِزْقيل . وكان التابوت من جُمَّيز . ﴿ فَٱقْذِفِيهِ فى الْيَمِّ ﴾ أى آطرحيه فى البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَٱقْذِفِيهِ فى اليمّ » أمر وفيه معنى المجازاة . أى آقذفيه يلقه اليمّ . وكذا قوله : « ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ يعنى فرعون ؛ فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا، ووضعت فيه موسى، وقيّرت رأسه وخصَاصه — يعنى شقوقه — ثم ألقته فى النيل، وكان يَشْرَع منه نهر كبير فى دار فرعون، فساقه الله فى ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا، فوضعته فيه وقيّرته وجَصّصته ، ثم ألقته فى اليمّ . وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بِركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبىّ أصبح

الناس، فأحبه عدوّ الله حبًّا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون إلقاء اليمّ بموضع من الساحل، فيه فُوَّهة نهر فرعون، ثم أدّاه النهر إلى حيث البركة. والله أعلم. وقيل: وجدته ابنة فرعون وكان بها برص، فلما فتحت التابوت شفيت . وروى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته، فإذا صبىّ نوره بين عينيه، وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه . وكانت لفرعون بنت برصاء، وقال له الأطباء : لاتبرأ إلا من قبل البحر، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه؛ فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبيا من أصبح الناس وجها، فأحبه فرعون؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحَبَّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مَسْحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قَتَادة : كانت فى عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبّه وعشقه. وقال عِكْرِمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبّك. وقال الطبرى : المعنى وألقيت عليك رحمتى . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبّك حتى أحبّك فرعون فسلمت من شرّه، وأحبّتك آسية بنت مُزَاحم فتبنّتك . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعيني حيث جُعلت فى التابوت، وحيث ألقى التابوت فى البحر، وحيث التقطك جوارى آمرأة فرعون؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن واحدة : لاتفتحْنه حتى تأتين به سيدتكنّ فهو أحظى لكنّ عندها، وأجدر بألا تتهمكنّ بأنكنّ وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكنّ . وكانت آمرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما آستقينه أولئك الجوارى . فذهبن بالتابوت إليها مغلَقا، فلما فتحته رأت صبيا لم يُرَ مثله قطّ؛ وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» قال لها فرعون: أمّا لك فنَعَم، وأما لى فلا . فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن فرعون قال

نعم هو قرة عين لى ولك لا من وصدّق " فقالت : هَبْه لى ولا تقتله ؛ فوهبه لها . وقيل : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى تُرَبَّى وتُغَذَّى على مرأى منى ؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنتَ القيام عليه. والمعنى « ولِتصنع على عينِي » فعلت ذلك . وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : « إذ تمشى أختك » على التقديم والتأخير. « لإذ » ظرف « لتصنع » . وقيل : الواو فى « ولِتصنع » زائدة . وقرأ ابن القَعْقاع « وَلْتُصْنَعْ » بإسكان اللام على الأمر، وظاهره للمخاطب والمأمور غائب . وقرأ أبو نُهَيك « ولِتَصْنَعَ » بفتح التاء . والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى وعلى عين منى. ذكره المهدوى . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ العامل فى « إذ تمشِى » « أَلْقَيْتُ » أو « تصنع » . ويجوز أن يكون بدلا من « إِذْ أَوْحَيْنَا » وأخته اسمها مريم . ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لما وهبه فرعون من امرأته طلبت له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته، فأخذته ووضعته فى حجرها وناولته ثديها فمصه وفرح به . فقالوا لها : تقيمين عندنا؛ فقالت : إنه لا لبن لى ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون. قالوا : ومن هى؟ . قالت : أمى . فقالوا : لها لبنٌ؟ قالت : لبن أخى هرون . وكان هرون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع ؛ وذلك أن فرعون رحم بنى إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هرون فيها ؛ قاله ابن عباس . فجاءت الأم فقبل ثديها . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفى مصحف أبى « فرددناك » . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر « كَىْ تَقِرَّ عَيْنُهَا » بكسر القاف . قال الجوهرى : وقرِرتُ به عينا وقرَرْتُ به قُرّة وقُرورا فيهما . ورجل قرير العين؛ وقد قرّت عينه تَقِرّ وتَقَرّ نقيض سخنت . وأقرّ الله عينه أى أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويقال : حتى تبرد ولا تسخن . وللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة . وقد تقدم هذا المعنى فى « مريم » (1) . « وَلَا تَحْزَنَ » أى على فقدك . ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطيا كافرا . قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثنتى

(1) راجع تفسير آية ٢٦ من هذا الجزء .

عشرة سنة . فى صحيح مسلم : وكان قتله خطأ؛ على ما يأتى . ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أى آمناك من الخوف والقتل والحبس . ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أى اختبرناك آختبارا حتى صلحت للرسالة . وقال قتادة : بلوناك بلاء . مجاهد : أخلصناك إخلاصا . وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه فى اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرّة؛ فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطى وخروجه خائفا يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق . فيقال : إنه نَدّ له من الغنم جَدْى فاتبعه أكثر النهار، وأتعبه، ثم أخذه فقبله وضمه إلى صدره، وقال له : أتعبتنى وأتعبت نفسك؛ ولم يغضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا آتخذه الله كليما؛ وقد مضى فى « النساء »(1) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ يريد عشر سنين أتمّ الأجلين . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة، منها عشر مهر آمرأته صفورا آبنة شعيب، وثمانى عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقا للنبوة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قَدَرٍ » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذى قدرت لك أنك تجىء فيه . والمعنى واحد . أى جئت فى الوقت الذى أردنا إرسالك فيه . وقال الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قَدَرًا * كما أَتَى رَبَّه موسى على قَدَر

قوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ قال ابن عباس : أى اصطفيتك لوحيى ورسالتى . وقيل : « اصْطَنَعْتُكَ » خلقتك؛ مأخوذ من الصنعة . وقيل : قويتك وعلمتك لتبلّغ عبادى أمرى ونهيى . ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى ﴾ قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التى أنزلت عليه . ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ قال ابن عباس : تضعفا أى فى أمر الرسالة؛ وقاله قتادة . وقيل : تفترا . قال الشاعر(2) :

فما وَنَى محمدٌ مُذ انْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَبر

(1) راجع جـ ٦ ص ١٨ طبعة أولى أو ثانية . (2) هو العجاج .

والْوَنَى الضَّعف والفتور، والكَلال والإعياء . وقال امرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا مـا السابحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المـرَكَّلِ (١)

ويقال: ونيت فى الأمر أنِي وَنًى ووَنْيًا أى ضَعُفت، فأنا وانٍ وناقة وانية وأونيتها أنا أضعفتها وأتعبتها . وفلان لا يَني كذا، أى لا يزال، وبه فَسَّر أبان معنى الاية واستشهد بقول طَرَفة :

كأنّ القُـدُورَ الراسياتِ أَمامهُـمْ * قِبابٌ بَنَوْهـا لا تَنِي أبـدًا تَغْـلِي

وعن ابن عباس أيضا : لا تبطئا . وفى قراءة ابن مسعود «وَلَا تَهِنا فِي ذِكْرِي» وتحميـدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى .

قوله تعـالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ٱذْهَبَا﴾ قال فى أول الآية : «ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي» وقال هنا : «ٱذهبا» فقيل : أمر الله تعالى موسى وهرون فى هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفـا له؛ ثم كرر للتأكيـد . وقيل : بيّن بهـذا أنه لا يكفى ذهاب أحدهمـا . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس، والثانى بالذهاب إلى فرعون .

الثانيـة — فى قوله تعـالى : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال : «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا» . وقال : «لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى» فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الآمر والناهى على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه؛ وهذا واضح .

---

(١) مسح معناه يصب الجرى صبا . والسابحات اللاتى عدوهن سباحة؛ والسباحة فى الجرى بسط الأيدى . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جريا مهلا .

الثالثـة — واختلف الناس فى معنى قوله « لَيِّنًا » فقالت فرقة منهم الكلبى وعكرمة : معناه كَنِّياه؛ وقاله ابن عباس ومجاهد والسدى . ثم قيـل : وكنيته أبو العباس . وقيـل : أبو الوليد . وقيل : أبو مرة؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُمِع بإسلامه. وقد يجوز ذلك و إن لم يُطمَع بإسلامه؛لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ولم يقل و إن طمعتم فى إسلامه، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية . وقد قال صـلى الله عليه وسلم لصفوان بن أميـة : " انزل أبا وهب " فكناه . وقال لسعد : " ألم تسمع مايقول أبو حُبَاب " يعنى عبدالله بن أبىّ . وروى فى الإسرائيليات أن موسى عليـه السلام قام على باب فرعون سنة ، لايجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فجرى له ماقصّ الله علينا من ذلك، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين . وقيل قال له موسى : تؤمن بمـا جئتُ به ، وتعبـد ربّ العالمين ؛ على أن لك شبابا لايَهْرَم إلى الموت، وملكا لاينزع منك إلى الموت ، وينسأ فى أجلك أربعمائة سنة، فإذا متّ دخلت الجنة . فهذا القول اللين . وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يافرعون إنا رسولا ربك ربّ العالمين . فسماه بهـذا الاسم لأنه أحب إليه ممـا سواه ممـا قيل له ، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللَّين هو القول الذى لاخشونة فيه ؛ يقال : لان الشئ يَلِين لَيْنًا ؛ وشىء لَيِّن ولَيْن مخفّف منه؛ والجمع أَلْيِناء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينـا ، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه ، وأمره بالمعروف فى كلامه . وقد قال تعـالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » . على ماتقدم فى « البقرة »[1] بيانه والحمد لله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ معناه: على رجائكما وطمعكما؛ فالتوقع فيها إنمـا هو راجع إلى جهة البشر؛ قاله كبراء النحويين : سيبويه وغيره . وقـد تقدم فى أول «البقرة»[2] . قال الزجاج : «لعل» لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: هي بمعنى كي. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى؛ قاله الحسن. وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ». ولكن لم ينفعه ذلك؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره. وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية: هـذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقـول أنت الإله؟!. وقد قيل: إن فرعون ركَنَ إلى قول موسى لما دعاه، وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل؛ بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصـير مربوبا. وقال له: أنا أردك شابا؛ فخضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب.

قوله تعـالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ قال الضـحاك: «يَفْرُطَ» يعجل. قال: و«يَطْغَى» يعتدي. النحاس: التقدير نخاف أن يفرط علينـا منه أمر، قال الفراء: فَرَط منه أمرٌ أي بدر؛ قال: وأفرط أسرف. قال: وفرَّط ترك. وقراءة الجمهور «يَفْرُطَ» بفتح الياء وضم الراء، ومعناه يعجل ويبادر بعقوبتنا. يقال: فَرَط مني أمرٌ أي بدر؛ ومنه الفارط في المـاء الذي يتقدم القـوم إلى المـاء. أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه؛ قاله المبرّد. وقرأت فرقة منهم ابن محيصن «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوي: ولعلها لغة. وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا. وقرأت طائفة «يُفْرِط» بضم الياء وكسر الراء؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضا. ومعناه يشطط في أذيتنا؛ قال الراجز:

* قد أَفرطَ العِلجُ علينا وعجّل *

قوله تعـالى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قال العلماء : لمّا لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الاية تردّ على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصرى رحمه الله حين قال للخبر عن عامر بن عبد الله — أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين المـاء، فجاء عامر إلى المـاء فأخذ منه حاجته، فقيل له : فقد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأسنّة فى جَوْفى أحبّ إلىّ من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه — : قد خاف من كان خيرا من عامر؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَـا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال : « فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَـةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وقال حين ألقى السحرةُ حبالهم وعصيّهم : « فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

قلت : ومنه حَفْر النبى صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عُمَيس لعمر لمـا قال لهـا سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبتَ ياعمر؛ كلّا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُطعِم جائعكم، ويَعظ جاهلكم، وكنا فى دار — أو أرض — البُعداء البُغَضاء[1] فى الحبشـة ؛ وذلك فى الله ورسوله ؛ وأيمُ الله لا أَطْعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف . الحديث بطوله خرجه مسلم . قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بنى آدم

---

(١) البعداء : أى فى النسب . البغضاء : أى فى الدين وقول أسماء : كذبت ياعمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[عليه][1] كاذب؛ وقد طبعهم على الهرب مما يضرها و يؤلمها أو يتلفها . قالوا : ولا ضار أضرّ من سبع عادٍ فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون . وهـذا كما تقول : الأمير مع فـلان إذا أردت أنه يحميه . وقوله : ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ عبارة عن الإدراك الذى لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعـالى : فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فى الكلام حذف، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خَلِّ عنهم . ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى بالسّخرة والتعب فى العمل، وكانت بنـو إسرائيل عنـد فرعون فى عذاب شـديد؛ يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، و يكلّفهم من العمل فى الطّين واللَّبِن وبناء المـدائن ما لا يطيقونه . ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يريد العصـا واليد . وقيـل : إن فرعون قال له : وما هى ؟ فأدخل يده فى جيب قميصـه، ثم أخرجها بيضاء لهـا شعاع مثل شعاع الشمس، غلب نورها على نور الشمس فعجب منهـا . ولم يره العصـا إلا يوم الزّينـة . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بتحيـة، والدليل على ذلك أنه ليس بابتـداء لقـاء ولا خطاب .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء . ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ يعني الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ذكر فرعون موسى دون هرون لرءوس الآى . وقيل : خصّصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنهما جميعا بلّغا الرسالة وإن كان ساكتا؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وازره الآخر وأيّده . فصار لنا في هذا البناء فائدة علم؛ أن الاثنين إذا قُلِّدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذى قُلِّدا وقاما به واستوجبا الثواب ؛ لأن الله تعالى قال : « ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » وقال : « ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ » وقال : «فَقُولَا لَهُ» فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا في وقت الخطاب بقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا » أنه كان حاضرا مع موسى . ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أى أنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم عَلَمٌ حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم ، وهو الذى خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة ، ولو كان الخطاب معهما لقالا : قالا ربنا . « وَخَلْقَهُ » أول مفعولى أعطى ، أى أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو ثانيهما أى أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ؛ على قول الضحاك على ما يأتى . ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شيء زوجه من جنسه ، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدّره تقديرا . وقال الشاعر :

وله في كلِّ شيءٍ خِلْقَةٌ * وكذاك الله ما شاء فعلْ

يعنى بالخلقة الصورة؛ وهو قول عطية ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلْقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له . يعنى اليد للبطش ، والرجل للمشى، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأنثى . فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس ، . والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ » بفتح اللام؛ وهى قراءة ابن أبى إسحق. ورواها نصير عن الكسائى وغيره ؛ أى أعطى بنى آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه . فالقراءتان متفقتان فى المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البال الحال؛ أى ما حالها وما شأنها، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أى إن هذا من علم الغيب الذى سألت عنه ، وهو مما آستأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله فى اللوح المحفوظ . وقيل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك . أى فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده فى كتاب . أى هى مكتوبة فسيجازيهم غدا بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانيــة ــ هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتى تدل على تدوين العلوم وكَتْبها لئلا تُنْسى . فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنّسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتى تغلب غضبى" . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبى هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث ويعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله ! إنى أسمع منك الحديث يعجبنى ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آستعن بيمينك" وأومأ إلى الخطّ . وهذا نصّ . وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكَتْب الخطبة التى خطب بها فى الحج لأبى شاه — رجل من اليمن — لما سأله كَتْبها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "قيِّدوا العلمَ بالكتابة" . وقال معاوية بن قُرّة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكَتْب ؛ فروى أبو نصرة قال قيل لأبى سعيد : أنكتب حديثكم هذا ؟ قال : لم تجعلونه قرآنا ؟ ولكن آحفظوا كما حفظنا . وممن كان لا يكتب الشعبى ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا، فلما حفظته محوته — وآبن عون والزهرى . وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرة . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قطّ إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذّاء مثل هذا . وحديث الأعماق خرجه مسلم فى آخر الكتاب : "لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق[1] — أو — بدابق" الحديث ذكره فى كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أدريس وهشيم وغيرهم . وهذا آحتياط على الحفظ . والكَتْب أولى على الجملة، وبه وردت الآى والأحاديث ؛ وهو مروىّ عن عمر وعلى وجابر وأنس رضى الله عنهم، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ ودابق : اسم موضع سوق بها . والشك من الراوى .

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم ؛ قال الله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . وقال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » . وقال تعالى : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » الآية . وقال تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » . وقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » إلى غير هذا من الآى . وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكَتْب من كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد لئلا يعتمده الكاتب فيهمله، أو يرغب عن حفظه والعمل به؛ فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى؛ فإن احتج محتج بحديث أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تكتبوا عنى ومن كتب غير القرآن فليمحه" خرجه مسلم؛ فالجواب أن ذلك كان متقدما؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبى شاه وغيره . وأيضا كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه . وكذا ما روى عن أبى سعيد أيضا — حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم فى الكتابة فأبى — إن كان محفوظا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن .

الثالثـــة — قال أبو بكر الخطيب : ينبغى أن يكتب الحديث بالسواد ؛ ثم الحبر خاصة دون المِداد(1) لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور . وهو آلة ذوى العلم ، وعدّة أهل المعرفة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى أبى قال : رآنى الشافعى وأنا فى مجلسه وعلى قميصى حبر وأنا أخفيه ؛ فقال : لم تخفيه وتستره ؟ إن الحبر على الثوب من المروءة لأن صورته فى الأبصار سواد ، وفى البصائر بياض . وقال خالد بن يزيد : الحبر فى ثوب صاحب الحديث مثل الخَلُوق(2) فى ثوب العروس . وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوى فقال :

مِـدادُ المَحَـابرِ طيبُ الرجال * وطيب النساءِ من الزّعفرانْ
فهـذا يَلِيـــق بأثواب ذَا * وهـــذا يليقُ بثوب الحَصَانْ

(1) لافرق فى اللغة بين المداد والحبر؛ ولعل المراد الكتابة بالحبر الأسود خاصة ؛ فالتفرقة بحسب اللون على ما يبدو .
(2) الخلوق : طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره .

وذكر الماوردى أن عبد الله[1] بن سليمان فيما حكى ؛ رأى على بعض ثيابه أثر صفرة؛ فأخذ من مداد الدواة وطلاه به؛ ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران؛ وأنشد :

إنّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى ٭ ومِدادُ الدّوِىِّ عِطرُ الرِّجالِ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى ﴾ اختلف فى معناه على أقوال خمسة؛ الأول : إنه ابتداء كلام ، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم فى قوله : « فى كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضلّ » لا يهلك من قوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ » . « وَلَا يَنْسَى » شيئا؛ نزّهه عن الهلاك والنّسيان . القول الثانى : « لَا يَضِلُّ » لا يخطئ ؛ قاله ابن عباس؛ أى لا يخطئ فى التدبير، فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغَيبوبة ؛ يقال : ضلّ الناسى إذا غاب عنه حفظ الشيء . قال : ومعنى « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » أى لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضا وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى — : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى؛ لا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابى . وقول خامس : إن « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » فى موضع الصفة لـ « كتاب » أى الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أى غير ذاهب عنه . « وَلَا يَنْسَى » أى غير ناسٍ له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعلى هذا يكون الكلام متصلا ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّنى الشيء إذا لم أجده ، وأضللته أنا إذا تركته فى موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم الجحدرى وابن كثير فيما روى شبل عنه « لَا يُضِلُّ » بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّى ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد؛ يقال : ضلّ عن الطريق ، وأضل الشيء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لا يُضِلُّ رَبِّى » أى لا يُضيع ؛ هذا مذهب العرب .

---

(١) فى « أدب الدنيا والدين » : عبيد الله بن سليمان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا[1] ﴾ « الذى » فى موضع نعت « لربى » أى لا يضل ربى الذى جعل . ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمر أى هو « الذى » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » هنا وفى « الزخرف » بفتح الميم وإسكان الهاء . الباقون « مِهَادًا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » . النحاس : والجمع أولى لأن « مهدا » مصدر وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف؛ أى ذات مهد . المهدوىّ : ومن قرأ « مَهْدًا » جاز أن يكون مصدرا كالفَرْش أى مَهَد لكم الأرض مَهْدًا ؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف؛ أى ذات مهد . ومن قرأ «مِهَادًا» جاز أن يكون مفردا كالفراش . وجاز أن يكون جمع «مهد» استعمل استعمال الأسماء فكسّر . ومعنى «مِهَادًا» أى فراشا وقرارا تستقرون عليها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى طرقا . نظيره « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » . وقال تعالى : «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» . ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تقدم معناه . وهذا آخر كلام موسى؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ . وقيل : كله من كلام موسى؛ والمعنى «فأخرجنا به» أى بالحرث والمعالجة؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ ضروبا وأشباها ، أى أصنافا من النبات المختلفة الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى؛ فـ«شتى» يجوز أن يكون نعتا لأزواج، ويجوز أن يكون نعتا للنبات . و«شتّى»

(١) «مهادا» بالجمع قراءة « نافع » وعليها الأصل .

مأخوذ من شتَّ الشئُ أى تفرق . يقال : أمر شَتٌّ أى متفرق . وشَتَّ الأمرُ شتًّا وشَتاتًا تفرق ؛ وآستشتَّ مثله . وكذلك التَّشتت . وشَتَّته تَشْتِيتا فرّقه . وأَشتَّ بى قومى أى فرّقوا أمرى . والشَّتيت المتفرّق . قال رُؤْبة يصف إبلا :

جَاءتْ مَعًا وآطَّرقتْ شَتِيتَا * وهى تُثيرُ السَّاطِعَ السِّخْتِيتَا (١)

وثَغْر شَتيتٌ أى مُفلَّج . وقوم شَتَّى ، وأشياء شتَّى ، وتقول : جاءوا أشتاتا ؛ أى متفرقين ؛ واحدهم شتٌّ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَآرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أمر إباحة . «وَآرْعَوْا» من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ؛ أى أسامها وسرحها ؛ لازم ومتعد. ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى﴾ أى العقول . الواحدة نُهْيـة . قال لهم ذلك؛ لأنهم الذين يُنْتَهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى آحتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى » . و بين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض؛ قاله أبو إسحق الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . و روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حُفْرته" أخرجه أبو نعيم الحافظ فى باب ابن سيرين، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبى عاصم النبيل، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة «الأنعام» (٢) عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراسانى : إذا وقعت النطفة فى الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة، فيخلق الله النّسمة من النّطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : « مِنها خَلَقْناكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . وفى حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملا من الملائكة

(١) السختيت : دقاق التراب : وهو الغبار الشديد الارتفاع . ويروى : « الشختيتا » بالشين المعجمة .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل «اكتبوا لعبدى كتابا فى عِلّيين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» فتعاد روحه فى جسده" وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه فى كتاب «التذكرة» وروى من حديث علىّ رضى الله عنه ؛ ذكره الثعلبي . ومعنى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أى بعد الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ أى للبعث والحساب . ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » لا إلى « نُعِيدُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى ؛ فالمعنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أى المعجزات الدالة على نبوّة موسى . وقيل : حجج الله الدالة على توحيده . ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أى لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عنادا ؛ لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . نظيره « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ لما رأى الآيات التى أتاه بها موسى قال : إنها سحر ؛ والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك ، حتى تغلب على أرضنا وعلينا . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ أى لنعارضنك

بمثل ماجئت به ليتبين للناس أن ماأتيت به ليس من عند الله. ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ هو مصدر؛ أى وعدا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد؛ كما قال تعالى: « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد ٱسم لزمان الوعد؛ كقوله تعالى: « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » فالمعنى: ٱجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا. قال القشيرى: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه. وقال الجوهرى: والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك المَوْعِد. وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج « لَا نُخْلِفْهُ » بالجزم جوابا لقوله « ٱجْعَلْ ». ومن رفع فهو نعت لـ «موعد» والتقدير: موعدا غير مخلف. ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «سُوًى» بضم السين. الباقون بكسرها؛ وهما لغتان مثل عُدًا وعِدًا وطُوًى وطِوًى. واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس: والكسر أعرف وأشهر. وكلهم نونوا الواو، وقد روى عن الحسن، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين. واختلف فى معناه فقيل: سوى هذا المكان؛ قاله الكلبى. وقيل: مكانا مستويا يتبيّن للناس ما بيّنا فيه؛ قاله ابن زيد. ابن عباس: نصفا. مجاهد: منصفا؛ وعنه أيضا وقتادة عَدلا بيننا وبينك. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى « سُوًى » نَصَف وعَدْل وهو قول حسن؛ قال سيبويه يقال: سوى وسُوًى أى عَدْل؛ يعنى مكانا عَدْلا بين المكانين فيه النَّصَفة؛ وأصله من قولك: جلس فى سَواء الدار بالمدّ أى فى وسطها؛ ووسط كل شىء أعدله؛ وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدلا، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها * يُسَوِّى بيننا فيها السَّوَاءُ

وقال أبو عبيدة والقتبى: وسطا بين الفريقين؛ وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى:

وإنّ أبانا كان حَلّ ببلدةٍ * سِوًى بين قيس قيس عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم. وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضممت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء؛ أى عدل ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

* وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ *

البيت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصدا؛ وأنشد صاحب هذا القول :

لو تَمَنَّتْ حَبيبتى ما عَــدَتْنِى * أو تَمَنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها

وتقول : مررت برجل سِواك وسُوَاك وسَــوَائك أى غيرك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس . وانتصب « مكانا » على المفعــول الثانى لـ « جعل » . ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعــول أو ظرف له ؛ لأن الموعد قد وصف ، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغّرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل ، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجــرى المصادر مع الظروف ، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و« مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَــةِ » . واختلف فى يوم الزينة ، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيّنون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيّب : يوم سوق كان لهم يتزيّنــون فيها؛ وقاله قتادة أيضــا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيــل : يوم النيروز؛ ذكره الثعلبى . وقيل : يومٌ يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسُّلَمى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزِّينَــةِ » بالنصب . ورويت عن أبى عمرو ؛ أى فى يوم الزينــة إنجاز موعدنا . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتــداء . ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى وجمع الناس؛ فـ « أَنْ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمُ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُحْشَرَ » يقوّى قراءة الرفع ؛ لأن « أَنْ » لا تكون ظرفا ، وإن كان المصــدر الصريح يكون ظرفا كمقدم الحاج؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج . النحاس : وأولى من هــذا أن يكون فى موضع خفض عطفا على الزينــة . والضحا مؤنثــة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى :

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَا وهى حين تُشرق الشمس؛ مقصورة تؤنث وتذكّر؛ فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة؛ ومن ذكّر ذهب الى أنه اسم على فُعَل مثل صُرَد ونُغَر؛ وهو ظرف غير متمكن مثل سحر؛ تقول : لقيته ضُحًا؛ وضُحًا إذا أردت به ضُحًا يومك لم تنونه، ثم بعده الضَّحاء ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . وخصّ الضُّحا لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان فى النهار متّسع . وروى عن ابن مسعود والجحدرى وغيرهما « وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًا » على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه . وعن بعض القراء « وَأَنْ تَحْشُرَ الناس » والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس . وعن الجحدرى أيضا « وَأَنْ نَحْشُرَ » بالنون . وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد، وفى المجمع الغاصّ لتقوى رغبة من رغب فى الحقّ، ويكلّ حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدّث بذلك الأمر العلمَ فى كل بدو وحضر، ويشيع فى جمع أهل الوَبَر والمَدَر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أى حِيَله وسحره؛ والمراد جَمْع السّحرة . قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحرا، مع كل ساحر منهم حبال وعصىّ . وقيل : كانوا أربعمائة . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا . وقيل : كانوا مجمعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبا، مع كل نقيب عشرون عريفا، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى . ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أى أتى الميعاد . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ أى قال لفرعون والسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء عليهم بالويل . وهو بمعنى المصدر . وقال أبو إسحق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله وَيْلا . قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : « يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا » . ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر . ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ من عنده أى يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَت وأَسْحت بمعنًى . وأصله من ٱستقصاء الشَّعْر . وقرأ الكوفيون « فَيُسْحِتَكُمْ » من أَسْحت، الباقون « فَيَسْحَتَكُمْ » من سَحَت وهذه لغة أهل الحجاز و [الأولى لغـة] [1] بنى تميم . وانتصب على جواب النهى . وقال الفرزدق :

وعَضّ زمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ [2] * من المـالِ إلّا مُسْــحتًا أو مُجَلَّفُ [3]

الزمخشرى : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى خسر وهلك، وخاب من الرحمة والثواب من ٱدعى على الله مالم يأذن به .

قوله تعـالى : فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُـمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُـمْ ﴾ أى تشاوروا ؛ يريد السّحرة . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ قال قتادة ﴿ قَالُوا ﴾ : إن كان ما جاء به سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عنـد الله فسيكون له أمر؛ وهـذا الذى أسروه . وقيل الذى أسروا قولهم : « إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » الآية ، قاله السدى ومقاتل . وقيـل الذى أسروا قولهم : إن غَلَبنا اتبعناه؛ قاله الكلبي ؛ دليله ما ظهر من عاقبـة أمرهم . وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » : ما هذا بقول ساحر . و « النجوى » المناجاة يكون ٱسما ومصدرا؛ وقد تقدم فى « النساء » [4] بيانه .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير .　　(٢) ويروى : «إلا مسحت» ومن رواه كذلك جعل معنى «لم يدع» لم يتقار؛ ومن رواه «إلا مسحتا» جعل «لم يدع» بمعنى لم يترك ، ورفع «مجلف» بإضمار؛ كأنه قال : أو هو مجلف . «اللسان» .　　(٣) المجلف : الذى بقيت منه بقية .　　(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » . وروبت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعِيّ وغيرهم من التابعين؛ ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ؛ فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف . وقرأ الزهرىّ والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إِنْ هَذَانِ » بتخفيف «إن» «لساحران» وابن كثير يشدّد نون «هذانّ» . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المدنيون والكوفيون « إِنَّ هَـذَانِ » بتشديد « إنّ » « لساحران » فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « إِنْ هذانِ إِلّا ساحِرانِ » وقال الكسائى فى قراءة عبد الله : « إِنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ » بغير لام؛ وقال الفراء فى حرف أبىّ « إِنْ ذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف .

قلت : وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنبارى فى آخر كتاب الردّ له، والنحاس فى إعرابه، والمهدوى فى تفسيره، وغيرهم أدخل كلام بعضهم فى بعض . وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إنى لأستحى من الله أن أقرأ « إِنَّ هَذَانِ » : وروى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفى « المائدة » « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ » و « إِنَّ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يابن أختى ! هذا خطأ من الكاتب . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان، فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيّروه؟ فقال : دَعُوه فإنه لا يحرّم حلالا ولا يحلّل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بنى الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛

يقولون: جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» على ما تقدّم[1] . وأنشد الفراء لرجل من بنى أسد[2] — قال: وما رأيت أفصح منه:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى * مَساغًا لِنَاباهُ الشُّجاعُ لَصَمَّمَا[3]

ويقولون: كسرت يداه وركبت عَلَاه؛ بمعنى يديه وعليه؛ قال شاعرهم[4]:

تَزوَّدَ مِنّا بين أُذْنَاه ضَرْبةً * دعته إلى هابِي التُّرابِ عَقِيم

وقال آخر[5]: * طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا *

أى عليهنّ وعليها.

وقال آخر[6]: إنّ أباهَا وأَبَا أباهَا * قد بَلَغَا فى المجدِ غايتاها

أى إن أبا أبيها وغايتيها. قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته؛ منهم أبو زيد الأنصارى، وهو الذى يقول: إذا قال سيبويه حدّثنى من أثق به فإنما يعنينى؛ وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء اللغة، والكسائى والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بنى الحرث بن كعب. وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أن هذه لغة بنى كنانة. المهدوى: وحكى غيره أنها لغة لخثعم. قال النحاس ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه: وٱعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين، الأولى منهما حرف مدّ ولين وهو حرف الإعراب؛ قال أبو جعفر فقول سيبويه: وهو حرف الإعراب، يوجب أن الأصل ألا يتغير، فيكون «إِنَّ هَذَانِ» جاء

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) هو المتلمس كما فى «اللسان».
(٣) صمم الشجاع فى عضته: أى عض ونيب فلم يرسل ما عض.
(٤) هو هوبر الحارثى. والهابى من التراب ما ٱرتفع ودق.
(٥) قيل: هو لبعض أهل اليمن، وأن قبله:

أىّ قلوص راكب تراها * طاروا علاهن فطر علاها
وٱشدد بمثنى حقب حقواها * ناجية وناجيا أباها

والحقو: الخاصرة. والناجية: السريعة.
(٦) نسبه الجوهرى لأبى النجم، وأن قبله:

واها لسلمى ثم واها واها * هى المنى لو أننا نلناها
يا ليت عيناها لنا وفاها * بثمن نرضى به أباها

إن أباها ... الخ. ونسبه بعضهم لرؤبة. وقيل: لبعض أهل اليمن؛ وأن قبله:

أى قلوص راكب تراها * طاروا علاهن ... الخ.

على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » ولم يقل ٱستحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَذَانِ » ولا يفكر فى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها . القول الثانى : أن يكون « إنّ » بمعنى نعم؛ كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتى بـ « إنّ » بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن « إنّ » تأتى بمعنى أَجَلْ ، و إلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، و إسمعيل بن إسحق القاضى يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان إليه . الزمخشرى : وقد أعجب به أبو إسحق . النحاس : وحدّثنا علىّ بن سليمان ، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابورىّ ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا[1]] فحدّثنى ، قال حدّثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ — وهو ابن الحسين — عن أبيه عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : " إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه " ثم يقول : " أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدى أبان بن سعيد بن العاص " قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو " إنّ الحمد لله " بالنصب إلا أن العرب تجعل « إن » فى معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم . وقال الشاعر فى معنى نعم:

قالوا غَـدَرْتَ فقلتُ إنّ وربَّمَا * نَالَ العُـلَا وشَـفَى الغَليلَ الغَادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرُّقَيات :

بَكَرَ العواذلُ فى الصَّبا * حِ يَلُمْنَنِى وأَلُومُهُنَّهْ
ويَقُلْنَ شَـيْبٌ قـد عَـلَا * كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب .
قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب :

ليت شعرى هل للمحبِّ شفاء * من جَوَى حبّهن إنَّ اللقاءُ

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع اللام هاهنا ، وإن كان النحويون قد تكلموا فى ذلك فقالوا : اللام ينوى بها التقديم ؛ كما قال :

خَالِى لأنتَ ومَنْ جرِيرٌ خالُه * يَنِلِ العَلَاء ويُكْرِمِ الأَخوالَا

آخـــر :

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعجُـــوزٌ شَهْرَبَهْ * تَرْضَى من الشَّاة بعَظْمِ الرَّقَبَـــهْ

أى لخـالى ولأمّ الحليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى فى الآية إن هـذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ . المهدوى : وأنكره أبو علىّ وأبو الفتح بن جنىّ . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُـرِف ، وإذا كان معروفا فقد آستغنى بمعرفته عن تأكيده باللام ، ويقبح أن تحذف المؤكَّد وتترك المؤكِّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت : جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك . القـول الرابع قاله بعض الكوفيين ؛ قال : الألف فى «هذان» مشبهة بالألف فى يفعلان ؛ فلم تغير . القول الخامس : قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهـاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنبارى : فأضمرت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هـذان » خبر « إن » و « ساحران » يرفعها « هما » المضمر [والتقدير][1] إنه هذان لهما ساحران . والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالآبتداء وما بعده خبر الآبتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أجبتك بجواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولى ؛ فقلت : بقولك ؛ فقال : سألنى إسمعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لمـا كان يقال «هذا» فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحدة ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أنتم عليه ؛ كما قال فرعون : « إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . ويقال : فلان حسن الطريقة أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذى ينبغى أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم ؛ آستمالة لهم . أو يذهبا ببنى إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الآنتساب إلى الأنبياء . أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف . و « المثلى » تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى . وأنث الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة . وقال الكسائى : « بطريقتكم » بسنتكم وسمتكم . و « المثلى » نعت كقولك آمرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشيء . تقول : أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمت . وقراءة كل الأمصار « فَأَجْمِعُوا » إلا أبا عمرو فإنه قرأ « فَاجْمَعُوا » بالوصل وفتح الميم . وآحتج بقوله : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » . قال النحاس وفيما حُكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « جمع » وقوله عز وجل : «فجمع كيده» قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده «فَاجْمَعُوا» ويقرب أن يكون بعده «فَأَجْمِعُوا» أى آعزموا وجدّوا؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر مجمع ومُجمَع عليه . قال النحاس : ويصحح قراءة أبى عمرو « فَاجْمَعُوا » أى آجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضُمُّوه مع أخيه . وقاله أبو إسحق . الثعلبى : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما — بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد ، وفى الصحاح : وأجمعت الشيء جعلته جميعا؛ قال أبو ذؤيب يصف حُمُرا :

فكأنها بالجِزْعِ بين نُبَايِعٍ [1] * وأولاتِ ذى العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ

---

(١) نبايع : اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل ، ويجمع على « نبايعات » .

أى مجموع . والثانى — أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

يا ليت شِعـرِى والمُـنَى لاتَنفعُ * هـل أغدُوَن يومًا وأمرِى مُجمَـعُ

أى مُحكَم . ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا ﴾ قال مقاتل والكلبي : جميعا . وقيل : صفوفا ليكون أشد لهيبتكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليــه على قول أبى عبيدة؛ قال يقال : أتيت الصّف يعنى المصلَّى؛ فالمعنى عنـده ٱئتوا الموضع الذى تجتمعون فيـه يوم العيد . وحكى عن بعض فصحاء العرب : ماقـدرت أن آتى الصفّ؛ يعنى المصلَّى . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ٱئتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال . ولذلك لم يجمع . وقرئ « ثُمَّ ايتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفا . ﴿ وَقَـدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أى من غلب . وهـذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيـل : من قول فرعون لهم .

قوله تعـالى : قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَى ﴾ يريد السحرة . ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف، أى فألقوا؛ دل عليه المعنى . وقرأ الحسن ﴿ وَعُصِيُّهُمْ ﴾ بضم العين . قال هرون القارئ : لغة بنى تميم « وعُصِيُّهُمْ » وبها يأخذ الحسن . الباقون بالكسر إتباعا لكسرة الصاد . ونحوه دُلِيّ ودِلِيّ وقُسى وقِسى . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخَيَّلُ » بالتاء ؛ وردّوه إلى العصىّ والحبال إذ هى مؤنثة . وذلك أنهم لطخوا العصىّ بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ٱرتهشت وٱهتزّت . قال الكلبى : خُيّل إلى موسى أن الأرض حيّات وأنها تسعى على بطنها . وقرئ « تَخَيَّلُ » بمعنى تتخيل وطريقه طريق « تُخَيَّلُ » ومن قرأ «يُخَيَّلُ» بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « نُخَيِّل » بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء . وقيل: الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَى » فـ « أنّ » فى موضع رفع ؛ أى يخيّل إليه سعيها ؛ قاله الزجاج . وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب؛ أى بأنها ثم حذف الباء . والمعنى فى الوجه الأوّل : تشبّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالتاء جعل «أنّ» فى موضع نصب أى تَخيّل إليه ذاتَ سعى . قال: ويجوز أن تكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى «تخيّل» وهو عائد على الحبال والعصىّ، والبدل فيه بدل اشتمال . و «تسعى» معناه تمشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أى أضمر . وقيل : وجد . وقيل : أحسّ . أى من الحيات وذلك على مايعرض من طباع البشر على ماتقدم . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه . وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحى بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له ياموسى تَرَفَّق بأولياء الله . فقال موسى : ياجبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردّوا دين الله، تقول : تَرَفَّق

بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أُوجس في نفس موسى ، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْم الله فيّ ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء . فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به . وأصل « خِيفة » خِوْفة فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ[1] مَا صَنَعُوا﴾ ولم يقل وألق عصاك، فجائز أن يكون تصغيرا لها؛ أي لاتبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العُوَيد الفَرْد الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقّفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها. و« تَلَقَّفْ » بالجزم جواب الأمر؛ كأنه قال : إن تلقه تتلقّف؛ أي تأخذ وتبتلع . وقرأ السُّلَمِيّ وحفص « تَلْقَفْ » ساكنة اللام من لَقِف يَلْقَف لَقْفا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحرث «تَلَقَّفُ» بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف . والخطاب لموسى . وقيل : للعصا . واللّقْف الأخذ بسرعة. يقال : لَقِفتُ الشيء (بالكسر) ألقَفه لَقْفا، وتلقّفته أيضا أي تناولته بسرعة. عن يعقوب : يقال رجل لَقْف ثَقْف أي خفيف حاذق . واللَّقَف (بالتحريك) سقوط الحائط . ولقد لقِف الحوضُ لَقَفا أي تَهَوّر من أسفله واتسع . وتَلْقَف وتَلْقَم وتَلْهَم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف »[2] . لقِمت اللُّقمة (بالكسر) لَقْما ، وتَلَقّمتها إذا ابتلعتها في مهلة . وكذلك لَهِمه (بالكسر) إذا ابتلعه . ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ أي إن الذي صنعوه . ﴿ كَيْدُ ﴾ بالرفع ﴿ سِحْرٍ ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

---

(١) « تلقف » بالتشديد قراءة « نافع » . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

على الإتباع من غير تقدير حذف . والثانى — أن يكون فى الكلام حذف أى كيد ذى سحر. وقرأ الباقون « كَيْدَ » بالنصب بوقوع الصنع عليه[1]، و « ما » كافة ولا تضمر هاءً « ساحرٍ » بالإضافة . والكيد فى الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر . ويجوز فتح «أنّ» على معنى لأن ماصنعوا كيد ساحر . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتال . وقد مضى فى « البقرة »[2] حكم الساحر ومعنى السحر فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة فى العصا؛ فإنها ٱبتلعت جميع ماٱحتالوا به من الحبال والعصىّ؛ وكانت حمل ثلثمائة بعير ثم عادت عصًا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصىّ إلا الله تعالى . وقد مضى فى «الأعراف»[3] هذا المعنى وأمر العصا مستوفى . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى به ؛ يقال : آمن له وآمن به؛ ومنه « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ » وفى الأعراف « قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » . إنكار منه عليهم؛ أى تعديتم وفعلتم مالم آمركم به . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . أى رئيسكم فى التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى على جذوع النخل . قال سويد بن أبى كاهل :

هُم صَلَبُوا العبدىّ فى جذع نخلةٍ * فـلا عَطَسَتْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

فقطّع وصلّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى. وقرأ ابن محيصن هنا وفى الأعراف «فَلَأَقْطَعَنَّ» ، « وَلَأَصْلُبَنَّكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قَطَع وصَلَب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعنى أنا أم ربُّ موسى .

---

(١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور ، والجمهور قرأ « كيد ساحر » برفع « كيد » كما فى «البحر» وغيره؛ قال فى البحر: وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى السّحرة ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ أى لن نختارك ﴿ عَلَى مَاجَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة؛ فلهذا قالوا « لن نؤثرك » . وكانت آمرأة فرعون تسأل من غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهرون . فأرسل إليها فرعون فقال : آنظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فألقوها عليها ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها فى الجنة، فمضت على قولها فانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس فى جسدها روح . وقيل : قال مقدّم السّحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت[1] فتكون جنياً أو لم تتخوف فهى من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع ؛ فقال : ما تخوفت ؛ فقال : آمنت برب هرون وموسى . ﴿ وَالَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ » أى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذى فطرنا أى خلقنا . وقيل : هو قسم أى والله لن نؤثرك . ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه . وليست « ما » ها هنا التى تكون مع الفعل بمنزلة المصدر؛ لأن تلك توصل بالأفعال، وهذه موصولة بابتداء وخبر .

(١) فى نسخة « تجوفت — أو لم تجوف — ما تجوفت » بالجيم .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم؛ أى من القَطْع والصَّلْب . وحذفت الياء من قاض فى الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيبويه إثباتها فى الوقف لأنه قد زالت علة الساكنين . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى إنما ينفذ أمرك فيها . وهى منصوبة على الظرف، والمعنى : إنمـا تقضى فى متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه الحياة الدنيا، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضى أمور هذه الحياة الدنيا، فتنتصب انتصاب المفعول و « ما » كافة لإنّ . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما » بمعنى الذى وتحذف الهـاء من تقضى ورفعت « هـذه الحياة الدنيا » . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أى صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يريدون الشِّرْك الذى كانوا عليه . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ « ما » فى موضع نصب معطوفة على الخطايا . وقيل : لا موضع لها وهى نافية؛ أى ليغفر لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه . النحاس : والأول أولى . المهدوى : وفيه بعد؛ لقولهم : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأن الإكراه ليس بذنب، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه صغارا . قال الحسن : كانوا يعلّمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ويضمر الخبر، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا . و « من السـحر » على هـذا القول والقول الأوّل يتعلق بـ « أكرهتنا » . وعلى أنّ « ما » نافية يتعلق بـ « خطايانا » . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا . وهو جواب قوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » وقيل : الله خير لنا إن أطعناه، وأبقى عذابا منك إن عصيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ قيل : هو من قول السحرة لمـا آمنوا . وقيل : ابتداء كلام من الله عز وجل . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن . ويجـوز إنّ من يأت، ومنه قول الشاعر[1] :

إنّ من يَدخلِ الكنيسةَ يوماً * يـلْقَ فيهـا جآذرًا وظبـاء

(١) البيت للأخطل وهو نصرانى .

أراد إنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة . والمجرم الكافر . وقيل : الذى يقترف المعاصى و يكتسبها . والأول أشبه؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وهذه صفة الكافر المكذّب الجاحد — على ما تقدم بيانه فى سورة « النّساء » وغيرها — فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته . قال الشاعر :

ألا مَنْ لنفس لا تموت فينقضى ＊ شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقيل : نفس الكافر معلقة فى حنجرته ؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها . ومعنى « مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا » من يأت موعد ربه . ومعنى ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ أى يمت عليه و يوافيه مصدقا به . ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات وما أمر به ونهى عنه . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ أى الرفيعة التى قصرت دونها الصفات . ودل قوله : « وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا » على أن المراد بالمجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات و بدل منها، والعَدْن الإقامة؛ وقد تقدم بيانه (١) . ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسررها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين دائمين . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى من تطهّر من الكفر والمعاصى . ومن قال هذا من قول السّحرة قال : لعل السّحرة سمعوه من موسى، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون .

قلت : و يحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ تقدم الكلام فى هذا مستوفى (٢) . ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يابسا لا طين فيه ولا ماء؛ وقد مضى فى «البقرة»

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية .　(٣) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، وإغراق فرعون فلا معنى للإعادة . ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى لحاقا من فرعون وجنوده . ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ قال ابن جريج قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا، وهذا البحر قد غشينا، فأنزل الله تعالى « لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » أى لا تخاف دركا من فرعون ولا تخشى غرقا من البحر أن يمسك إن غشيك . وقرأ حمزة « لا تخف » على أنه جواب الأمر . التقدير إن تضرب لهم طريقا فى البحر لا تخف . و « لا تخشى » مستأنف على تقدير : ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة؛ كقوله : « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » أو يكون على حدّ قول الشاعر[1] :

* كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرا يَمَانِيَا *

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا مذهب الفراء . وقال آخر :

هَجوت زَبَّان ثم جئتَ معتذرا * من هجو زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ

وقال آخر[2]: أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِى زِيادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر؛ وأيضا فإن الذى جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف؛ لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف الحركة للجزم، وهذا محال فى الألف؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده « وَلَا تَخْشَى » مجمع عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول — أن يكون « لا تخاف » فى موضع الحال من المخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا غير خائف ولا خاشٍ . الثانى — أن يكون فى موضع النعت للطريق؛ لأنه معطوف على يبس الذى هو صفة، ويكون التقدير لا تخاف فيه؛ فحذف الراجع من الصفة . والثالث — أن يكون منقطعا خبر ابتداء محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

---

(١) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . وصدر البيت :

* وتضحك منى شيخة عبشمية *

(٢) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكان قد نشأت بينه وبين الربيع بن زياد شحناء فى شأن درع فاستاق إبل الربيع وباعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أى أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ « فَٱتَّبَعَهُمْ » بالتشديد فتكون الباء فى « بِجُنودِهِ » عدّت الفعل إلى المفعول الثانى؛ لأن ٱتبع يتعدى إلى مفعول واحد . أى تبعهم ليلحقهم بجنوده أى مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . ومن قطع « فأتبع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعــه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد . وقوله : « بِجُنودِهِ » فى موضع الحال؛ كأنه قال : فأتبعهم سائقا جنوده . ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى أصابهم من البحر ما غرّقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر . ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ أى أضلّهم عن الرشــد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدّر أن موسى عليه السلام ومن معــه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بعصاه ٱنفلق منه ٱثنا عشر طريقا، و بين الطرق المــاء قائما كالجبال . وفى سورة الشعراء « فكان كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » أى الجبل الكبير؛ فأخذ كل سِبْط طريقا . وأوحى الله إلى أطواد المــاء أَنْ تَشَــبَّكى فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هــذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق فى البحر والمــاء قائمــا أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم . وقيل إن قوله : « وَمَا هَدَى » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذّبه الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَى » أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعــالى : يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَــدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْـهِ غَضَبِى فَقَـدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِـلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا . ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ « جانب » نصب على المفعول الثانى « لواعدنا » ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكيّ : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطُّور ، ثم حذف المضاف . قال النحاس : أى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف واختاره أبو عبيد ؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى فى « البقرة »(1) هذا المعنى . و « الْأَيْمَنَ » نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل . وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أى فى التِّيه وقد تقدّم القول فيه(2) . ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمى فتدخله شبهة . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أى لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أى لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أى ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . وقيل : لا تدّخروا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيتدوّد عليهم ما ادّخروه ؛ ولولا ذلك ما تدوّد طعام أبدا . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء فى جواب النهى من قوله : « وَلَا تَطْغَوْا » . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى « فَيَحُلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحْلُلْ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسر وهما لغتان . وحكى

(1) راجع ج ١ ص ٣٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .
(2) راجع ج ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أبو عبيدة وغيره : أنه يقال حَلّ يحِلّ إذا وجب وحَلّ يحُلّ إذا نزل . وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى؛ لأنهم قد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » . وغضب الله عقابه ونقمته وعذابه . ﴿ فَقَدْ هَوَى ﴾ قال الزجاج : فقد هلك؛ أى صار إلى الهاوية وهى قعر النار، من هوى يهوى هويا أى سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسمعيل بن عياش قال حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُفَيّ(١) الأصبحيّ قال : إن فى جهنم جبلا يدعى صَعُودًا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه ؛ قال الله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وإن فى جهنم قصرا يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : « وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى » وذكر الحديث؛ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَى ﴾ أى أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشك فى إيمانه؛ ذكره الماوردى والمهدوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ وابن عباس أيضا : أقام على السنّة والجماعة ؛ ذكره الثعلبى . وقال أنس : أخذ بسنّة النبى صلى الله عليه وسلم؛ ذكر المهدوى، وحكاه الماوردى عن الربيع بن أنس . وقول خامس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد؛ وعنه أيضا تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل؛ ذكر الأول المهدوى، والثانى الثعلبيّ . وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ : علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا ؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثم ٱهتدى » فى ولاية أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله ثابت البُنَانِى . والقول الأول أحسن هذه الأقوال — إن شاء الله — وإليه يرجع سائرها . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع فى قوله عز وجل : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » أى من الشرك « وآمن » أى بعد الشرك « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام « ثُمَّ ٱهْتَدَى » مات على ذلك .

---

(١) بالتصغير بن ماتع (بالتاء المثناة الفوقية) الأصبحى .

قوله تعالى : وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أى ما حملك على أن تسبقهم . قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل؛ فعلى هـذا قيل : ٱستخلف هرونَ على بنى إسرائيل، وخرج معـه بسبعين رجلا للميقات . فقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى ﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين ٱختارهم، وكان موسى لمـا قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لمـا وفد إلى طور سينا بالوعد ٱشتاق إلى ربه، وطالت عليـه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى ، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده؛ فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقى صلى الله عليـه وسلم متحيرا عن الجواب وكنى عنه بقوله : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » وإنمـا سأله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ فكنى عن

ذكر الشوق وصدقه إلى ٱبتغاء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة فى قوله « وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رب لِتَرْضَى » قال : شوقا . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول : هاتوا المجيــد . فتؤتى بالمصحف فتأخذه فى صدرها وتنام معه تتسلى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضى الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : " إنه حديث عهد بربّى " فهذا من الرسول صلى الله عليــه وسلم وممن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشوق » . قال ٱبن عباس : كان الله عالمـا ولكن قال « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ » رحمة لموسى، وإكراما له بهذا القول، وتسكينا لقلبه، ورقة عليه؛ فقــال مجيبا لربه : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » . قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هُمْ أُولَى » مقصورة مرسلة، وأهــل الحجاز يقولون « أولاءِ » ممــدودة . وحكى الفراء « هُمْ أُولَاىَ عَلَى أَثَرِى » وزعم أبو إسحــق الزجاج : أن هــذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال؛ لأن هــذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَاىَ . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسما مبهما فإضافتــه محال ؛ وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا ؛ لأن ما بعــده من تمــامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبى إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على إِثْرِى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر ؛ لغتان . « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنّى . يقال: رَجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْــلَانُ بين العَجَلة؛ والعَجَلة خلاف البطء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أى ٱختبرناهم وٱمتحنّاهم بأن يستدلوا على الله عز وجل . ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ أى دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها . وقيل : فتناهم ألقيناهم فى الفتنة : أى زيّنا لهم عبادة العجل ؛ ولهذا قال موسى : « إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان السامرىّ من قوم يعبدون البــقر ، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفى قلبه ما فيــه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا

من القبط ، وكان جارا لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ حال وقد مضى فى « الأعراف (١) بيانه مستوفى . ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمن » الآية . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى أفنسيتم ؛ كما قيل؛ والشيء قد ينسى لطول العهد. ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ « يحلّ » أى يجب وينزل . والغضب العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطّور . وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر. قال مجاهد والسدى : ومعناه بطاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « بِمِلْكِنَا » بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها اللغة العالية . وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملْكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ؛ كأنه قال : بِملْكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقرأ حمزة والكسائى « بِمُلْكِنَا » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص ؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور : « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا » وكانوا اثنى عشر ألفا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف . ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . الباقون بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنهم حملوا حُلى القوم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

معهم وما حملوه كرها . ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أى أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى من حليّهم، وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون ، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما . أى لم يحلّ لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم، وأيضا فالأوزار هى الأثقال فى اللغة . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحلىّ فقذفناه فى النار ليذوب، أى طرحناه فيها . وقيل : طرحناه إلى السامرىّ لترجع فترى فيها رأيك . قال قتادة: إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القومُ موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلىّ؛ فجمعوه ودفعوه إلى السامرىّ فرمى به فى النار، وصاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال معمر : الفرس الذى كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلا جسدا له خُوار . والخُوار صوت البقر . وقال ابن عباس : لما انسكبت الحلىّ فى النار، جاء السامرىّ وقال لهرون : يانبىّ الله أؤلقى ما فى يدى — وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلىّ — فقذف التراب فيه، وقال: كن عجلا جسدا له خُوار ، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة؛ فخار خَورة واحدة لم يُتبعها مثلها . وقيل : خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأوّل كان عجلا من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسدىّ . وروى حماد عن سِماك عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : مرّ هرون بالسامرىّ وهو يصنع العجل، فقال : ما هذا؟ فقال : ينفع ولا يضر؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه؛ فقال : اللهم إنى أسألك أن يخور . وكان إذا خار سجدوا، وكان الخوار من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما يخور الحىّ من العجول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السامرىّ أخرج لهم عجلا جسدا له خُوار من حليّهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت ياحكيم

الحكاء . وقد تقدّم هـذا كله فى سورة « الأعراف »[1] . ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾ أى قال السامرىّ ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التّشبيه؛ إذ قالوا : « ٱجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » . ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أى فضـلّ موسى [وذهب][2] يطلبه فلم يعـلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربه . وقيل معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه . أى ترك موسى إلهـه هنا . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه . وقيل : الخطاب خبر عن السامرىّ . أى ترك السامرىّ ما أمره به موسى من الإيمان فضل؛ قاله ابن الأعرابىّ . فقال الله تعـالى محتجا عليهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى يعتبرون ويتفكرون فى ﴿أَن﴾ ﴿ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أى لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت . ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف يكون إلها؟! والذى يعبده موسى صلى الله عليه وسلم يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع . « أَنْ لَا يَرْجِعُ » تقديره أنه لا يرجع فلذلك ٱرتفع الفعل فخففت « أن » وحذف الضمير . وهو الٱختيار فى الرؤية والعلم والظن . قال :

فى فتيةٍ من سيوف الهند قد علموا * أَنْ هالكٌ كلُّ من يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فـلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى * ولكنّ زنجىٌّ عظيمُ المشافِرِ

أى ولكنك .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل أن يأتى موسى ويرجع إليهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أى ٱبتليتم وأضللتم به؛ أى بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

لا العجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فى عبادته ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لا أمر السامرى . أو فاتبعونى فى مسيرى إلى موسى ودعوا العجل ؛ فعصوه و﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ أى لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ فينظر هل يعبده كما عبدناه ؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هرون فى آثنى عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه : هـذا صوت الفتنة ؛ فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و﴿قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ أى أخطئوا الطريق وكفروا . ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ «لا» زائدة أى أن تتبع أمرى ووصيتى. وقيل : ما منعك عن آتباعى فى الإنكار عليهم . وقيل : معناه هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم . وقيل : ما منعك من اللحوق بى لمـا فُتنوا . ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعـالى عصيان منك لى؛ قاله ابن عباس . وقيـل : معناه هلّا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعـا لهم وزجرا . ومعنى « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » قيل : إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه « وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ آخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِـعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » فلما أقام معهم، ولم يبالغ فى منعهم، والإنكار عليهم ، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

مسـئلة — وهذا كله أصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله ، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم . وقد مضى هـذا المعنى فى آل عمران والنساء والمـائدة والأنعام والأعراف والأنفال . وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشى رحمه الله: ما يقول سـيدنا الفقيه فى مذهب الصوفية ؟ وأُعلِم — حرس الله مدته — أنه آجتمع جماعة من رجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليـه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليـه، ويحضرون شيئا يأكلونه . هل الحضـور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين، وهـذا القول الذى يذكرونه :

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ * قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ

واعمَلْ لنفسكَ صالحاً * مادام ينفعك العَمَلْ

أمّا الشبابُ فقد مضَى * ومَشِيبُ رأسكَ قد نَزَلْ

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : — يرحمك الله — مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرىّ، لما ٱتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل ؛ وأما القضيب فأول من ٱتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار؛ فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ؛ ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضُر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره؛ لأن الغيرة فى الله ملكته؛ أى لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك ٱستخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه . وقد مضى هذا في « الأعراف »(١) مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم ، فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم ، وربما أدّى الأمر إلى سفك الدماء ؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومني على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وفي الأعراف «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ» لأنك أمرتني أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ لم تعمل بوصيتي في حفظه ؛ قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدي وقدومي . فتركه موسى ثم أقبل على السامريّ فـ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي ، ما أمرك وشأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامريّ عظيما في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » فاغتنمها السامريّ وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل . فـ ﴿ قَالَ ﴾ السامريّ مجيبا لموسى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ يعني : رأيت ما لم يروا ؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة ، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلها زيّنت لي نفسي ذلك . وقال عليّ رضي الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامريّ من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس . وقيل قال السامري : رأيت جبريل على الفرس وهي تلقي خطوها مدّ البصر ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رَمَكة وَدِيق(٢) ، فتقدم خيل فرعون في ورود البحر . ويقال : إن أم السامريّ جعلته حين وضعته في غار خوفا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الرمكة : الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل ؛ معرب . وهي هنا الفرس . والوديق : التي تشتهي الفحل .

من أن يقتله فرعون؛ فجاءه جبريل عليه السلام ، فجعل كفّ السامرىّ فى فم السامرىّ ، فرضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ . وقد تقدم هذا المعنى فى «الأعراف»(١) . ويقال : إن السامرىّ سمع كلام موسى عليه السلام ، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور والآخر فرس فألقاهما فى النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان فى تابوت من حجر فى النيل ، فأتى به الثور على قرنه ، فتكلم السامرىّ بذلك الكلام الذى سمعه من موسى ، وألقى القبضة فى جوف العجل فخار . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف « بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . وقرأ أُبىّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة «فَقَبَصْتُ قَبْصَةً » بصاد غير معجمة . وروى عن الحسن ضم القاف من « قبصة » والصاد غير معجمة . الباقون : ﴿ قَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ بالضاد المعجمة . والفرق بينهما أن القبض بجميع الكفّ ، والقبص بأطراف الأصابع ، ونحوهما الخَضْم والقَضْم ، والقُبْضة بضم القاف القدر المقبوض؛ ذكره المهدوى . ولم يذكر الجوهرى « قُبْصة » بضم القاف والصاد غير معجمة ، وإنما ذكر « القُبْضة » بضم القاف والضاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شىء؛ يقال : أعطاه قُبْضة من سَويق أو تمر أى كفا منه ، وربما جاء بالفتح . قال : والقِبْص بكسر القاف والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس؛ قال الكميت :

لكم مسجدا اللهِ المَزُوران والحَصى * لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى(٢)

﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أى طرحتها فى العجل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أى زينته ؛ قاله الأخفش . وقال ابن زيد : حدثتنى نفسى . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ أى قال له موسى فاذهب أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أى لا أَمسّ ولا أُمَسّ طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألّا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلّموه عقوبة له . قال الشاعر :

تَمِيمٌ كرهط السّامرىّ وقوله * ألَا لا يريدُ السامرىّ مِساسَا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أى من بين مثر ومقل .

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماس أحدا ولا يمكّن من أن يمسّه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا . ويقال : ٱبتلى بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك — لامساس — وإن مسّ واحد من غيرهم أحدا منهم حُمَّ كلاهما فى الوقت . ويقال : إن موسى همّ بقتل السامري ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخيّ . ويقال لما قال له موسى : ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمَّالُ راياتٍ بها قَنَاعِسَا * حتى تقولَ الأزدُ لا مسابسًا[1]

مسئلة : هذه الآية أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلّفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قَتلٌ لا يُقتَل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج . ومن هذا القبيل التغريب فى حدّ الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله فى موضعه ، فلا معنى لإعادته . والحمد لله وحده . وقال هرون القارئ : ولغة العرب لا مَساسِ بكسر السين وفتح الميم ، وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبنى على الكسر كما يقال اضربِ الرجل . وقال أبو إسحق : لا مساسِ نفى وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلتِ يا ٱمرأة . قال النحاس : وسمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : إذا ٱعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا ٱعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فمساسِ ودراكِ ٱعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : ٱضرب الرجلَ . ورأيت أبا إسحق

(١) كذا فى الأصل ، ولم نقف عليه .

يذهب إلى أن هـذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمى آمرأة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب لا مَساسِ مثال قَطامِ فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المسّ . وقرأ أبو حيوة «لا مَسَاسِ» . ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ يعنى يوم القيامة . والموعد مصدر ؛ أى إن لك وعدا لعذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تُخْلِفَهُ » بكسر اللام وله معنيان : أحدهما — ستأتيه ولن تجده مخلَفا ؛ كما تقول : أحمدته أى وجدته محمودا . والثانى — على التهديد أى لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أى دمت وأقمت عليه . ﴿عاكِفًا﴾ أى ملازما؛ وأصله ظللت؛ قال[1] :

خَلَا أنّ العِتاقَ من المطايا * أَحَسْنَ به فهنّ إليه شُوسُ

أى أَحْسَسن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود « ظِلْتَ » بكسر الظاء . يقال : ظَللت أفعل كذا إذا فعلته نهارا وظَلْت وظِلْت ؛ فمن قال : ظَلْت حذف اللام الأولى تخفيفا ؛ ومن قال : ظِلْت ألقى حركة اللام على الظاء . و ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء من حرّق يحرّق . وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يُحرقه . وقرأ علىّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلى «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة، من حرقت الشىء أحرقه حرقا بردته وحككت بعضه ببعض، ومنه قولهم : حَرَق نابَه يحرِقه ويحرُقه أى سحقه حتى سُمع له صَرِيف؛ فمعنى هذه القراءة لنبردنّه بالمبارد ، ويقال للبرد المِحْرَق . والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيه ؛ قال السدى : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح، ثم بَرَد عظامه بالمبرد وحَرَقه . وفى حرف ابن مسعود « لنذبحنه ثم لنحرقنه» واللحم والدم إذا أحرقا

---

(١) هو أبو زبيدة ؛ والشوس (بالتحريك) قال ابن سيدة : أن ينظر بإحدى عينيه ، و يميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها ؛ و يكون ذلك خلقة ، و يكون من الكبر والتيه والغضب .

صارا رمادا فيمكن تذريته فى اليم، فأما الذهب فلا يصير رمادا . وقيل : عرف موسى ما صير به الذهب رمادا ، وكان ذلك من آياته . ومعنى ﴿ لَنَنْسِفَنَّهُ ﴾ لنطيرنه . وقرأ أبو رجاء «لَنَنْسُفَنَّهُ» بضم السين لغتان ، والنّسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية ، والمِنْسف ما يُنسف به الطعام ، وهو شيء متصوِّب الصـدر أعلاه مرتفع ، والنُّسَافة ما يسقط منـه ؛ يقال : آعزل النُّسَافة وكُلْ من الخالص . ويقال : أتانا فلان كأن لحيته مِنْسف ؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم . والمِنْسفة آلةٌ يقلع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلعته ، ونَسَف البعيرُ الكَلأَ يَنْسِفه بالكسر اذا اقتلعه بأصله ، وآنتسفت الشيء آقتلعته ؛ عن أبى زيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لا العِجْل ؛ أى وسع كل شيء عِلْمه ؛ يفعل الفعل عن العلم ؛ ونصب على التفسير . وقرأ مجاهد وقتادة « وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، أى كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك . ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ يعنى القرآن . وسمى القرآن ذكرا ؛ لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكرا ؛ لأن الذكر كان ينزل عليه . وقيل : « آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى شرفا ، كما قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ » أى شرف وتنويه بآسمك .

قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى القرآن فلم يؤمن به ، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى إثما عظيما وحملا ثقيلا . ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه ؛ أى فى جزائه وجزاؤه جهنم . ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة . وقرأ داود ابن رفيع « فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قراءة العامة « يُنْفَخُ » بضم الياء على الفعل المجهول . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل . واستدل أبو عمرو بقوله تعالى : « وَنَحْشُرُ » بنون . وعن ابن هُرمُز « يَنْفُخُ » بفتح الياء أى ينفخ إسرافيل . أبو عياض : « فِي الصُّوَرِ » . الباقون : « فى الصُّورِ » وقد تقدم هذا فى « الأنعام »(١) مستوفى وفى كتاب « التذكرة » . وقرأ طلحة بن مُصرِّف « ويُحْشَرُ » بضم اليـاء « الْمُجْرِمُونَ » رفعا بخـلاف المصحف . والباقون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين ، والزَّرَق خلاف الكَحَل . والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه ؛ أى تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وســواد وجوههم . وقال الكلبي والفراء : « زرقًا » أى عميا . وقال الأزهرى : عطاشا قد ٱزرقت أعينهم من شـدة العطش ؛ وقاله الزجاج ؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويزرقّ من العطش . وقيــل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ؛ يقال : ٱبيضت عينى لطول انتظارى لكذا . وقــول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف ؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقت عيناك يابنَ مُكَعْبَرٍ * كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين ، والمرأة زرقاء بينة الزَّرَق . والاسم الزُّرقة . وقد زَرِقت عينه بالكسر وٱزرقت عينه ٱزرقاقا ، وازراقت عينه ٱزريقاقا . وقال سـعيد بن جبير : قيل لابن عباس فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضـع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » فقال : إن ليوم القيامة حالات ؛ فحالة يكونون فيـه زرقا ، وحالة عميا . ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الخفت فى اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته خَفَته .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يتسارون؛ قاله مجاهد ؛ أى يقول بعضهم لبعض فى الموقف سرا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أى ما لبثتم يعنى فى الدنيا ، وقيل : فى القبور ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ يريد عشر ليال . وقيل : أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة؛ يرفع العذاب فى تلك المدة عن الكفار — فى قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة . أو مدة مقامهم فى الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة؛ ويخيل إلى أمثلهم أى أعدلهم قولا وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم مالبثوا إلا يوما واحدا يعنى لبثهم فى الدنيا؛ عن قتادة ؛ فالتقدير : إلا مثل يوم . وقيل : إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم . وقيل : أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم فى القبور على ما تقدم . « وعشرا » و « يوما » منصوبان بـ « لبثتم » .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة . ﴿ فَقُلْ ﴾ جاء هذا بفاء وكل سؤال فى القرآن « قل » بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط . وقد علم الله أنهم يسئلونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسئلوه عنه بعد؛ فتفهّمه . ﴿ يَنْسِفُهَا ﴾ يطيرها . ﴿ نَسْفًا ﴾ قال ابن الأعرابى وغيره : يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا . قال : ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ، ثم كالهباء المنثور . ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أى يذر مواضعها ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ القاع الأرض الملساء

بلا نبات ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابى . وقال الجوهرى : والقاع المستوى من الأرض والجمع أَقوعٌ وأَقْواعٌ وقِيعانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء . الكلبى : هو الذى لا نبات فيه . وقيل : المستوى من الأرض كأنه على صفّ واحد فى ٱستوائه؛ قاله مجاهد . والمعنى واحد فى القاع والصفصف؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس . وأنشد سيبويه[1] :

وَكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ * ودَكْدَاكِ رَمْلٍ وأَعْقَادِهَا

و «قاعا» نصب على الحال والصفصف . و ﴿لَا تَرَى﴾ فى موضع الصفة . ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابى : العِوج التعوج فى الفِجاج . والأَمْت النَّبَك . وقال أبو عمرو : الأَمْت النِّبَاك وهى التلال الصغار واحدها نَبَك؛ أى هى أرض مستوية لا ٱنخفاض فيها ولا ارتفاع . تقول : ٱمتلأ فما به أَمْت، وملأْتُ القربة مَلْئا لا أمت فيه؛ أى لا ٱسترخاء فيه . والأمت فى اللغة المكان المرتفع . وقال ٱبن عباس : «عِوَجًا» مَيْلا . قال : والأمت الأثر مثل الشراك . وعنه أيضا «عِوَجًا»، واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضا : العوج [الٱنخفاض][2] والأمت الٱرتفاع . وقال قتادة : «عِوَجًا» صدعا «وَلَا أَمْتًا» أى أكمة . وقال يمان : الأمت الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت أن يغلظ مكان فى الفضاء أو الجبل ويدق فى مكان؛ حكاه الصولى .

قلت : وهذه الآية تدخل فى باب الرُّقَى؛ ترقى بها الثآليل وهى التى تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)؛ تطلع فى الجسد وخاصة فى اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير، يكون فى طرف كل عود عقدة، تُمِرّ كل عُقدة على الثآليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد فى مكان ندىّ؛ تعفّن وتعفّن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثر؛ جرّبت ذلك فى نفسى وفى غيرى فوجدته نافعا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ فى الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى لا معدل لهم عنه؛ أى عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون

(١) البيت للأعشى؛ وقد وصف بعد المسافة بينه وبين الممدوح الذى قصده ليستوجب بذلك جائزته . والدكداك من الرمل المستوى . الاعقاد (جمع) عقدة وهو المنعقد من الرمل المتراكب . (٢) زيادة يقتضيها المعنى .

عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لدعائه . وقيل : يتّبعون الداعى اتباعا لا عوج له؛ فالمصدر مضمر؛ والمعنى : يتّبعون صوت الداعى للحشر؛ نظيره : « وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِى مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسيأتى . ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ ﴾ أى ذلّت وسكنت؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع، فكل لسان ساكت هناك للهيبة . ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أى من أجله . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الهمس الصوت الخفىّ؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحس الخفىّ . الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر؛ ومنه قول الراجز :

* وهُنَّ يَمْشِينَ بِنا هَمِيسَا *

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد الهموس؛ لأنه يهمس فى الظلمة؛ أى يطأ وطئا خفيّا . قال رؤبة يصف نفسه بالشدّة :

لَيثٌ يَدقُّ الأسدَ الهَمُوسَا * والأَقْهَبينِ[1] الفيلَ والجاموسَا

وهمس الطعام؛ أى مضغه وفُوه منضمٌّ؛ قال الراجز :

لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا * عجائزًا مثلَ السَّعالِى خَمْسَا

* يأْكُلْنَ ما أصنع هَمْسًا هَمْسًا *

وقيل : الهمْس تحريك الشّفة واللسان . وقرأ أُبىّ بن كعب « فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا » . والمعنى متقارب؛ أى لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء (هـ م س) أصله الخفاء كيفما تصرف؛ ومنه الحروف المهموسة، وهى عشرة يجمعها قولك : (حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ) وإنما سمى الحرف مهموسا لأنه ضَعُف الاعتمادُ من موضعه حتى جَرَى معه النفَس .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ « من » فى موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأول؛ أى لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن . ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى، أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمى الفيل والجاموس أقهبين للونهما وهو الغبرة .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى من أمر الساعة . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا قاله قتادة . وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب «وما خلفهم» ما خلفوه وراءهم فى الدنيا . ثم قيل : الآية عامة فى جميع الخلق . وقيل : المراد الذين يتبعون الداعى . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ الهاء فى « به » لله تعالى؛ أى أحد لا يحيط به علما؛ إذ الإحاطة مشعرة بالحدّ ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم؛ أى أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله . وقال الطبرى : الضمير فى «أيديهم» و«خلفهم» و«يحيطون» يعود على الملائكة؛ أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعالى : وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ ﴾ أى ذلّت وخضعت؛ قاله ابن الأعرابى وغيره . ومنه قيل للأسير عانٍ . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

مليكٌ على عرش السّماءِ مُهَيْمِنٌ * لعِزّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضا :

وعَنَاله وَجْهِى وخَلْقِى كلُّه * فى الساجدين لوجهه مَشْكُورَا

قال الجوهرى : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ » . ويقال أيضا : عَنَا فيهم فلان أسيرا؛ أى أقام فيهم على إساره واحتبس . وعنّاه غيرُه تعنيةً حبسه . والعانى الأسير . وقوم عُناة ونسوة عَوانٍ . وَعَنَتْ به أمورٌ نزلت . وقال ابن عباس : « عَنَت » ذلّت . وقال مجاهد : خشعت . الماوردى : والفرق بين الذل والخشوع — وإن تقارب معناهما — أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع أن يتذلل لذى طاعة . وقال الكلبى : « عنت » أى علمت . عطية العوفى : استسلمت . وقال طَلْق

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود . النحاس : «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ» فى معناه قولان : أحدهما — أن هذا فى الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عباس « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » قال : الركوع والسجود؛ ومعنى «عنت» فى اللغة القهر والغلبة، ومنه فتحت البلاد عَنوة أى غلبة؛ قال الشاعر[1] :

فما أخذوها عَنْوةً عن مودّة ＊ ولكنّ ضربَ المَشْرَفىّ ٱستقالَهَا

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب؛ وكنى عن الناس بالوجوه ؛ لأن آثار الذل إنما تتبين فى الوجه . ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وفى القيوم ثلاث تأويلات ؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق . الثانى — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذى لا يزول ولا يبيد . وقد مضى فى « البقرة »[2] هذا . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أى خسر من حمل شركا .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان . و « من » فى قوله : « مِنَ الصَّالِحَاتِ » للتبعيض؛ أى شيئا من الصالحات . وقيل: للجنس . ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصن « يَخَفْ » بالجزم جوابا لقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ » . الباقون « يَخَافُ » رفعا على الخبر؛ أى فهو لا يَخَافُ؛ أو فإنه لا يخاف . ﴿ظُلْمًا﴾ أى نقصا لثواب طاعته ، ولا زيادة عليه فى سيئاته . ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالانتقاص من حقه . والهضم النقص والكسر؛ يقال : هضمتُ ذلك من حقّ أى حططتُه وتركته . وهذا يهضم الطعام أى ينقص ثقله . وٱمرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . الماوردى : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه؛ قال المتوكل الليثى :

إنّ الأذلةَ واللئامَ لَمعشرٌ ＊ مَوْلَاهُم المتهضّم المظلومُ

قال الجوهرى : ورجل هَضِيمٌ ومُهتضَم أى مظلوم . وتَهضَّمه أى ظلمه وٱهتضمه إذا ظلمه وكَسَر عليه حقه .

---

(١) أنشده الفراء لكثير كما فى «اللسان» .	(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما بيّنا لك في هذه السّورة من البيان فكذلك جعلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بلغة العرب . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أي بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يخافون الله فيجتنبون معاصيه، ويحذرون عقابه . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أي موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا؛ فالذكر ها هنا بمعنى الشرف؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقيل : أي ليتذكروا العذاب الذي توعدوا به . وقرأ الحسن «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون؛ وروى عنه رفع الثاء وجزمها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه، وإنزال القرآن نزّه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال : «فَتَعَالَى اللَّهُ» أي جلّ الله الملك الحق؛ أي ذو الحق. ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علّم نبيه كيف يتلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأنزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » . وهذا كقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » على ما يأتي . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن نُبيّنه . وقيل : «وَلَا تَعْجَلْ» أي لا تسل إنزاله «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى» أي يأتيك « وَحْيُهُ » . وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت في رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص، فنزل « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ولهذا قال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أي فهما ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره « مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ » بالنون وكسر الضاد « وَحْيَهُ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسِي» بإسكان الياء وله معنيان: أحدهما ــ ترك؛ أي تَرَكَ الأمر والعهد؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» . و[وثانيهما][1] قال ابن عباس: «نسي» هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسي . قال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس . وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا . ومعنى « مِنْ قَبْلُ » أي من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهى عنها . والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي طاعة بني آدم الشيطان أمر قديم ؛ أي إن نَقَضَ هؤلاء العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسي ؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري . أي وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ، ويخالفوا رسلي ، ويطيعوا إبليس ، فقدمًا فعل ذلك أبوهم آدم . قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما الظاهر في الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن ، مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي فعوقب ؛ ليكون أشد في التحذير ، وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا في معنى الوصية ؛ « ونسي » معناه ترك ؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعلق بالناسي عقاب . والعزم المضي على المعتقد في أي شيء كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده . والشيء الذي عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له . واختلف في معنى قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ فقال ابن عباس وقتادة : لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر . قال

(١) زيادة يقتضيها السياق .

النحاس : وكذلك هو فى اللغة؛ يقال : لفلان عزم أى صبر وثبات على التحفظ من المعاصى حتى يسلم منها، ومنه «فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ» . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفى : حفظا لما أمر به؛ أى لم يتحفظ مما نهيته حتى نسى، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِّدت فى الجنة؛ يعنى عين تلك الشجرة، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل فى عموم النهى وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل، وظنّ أنها لم تدخل فى النهى فأكلها تأويلا، ولا يكون ناسيا للشىء من يعلم انه معصية . وقال ابن زيد : «عزما» محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزيمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب . قال القشيرى : والأول أقرب إلى تأويل الكلام؛ ولهذا قال قوم : آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل؛ لأن الله تعالى قال : «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» . وقال المُعْظَم : كل الرسل أولو العزم، وفى الخبر : "ما من نبىّ إلا وقد أخطأ أوهمّ بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا" فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة، ووضعت فى كفة ميزان، ووضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ تقدم فى «البقرة»(1) مستوفى . ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ نهى؛ ومجازه :

(1) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

لا تقبلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ . ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ يعنى أنت وزجك لأنهما فى آستواء العلة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيا ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان الكادّ عليها والكاسبَ لها كان بالشقاء أخص .
وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ » أى فى الجنة « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » فأعلمه أن له فى الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنك إن ضَيَّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعبا ونصبا ؛ أى جُعْتَ وعريتَ وظَمئتَ وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة . وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . وأعلمنا فى هذه الآية أن النفقة التى تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة . قال الحسن المراد بقوله : « فتشقى » شقاء الدنيا ؛ لا يُرَى ابنُ آدم إلا ناصبا . وقال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه .
وقال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذى قال الله تبارك وتعالى . وقيل : لما أهبط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم آزرع هذا ، فحرث وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جلس ليأكل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾
فيه مسئلتان :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أى فى الجنة « وَلَا تَعْرَى » . « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا » أى لا تعطش . والظمأ العطش . « وَلَا تَضْحَى » أى تبرز للشمس فتجد حرها . إذ ليس فى الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا : وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . قال أبو زيد : ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضُحُوًّا إذا بدا لك وظهر . وضَحَيْتُ وضَحِيتُ (بالكسر) ضَحًا عرِقت . وضَحِيتُ أيضا للشمس ضَحاء ممدود بَرزتُ وضَحَيتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل أَضْحَى فى اللغتين جميعا ؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

رَأَتْ رَجُلًا أَيْمَا إذا الشمسُ عَارضَتْ * فَيَضْحَى وأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وفى الحديث أن ابن عمر رأى رجلا محرما قد ٱستظل، فقال : أَضْحِ لمن أحرمت له . هكذا يرويه المحدِّثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصمعى : إنما هو ٱضْحَ لمن أحرمتَ له ؛ بكسر الألف وفتح الحاء ، مَن ضَحِيت أَضْحَى ؛ لأنه أمره بالبروز للشمس ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » وأنشد :

ضَحِيتُ له كَىْ أَسْتظلَّ بِظلِّهِ * إِذا الظلُّ أَضْحَى فى القيامة قَالِصا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما فى رواية أبى بكر عنه « وَأَنَّكَ » بفتح الهمزة عطفا على « أَلَّا تَجُوعَ » . ويجوز أن يكون فى موضع رفع عطفا على الموضع ، والمعنى : ولك أنك لا تظمأ فيها . الباقون بالكسر على الٱستئناف، أو على العطف على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ج وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)

قوله تعـالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ تقـدّم فى « الأعراف »(١) . ﴿ قَالَ ﴾ يعنى الشيطان ﴿ يَا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ وهذا يدل على المشافهة، وأنه دخل الجنة فى جوف الحيـة على ما تقدّم فى « البقرة »(٢) بيانه، وتقدم هناك تعيين الشجرة، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة . ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »(٣) مسـتوفى . وقال الفراء : « وَطَفِقَا » فى العربية أقبلا؛ قال وقيل : جعلا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَعَصَى » تقـدّم فى « البقرة »(٤) القول فى ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذى ينبغى أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهـم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليهـا، وأخبروا بذلك عن نفوسهـم، وتنصّلوا منها، وٱستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة لا يقبـل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس؛ فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسـنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهـم، ولا قدح فى رتبتهم، بل قـد تلافاهم، وٱجتباهم وهداهم، ومدحهـم وزكاهم وٱختارهم واصطفاهم؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانيـــة ــ قال القـاضى أبو بكر بن العربى : لا يجـوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه فى أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدّم، الذى عَذَره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : و إذا كان هذا فى المخلوق لايجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غيرذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا فى أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : من وصف شيئا من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده، وكذلك فى السمع والبصر يقطع ذلك منه؛لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة — روى الأئمة واللفظ [لمسلم[1]] عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ٱحتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى ٱصطفاك الله عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى: أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فَحَجَّ آدم موسى ثلاثا[2] " قال المهلب قوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية،وقدّر على التوبة منها،وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين : « وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف بأبٍ هو نبيّ قد ٱجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

(١) فى الأصول : اللفظ للبخارى . والتصويب عن صحيح مسلم .
(٢) ثلاثا : أى قال النبي صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى " ثلاث مرات .

الرابعة — وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر الله على ذلك؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي ففسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: «فَغَوَىٰ» ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا؛ والغيّ الفساد؛ وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: «فغوى» معناه ضلّ؛ من الغيّ الذي هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده؛ أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها؛ والغيّ الجهل. وعن بعضهم «فغوى» فبَشِم من كثرة الأكل؛ الزمخشريّ: وهذا وإن صحّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا؛ فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ: فَنَى وبَقَى وهم بنو طيّ تفسير خبيث.

السادسة — قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاصٍ ولا غاوٍ، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلّف؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوّة.

قلت: هذا حسن؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوّة، ودليل ذلك قوله تعالى: «ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ» فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا؛ لأن قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خاطب آدم وإبليس . « مِنها » أى من الجنة . وقد قال لأبليس : « ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا » فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من السماء، ثم أُهبط إلى الأرض . ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) أى أنت عدوّ للحية ولأبليس وهما عدوّان لك . وهذا يدل على أن قوله : « ٱهبِطا » ليس خطابا لآدم وحوّاء؛ لأنهما ما كانا متعاديين؛ وتضمن هبوط آدم هبوط حوّاء. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أى رشدا وقولا حقا . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢). ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعنى الرسل والكتب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية . ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أى دينى، وتلاوة كتابى، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر . ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أى عيشا ضيقا؛ يقال : منزل ضنك وعيش ضنك يستوى فيه الواحد والأثنان والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة :

إنْ يُلحقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا * أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزِلِ

وقال أيضا :

إنّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلتْ * مثلى إذا نَزلُوا بضَنْكِ المنزلِ

وقرئ «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى : ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق مما رزقه الله — عز وجل — بسماح وسهولة

(١) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ويعيش عيشا رافغا[1]؛ كما قال الله تعالى : « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » . والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشّح، الذى يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضَنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتَشوّش عليه رزقُه، وكان فى عيشة ضنك . وقال عكرمة : « ضَنْكًا » كسبا حراما . الحسن : طعام الضَّريع والزَّقُّوم . وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة »؛ قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، وهو المعيشة الضنك . ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قيل : أعمى فى حال وبصيرا فى حال ؛ وقد تقدّم فى آخر « سبحان »[2] . وقيل : أعمى عن الحجة ؛ قاله مجاهد . وقيل : أعمى عن جهات الخير، لا يهتدى لشيء منها . وقيل : عن الحيلة فى دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذى لاحيلة له فيما لا يراه . ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ أى بأى ذنب عاقبتنى بالعمى . ﴿ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أى فى الدنيا ، وكأنه يظن أنه لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد: أى « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» عن حجتى «وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» أى عالما بحجتى؛ القشيرى : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة فى الدنيا . ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أى قال الله تعالى له : « كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أى دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا . ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أى تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها . ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أى تترك فى العذاب؛ يريد جهنم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أى وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر فى المصنوعات، والتفكر فيها، وجاوز الحدّ فى المعصية . ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى لم يصدق بها . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ أى أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أى أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضى .

---

(١) عيش أرفغ ورافغ ورفيغ : خصيب واسع طيب .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إذا سافروا وخرجوا فى التجارة طلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية؛ أى أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ماحلّ بالكفار قبلهم . وقرأ ابن عباس والسُّلَمى وغيرهما « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون وهى أبين . و « يهد » بالياء مشكل لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون : ﴿ كَمْ ﴾ الفاعل؛ النحاس : وهذا خطأ؛ لأن « كم » آستفهام فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا . وحقيقة «يهد» يدل على الهدى؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدى لهم . قال الزجاج : « كم » فى موضع نصب بـ﴿ أهلكنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما؛ قاله قتادة . واللزام الملازمة؛ أى لكان العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ عطف على « كلمة » . قتادة : والمراد القيامة؛ وقاله القتبى . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر؛ إنه كاهن؛ إنه كذاب؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدّم ولا يتأخر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى المعظم منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قال أكثر المتأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب. وقيل: النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر؛ فقال عن الطرفين أطرافا على نحو «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل. وقيل: النهار للجنس فلكل يوم طرف، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار. «وآناء الليل» ساعاته وواحد الآناء إنْيٌ وإِنًى وأَنًى. وقالت فرقة: المراد بالآية صلاة التطوع؛ قاله الحسن.

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ بفتح التاء؛ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به. وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم « تُرْضَى » بضم التاء؛ أي لعلك تُعطَى ما يرضيك.

قوله تعالى : وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ وقد تقدم معناه في « الحجر »(1). ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ مفعول بـ « متعنا ». و﴿ زَهْرَةَ ﴾ نصب على الحال. وقال الزجاج: « زهرة » منصوبة بمعنى « متعنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة؛ أو بفعل مضمر وهو « جعلنا » أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا؛ عن الزجاج أيضا. وقيل: هي بدل من الهاء في « به » على الموضع، كما تقول: مررت به أخاك. وأشار الفراء إلى نصبه على الحال؛ والعامل فيه « مَتَّعْنَا » قال: كما تقول مررت به المسكين؛ وقدره: متعناهم به زهرةَ الحياة في الدنيا وزينة فيها. ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنْعَ اللّهِ » و« وَعْدَ اللّهِ » وفيه

(1) راجع جـ ١٠ ص ٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

نظر . والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » فى قوله : « إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرةً أى فى حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع فى قوله : « إلى ما متعنا » لأن « لِنَفْتِنَهُمْ » متعلق بـ « متعنا » و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يعنى زينتها بالنبات . والزَّهَرة، بالفتح فى الزاى والهاء نَوْر النبات . والزُّهَرة بضم الزاى وفتح الهاء النجم . وبنو زُهْرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهَرَةَ » بفتح الهاء مثل نَهْر ونَهَر . ويقال : سراج زاهر أى له بريق . وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها . وفى الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون؛ أى نير اللون؛ يقال لكل شيء مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان . ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى لنبتليهم . وقيل . لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا . ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا ، فإنه لا بقاء لها . «وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغ من لا تنظرنّ، لأن الذى يمدّ بصره، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذى ينظر قد لا يكون ذلك معه .

مسئلة — قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل من اليهود، وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذى يصلحه ؛ فبعنى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : "والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه اذهب بدِرْعى إليه" ونزلت الاية تعزية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودِرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التى ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

ويخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما فى أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزى .

قلت : وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مر بإبل بنى المصطلق وقد عبست[1] فى أبوالها [وأبعارها][2] من السِّمن فتقنّع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » الآية . ثم سلَّاه فقال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى . وقيل : يعنى بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها ويلازمها . وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فى عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : " الصلاة " . ويروى أن عُروة بن الزبير رضى الله عنه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » — الآية — إلى قوله : « وَأَبْقَى » ثم ينادى بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ ويصلى . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلى وهو يتمثل بالآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى لا نسئلك أن ترزق نفسك وإياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة . وقد قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أى الجنة لأهل التقوى ؛ يعنى العاقبة المحمودة . وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهى كالمعدومة .

---

(١) عبست فى أبوالها : هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها وذلك إنما يكون من الشحم .

(٢) الزيادة من « النهاية » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يريد كفار مكة ؛ أى لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضرورى . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التى نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقرئ « الصُّحْفِ » بالتخفيف . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل : أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمّنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو و يعقوب وابن أبى إسحق وحفص « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالتاء لتأنيث البينة . الباقون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هى البيان والبرهان فردّوه إلى المعنى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائى « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويجوز على هذا « بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » . قال النحاس : إذا نونت « بينة » ورفعت جعلت « ما » بدلا منها ، وإذا نصبتها فعلى الحال ؛ والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلّا أرسلت إلينا رسولا . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وقرئ « نُذَلَّ وَنُخْزَى » على

ما لم يسمّ فاعله . وروى أبو سعيد الخدريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود قال: " يقول الهالك فى الفترة لم يأتنى كتاب ولا رسول — ثم تلا — « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَـذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَـا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولًا » — الآية — ويقول المعتوه ربِّ لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود ربِّ لم أدرك العمل فتُرفَع لهم نار فيقـول لهم رِدُوها وآدخلوها — قال — فيَرِدُها أو يدخلهـا من كان فى علم الله سـعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك وتعالى إياى عصيتم فكيف رسلى لو أتتكم " ويروى موقوفا عن أبى سعيد قوله؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» وبه آحتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يمتحنون فى الآخرة . « فَنَتَّبِـعَ » نصب بجواب التخصيص . « آياتك » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . « مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَذِلَّ » أى فى العــذاب « وَنَخْزَى » فى جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقيــل : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » فى الدنيا بالعذاب « وَنَخْزَى » فى الآخرة بعذابها . ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ أى قل لهم يا محمد كل متربص ؛ أى كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر . ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ يريد الدين المستقيم والهـدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من آهتـدى إلى دين الحق . وقيــل : فستعلمون يوم القيامة من آهتــدى إلى طريق الجنة . وفى هـذا ضرب من الوعيـد والتخويف والتهديد ختم به السورة . وقرئ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » . قال أبو رافع : حفظتــه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الزمخشرى . و« من » فى موضع رفع عند الزجاج . وقال الفراء: يجوز أن يكون فى موضع نصب مثل « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق : هــذا خطأ؛ لأن الآستفهام لا يعمل فيه ما قبــله ، و« مَن » هاهنا آستفهام فى موضع رفع بالآبتداء؛ والمعنى: فستعلمون أصحاب الصراط السوىّ نحن أم أنتم ؟. قال النحاس: والفراء يذهب إلى أن معنى « مَنْ أَصْحَـابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضلّ، وإلى أن معنى « وَمَنِ اهْتَدَى » من ضلّ ثم آهتدى . وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ

الصِّرَاطِ السُّوَّى » بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعْلَى بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل، قال الله تعالى : « ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ » فجاء مذكرا فى هذا وفى غيره، وقد ردّ هذا أبو حاتم قال: إن كان من السّوء وجب أن يقال السُّوءَى وإن كان من السَّواء وجب أن يقال : السِّيًّا بكسر السين والأصل السِّوْيَا . قال الزمخشرى : وقرئ « السَّواءَ » بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوى . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدرى أن يكون الأصل « السُّوءَى » والساكن ليس بحاجز حصين ، فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

سورة الأنبياء

مكية فى قول الجميع ، وهى مائة وٱثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهنّ من تلادى؛ يريد من قديم ما كسب وحفظ من القرآن كالمال التّلاد . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا، فمرّ به آخر فى يوم نزول هذه السورة ، فقال الذى كان يبنى الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : نزل « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » فنفض يده من البنيان، وقال : والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب . « ٱقترب » أى قرب الوقت

الذى يحاسبون فيه على أعمالهم . « للناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » إلى قوله : « أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » . وقيل : الناس عموم وإن كان المشار إليه فى ذلك الوقت كفار قريش؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات؛ ومن عَلِم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأنّ ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آتٍ قريب ، والموت لا محالة آتٍ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعنى أهل مكة ؛ لأنهم ٱستبطئوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيبا ، وكان قتلهم يوم بَدْر . النحاس : ولا يجوز فى الكلام ٱقترب حسابهم للناس؛ لئلا يتقدّم مضمر على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير. ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ ٱبتداء وخبر . ويجوز النصب فى غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما — « وهم فِى غفلةٍ معرِضون » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى — عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيبويه بمعنى « إذ » وهى التى يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ «مُحْدَثٍ» نعت لـ«ذكر» . وأجاز الكسائى والفراء « مُحْدَثًا » بمعنى ما يأتيهم محدثا؛ نصب على الحال . وأجاز الفراء أيضا رفع «مُحْدَث» على النعت للذِّكر؛ لأنك لو حذفت «مِن» رفعت ذكرا؛ أى ما يأتيهم ذكر من ربهم مُحدَث؛ يريد فى النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية ، كما كان ينزله الله تعالى عليه فى وقت بعد وقت؛ لا أن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظهم به . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر، وهو محدث؛ قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » . ويقال : فلان فى مجلس

الذكر . وقيل : الذكر الرسول نفسه؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما في سياق الآية « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأولين؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا » . ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته . ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الواو واو الحال يدل عليه « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أي يلهون . وقيل : يشتغلون؛ فإن حُمل تأويله على اللهو آحتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم . الثاني — بسماع ما يتلى عليهم . وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » . الثاني — يتشاغلون بالقَدْح فيه ، والآعتراض عليه . قال الحسن : كلما جدّد لهم الذكر آستمروا على الجهل . وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أي ساهيةً قلوبهم ، معرضةً عن ذكر الله ، متشاغلةً عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب : لَهَيْتُ عن ذكر الشيء إذا تركتَه وسلوتَ عنه أَلْهَى لَهِيًّا ولِهْيَانًا . و « لاهية » نعت تقدّم الآسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب ، فإذا تقدّم النعت الآسم آنتصب كقوله : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » و « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِعَــزَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ * يَــلُوحُ[1] كَأَنَّه خِلَــلُ

أراد: طلل موحش . وأجاز الكسائي والفراء « لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ . وقال الكسائي : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أي الذين أشركوا ؛ فـ « الذين ظلموا » بدل من الواو في « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدّم ذكرهم ؛ ولا يوقف على هذا

(١) هو كثيرة عزة ؛ أي تلوح آثاره وتتبين تبين الوشي في خلل السيوف ، وهي أغشية الأغماد ؛ واحدتها خلة .

القول على « النجوى » . قال المبرّد وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو في انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم، أي هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول؛ التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ؛ مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . واختار هذا القول النحاس؛ قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أعني الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم؛ ولا يوقف على هذا الوجه على « النجوى » ويوقف على الوجوه المتقدّمة الثلاثة قبله ؛ فهذه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلوني البراغيث؛ وهو حسن؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بك نال النِّضالُ دون المساعى * فاهتدينَ النِّبالُ للأغراض

وقال آخر: ولكنْ دِيافِيٌّ أبوه وأُمُّـهُ * بحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أقارِبُهْ (١)

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى . أبو عبيدة : « أسروا » هنا من الأضداد ؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذي هو الرسول، أو هل هذا الذي يدعوكم إلا بشر مثلكم، لا يتميز عنكم بشيء، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بيّن أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا ويعلمهم . ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ أي إن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به . و«السحر» في اللغة كل مموّه لا حقيقة له ولا صحة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنه إنسان مثلكم مثل : «وأنتم تعقلون» لأن العقل البصر بالأشياء . وقيل : المعنى ؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر . وقيل : المعنى؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف : موضع بالجزيرة، وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فى السماء والأرض . وفى مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّي » أى قال محمد ربى يعلم القول؛ أى هو عالم بما تناجيتم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أُمر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها فى المنام؛ قال معناه مجاهد وقتادة؛ ومنه قول الشاعر :

* كضِغْث حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه *

وقال القتبى : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفدفدٍ * ترقرقُ للسَّارِى وأضغاثُ حالِمِ

وقال اليزيدىّ : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا فى «يوسف»(٢) . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا آنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل آفتراه » ثم آنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحيّرون لا يستقرّون على شىء : قالوا مرة سحر، ومرة أضغاث أحلام، ومرة آفتراه، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه آفتراه ، وفريق إنه شاعر . والآفتراء الآختلاق ؛ وقد تقدّم .

(١) «قل» على الأمر قراءة «نافع» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغى أن يأتى بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعد ما رأوا آية واحدة . وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هى من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكمه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطبّ ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يريد كان فى علمنا هلاكها . ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يريد يصدقون ؛ أى فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن فى أصلابهم من يؤمن . و « مِنْ » زائدة فى قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾[1] هذا رد عليهم فى قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

(١) « يوحى » بالياء قراءة نافع .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله سفيان . وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال علىّ رضى الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمعنى لا تبدءوا بالإنكار وبقولكم ينبغى أن يكون الرسول من الملائكة ، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا ؛ لأن الرجل يقع على ماله ضدّ من لفظه ؛ تقول : رجل وامرأة ، ورجل وصبىّ ؛ فقوله : « إِلَّا رِجَالًا » من بنى آدم . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نُوحِى إِلَيْهِمْ » .

مسـألة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعمى لابدّ له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه؛ فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير فى « جعلناهم » للأنبياء؛ أى لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسدا » اسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا ، وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقول منه : تجسّد كما تقول من الجسم تجسّم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصّبغ ، وهو الدم أيضا؛ قال النابغة :

* وما هُريقَ على الأنصابِ من جسدِ (١) *

(١) صدر البيت : * فلا لعمر الذى مسحت كعبته *
أقسم بالله أولا ثم بالدماء التى كانت تصب فى الجاهلية على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذى فيه الروح يأكل ويشرب؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ يعنى الأنبياء ؛ أى بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم . ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ أى الذين صدّقوا الأنبياء . ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المشركين .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت لكتاب؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أى فيه شرفكم، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوقيف فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبدالله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنًى والأوّل يَعمُّها ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله عليه السلام : " القرآن حجة لك أو عليك " .

قوله تعالى : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور(١) وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له ضَنَن(٢) كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام، و بعد مئين من السنين من مدة سليمان عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرَّس فى ذلك التاريخ نبيا لهم اسمه حنظلة بن صفوان، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحيــة الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن ايت بختنصر فأعلمه أنى قد سلطته على أرض العرب، وأنى منتقم بك منهم، وأوحى الله إلى أرميا أن احمل مَعَدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كى لا تصيبه النقمة والبلاء معهم ، فإنى مستخرج من صلبــه نبيا فى آخر الزمان اسمه محمد ، فحمل مَعَــدّا وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوّج امرأة اسمها معانة ؛ ثم إنـــ بختنصر نهض بالجيــوش ، وكمن للعرب فى مكان — وهو أوّل من اتخذ المكامن فيما ذكروا — ثم شنّ الغارات على حَضُور فقَتَل وسَبَى وخَرّب العامر، ولم يترك بحَضُور أثرا ، ثم انصرف راجعا إلى السواد . و « كَمْ » فى موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْم الكسر؛ يقال : قَصمتُ ظهر فلان وانقصمت ســنّه إذا انكسرت ، والمعنىّ به ها هنا الإهلاك . وأما الفَصْم (بالفاء) فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ؛ قال الشاعر(٣) :

كأنّـــهُ دُمْلُجٌ مِنـــ فِضَّةٍ نَبَـــهٌ * فى مَلْعِبٍ من عَذَارَى الحىِّ مَفْصُومُ

ومنه الحديث "فيُفْصِم عنه و إن جبينه ليتفصّد عَرَقا". وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً» أى كافرة؛ يعنى أهلهــا . والظلم وضــع الشىء فى غير موضــعه ، وهم وضعوا الكفر موضــع الإيمان . ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا ﴾ أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منــه ضعفا . وقال الأخفش : « أحسّوا » خافوا وتوقعــوا . ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أى يهربون و يفرّون . والركض العدو بشــدة الوطء . والركض

---

(١) وتروى حضوراء (بالألف الممدودة) . (٢) كذا فى الأصل . (٣) هو ذو الرمة، يذكر غزالا شبهه وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسى . ونبــه : أى منسىّ نسيته العذارى فى الملعب .

تحريك الرِّجل ؛ ومنه قوله تعالى : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وركضت الفرس برجلي آستحثثته ليعدو ثم كثر حتى قيل رَكَض الفرسُ إذا عَدَا وليس بالأصل ، والصواب رُكِض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهو مركوض . ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أي لا تفرّوا . وقيل : إن الملائكة نادتهم لما آنهزموا آستهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . ﴿ وَٱرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أترف على فلان أي وُسّع عليه في معاشه . وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي لعلكم تُسألون شيئا من دنياكم ؛ آستهزاء بهم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تَسْئَلُونَ » عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك آستهزاء وتقريعا وتوبيخا . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ لما قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » ونادت يالثارات الأنبياء ! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذي سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبي الذي بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف . ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : أي بالعذاب . ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أي ميتين . والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا و باطلا ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب ٱمتثال أمره، وأنه يجازى المسىء والمحسن؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا، و يكفر بعضهم، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهـذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ لما ٱعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » واللهو المرأة بلغة اليمن؛ قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جَسْرَة — وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » — فقال : اللهو الزوجة؛ وقاله الحسن. وقال ابن عباس : اللهو الولد؛ وقاله الحسن أيضا. قال الجوهرى : وقد يكنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول ٱمرئ القيس :

أَلَا زَعمتْ بَسْباسَةُ اليومَ أَنَّنِي ✽ كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أَمثالِى

و إنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب، كما قال(1) :

✽ وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرٌ ✽

الجوهرى : وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهوا» قالوا ٱمرأة، و يقال : ولدا . ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا لا من عندكم. قال ٱبن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض. قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى . ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ» أى ما أنت إلا نذير. و«إن» بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : «لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(1) هو زهير بن أبى سلمى ، والبيت من معلقته وتمامه :

✽ أنيقٌ لعين الناظرِ المتوسِّمِ ✽

نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبنى لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبنى فأما ٱتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل؛ ذكره القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمى ؛ أى نرمى بالحق على الباطل . ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أى يقهره ويهلكه . وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان فى قول مجاهد ؛ قال : وكل ما فى القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحجة ، و بالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصى ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجة والموعظة . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى هالك وتالف ؛ قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد فى جهنم ؛ وقد تقدم [1] . ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أى مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أى بكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو ٱتخاذه سبحانه الولد .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعنى الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يعيون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ؛ [يقال] : حسر البعير يحسر حُسورا أعيا وكَلّ ، وٱستحسر وتحسر مثله ، وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

وأحسرته أيضا فهو حسير . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد: لا يكلّون . وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي؛ والمعنى واحد . ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما . ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النَّفَس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال : من هذا؟ فقلت : من بنى عبد المطلب؛ فضمني إليه وقال: يا بن أخي هل يشغلك شيء عن النفس؟ ! إن التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس . وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدّم[(١)] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد ، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى ؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أي أخلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكون « أم » متصلة . وقرأ الجمهور « يُنشِرُونَ » بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنُشِر أي أحياه فحيي . وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أي يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أى لو كان فى السموات والأرضين آلهــة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائى وسيبو يه : « إلّا » بمعنى غير فلما جعلت إلا فى موضع غير أعرب الآسم الذى بعدها بإعراب غير، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخــوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدَان

وحكى سيبو يه : لوكان معنا رجل إلا زيد لهلكنا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى، والمعنى : لوكان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لوكان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالآختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزّه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد . بيّن بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروى عن على رضى عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعنى الهدى ومنحنى الردى أأحسن إلى أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقــد أساء، و إن منعك فضله فهو فضله يؤتيــه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لمــا بعث الله عز وجل موسى وكلمه، وأنزل عليه التوراة، قال : اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تُعصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أعاد التعجب فى آتخاذ الآلهــة من دون الله مبالغة فى التوبيخ؛ أى صفتهم كما تقــدم فى الإنشاء والإحياء، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم، فليأتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشِرُونَ » ويحيون الموتى؛ هيهات ! والثانى آحتجاج بالمنقول، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، ففى أى كتاب نزل هذا ؟! فى القرآن، أم فى الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟!
﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، و إنما اختلفت فى الأوامر والنواهى . وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بما يلزمهم من الحلال والحرام « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بمالهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما يفعل بهم فى الدنيا ، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مُصَرِّف قرآ « هذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » بالتنوين وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى؛ هذا ذكرٌ مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكرٌ من قبلى . وقيل : ذكرٌ كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى .
﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن « الْحَقُّ » بالرفع بمعنى هو الحقُّ وهذا هو الحقُّ . وعلى هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .
﴿ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى[1] إِلَيْهِ ﴾ . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نوحِى إِلَيْهِ » بالنون؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء موجود، والدليل إما معقول و إما منقول. وقال قتادة : لم يرسل نبى إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

(١) « يُوحَى » بالياء قراءة « نافع » .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعا فى شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود — قال معمر فى روايته — أو طوائف من الناس : خاتن إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تنزيها له . ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أى بل هم عباد ﴿ مُكْرَمُونَ ﴾ أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل اتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد، أى بل لم تتخذهم ولدا، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس، كما يقال لفلان مال. ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أى بطاعته وأوامره. ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى يعلم ما عملوا وماهم عاملون؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمَا خَلْفَهُمْ» الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبى ، والثانى القشيرى . ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا فى الآخرة كما فى صحيح مسلم وغيره، وفى الدنيا أيضا؛ فإنهم يستغفرون للؤمنين ولمن فى الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتى . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الملائكة ﴿ مِنْ خَشْيَتِهِ ﴾ يعنى من خوفه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الاية إبليس حيث آدعى الشركة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ . وهذا دليل على أنهم و إن أكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد آستدل ابن عباس بهذه الاية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم فى «البقرة»(1) . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ أى كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة فى غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وحميد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرَ » بغير واو، وكذلك هو فى مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرَ » بمعنى يعلم . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لِقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ؛ ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : «رتقا»

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولم يقل رتقين؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانتا ذواتى رتق . وقرأ الحسن « رَتَقًا » بفتح التاء. قال عيسى بن عمر : هو صواب وهى لغة . والرتق السد ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق أى التأم، ومنه الرتقـاء للنضمة الفرج . قال ابن عباس والحســن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئا واحدا ملترقتين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بهـا ، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول ثان قاله مجاهد والسدى وأبو صالح: كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاه القتبى فى عيون الأخبار له، عن إسمعيل بن أبى خالد فى قول الله عز وجل : «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» قال: كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها، ففتق من هذه سبع سموات، ومن هذه ســبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيهـا الأنهار وأنبت فيهـا الأثمـار ، وجعل فيها البحار وسمـاها رعاء، عرضها مســيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثـانية مثلها فى العــرض والغلظ وجعل فيهـا أقواما ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهــم أيدى الناس ؛ وآذانهم آذان البقر وشــعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عنــد اقتراب الســاعة ألقتهم الأرض إلى يأجــوج ومأجوج، واسم تلك الأرض الدكماء، ثم خلق الأرض الثـالثة غلظها مســيرة خمسمائة عام، ومنها هواء إلى الأرض . الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود، ولهـا أذناب مثل أذناب الخيل الطوال، يأكل بعضها بعضا فتسلط على بنى آدم . ثم خلق الله الخامســة [مثلها](1) فى الغلظ والطول والعرض فيها ســلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادســة واسمها ماد، فيها حجارة سُود بُهْم، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم، وهى من كبريت تعلق فى أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم، فذلك قوله عز وجل: «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم، فيها بابان اسم

(1) زيادة يقتضيها السياق .

الواحد سجين والآخر الغَلق، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهى كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون ، وأما الغَلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى فى «البقرة» (١) أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتى له فى آخر «الطلاق» (٢) زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى : إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . واختار هذا القول الطبرى؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك فى غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو * نَ سخطُ العداة وإرغامُها
ورَتْق الفُتوق وفَتْق الرُّتو * ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ثلاث تأويلات : أحدها — أنه خلق كل شىء من الماء؛ قاله قتادة . الثانى — حفظ حياة كل شىء بالماء . الثالث — وجعلنا من ماء الصلب كل شىء حى؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستى فى المسند الصحيح له من حديث أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى، وقرّت عينى؛ أنبئنى عن كل شىء؛ قال : "كل شىء خلق من الماء" الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبى هريرة : « أنبئنى عن كل شىء » أراد به عن كل شىء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : "كل شىء خلق من الماء" وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢ .

وقوله : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » والصحيح العموم؛ لقوله عليه السلام : "كل شيء خلق من الماء" والله أعلم . ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه، بل لمكوّن كوّنه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لئلا تميد بهم، ولا تتحرك ليتم القرار عليها؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه؛ أى دار . وقد مضى فى «النحل»[1] مستوفى . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا ﴾ يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والفجاج المسالك . والفجّ الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض فجاجا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرفوعا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الكفار ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذكَّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب، كما تقدم فى « سبحان »[1] بيانه . ﴿ كُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً » ويقال للفرس الذى يمد يده فى الجرى سابح . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحْن ولا تسبح؛ فمذهب سيبويه : أنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف »[2] . وقال الكسائى : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » ولم يقل منتصرون . وقيل : الجرى للفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَرِى، ثم زُحَل ، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْلٍ مثل أَسَدٍ وأُسْد وخَشَبٍ وخُشْب . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلْكة المِغزل؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَّك ثدىُ المرأة تفليكا ، وتَفَلَّك استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور فى فلك . كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجارى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك آستدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى وهو قطبها . وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه؛ والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوّته و يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك . ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أى أفهم؛ مثل قول الشاعر (١) :

رَفَوْنى وقالوا ياخُوَيلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أى أهم! فهو آستفهام إنكار . وقال الفرّاء : جاء بالفاء ليدل على الشرط؛ لأنه جواب قولهم سيموت . ويجوز أن يكون جىء بها؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن متّ! قال الفرّاء: ويجوز حذف الفاء و إضمارها؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون أيضا، فلا شماتة فى الإماتة . وقرئ « مِتَّ » و « مُتَّ » بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقدم فى « آل عمران » (٢) ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدّة والرخاء والحلال والحرام، فننظر كيف شكركم وصبركم . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) هو أبو خراش الهذلى . ورفاه سكنه من الرعب؛ يقول : سكنونى . آعتبر بمشاهدة الوجوه؛ وجعلها دليلا على ما فى النفوس . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى ما يتخذونك . والهزء السخرية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزئون المتقدمو الذكر فى آخر سورة « الحجر »[1] فى قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ؛ وهذا غاية الجهل . ﴿ أَهَذَا الَّذِى ﴾ أى يقولون : أهذا الذى ؟ فأضمر القول وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض بين «إذا» وجوابه . ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى بالسوء والعيب . ومنه قول عنترة :

لا تذكرِى مُهْرِى وما أطعمتُه * فيكون جلدُكِ مثلَ جلدِ الأَجْرَبِ[2]

أى لا تعيبى مهرى . ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى بالقرآن . ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ « هم » الثانية توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة فى وصفهم بالكفر .

قوله تعالى : خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ج سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولا ؛ كما قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان من الشر أى شريرا إذا بالغت فى وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب ومجىء . أى ذاهب جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبير والسدى : لما دخل الروح فى عينى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قاله لامرأة له من بجيلة كانت تلومه فى فرس كان يؤثره على خيله و يطعمه ألبان إبله .

آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة، فلما دخل جوفه ٱشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » . وقيل : خلق آدم يوم الجمعة فى آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه ٱستعجل ، وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما . وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى: العَجَل الطين بلغة حِمْيَر . وأنشدوا :

* والنخلُ يَنْبتُ بين المـاءِ والعَجَلِ[1] *

وقيل: المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد: النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار فى تفسير ابن عباس؛ أى لا ينبغى لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب ؛ أى خلق العجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس : وهذا القول لا ينبغى أن يجاب به فى كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع فى الشعر ٱضطرارا كما قال[2] :

* كان الزِّناءُ فَرِيضةَ الرَّجْمِ *

ونظيره هذه الآية : «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» وقد مضى فى « سبحان »[3] . ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العَجَلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم فى « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ماطلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروبا . نزلت فى النضر بن الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خلِق الإنسان مِن عجلٍ » أى قيل له كن فكان، فمعنى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ » على هـذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما ٱستعجلوه من الآيات . ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أى الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا أى مرجونا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد، أى الذى يعدنا من العذاب . وقيل: القيامة . ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين .

---

(١) صدر البيت : * والنبع فى الصخرة الصماء منبته *
(٢) البيت للجعدى وصدره : * كانت فريضـة ما تقول كما *
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محذوف ، أى لو علموا الوقت الذى ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وعرفوه لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلموا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولآمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية . ودل عليه ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة يعنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ . قال الجوهرى : بهته بهتا أخذه بغتة، قال الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . وقال الفراء : « فتبهتهم » أى تحيرهم، يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشيء يحيره . وقيل : فتفجأهم . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى صرفها عن ظهورهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يمهلون و يؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية له . يقول : إن آستهزأ بك هؤلاء، فقد آستهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أى أحاط ودار ﴿ بِالَّذِينَ ﴾ كفروا و ﴿ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء آستهزائهم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ ؛ كلاه الله كِلَاء (بالكسر) أى حفظه وحرسه . يقال : اذهب فى كِلاءة الله ؛ واكتلأت منهم أى احترست، قال الشاعر هو ابن هَرْمة :

إنّ سليمى واللهُ يَكلؤُهَا * ضنَّت بشىء ما كان يَرْزَؤُهَا

وقال آخر : * أَنَخْتُ بَعِيرِى وَٱكْتَلَأْتُ بِعَيْنِهِ *[1]

وحكى الكسائى والفراء «قُلْ مَنْ يَكْلَوكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو. وحكيا « مَنْ يَكْلَاكُمْ» على تخفيف الهمزة فى الوجهين، والمعروف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فأما «يَكْلَاكُمْ» فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما — أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى — أنهما يقولان فى الماضى كَلَيْتُه ، فينقلب المعنى ؛ لأن كَلَيْته أوجعت كليته، ومن قال لرجل: كَلَاكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كُلْيته .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل لا حافظ لكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا نمتم ﴿ و ﴾ بـ﴿ النَّهَارِ ﴾ إذا قمتم وتصرفتم فى أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى من عذابه وبأسه؛ كقوله تعالى : « فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررتم بأنه الخالق، فهو القادر على إحلال العذاب الذى تستعجلونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل: عن مواعظ ربهم . وقيل : عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لايستطيعون ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمنَعون . وعنه: يُجَارون ؛ وهو اختيار الطبرى. تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان؛ أى مجير منه؛ قال الشاعر :

يُنادِى بأعلى صوتِه متعوِّذًا * لِيُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَانِى

(١) هو كعب بن زهير؛ وعجزه . * وآمرت نفسى أى أمرى أفعل *

وروى معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « يُنْصَرُونَ » أى يحفظون . قتادة : أى لايصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحبا لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا لهم ولآبائهم فى نعيمها و﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فى النعمة فظنوا أنها لاتزول عنهم، فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل . ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أى بالظهور عليها لك يامحمد أرضا بعد أرض ، وفتحها بلدا بعد بلد مما حول مكة ؛ قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبى؛ حكاه الكلبى[1] . والمعنى واحد . وقد مضى فى « الرعد »[2] الكلام فى هذا مستوفى . ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا من أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ أى من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة، عن فهم الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السَّمَيقع « وَلَا يُسْمَعُ » بياء مضمومة وفتح الميم على مالم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أى إن الله لا يُسمعهم . وقرأ ابن عامر والسلمى أيضا ، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث «وَلَا تُسْمِعُ» بتاء مضمومة وكسر الميم «الصُّمَّ» نصبا ؛ أى إنك يامحمد « لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ »؛ فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . ورد هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ماتنذرهم . قال النحاس: وذلك جائز؛ لأنه قد عرف المعنى .

---

(١) فى نسخة : « حكاه الثعلبى » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عبــاس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء؛ مأخوذة من نفح المسك . قال[1] :

وعَمْرةُ من سَرَوات النِّساء * تَنفَّحُ بالمســك أَرْدَانُهـا

ابن جريج : نصيب؛ كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المـال . قال الشاعر[2] :

لَمَّـا أَتيتك أرجو فَضْـلَ نَائِلِكُمْ * نَفَحْتِنِي نَفْحةً طابتْ لهـا العَرَبُ

أي طابت لها النفس . والنفحة في اللغــة الدفعة اليسيرة؛ فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي متعدين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

قوله تعــالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ الموازين جمع ميزان . فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلَّف ميزانا توزن به أعماله ،فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ؛ كما قال :

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَــدْلِه * فلكلِّ حادثةٍ لهـا ميزانُ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنــه بلفظ الجمــع . وخرج اللَّالَكَائيّ الحـافظ أبو القاسم في سننه عن أنس يرفعه : " إن مَلَكا موكَّلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجح نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خفَّ نادى الملك شَقِيَ فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا " . وخرج عن حذيفة رضي الله عنه قال: " صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه الســلام " وقيل : للمــيزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ؛ فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مَثَـل وليس ثَمَّ

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصاري . (٢) هو للرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذى وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى فى «الأعراف»[1] بيان هذا، وفى « الكهف » أيضا . وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و « القسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون فى وزن الدنيا . و « الْقِسْطَ » صفة الموازين ووحد لأنه مصدر ؛ يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورضًا . وقرأت فرقة «الْقِصْطَ» بالصاد . ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى فى يوم القيامة . ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء . ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر « مِثْقَالُ حَبَّةٍ » بالرفع هنا ؛ وفى « لقمان » على معنى إن وقع أو حضر ؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون « مِثْقَالَ » بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقالَ . ومثقال الشيء ميزانه من مثله . ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثقال لجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال « أَتَيْنَا بِهَا » . وقرأ مجاهد وعكرمة « آتَيْنَا » بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى محاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : « حاسِبِين » إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العدّ . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : " يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفَافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك وإن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل " قال : فتنحّى الرجل فجعل يبكى ويهتف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما تقرأ كتاب الله تعالى « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » " فقال الرجل : والله يارسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ وحكى عن ابن عباس وعكرمة « الْفُرْقَانَ ضِيَاءً » بغير واو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والمجىء بها واحد، كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظا . ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو تجىء لمعنى فلا تزاد . قال : وتفسير «الفرقان» التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : « وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لدخول الواو فى الضياء؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس . ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ أى من قيامها قبل التوبة . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون وجلون . ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ ﴾ يامعشر العرب ﴿ مُنْكِرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكًا أَنْزَلْنَاهُ» بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ قال الفراء : أى أعطيناه هداه . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل النبوة؛ أى وفقناه للنظر والاستدلال، لما جنّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير؛ كما قال ليحيى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال القرظى : رشده صلاحه . ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ ﴾ أى إنه أهل لإتياء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أى آذكر حين قال لأبيه؛ فيكون الكلام قد تم عند قوله : « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام متصلا ولا يوقف على قوله : « عالمين » . « لأبيه » وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ومن آتبعه . ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الأصنام . والتمثال آسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى . يقال : مثّلت الشيء بالشيء أى شبّهته به . واسم ذلك الممثّل تمثال . ﴿ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى مقيمون على عبادتها . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أى نعبدها تقليدا لأسلافنا . ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسران بعبادتها؛ إذ هى جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أجاء أنت بحق فيما تقول؟ ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ أى لاعب مازح . ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لست بلاعب، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . ﴿ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أى خلقهن وأبدعهن . ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد يبين الحكم، ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بيّن الله ؛ فالمعنى : وأنا أبيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجّة باللسان بل كسر أصنامهم فِعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه فى الذب عن الدين . والتاء فى « تَاللَّهِ » تختص فى القسم بآسم الله وحده، والواو تختص بكل مظهر، والباء بكل مضمر ومظهر . قال الشاعر[1] :

تاللهِ يَبْقَى على الأيام ذو حِيَدٍ * بِمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَّانُ والآسُ

وقال ابن عباس : أى وحرمة الله لأكيدن أصنامكم، أى لأمكرنّ بها . والكيد المكر . كاده يكيده كيدا ومكيدة، وكذلك المكايدة؛ وربما سمى الحرب كيدا؛ يقال : غزا فلان فلم يَلْق كيدا ، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده . ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أى منطلقين ذاهبين . وكان لهم فى كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه فى « والصافاتِ »[2] — فقال إبراهيم فى نفسه : « تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم فى سر من قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفشاه عليه . والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره . ومثله « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه . وكان إبراهيم آحتال فى التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أى ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى فتاتا . والجذ الكسر والقطع؛ جذذت الشيء كسرته وقطعته . والجِذاذ والجُذاذ ما كسر منه، والضم أفصح من كسره . قاله الجوهرى . الكسائى : ويقال لحجارة الذهب جُذاذ؛ لأنها تكسر . وقرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن « جِذَاذًا » بكسر الجيم ؛ أى كسرا وقطعا جمع جَذيذ وهو الهشيم ، مثل خَفيف وخِفاف وظَريف وظِراف . قال الشاعر :

جَذَّذَ الأصنامَ فى مِحْرابِها * ذاك فى الله العلىِّ المقتدِر

---

(١) هو مالك بن خالد الخناعى الهذلى . وحيد هنا (كعنب) : كل نتوء فى الجبل . والمشمخر : الجبل العالى . والظيان : ياسمين البر . والمعنى : لا يبقى .

(٢) فى تفسير قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم ... الخ . » الآيات : ٩١ و٩٢ و٩٣

الباقون بالضم؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل](١) الحُطام والرُّفات الواحدة جُذَاذة . وهذا هو الكيد الذى أقسم به ليفعلنه بها . وقال : « بجعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا فى أصنامهم الإلهيــة . وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال « جَذَاذًا » بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتــان كالحَصاد والحِصاد . أبو حاتم : الفتــح والكسر والضم بمعــنى ؛ حكاه قطــرب . ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ أى عظيم الآلهة فى الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهــد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه؛ ليحتج به عليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسيرها .

قوله تعــالى : قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ المعنى لـما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس استفهاما ، بل هو ابتداء وخبره « لمن الظالمين » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هذا » . والضمير فى « قالوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم . ومعنى « يذكرهم » يعيبهم ويسبّهم فلعله الذى صنع هــذا . واختلف النــاس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقــال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدإ](٢) محذوف ، والجملة محكية . قال : ويجوز أن يكون رفعا على النــداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول

(١) فى الأصل : «أى» وهو تحريف . (٢) فى الأصل : «فيكون مبتدأ وخبره محذوف» وهو تحريف .

زيد وزن فَعْل، أو زيد ثلاثة أحرف ، فلم تدل بوجه على الشخص ، بل دللت بنطقك على نفس اللفظة . وعلى هذه الطريقة تقول : قلت إبراهيم ، ويكون مفعولا صحيحا نزلته منزلة قول وكلام؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول . هذا اختيار ابن عطية فى رفعه . وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلى الأعلم : هو رفع على الإهمال . قال ابن عطية : لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه ، ذهب إلى رفعه بغير شىء، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء . والفتى الشاب والفتاة الشابة . وقال ابن عباس : ما أرسل الله نبيا إلا شابا . ثم قرأ « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ فيه مسئلة واحدة، وهى :

أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه ، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا : آئتوا به ظاهرا بمرأى من الناس حتى يروه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجة عليه . وقيل : « لعلهم يشهدون » عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه . أو لعل قوما « يشهدون » بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو « لعلهم يشهدون » طعنه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

قلت : وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم؛ لقوله تعالى : « فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه .

قوله تعالى : قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة ، استفهموه هل فعل أم لا ؟ وفى الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ أى إنه غار وغضب من أن يعبد هو

و يعبد الصغار معه ففعل هـذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فعلق فعـل الكبير بنطق الآخرين ؛ تنبيها لهم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء . وفى الكلام تقديم على هذا التأويل فى قوله : ﴿فَٱسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ . وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان قـوله من المعاريض ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب . أى سلوهم إن نطقـوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفى ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهـذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْـمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » — الآية — فقال إبراهـيم : « بَلْ فَعَـلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا » ليقولوا إنهم لا ينطقـون ولا ينفعـون ولا يضرون ؛ فيقـول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجـة منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ؛ فإنه أقرب فى الحجة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّي » وهذه أختى و « إِنِّي سَقِيمٌ » و « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا » وقرأ ابن السميقع « بل فَعَلَّهُ » بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم . وقال الكسائى : الوقف عند قوله « بل فعله » أى فعـله من فعـله ؛ ثم يبتدئ « كبيرهم هذا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر . أى من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لهـا فعلا ؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانيـــة — روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يكذب إبراهيم النبي فى شيء قط إلا فى ثلاث قوله «إنى سقيم» وقوله لسارة أختى وقوله «بل فعله كبيرهم»" لفظ الترمذى . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع فى الإسراء فى صحيح مسـلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنـه فى قصـة إبراهيم قال : وذكر قوله فى الكوكب « هذا ربى » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا فى ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله قـوله

« إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة فى شأن سارة " الحديث لفظ مسلم .
وإنما لم يعد عليه قوله فى الكوكب : « هذا ربى » كذبة وهى داخلة فى الكذب؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك فى حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار، وحذفت همزة الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه: تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية. وقد تقدمت هذه الوجوه كلها فى «الأنعام»[(1)] مبينة والحمد لله .

الثالثـة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فى هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر، وهى أنه عليـه السلام قال : " لم يكذب إبراهيم إلا فى ثلاث كذبات ثنتين ماحَلَ بهما عن دين الله وهما قوله « إِنِّي سَقِيمٌ » وقوله « بل فعله كبيرهم » " ولم يعدّ [قوله[(2)]] هـذه أختى فى ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها فى ذات الله؛ وذلك لأنه لا يجعل فى جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريض التى ترجـع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعـة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريض وحسنات وحججا فى الخلق ودلالات ، لكنها أثرت فى الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة ، واستحيا منها قائلها، على ما ورد فى حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذى كان يليق بمرتبته فى النبوّة والخُلّة، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان، ولكنه رخص له فقبل الرخصـة فكان ما كان من القصة ؛ ولهـذا جاء فى حديث الشفاعة " إنمـا اتخذت خليلا من وراءَ وراءَ " بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر ، وكما قالوا

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥ ما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربى .

جارى بَيْتَ بَيْتَ . ووقع فى بعض نسخ مسلم " من وراءُ من وراءُ " بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا فى تصغيرها وريية ؛ قال الجوهرى : وهى شاذة . فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « من » فيهما . والمعنى إنى كنت خليلا متأخرا عن غيرى . ويستفاد من هذا أن الخُلَّة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له فى ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم. وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفاس .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ قاطعا لما به يهذون ، ومفحما لهم فيما يتقوّلون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ ﴾ أى النتن لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى طأطئوا رءوسهم خجلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه فى أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ لمـا آنقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وآنصرفوا إلى طريق الغَشْم والغلبة وقالوا حرّقوه . روى أن قائل هـذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أى من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : آسمه هيزر[1] فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمرود . ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها و يعيبها . وجاء فى الخبر : أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن إسحق : و جمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، وآشتعلت وآشتدت ، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدّة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق مغلولا . و يقال : إن إبليس صـنع لهم المنجنيق يومئـذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين ضجة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره يُحرَق فيك فأذنْ لنا فى نُصرته . فقال الله تعالى : « إن آستغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك و إن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا إلقاءه فى النار ، أتاه خُزّان المـاء — وهو فى الهواء — فقالوا : يإبراهيم إن أردت أخمدنا النـار بالمـاء . فقال : لا حاجة لى إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النـار . فقال : لا . ثم رفع رأسـه إلى السماء فقال : « اللهـم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى حسبي الله ونعم الوكيل » . وروى أبيّ بن كعب رضى الله عنـه عن النبي صلى الله عليـه وسلم "إن إبراهيم حين قيـدوه ليلقوه فى النـار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك" قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع ، فآستقبله جبريل ؛ فقال : يإبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أمّا إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسبي من سؤالى علمه بحالى » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزن » كما فى تاريخ الطبرى وتفسيره . وقيل : « هيون » .

الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زربيّة[1] من الجنة فبسطها فى الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة . وقال علىّ وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها تعنى . قال السدى : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته . وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وِثاقه . فأقام فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلى . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت أياما قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار » . وقال كعب وقتادة والزهرى : ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الجِمّانى : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست وعشرين سنة . ذكر الأوّل الثعلبى ، والثانى الماوردى ؛ فالله أعلم . وقال الكلبى : بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا ، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل . فقال : نعم الربّ ربّك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكفّ عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾

(١) الزربية : الطنفسة ، وقيل : البساط ذو الخمل ، وزرابيها مثلثة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فى أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا . قال ابن عباس (١) : سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد . فأقام بهذا نحوا من أربعمائة سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان [إبراهيم] (٢) عليه السلام عمه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ؛ ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة . وقيل : بيت المقدس ؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضا كثيرة الخصب والنمو ، عذبة الماء ، ومنها يتفرق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس ، ثم يتفرق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أى زيادة ؛ لأنه دعا فى إسحق وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ؛ أى زيادة على ما سأل ؛ إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » . ويقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد . ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجَعْلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات . ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والأمر والنهى ؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أى مطيعين .

---

(١) سبق أن نبهنا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة . (٢) فى الأصل : «لوط» وهو تحريف .

قوله تعالى : وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ «لوطا» منصوب بفعل مضمر دل عليه الثانى ؛ أى وآتينا لوطا آتيناه . وقيل : أى وآذكر لوطا . والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «عِلْمًا» فهما؛ والمعنى واحد . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يريد سَدُوم . ابن عباس : كانت سبع قرى، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زَغَر التى فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حد السراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز . وفى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما — اللواط على ما تقدّم . والثانى — الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم . وقيل : الضراط وحذف الحصى وسيأتى . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله، والفسوق الخروج وقد تقدّم . ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ فى النبوّة. وقيل: فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وآذكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» وقال لما كذبوه : «أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» . ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى من الغرق . والكرب الغم الشديد « وَأَهْلَهُ » أى المؤمنين منهم . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ قال أبو عبيدة : « مِن » بمعنى على . وقيل : المعنى فانتقمنا له « مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أى وآذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله « إذ يحكمان » الآجتماع فى الحكم و إن جمعهما فى القول؛ فإن حَكَمَين على حكم واحد لا يجوز . وإنما حكَمَ كل واحد منهما على آنفراده، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿ فِي الْحَرْثِ ﴾ اختلف فيه على قولين : فقيل : كان زرعا ؛ قاله قتادة . وقيل : كرما نبتت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح . و « الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الآستعارة .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى رعت فيه ليلا ؛ والنفش الرعى بالليل . يقال : نفشت بالليل، وهَمَلت بالنهار، إذا رعت بلا راعٍ . وأنفشها صاحبها . و إبلٌ نُفَّاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كِرش البعير يبيت نافشا ؛ أى راعيا؛ حكاه الهروى . وقال ابن سيده : لا يقال الهَمَل فى الغنم، و إنما هو فى الإبل .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع آثنان . وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لحكمهم » .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى فهمناه القضية والحكومة، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم . قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت . وعلى القول

الثانى رآها تقاوم الحرث والغلة؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبى الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معى. فأتى أباه فقال: يا نبىّ الله إنك حكمت بكذا وكذا وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التى أصابته الغنم فى السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بنىّ لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكلبى: قوم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما فى حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ فى هذه النازلة، بل فيها أوتى الحكم والعلم. وحملوا قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة فى هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه فى غير هذه النازلة. وأما فى هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجود الغلط والخطإ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يقرون عليه، وإن أقر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فأجابه الوليد «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان — عليهما السلام — نبيين يقضيان بما يوحى إليهما، فحكم داود بوحى،

وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » أى بطريق الوحى الناسخ لما أوحى إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ؛ ولهذا قال : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » . هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهى :

السادسة — وآختلف العلماء فى جواز الآجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوّزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعى فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمى فبلغه الأمة؛ فهذا غير مستحيل فى العقل . فإن قيل : إنما يكون دليلا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه . قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا فى البحث كغيرهم من المجتهدين عن معانى النصوص التى عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير فى آجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور فى أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط فى آجتهادهم . وذهب أبو على ابن أبى هريرة من أصحاب الشافعى إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم فى جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل : إنه على العموم فى جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى تجويز الخطإ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه آستدراك من بعدهم من الأنبياء . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته آمرأة عن العِدّة فقال لها : "آعتدّى حيث شئت" ثم قال لها : "آمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" . وقال له رجل : أرأيت إن قُتلت صبرا محتسبا أيحجزنى عن الجنة شىء؟ فقال : "لا" ثم دعاه فقال : "إلا الدَّين كذا أخبرنى جبريل عليه السلام" .

السابعة — قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده . وقد آختلف الناس فى المجتهدين فى الفروع إذا

اختلفوا ؛ فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها، والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة فى المسئلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الآجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب فى آجتهاده مخطئ فى أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه فى خطئه وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل [بل](1) وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور، ولم يتعبد بإصابته العين بل تعبدنا بالآجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو الأفضل فى ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرّر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الآنحمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه ردّ مالك رحمه الله للمنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ » ؛ فإذا قال عالم فى أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله، وكذا فى العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطإ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : "إذا آجتهد العالم فأخطأ" أى فأخطأ الأفضل .

الثامنة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم " إذا حكم فاجتهد " فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فعند

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ذلك أراد أن يجتهد فى النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظرا عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدّم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أولا، اللهم إلا أن يكون ذاكرا لأركان اجتهاده، مائلا إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر فى أمارة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن آجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطإ فى الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الاخر؛ رواه أبو داود : "القضاة ثلاثة" الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على آجتهاده فى طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكى أن مذهب مالك أن الحق فى واحد من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك فى أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى آبن القاسم أنه سأل مالكا عن آختلاف الصحابة، فقال : مخطئ ومصيب، وليس الحق فى جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا : وهو نص على أن فى المجتهدين وفى الحاكمين مخطئا ومصيبا؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدّى إلى كون الشيء حلالا حراما، وواجبا ندبا . وآحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب "ألا لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا فى بنى قُرَيظة" فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قُرَيظة، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت، قال : فما عنف واحدا من الفريقين؛ قالوا : فلو كان أحد الفريقين مخطئا لعينّه النبى صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور،

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة — ويتعلق بالآية فصل آخر: وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من آجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّف فى «الواضحة» : ذلك له ما دام فى ولايته؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى «المدونة» . وقال سحنون فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده. قال سحنون : إلا أن يكون نسى الأقوى عنده فى ذلك الوقت، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول؛ قاله سحنون فى كتاب آبنه . وقال أشهب فى كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما ؛ رواها الدارقطنى ، وقد ذكرناها فى « الأعراف » ولم يفصل؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوّزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود، وإن كان على وجه الآجتهاد؛ فأما أن يتعقب قاضٍ حكم قاضٍ آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة — قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤوّل فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينما آمرأتان معهما آبناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بآبنك أنت . وقالت الأخرى : إنمـا ذهب بآبنـك ؛ فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى ؛ فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ؛ فقال : آئتونى بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى : لا — يرحمـكَ الله — هو آبنها ؛ فقضى به للصغرى ؛ قال أبو هريرة : إنْ سمعتُ بالسكين قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المُدْية ؛ أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف ؛ لأنه كان النبي — صلى الله عليـه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيبعد ؛ لأنه تعـالى قال : « إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَـرْثِ » فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا قوله فى الحديث : فقضى به للكبرى ؛ يدل على إنفاذ القضاء و إنجازه . ولقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هى كبرى ؛ لأن الكبر والصـغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهـم ما جاءت به الشرائع . والذى ينبغى أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب آقتضى عنده ترجيح قولها . ولم يذكر فى الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لمـا كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا الحديث . وهو الذى تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التى يبعد آختلاف الشرائع فيها . لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعى فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؛ فالجواب : أن سليمان عليه السـلام لم يتعرّض لحكم أبيـه بالنقض ، و إنمـا آحتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صـدق الصغرى ؛ وهى أنه لمـا قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من قرينة الشفقة فى الصغرى ، وعدم ذلك فى الكبرى ، مع ما عساه آنضاف إلى ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لهـا . ولعله كان ممن سوّغ له أن يحكم بعلمـه . وقد ترجم النسائى على هـذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول

للشيء الذى لا يَفعله أَفْعَلُ ليستبين الحق » . وترجم له أيضا « نقض الحاكم لا يَحكم به غيرُه ممن هو مثله أو أجلّ منه » . ولعل الكبرى آعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك، فقضى بالولد للصغرى؛ و يكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين و بعدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأوّل ، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدّل الأسباب . والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالآجتهاد ؛ وقد ذكرناه . وفيه من الفقه آستعمال الحكام الحيل التى تستخرج بها الحقوق، وذلك يكون عن قوّة الذكاء والفطنة ، وممارسة أحوال الخلق؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية ، وتوسمات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستلحَق؛ وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة — قد تقدّم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم و زروعهم بالنهار ، ثم الضمان فى المثل بالمثليات ، و بالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسئلة فى شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن آبن شهاب عن حرام بن سعد بن مُحَيِّصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن[1] على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلا . وكذلك رواه أصحاب آبن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحَيِّصة : أن ناقة؛ فذكر مثله بمعناه . ورواه آبن أبى ذئب عن آبن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ؛ مثل حديث مالك سواء، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع آبن أبى ذئب

---

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا، إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه آبن جريج عن آبن شهاب قال : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت فى حائط قوم فأفسدت، فجعل الحديث لآبن شهاب عن أبى أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن مُحَيِّصة ، وعن سعيد بن المسيّب ، وعن أبى أمامة — والله أعلم — فحدّث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث و إن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة ، وحدّث به الثقات ، وآستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى فى المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك و جمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه و جماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخل فسادها فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "جُرح العجماء جُبَار" فقاس جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن آتبعه فى حديث العجماء ، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضا له ؛ فإن النسخ شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن آستعمال أحدهما إلا بنفى الآخر، وحديث "العجماء جرحها جبار" عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه فى حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفى الزرع والحوائط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلا من القول؛ فكيف يجوز أن يقال فى هذا متعارض؟ !و إنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور فى الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل: ما الحكمة فى تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع ؛ لأنه وقت التصرف فى المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى : «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شىء إلى موضعه وسكنه ؛ كما قال الله تعالى : « مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ » وقال : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » ويرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين، وقد وضح الصبح لذى عينين، ولكن لسليم الحاسدين ؛ وأما قول الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده فى جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه؛ كذا قال فى «التمهيد» وفى « الاستذكار» فخالف الحديث فى "العجماء جرحها جبار" وخالف ناقة البراء، وقد تقدّمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء . قال ابن جريج قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال : يضمن صاحبها ويغرم . قلت : كان عليه حظرا أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم . قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته . وقال معمر عن ابن شُبْرُمَة : يُقَوَّم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة — قال مالك : ويقوم الزرع الذى أفسدت المواشى بالليل على الرجاء والخوف . قال : والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا ، وإنما هذا فى الحائط والزرع والحرث ؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها ،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة — ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل فى سنّ الصغير . وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل بيعه . وقال أشهب وابن نافع فى المجموعة عنه: وإن لم يبد صلاحه . ابن العربى : والأوّل أقوى لأنها صفته فتقوم كما يقوم كل متلف على صفته .

الثامنة عشرة — لو لم يقض للفسد له بشىء حتى نبت وٱنجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شىء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ : يضمن؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة — وقع فى كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة، وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير مُحْظَرة، وبساتين كذلك، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان فى مثل هذه البلاد تعدّ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين — قال أصبغ فى المدينة : ليس لأهل المواشى أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذى حرَّثه فيها حفظه، ولا شىء على أرباب المواشى .

الحادية والعشرون — المواشى على قسمين : ضوارى وحَرِيسة وعليهما قسمها مالك . فالضوارى هى المعتادة للزرع والثمار، فقال مالك : تُغرَّب وتباع فى بلد لا زرع فيه ؛ رواه ابن القاسم فى الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربها ، وكذلك قال مالك فى الدابة التى ضريت فى إفساد الزرع : تغرّب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانيـــة والعشرون — قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت] (١)، وعلى أهـل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مُكِّن منه، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيلَ إليه . قال عليـه السلام : "لا ضرر ولا ضرار" وهذه الضواري عن ابن القاسم فى المدينة لاضمان على أربابها إلا بعد التقدّم . ابن العربي : وأرى الضمان عليهم قبل التقدّم إذا كانت ضواري .

الثالثـــة والعشرون — ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت فى غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشَّعبي : أنظروه فإنه سيسألهم ليـلا وقعت فيه أو نهارا ؛ ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » قال : والنَّفش بالليل والهَمَل بالنهار .

قلت : ومن هـذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العجماء جرحها جبار" الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الهـدر، والعجماء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : "العجماء جرحها جبار" أن ماانفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء، وهذا مجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف؛ فإن كانت جنـاية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العـاقلة . وفى الأموال الغرامة فى مال الجاني .

الرابعـة والعشرون — واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وضمّنـه الشافعي وابن أبي ليـلى وابن شُبْرُمـة . واختلفوا فى الضارية فجمهورهم أنها كغيرها، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامســة والعشرون — روى سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الرِّجل جبار" قال الدار قطني : لم يروه

(١) فى الأصل : «أضرت» . والتصويب من «الموطأ» .

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهرى منهم مالك وابن عيينة و يونس ومعمر وابن جريج والزبيدى وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم رووه عن الزهرى فقالوا: " العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرِّجل وهو الصواب . وكذلك روى أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبى هريرة، ولم يذكروا فيه " والرِّجل جبار " وهو المحفوظ عن أبى هريرة .

السادسة والعشرون — قوله : " والبئر جُبار" قد روى موضعه " والنار" قال الدارقطنى: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشمى حدّثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول فى حديث عبد الرزاق: حديث أبى هريرة " والنار جبار" ليس بشىء لم يكن فى الكتاب باطل ليس هو بصحيح . حدّثنا محمد بن مخلد حدّثنا إسحق بن إبراهيم بن هانئ قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير و يكتبون البير؛ يعنى مثل ذلك . و إنما لقن عبد الرزاق " النار جبار ". وقال الرمادى : قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وَهَما. قال أبو عمر : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جُبار " وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحّفه . قال أبو عمر : لم يأتِ ابن معين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغسانى قال : أحرق رجل سافى قَرَاح[1] له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيئا لجاره . قال: فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ابن حصين فكتب إلىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العجماء جبار" وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار" بدل العجماء فهذا ما ورد فى ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور فى شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب: كان داود يمر بالجبال مسبّحا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت

(١) قراح : مزرعة .

حتى يشتاق؛ ولهذا قال : «وَسَخَّرْنَا» أى جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل: إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ دليله قوله تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحْنَ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل. وذلك فعل الله تعالى بها ؛ ذلك لأن الجبال لا تعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعنى اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جَوْشنا أو سيفا أو رمحا . قال الهُذَلى[1] يصف رمحا :

وَمَعِى لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كَأَنَّهُ * رَوْقٌ بجبهة ذِى نِعَاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل ما يلبس ، وأنشد ابن السكيت[2] :

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَهَا * إمّا نَعيمَهَا وإمّا بُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدّرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الرّكوب والحلوب . قال قتادة : أوّل من صنع الدروع داود . وإنما كانت صفائح ، فهو أوّل من سردها وحلقها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لِيُحْصِنَكُمْ[3] ﴾ ليحرزكم . ﴿ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى من حربكم . وقيــل : من السيف والسهم والرمح ، أى من آلة بأسكم فحذف المضاف . ابن عباس : « مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو كبير الهذلى ، واسمه عامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهير هل عن شيبة من معدل * أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبئيس : الشجاع . والروق : القرن . وذو نعاج : يعنى ثورا ؛ والنعاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبيهس الفزارى . (٣) « ليحصنكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح « لِتُحْصِنَكُمْ » بالتاء ردا على الصفة . وقيل : على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون لقوله : « وَعَلَّمْنَاهُ » . وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس، أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولي .

الثالثة — هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا . وقيل: سقاء ؛ فالصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس . وفي الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفِّف ويبغض السائل الملحف» . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الفرقان»[(١)] . وقد تقدم في غير ما آية، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أي شديدة الهُبوب . يقال منه : عَصفت الريحُ أي اشتدت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف . وفي لغة بني أسد : أَعصفت الريحُ فهي مُعصِف ومُعصِفة . والعَصْف التِّبن فسمي به شدة الريح ؛

(١) راجع المسئلة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من السورة المذكورة .

لأنها تعصفه بشدة تطيرها . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَمى وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ » برفع الحاء على القطع مما قبله؛ والمعنى ولسليمان تسخير الريح؛ ابتداء وخبر. ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعنى الشام . يروى أنها كانت تجرى به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردّه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان آمرأ غزّاء لا يقعد عن الغزو؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب، ثم أمر العاصف فأقلت ذلك، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا فى رواحه وشهرا فى غدوّه، وهو معنى قوله تعالى : « تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى بكل شىء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى وسخرنا له من يغوصون؛ يريد تحت الماء، أى يستخرجون له الجواهر من البحر. والغَوْص النزول تحت الماء، وقد غاص فى الماء، والهاجم على الشىء غائص . والغوّاص الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ، وفعله الغِيَاصة . ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخّرهم فيه . ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم، أو يهيجوا أحدا من بنى آدم فى زمان سليمان . وقيل : «حافظين» من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى واذكر أيوب إذ نادى ربه. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أى نالنى فى بدنى ضرّ وفى مالى وأهلى . قال ابن عباس : سمى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى فى كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم، وكان برّاً تقياً رحيما بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، شاكرا لأنعم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضر فى جسمه حتى تناثر لحمه وتدوّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه . قال الحسن : مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر . فلما أراد الله أن يفرج عنه قال الله تعالى له : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم . وسيأتى فى « ص »(1) ما للمفسرين فى قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى . واختلف فى قول أيوب : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » على خمسة عشر قولا : الأوّل — أنه وثب ليصلى فلم يقدر على النهوض فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » إخبارا عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنس مرفوعا . الثانى — أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافيا للصبر . الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح بما ينزل بهم . الرابع — أنه أجراه على لسانه إلزاما له فى صفة الآدمى فى الضعف عن تحمل البلاء . الخامس — أنه انقطع الوحى عنه أربعين يوما فخاف هجران ربه فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . وهذا قول جعفر بن محمد . السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما آنتهت إليه محوا ما كتبوا عنه، وقالوا : ما لهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضر فى ذهاب الوحى والدين من أيدى الناس . وهذا مما لم يصح سنده . والله أعلم؛ قاله ابن العربى . السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها فى موضعها فعقرته فصاح « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » فقيل : أعلينا تتصبر . قال ابن العربى : وهذا بعيد جدا

(1) راجع تفسير قوله تعالى : « وآذكر عبدنا أيوب ... الخ » آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن — أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر الله . قال ابن العربى : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة . التاسع — أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء . قال ابن العربى : وهذا غلو لا يحتاج إليه . العاشر — أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت فى النعيم سبعين سنة وأقيم فى البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . قال ابن العربى : وهذا ممكن ولكنه لم يصح فى إقامته مدةً خبرٌ ولا فى هذه القصة . الحادى عشر — أن ضره قول إبليس لزوجه آسجدى لى فخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل . الثانى عشر — لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره فليخرج عنا ، فأخرجته آمرأته إلى ظاهر البلد؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعدٍ من القرية ، فكانت آمرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها عنه ؛ فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . الثالث عشر — قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله فى أيوب خيرا ما آبتلاه بهذا البلاء؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة؛ فعند ذلك قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » ثم قال : «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبدى » وهما يسمعان فخرّا ساجدين . الرابع عشر — أن معنى « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك؟ قال شماتة الأعداء . قال ابن العربى : وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ » . الخامس عشر — أن آمرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها فى تصرفه وتنقله، فلما عدمها وأراد الحركة فى تنقله لم يقدر قال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ ». وقيل: إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس فى صفة رجل وقال له: إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر — ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء؛ الحديث. وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال: يا نبي الله لقد أعجبني أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفى جسدك، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغتَ ماترى؛ ألا يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنبا ما أظن أحدا بلغه! فقال أيوب عليه السلام: « ما أدرى ما يقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله — أو على النفر يتزاعمون — فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وإنما كان دعاؤه عَرْضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذى بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث. وقول سابع عشر — سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردّها إلى موضعها فلم يجدها فقال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» جزعا؛ لأن الله تعالى قال: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » بل كان ذلك دعاء منه، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافى الرضا. قال الثعلبي سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء فى دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا »

فقلت : ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء ؛ بيانه ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء . فآستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النّوال .

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك فى الجنة فإن شئت تركناهم لك فى الجنة وإن شئت آتيناكهم فى الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له فى الجنة وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاه المهدوى عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا آمرأته فأحياهم الله عز وجل فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفى نشروا له ، وولدت آمرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا آبتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »[1] فى قصة « الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفى قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أحيوا[2] ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » فى الآخرة «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» فى الدنيا . وفى الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغاص فى الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى وثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٤ ثانية أو ثالثة وجـ ٧ ص ٢٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

يشبع من الله ! فضل . فأوحى الله إليه : قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك فى البلاء و بعده ، ولولا أنى وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت . ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أى فعلنا ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غدا . ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى وتذكيرا للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر . واختلف فى مدة إقامته فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدّة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وهب : ثلاثين سنة . الحسن سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ؛ رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدّم ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أى وآذكرهم . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » وغيره من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فآتبع آمرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها][1] فلما قعد منها مقعد الرجل من آمرأته ارتعدت و بكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك قالت لا ولكن حملنى عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذى الكفل" وخرجه أبو عيسى الترمذى أيضا . ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين — حتى عدّ سبع مرات — [لم أحدّث به][2] ولكنى سمعته أكثر من ذلك ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كان

(١) الزيادة من « الدر المنثور » .	(٢) الزيادة من صحيح الترمذى .

ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبى فهى لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذى الكفل " قال: حديث حسن . وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال : من يتكفل لى بثلاث: بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد؛ فقال الرجل : أنا؛ فاستخلفه فوفّى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحرث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ،وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه.

وقال كعب : كان فى بنى إسرائيل ملك كافر فمر ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزائى؟ قال : الجنة — ووصفها له — قال : من يتكفل لى بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفّى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه . وقيل: سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبي . وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة مريم . ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أى وآذكر « ذَا النُّون » وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه . والنون الحوت . وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيا مليحا فقال : دَسِّموا نُونَته كى لاتصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابى : النّونة النقبة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير ، ومعنى دسِّموا سوِّدوا . ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير : مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبرى والقتبى واستحسنه المهدوى ، وروى عن ابن مسعود . وقال النحاس : وربمـا أنكر هذا من لايعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصى . وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : "آشترطى لهم الولاء" من هذا . وبالغ القتبى فى نصرة هـذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلمـا حمل أعباء النبوّة تَفسَّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع[1] تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضى الآبق النادّ . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهـم بعد رفع العـذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت ، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ فلذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسها فلم يُنظر ، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك ــ وكان فى خلقه ضيق ــ فخرج مغاضبا لربه ؛ فهذا قول وقول

(١) الربع : ما ولد من الإبل فى الربيع .

النحاس أحسن ما قيل فى تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارّا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله. روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوّة ؛ ولهذا قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل، وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا . قال : فهل سمانى لك ؟ قال : لا. قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء . فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نبيا فى ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتى نينوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للملك ؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيرى : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتى بيانه فى « والصافات »[1] إن شاء الله تعالى .

وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتل فغضب ، وخرج فارّا على وجهه حتى ركب فى سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أفيكم آبق ؟ فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وآبتلى ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال فى أهل أحد : « حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ » إلى قوله : « وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فمعاصى الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجرى تمحيص و يتضمن ذلك زجرا عن المعاودة . وقول رابع : إنه لم يغاضب ربه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم غضب إذا أنف . وفاعَل قد يكون من واحد؛ فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا . و ينشد هذا البيت :

* وأغضب أن تُهجى تميم بدارم *

أى آنف . وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة و إن كانت من الأنفة، فالأنفة لابد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب و إن دق على من كان ؟! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه ! .

قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قيل : معناه آستزله إبليس ووقع فى ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته . وهذا قول مردود مرغوب عنه؛لأنه كفر. روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوى، والثعلبى عن الحسن . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيّق عليه . قال الحسن : هو من قوله تعالى : «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيّق . وقوله : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِّر بمعنى، أى ضُيّق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردى والمهدوى . وقيل: هو من القدر الذى هو القضاء والحكم؛ أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

(١) فى تفسير قوله تعالى : «و إن يونس لمن المرسلين ...» الآيات ١٣٩ وما بعدها .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال فى قول الله عز وجل : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه : قدَر الله لك الخير يقدره قدرا، بمعنى قدّر الله لك الخير . وأنشد ثعلب :

فليست عشيّات اللّوى برواجع * لنا أبدًا ما أورق السَّلَم النضْرُ
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى * تباركت ما تقدِر يقعْ ولك الشكرُ

يعنى ما تقدّره وتقضى به يقع . وعلى هذين التأويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : «أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ» بضم الياء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخفّفا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ » . الباقون « نَقْدِرَ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير .

قلت : وهذان التأويلان تأولها العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه "فوالله لئن قدر الله على" الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ فى محاسبتى وجزانى على ذنوبى ليكونن ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبنى الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه خرجه الأئمة فى الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء فى بعض طرقه "لم يعمل خيرا إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق؛ قال الله تعالى : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» .

وقد قيل : إن معنى « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أفظن؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا؛ وهو قول سليمان[1] [أبو] المعتمر . وحكى القاضى منذر بن سعيد: أن بعضهم قرأ « أفظن » بالألف .

(١) فى الأصل « سليمان بن المعتمر » وهو تحريف والتصويب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » اختلف العلماء فى جمع الظلمات ما المراد به، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت. وذكر ابن أبى الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى فى الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبى الجعد : ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأول . ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط؛ كما قال : « فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وفى كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ . وذكر الماوردى : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لا تؤذ منه شعرة فإنى جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » وروى : أن يونس عليه السلام سجد فى جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان فى قعر البحر . وذكر ابن أبى الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحق[1] ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبى الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلى فقال فى دعائه : « واتخذت لك مسجدا حيث لم يتخذه أحد ». وقال أبو المعالى : قوله صلى عليه وسلم "لا تفضّلونى على يونس بن متى" المعنى فإنى لم أكن وأنا فى سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه، وهو فى قعر البحر فى بطن الحوت . وهذا يدل على أن البارى سبحانه وتعالى

(١) كذا فى الأصل ؛ ولعله « عبد الله بن إدريس » فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدى كما فى « تهذيب التهذيب » .

ليس فى جهة . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : فى الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، و إنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤدّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره المـاوردى . وقيل : من الظالمين فى دعائى على قومى بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ . وقال الواسطى فى معنـاه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسـه ٱعترافا وٱستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

الثانيـة — روى أبو داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا ٱستجيب له" وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . و رواه سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الخبر : فى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه، وهو قوله : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء و إنمـا هو مضمون قوله : « إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبده ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده! لا يظن به ذلك . « مِنَ الْغَمِّ » أى من بطن الحوت .

قوله تعـالى : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجى ينجى . وقرأ ابن عامر « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل المـاضى و إضمار المصدر أى وكذلك نُجّى النجاءُ المؤمنين؛ كما تقول : ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضربُ زيدا وأنشد:

ولو ولَدتْ قُفَيْرةُ [1] جرو كلبٍ * لَسُبَّ بذلك الجرو الكلابَا

أراد لَسُبَّ السبُّ بذلك الجرو . وسكنت ياؤه على لغة من يقول بَقِيْ ورَضِيْ فلا يحرك الياء.
وقرأ الحسن « وَذَرُوا مَا بَقِيْ مِنَ الرِّبَا » آستثقالا لتحريك ياء قبلها كسرة . وأنشد :

خَمَّر الشّيبُ لِمَّتِي تَخْمِيرَا * وَحَدَا بى إلى القُبور البعيرَا
ليتَ شِعْرى إذا القيامةُ قامتْ * ودُعِى بالحساب أين المصيرَا

سكن الياء فى دعى استثقالا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب؛ أى وحدا المشيبُ البعيرَ؛ ليت شعرى المصير أين هو . هـذا تأويل الفراء وأبى عبيد وثعلب فى تصويب هذه القراءة . وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله؛ وإنما يقال: نُجِّى المؤمنون. كما يقال: كُرِّم الصالحون . ولا يجوز ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضَّربُ زيدا ؛ لأنه لا فائدة [فيه] [2] إذ كان ضُرِب يدل على الضرب . ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى . ولأبى عبيد قول آخر— وقاله القتبى — وهو أنه أدغم النون فى الجيم. النحاس : وهـذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ولا يجوز فى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع فى هذا أحسن من شىء سمعته من علىّ بن سليمان . قال: الأصل تنجى فحذف إحدى النونين؛ لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل: « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل تتفرقوا . وقرأ محمد بن السَّمَيقع وأبو العالية « وَكَذَٰلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ » أى نجى الله المؤمنين؛ وهى حسـنة .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾

(١) قفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق . والبيت لجرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق .
(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى وآذكر زكريا . وقد تقدم فى «آل عمران»[1] ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت؛ وإنما قال «وأنت خير الوارثين» لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تضيع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عقبى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى أجبنا دعاءه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ . تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى الأنبياء المسمين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وآمرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفزعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرَّغَب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرَّهَب رفع ظهورها؛ قاله خصيف؛ وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه، إذ هو موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانيــة — روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه وقد مضى فى « الأعراف »[2]

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الاختلاف فى رفع الأيدى، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك . وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس فى صفته وإلى أين؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه ؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان عليّ يدعو بباطن كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذى . وقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا سألتم الله فاسئلوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم" . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه، واحتجوا بحديث أبى سعيد الخدرى ؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلى وجهه، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يحاذى بهما وجهه وظهورهما مما يلى وجهه . قال أبو جعفر الطبرى والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعانى، وجائز أن يكون ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلى وجهه فهو الابتهال . قال الطبرى وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر؛ أى يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله ؛ أى للرغب والرهب. أو على الحال . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعونَا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغْبًا وَرَهْبًا » بالفتح فى الراء والتخفيف فى الغين والهاء، وهما لغتان مثل نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر . وروبت هذه القراءة عن أبى عمرو. ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أى متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى واذكر مريم التى أحصنت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير فحل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير: وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» . وقيل : إن من آياتها أنها أول آمرأة قبلت فى النذر فى المتعبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده . وقيل : إنها لم تلقم ثديا قط . « وَأَحْصَنَتْ » يعنى عفّت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص؛ أى لم تعلق بثوبها ريبة؛ أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنًى، وأوزن لفظا ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد مايذهب إليه وهم الجاهل ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفخ فى درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها . وقد مضى هذا فى « النساء »[1] و « مريم » فلا معنى للإعادة . ﴿ آيَةً ﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . فأما المشركون فقد خالفوا الكل . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أى إلهكم وحدى . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ أى أفردونى بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمر وآبن أبى إسحق « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » ورواها

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسين عن أبي عمرو. الباقون «أُمَّةً وَاحِدَةً» بالنصب على القطع بمجيء النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء. الزجاج: انتصب «أمة» على الحال؛ أي في حال اجتماعها على الحق؛ أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق؛ وهو كما تقول: فلان صديقي عفيفا أي ما دام عفيفا فإذا خالف العفة لم يكن صديقي. وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم» أو على إضمار مبتدإ؛ أي إن هذه أمتكم، هذه أمة واحدة. أو يكون خبرا بعد خبر. ولو نصبت «أمتكم» على البدل من «هذه» لجاز ويكون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» خبر «إن».

قوله تعالى: وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي تفرقوا في الدين؛ قاله الكلبي. الأخفش: اختلفوا فيه. والمراد المشركون؛ ذمّهم لمخالفة الحق، واتخاذهم آلهة من دون الله. قال الأزهري: أي تفرقوا في أمرهم؛ فنصب «أَمْرَهُمْ» بحذف «في». فالمتقطع على هذا لازم وعلى الأول متعد. والمراد جميع الخلق؛ أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا وتقسموه بينهم، فمن موحد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد ملك أو صنم. ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي إلى حكمنا فنجازيهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «من» للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات فرضها ونفلها؛ فالمعنى: من يعمل شيئا من الطاعات فرضا أو نفلا وهو موحّد مسلم. وقال ابن عباس: مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم. ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا جحود لعمله؛ أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى. والكفر ضدّه الإيمان. والكفر أيضا جحود النعمة، وهو ضدّ الشكر. وقد كفره كفورا وكفرانا. وفي حرف ابن مسعود «فَلَا كُفْرَ لِسَعْيِهِ». ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ لعمله حافظون. نظيره «أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى» أي كل ذلك محفوظ ليجازي به.

قوله تعالى : وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحِرْمٌ » ورويت عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حِلّ وحَلَال . وقد روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبى العالية « وَحَرُمَ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا « وَحَرَمَ » وعنه أيضا « وَحَرَّمَ » ، « وَحُرِّمَ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة ومطر الوراق « وَحَرْمٌ » تسع قراءات . وقرأ السُّلَمى «عَلَى قَرْيَةٍ اهْلَكْتُهَا» . واختلف فى « لا » فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة؛ روى ذلك عن ابن عباس، واختاره أبو عبيد؛ أى وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى ثابتة، ويكون الحرام بمعنى الواجب؛ أى وجب على قرية؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا * عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ على صَخْرِ

تريد أخاها؛ فـ « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه مارواه ابن عيينة وابن عُلَيّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بيّن فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرّم الشيء حُظِر ومُنع منه، كما أن معنى أحل أبيح ولم يمنع منه، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حِرْمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

منه ومنع فقد دخل فى باب المحظور بهذا؛ فأما قول أبى عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزاد فى مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحرّم . وقيل : فى الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون؛ قاله الزجاج وأبو على؛ و «لا» غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدّم القول فيهم . وفى الكلام حذف؛ أى حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » . ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أى لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحدب ما ارتفع من الأرض، والجمع الحِداب؛ مأخوذ من حدبة الظهر؛ قال عَنْتَرة:

فما رعِشت يداى ولا ازدهانى * تواتُرهم إلىّ من الحِداب

وقيل : «يَنْسِلُونَ» يخرجون؛ ومنه قول امرئ القيس :

* فَسُلِّى ثيابِى من ثيابِك تَنْسُلِ[1] *

وقيل : يسرعون؛ ومنه قول النابغة[2] :

عَسَلانَ الذئبِ أمسَى قارِبًا[3] * بَرَدَ الليلُ عليهِ فنَسَلْ

يقال: عَسَل الذئبُ يَعسِل عَسَلا وعَسَلانا إذا أعنق وأسرع . وفى الحديث : "كَذَبَ عليك العَسَلَ" أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : والنَّسَلان مِشية الذئب إذا أسرع؛ يقال : نسل فلان فى العدو يَنْسِل بالكسر والضم نَسْلا ونُسولا ونَسَلانا؛ أى أسرع . ثم قيل فى الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق؛ فإنهم يحشرون الى أرض الموقف، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدره : * وإن تك قد ساءتك منى خليقة *

(٢) وقيل : هو للبيد، كما « اللسان » مادة « عسل » . (٣) القارب : السائر ليلا .

صوب . وقرئ فى الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ » أخذا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هــذه القراءة المهدوى عن ابن مسعود والثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ وَٱقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القيامة . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ٱقترب الوعد الحق «فَٱقْتَرَبَ» جواب « إذا » . وأنشد الفراء[1] :

* فَلَمَّـا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَٱنْتَحَى *

أى ٱنتحى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى للجبين ناديناه . وأجاز الكسائى أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَٱقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَـقُّ » معطوفا على الفعــل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجــواب محذوف والتقــدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ «هى» ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعــدها تفسير لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجىء الوعد . وقال الشاعر :

لَعَــمْرُ أبيها لا تقــول ظَعِينتِي * أَلَا فَرَّعَنِّى مالكُ بن أَبِى كعب

فكنى عن الظعينة فى أبيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : «هى» التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى من قُربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ٱبتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هوله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة فى غير موضعها .

---

(١) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته ، وتمـامه :

* بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

قوله تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألنى الناس عنها! لا أدرى أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوا فلا يسألون عنها؛ فقيل: وما هى؟ قال: « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » لما أنزلت شقّ على كفار قريش، وقالوا : شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزّبعرى وأخبروه، فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنتَ أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيرا أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أن محمدا قد خُصم ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » وفيه نزل « وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً » يعنى ابن الزبعرى « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » بكسر الصاد؛ أى يضجون؛ وسيأتى[1] .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى القول بالعموم وأن له صيغا مخصوصة، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها؛ فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فهم « ما » فى جاهليته جميع من عبد، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء، واللسن البلغاء، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها، وقد وجد ذلك فهى للعموم وهذا واضح .

الثالثــة — قراءة العامة بالصاد المهملة؛ أى إنكم يا معشر الكفار والأوثان التى تعبدونها من دون الله وقود جهنم؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأ على ابن أبى طالب وعائشة رضوان الله عليهما « حَطَبُ جَهَنَّمَ » بالطاء . وقرأ ابن عباس « حَضَبُ » بالضاد المعجمة؛ قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل

(١) فى تفسير آية ٥٧ من سورة « الزخرف » .

اليمن الحطب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَضَب ؛ ذكره الجوهرى . والموقد مِحْضب . وقال أبو عبيدة فى قوله تعالى : « حَصَبُ جَهَنَّمُ » كل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به . ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب لجهنم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل : إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت؛ على ما تقدّم فى « البقرة »[1] وأن النار لا تكون على الأصنام عذابا ولا عقوبة؛ لأنها لم تذنب، ولكن تكون عذابا على من عبدها : أول شيء بالحسرة، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار، ثم يعذَّبون بها . وقيل : تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت فى النار تبكيتا لعبادتهم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أى فيها داخلون . والخطاب للشركين عبدة الأصنام؛ أى أنتم واردوها مع الأصنام . ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبدتها؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بحكايات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل فى هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغير الآدميين . فلو أراد ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ أى لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار . وقيل : ما وردها العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين؛ فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها ؛ هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟ قولان : والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب . وقد تقدّم فى « هود »[2] . ﴿ وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع ج ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئا ؛ لأنهم يحشرون صما ، كما قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » . وفى سماع الأشياء رَوْح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك فى النار . وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية . وقيل : إذا قيل لهم « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » يصيرون حينئذ صما بكما ؛ كما قال ابن مسعود : إذا بقى من يخلد فى النار فى جهنم جعلوا فى توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أن فى النار من يعذب غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ أى الجنة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ أى عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » ها هنا بمعنى « إلا » وليس فى القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فقال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن عثمان منهم " .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أى حسّ النار وحركة لهبها . والحسيس والحسّ الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحَروريّ لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » فقال ابن عباس : أمجنون أنت؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالما، وأدخلنى الجنة فائزا. وقال أبو عثمان النهدى:

على الصراط حيات تلسع أهل النار فيقولون : حَسّ حَسّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حسّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ؛ فالله أعلم . ﴿وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » .

قوله تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن « لَا يُحْزِنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاى . الباقون بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أمّ قوما محتسبا وهم له راضون ورجل أذّن لقوم محتسبا ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه" . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلىّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يا بن أخى ! من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر" سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَٰذَا يَوْمُكُمْ » أى ويقولون لهم ؛ فحذف . « ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نِصَاح والأعرج والزُّهرى « تُطْوَى » بتاء مضمومة « السَّمَاءُ » رفعا على مالم يسم فاعله . مجاهد « يَطوِى »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « نَطْوِى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الهاء المحذوفة فى الصلة ؛ التقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى السماء . أو يكون منصوبا بـ « نعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يحزنهم » أى لا يحزنهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى نطوى فيه السماء . أو على إضمار واذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾ [1] قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى «على» . وعن ابن عباس أيضا اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السِّجل . وقال ابن عباس أيضا وابن عمر والسدى : « السّجل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السّجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السّجْل وهو الدّلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة . وقد سَجَّل الحاكمُ تسجيلا . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُساجِلْ ماجِدًا * يَملأُ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَب [2]

ثم بنى هذا الاسم على فِعِلّ مثل حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِىّ . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَىِّ السُّجُلِّ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعمش وطلحة « كَطَىِّ السَّجْلِ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والطّى فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدَّرج الذى هو ضد النّشر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإفراد قراءة نافع .

(٢) الكرب : حبل يشدّ على عراقى الدلو ثم يثنى ثم يثلث ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ ٱنْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِلْكِتَابِ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : « لِلْكُتُبِ » جمعا ثم ٱستأنف الكلام فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بُدئوا فى البطون . وروى النّسائى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عُراة غُرْلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام — ثم قرأ — « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » " أخرجه مسلم ايضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : " يأيها النـاس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلا « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا و إن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام " وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا البـاب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كمنىّ الرجال فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأَرْضُ بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شيء ونفنيه كما كان أوّل مرّة[1]؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا . وقيل : نفنى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها ؛ كقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأول أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . ﴿ وَعْدًا ﴾ نصب على المصدر؛ أى وعدنا وعدا ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه والوفاء به أى من البعث والإعادة، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدنا كم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كان » للإخبار بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

---

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألوسى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زَبرت أى كتبت وجمعه زُبُر . وقال سعيد بن جبير : « الزّبور» التوراة والإنجيل والقرآن . ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذى فى السماء ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعبي : «الزّبور» زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزّبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذّكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزّبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على موسى . وقرأ حمزة «فِي الزُّبُورِ» بضم الزاى جمع زِبْر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدّسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة «عِبَادِي الصَّالِحُونَ» بتسكين الياء . ﴿ إِنَّ فِي هَذَا ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ﴿ لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثورى : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «عابدين» مطيعين . والعابد المتذلل الخاضع . قال القشيرى : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأوّل بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلِم مما لحق الأمم من الخسف والغرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى منقادون لتوحيد الله تعالى؛ أى فأسلموا ؛ كقوله تعالى: « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » أى انتهوا .

قوله تعالى :﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى أعلمتكم على بيان أنا و إياكم حرب لاصلح بيننا ؛ كقوله تعالى : «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا ، أى استويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم فى حق الفريق الآخر. وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلىّ على استواء فى العلم به ، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ « إن » نافية بمعنى «ما» أى وما أدرى . ﴿ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبى مرسل ولا ملك مقرّب؛ قاله ابن عباس . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى من الشرك وهو المجازى عليه . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أى لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أعلم . ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل : إلى انقضاء المدّة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية في منامه يلون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك؛ فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ » « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ (١) ختم السورة بأن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أى احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين وانصرني عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » أى اقض به . وقال أبو عبيدة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب احكم بحكمك الحق . و«رب» في موضع نصب؛ لأنه نداء مضاف. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين؛ لا يجوز عندهم رجلُ أقبلْ، حتى تقول يارجلُ أقبلْ أو ما أشبهه. وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب «قَالَ رَبِّي أَحْكَمُ بِالْحَقِّ» بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال محمد ربّي أحكَمُ بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى « قُلْ رَبِّي أَحْكَمَ » على معنى أحكم الأمور بالحق . ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمى «عَلَى مَا يَصِفُونَ» بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب .

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة نافع .

تم الجزء الحادى عشر من تفسير القرطبي

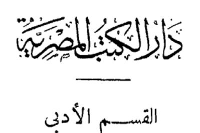
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر وأوله : "سورة الحج"

*
* *

كَمُلَ طبع الجزء الحادى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبى"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠
(١٧ يوليه سنة ١٩٤١) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٨ / ١٩٤٠ / ٢٠٠٠)



القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الثانى عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

الطبعة الثانية بمطبعـــة دار الكتب المصرية

فهــرس الجــزء الثــانى عشر

تفســـير ســـورة الحـــج

صفحة

صفحة

صفحة

تفسير سورة المؤمنون

صفحة

سورة النور

صفحة

إصلاح خطأ

ج	ص	س	خطأ	صواب
١	١٣٨	٧	نخندقَ هامةَ	نخندُفُ هامةُ
٣	٦١	١٩	القَرظى محمد	القُرَظى محمد
٤	٦٠	١٠	ما حَبيْتَــه	ما حَبَبْتَــه
٤	١١٦	٧	ألّادَعَه	أن لّادَعَه
٤	٢٢٨	٩	وكائِن	وكائِنْ
٤	٢٢٨	١٧	وكَأيّن مثل وكَعَيّن	وكَأْيِن مثل وكَعْيِن
٤	٢٢٩	١٣، ١٥، ١٦	قاتــل	قُتِــل
٧	٢٥٩	١٧	ذئبــق	زئبــق
٧	٢٦٢	٤	« وما علِمْتُ »	و « ما علِمْتُ »
٩	٣٠	٢٠	من كُلّ زوجين	من كُلٍّ زوجين
٩	١٣٦	١٢	و إلا فشأنُك	و إلا فشأْنَك
١١	٣	٢٢	مُــدَجّج	مُــدَجَّج
١١	١٠٥	٦	قَوْلُ الحقِّ	قَوْلَ الحَــقِّ
١١	١٤٥	١٨	وأن كنت	و إن كنت
١١	١٥٣	١٤	يريدون	يَرِدُون
١١	٢٦٨	٢٣	كثيرة عزة	كُثيِّر عزة
١١	٣٢٠	١٤	و إما ما بُوسها	و إما بُوسها
١١	٣٤١	٢٢	كما اللسان	كما فى اللسان
١٢	٦٤	١٦	يُصْــلِحه	يُصْــلِحه

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية أثبتناها هنا للفائدة مع

أحمد عبدالعليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

وهى مكية، سوى ثلاث آيات : قوله تعالى « هذانِ خَصْمانِ »[1] إلى تمام ثلاث آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله «عذابَ الحَرِيق». وقال الضحاك وابن عباس أيضا : هى مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : «وَمَا أَرْسَلْنَا[2] مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إلى — عذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » فهن مكيّات . وعدّ النقاش ما نزل بالمدينة عشرَ آيات . وقال الجمهور : السورة مختلِطة، منها مكّىّ ومنها مَدَنِىّ . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن « يأيها النـاس» مكىّ، و « يأيها الذين آمنوا » مدنىّ . الغَزْنَوِىُّ : وهى من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلا ونهارا، سَفَرا وحَضَرا، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخا ومنسوخا، مُحْكَمًا ومتشابها، مختلف العدد .

قلت : وجاء فى فضلها ما رواه الترمذىّ وأبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله، فُضِّلت سـورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال : "نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما " . لفظ الترمذىّ . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقَوِىّ .

واختلف أهل العلم فى هذا؛ فروِى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر أنهما قالا : فُضِّلت سورة الحج بأن فيها سجـدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعىّ وأحمـد و إسحاق . ورأى بعضهم أنّ فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثَّوْرِىّ . روى الدّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب سجـد فى الحج سجدتين؛ قلت فى الصبح ؟ قال فى الصبح .

---

(١) آية ١٩ وما بعدها .   (٢) آية ٥٢ وما بعدها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)

روى الترمذىّ عن عِمْران بنِ حُصين أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم — إلى قوله — ولكنّ عذاب الله شديد» قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو فى سفر فقال : " أتدرون أىّ يوم ذلك " ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال: "ذاك يوم يقول الله لآدم ٱبْعَثْ بَعْثَ النار قال يا ربّ وما بعثُ النار قال تِسعمائةٍ وتسعةً وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" . فأنشأ المسلمون يبكون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قارِبُوا وسَدِّدوا فإنه لم تكن نُبوّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهلية — قال — فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمّت وإلا كَمُلت من المنافقين وما مَثَلُكم والأُمَم إلا كَمَثل الرَّقْمة[1] فى ذراع الدابة أو كالشامَة[2] فى جنب البعير — ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة — فكبّروا؛ ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — فكبّروا؛ ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" فكبروا . قال : لا أدرى قال الثلثين أم لا . قال : هـذا حديث حسن صحيح، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عِمران بن حُصين . وفيه : فيئس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكة؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اعملوا وأبشروا فوالذى نفسى بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بنى آدم وبنى إبليس" قال : فَسُرِّىَ عن القوم بعضُ الذى يجدون؛ فقال : "اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشّامَة فى جنب البعير أو كالرَّقْمة فى ذراع الدابة" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تعالى يا آدم فيقول لَبَّيْكَ وسَعْدَيك والخيرُ فى يديك — قال — يقول أخْرِج بَعْثَ النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تِسعمائةٍ وتسعةً وتسعين[3] قال فذاك

(١) الرقة : الهنة النابتة فى ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تخالف البدن الذى هى فيه .

(٣) فى بعض النسخ : « تسعمائة وتسعة وتسعون » فالنصب على المفعولية، والرفع على الخبرية .

حين يَشيبُ الصغير وتَضَع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكن عذاب الله شديد". قال: فاشتدّ ذلك عليهم؛ قالوا : يا رسول الله، أيُّنَا ذلك الرجل؟فقال: "أبشروا فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا ومنكم رجل". وذكر الحديث بنحو ما تقدّم فى حديث عمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدّثنا سلمة قال حدّثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم — إلى — ولكن عذابَ الله شديد » قال: نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَسيرله، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال : "أتدرون أىَّ يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم فابعث بَعْثَ أهل النار من كل ألف تِسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" . فكَبُر ذلك على المسلمين؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا فوالذى نفسى بيـده ما أنتم فى الناس إلا كالشّامَة فى جنب البعير أو كالرَّقْمة فى ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس" .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّـاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ المراد بهذا النداء المكلَّفون ؛ أى ٱخشوه فى أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها . والاتّقاء : الاحتراس من المكروه ؛ وقد تقدّم فى أوّل « البقرة »[(1)] القولُ فيه مستوفًى ، فلا معنى لإعادته . والمعـنى : احترسوا بطاعته عن عقوبته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة شـدّة الحركة؛ ومنه « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ »[(2)]. وأصل الكلمة من زَلّ عن الموضع؛ أى زال عنه وتحرّك . وزلزل الله قَدَمه؛ أى حركها. وهذه اللفظة تستعمل فى تهويل الشىء. وقيل: هى الزلزلة المعروفة التى هى إحدى شرائط الساعة، التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه الزلزلة تكون فى النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ الهاء فى « تَرَوْنَهَا » عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوّى هذا قولُه عز وجل « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » . والرضاع والحمل إنما هو فى الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة فى يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث عِمران بن حُصين الذى ذكرناه ، وفيه : " أتدرون أىّ يوم ذلك ... " الحديث . وهو الذى يقتضيه سياق مُسْلم فى حديث أبى سعيد الخُدْرىّ .

قوله : ﴿ تَذْهَلُ ﴾ أى تشتغل ؛ قاله قُطْرُب . وأنشد :

ضَرْبًا(١) يُزِيل الهام عن مَقِيلِهِ * ويُذهِل الخليلَ عن خَليلِهِ

وقيل تنسى . وقيل تلهو . وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب . ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ قال المبرّد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى تذهل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة فى الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حَمْل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا تُبعث حاملا فتضع حملها للهَوْل . ومن ماتت مُرضِعة بُعثت كذلك . ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : « يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا(٢) » . وقيل : تكون مع النفخة الأولى . وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرّك الناس من قبورهم فى النفخة الثانية . ويحتمل أن تكون الزلزلة فى الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : « مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا(٣) » . وكما قال عليه السلام : " اللّهم اهزمهم وزلزلهم " . وفائدة ذكر هَوْل ذلك اليوم التحريضُ على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة بـ « شىء » إما لأنها

---

(١) فى الأصول : « بضرب » والتصويب عن سيرة ابن هشام . وقبله :

نحن قتلناكم على تأويله * كما قتلناكم على تنزيله

والرجز لعبد الله بن رواحة ، ارتجزه وهو يقود ناقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فى عمرة القضاء . (راجع سيرة ابن هشام) .   (٢) آية ١٧ سورة المزمل .   (٣) آية ٢١٤ سورة البقرة .

حاصلة متيقّن وقوعها ، فيستسهل لذلك أن تسمّى شيئا وهى معدومة ؛ إذ اليقين يشبه الموجودات . وإما على المآل ؛ أى هى إذا وقعت شىء عظيم . وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهى إذًا شىء عظيم ، ولذلك تذهل المراضع وتسكر الناس؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ من الخمر . وقال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى . يدلّ عليه قراءة أبى زُرْعة هَرِم بن عمرو بن جرير بن عبد الله « وتُرَى الناسَ » بضم التاء ؛ أى تظن ويخيّل إليك . وقرأ حمزة والكسائى « سَكْرَى » بغير ألف . الباقون « سُكارى » وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كَسْلى وكُسَالى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفلة عن الشىء بطروء[1] ما يشغَل عنه من همّ أو وجع أو غيره . قال ابن زيد : المعنى تترك ولدها للكرب الذى نزل بها .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قيل : المراد النضر بن الحارث، قال : إن الله عز وجل غيرُ قادر على إحياء من قد بَلِىَ وعاد ترابا . ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أى فى قوله ذلك . ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرّد . ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى من تولّى الشيطان . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) فى الأصول : « بطريان » .

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ — إلى قوله — مُّسَمًّى ﴾ فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى . وقوله : « إِن كُنتُمْ فِى ريب » متضمّنه التوقيف . وقرأ الحسن بن أبى الحسن « البَعَث » بفتح العين؛ وهى لغة فى «البَعْث» عند البصريين . وهى عند الكوفيين بتخفيف « بَعَث » . والمعنى : يأيها الناس إن كنتم فى شك من الإعادة . ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى خلقنا أباكم الذى هو أصل البشر؛ يعنى آدم عليه السلام ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ . ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو المنِيّ؛ سُمِّىَ نطفة لقلّته ، وهو القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه ؛ ومنه الحديث "حتى يسير الراكب بين النُّطفتين لا يخشى جَوْرا" . أراد بحر المشرق و بحر المغرب . والنَّطْف : القَطْر . نَطَف يَنْطِفُ وينطُف . وليلة نَطوفة دائمة القطر . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدّم الجامد . والعَلَق الدّم العَبِيط ؛ أى الطَّرِىّ . وقيل : الشديد الحمرة . ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهى لحمة قليلة قدرُ ما يمضغ؛ ومنه الحديث "ألَا وإنّ فى الجسد مُضْغة" . وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح ، فذلك عدّة المتوفَّى عنها زوجها ، أربعة أشهرٍ وعشر .

الثانية — روى يحيى بن زكرياء بن أبى زائدة حدّثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر أن النطفة إذا استقرت فى الرّحم أخذها مَلَك بكفه فقال: «يارب، ذكر أم أنثى، شقىّ أم سعيد، ما الأجل والأثر[1]، بأىّ أرض تموت ؟ فيقال له انطلق إلى أمّ

(١) الأثر : الأجل ؛ وسمى به لأنه يتبع العمر .

الكتاب فإنك تجد فيها قصة هــذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتهــا فى أم الكتاب ، فتخلق فتأ كل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قُبضت فدفنت فى المكان الذى قُدّر لهـا ؛ ثم قرأ عامر « يَأَيُّهَـا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » . وفى الصحيح عن أنس بن مالك — ورفع الحديث — قال : "إن الله قد وكّل بالرحم مَلَكا فيقول أى ربِّ نطفةٌ . أى ربّ عَلَقة . أى ربّ مُضْـغَة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال قال الملك أى ربّ ذكَر أو أنثى شقىّ أو سعيد . فما الرزق فمـا الأجل . فيكتب كذلك فى بطن أمه" . وفى الصحيح أيضا عن حُذيفــة بن أسِــيد الغِفارىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليـلة بعث الله إليها مَلَكا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمهـا وعظامها ثم يقول أى ربّ أذكر أم أنثى ..." وذكر الحديث . وفى الصحيح عن عبدالله بن مسعود قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو الصادق المصــدوق "إنّ أحدكم يُجمـع خلقه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقة مثلَ ذلك ثم يكون مُضْغة مثلَ ذلك ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقِىٌّ أو سعيد ..." الحديث . فهذا الحديث مفسِّر للأحاديث الأول ؛ فإن فيــه : "يُجمع خلق أحدكم فى بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة ثم يُبعث الملك فينفخ فيه الروح" فهــذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدّة المتوفّى [عنهـا زوجها] كما قال ابن عباس . وقوله "إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمّه" قد فسّره ابن مسعود ، سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمّه ؟ فقال : حدّثنـا خَيْثمة قال قال عبدالله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منهـا بشرا طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشـعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما فى الرّحم ، فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثــة — نسبة الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صــدر عنه فعل ما فى المضغة كان عنــد التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقه واختراعه ؛ ألا تراه سبحانه

قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ »(١) . وقال : « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلَالَةٍ من طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ»(٢) . وقال : « يأيها النـاس إن كنتم فى رَيْبٍ من البَعْث فإنا خلقناكم من تُرابٍ ثم من نطفة »(٣) . وقال تعالى: «هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» . ثم قال: «وصوّركم فأحسن صُوركم»(٤) . وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »(٥) . وقال : « خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ »(٦) . إلى غير ذلك من الآيات، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشىء من المخلوقات إلا ربّ العالمين . وهكذا القول فى قوله : " ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح " أى أنّ النفخ سببٌ خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول فى سائر الأسباب المعتادة؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره . فتأمّل هـذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعيين(٧) وغيرهم .

الرابعـة — لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما، وذلك تمـام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس؛ كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعوّل فيما يحتاج إليه من الأحكام فى الاستلحاق عند التنازع، وفى وجوب النفقات على حمل المطلقات؛ وذلك لتيقّنه بحركة الجنين فى الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة فى عِدّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول فى الخامس يحقق براءة الرَّحِم ببلوغ هذه المدّة إذا لم يظهر حمل .

الخامسـة — النطفة ليست بشىء يقينا، ولا يتعلّق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لو كانت فى صلب الرجل ؛ فإذا طرحتـه علقة فقـد تحققنا أن النطفة قد استقرّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقق به أنه ولد . وعلى هذا فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمـل ، تبرأ به الرّحم، وتنقضى به العدّة، ويثبت به لها حكم أم الولد. وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه. وقال الشافعىّ رضى الله عنه:

(١) آية ١١ سورة الأعراف . (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . (٣) آية ٢ سورة التغابن.
(٤) آية ٦٤ سورة غافر . (٥) آية ٤ سورة التين . (٦) آية ٢ سورة العلق .
(٧) فى الأصل : « الطبائع » .

لا اعتبار بإسقاط العَلَقة ، و إنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خَفِيَ التخطيط وكان لهما فقولان بالنقل والتخريج ، والمنصوص أنه تنقضي به العدّة ولا تكون أمّ ولد . قالوا : لأن العدّة تنقضي بالدّم الجاري، فبغيره أوْلى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال الفرّاء : «مخلقة» تامة الخَلْق، «وغيرِ مخلقة» السّقط . وقال ابن الأعرابيّ : « مخلّقة » قد بدأ خلقها ، « وغير مخلقة » لم تصوّر بعد . ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلّقة ؛ لأن الكلّ خلقُ الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق، وفيه معنى الكثرة، فما تتابع عليه الأطوار فقد خُلق خلقا بعد خلق، وإذا كان نطفة فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى : «ثم أنشأناه خَلْقا آخر» والله أعلم. وقد قيل : إن قوله « مخلّقةٍ وغيرِ مخلقةٍ » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط؛ أى منهم من يتم الربّ سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خَديجا ناقصا غير تمام . وقيل : المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت . ابن عباس : المخلقة ما كان حيًّا ، وغير المخلقة السقط . قال :

أفى غير المخلقة البكاء * فأين الحزم ويحك والحياء

السابعة — أجمع العلماء على أن الأَمَة تكون أمّ ولد بما تسقطه من ولدٍ تامّ الخلق . وعند مالك والأوزاعيّ وغيرهما بالمضغة كانت مخلقةً أو غير مخلقة . قال مالك : إذا علم أنها مضغة . وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن كان قد تبيّن له شيء من خلق بني آدم أصبع أو عين أو غير ذلك فهي له أمّ ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا آستهلّ صارخا يصلّى عليه ؛ فإن لم يستهِل صارخا لم يصلّ عليه عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يصلى عليه ؛ وقاله ابن المسيّب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه

كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سموهم وآغسلوهم وكفّنوهم وحنّطوهم ؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية « فإنا خلقناكم من تراب — إلى — وغير مخلقة » . قال آبن العربى : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبيّن خلقه فهو الذى يسمّى ، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعة أشهر . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آستهَلّ المولود ورِث " . الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود كان ذلك منه أو حركةٌ أو عطاس أو تنفُّس فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة . وإلى هذا ذهب سفيان الثورى والأوزاعى والشافعى . قال الخطابى : وأحسنه قول أصحاب الرأى . وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عَطَس ما لم يستهلّ . وروى عن محمد بن سيرين والشّعْبى والزهرى وقتادة .

الثامنة — قال مالك رضى الله عنه : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغُرّة (١) . وقال الشافعى : لا شىء فيه حتى يتبيّن من خلقه . قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهلّ صارخا ففيه الغُرّة . وسواء تحرّك أو عطس فيه الغرّة أبدا ، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الشافعى رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار : إذا عُلمت حياته بحركة أو بعطاس أو باستهلال أو بغير ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة — ذكر القاضى إسماعيل أن عدّة المرأة تنقضى بالسّقط الموضوع ، واحتج عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » (٢) . قال القاضى إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحملا . قال ابن العربى : ولا يرتبط به شىء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا .

قلت : ما ذكرناه من الآشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : " إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه " يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مُسقطة العلقة والمضغة يصدق على المرأة إذا

(١) الغرة عند الفقهاء : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . (٢) آية ٤ سورة الطلاق .

ألقتـه أنها كانت حاملا وضعت ما استقر فى رحمها، فيشملها قوله تعالى « وَأُولَاتُ الأَحمالِ أَجلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . ولأنها وضعت مبـدأ الولد عن نطفة متجسّدا كالمخطط ، وهـذا بيّن .

العـاشـــرة — روى ابن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنـا خالد بن مخلد حدّثنا يزيد عن عبـد الملك النّوفلى عن يزيد بن رُومان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " لسقط أقدّمه بين يدى أحبّ إلىّ من فارس أخلّفه [خلفى](١) " . وأخرجه الحاكم فى معرفة علوم الحـديث له عن سهيل بن أبى صالح عن أبيـه عن أبى هريرة فقال : " أحبّ إلى من ألف فارس أخلّفه ورائى " .

الحادية عشرة — ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يريد : كمال قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقكم . ﴿ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ ﴾ قرئ بنصب «نقر» و«نخرج»، رواه أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضّل عن عاصم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : «نقــر» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء ، وإنمـا خلقهم عز وجل ليدلّهم على الرشد والصلاح . وقيل : المعنى لنبيّن لهم أمر البعث؛ فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه الفرقة بالرفع «ونقرُّ»؛ المعنى : ونحن نقر . وهى قراءة الجمهور . وقرئ : «ويقر» و «يخرجكم» بالياء ، والرفع على هـذا سائغ . وقرأ ابن وثّاب « ما نِشاء » بكسر النون . والأجل المسمى يختلف بحسب جَنِين جنين؛ فثَمّ من يسقط وثَمّ من يكمل أمره ويخرج حَيًّا . وقال «ما نشاء» ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمـل ؛ أى يقر فى الأرحام ما نشاء من الحمـل ومن المضغة وهى جماد فكنّى عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا ؛ فهو اسم جنس . وأيضا فإن العرب قد تسمّى الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر :

يَلحيننى فى حبّهـا ويَلُمْنَنِى * إن العواذل ليس لى بأمير

---

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

ولم يقل أمراء . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل، فيقع على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » (١) . وقال الطبرى : وهو نصب على التمييز، كقوله تعالى : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » (٢) . وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . وولد كلّ وحشيّة أيضا طفل . ويقال : جارية طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل وجوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طفلٌ، وغلمان طفل . ويقال أيضا : طِفْلٌ وطِفْلة وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال . ولا يقال : طِفْلات . وأطفلت المرأة صارت ذات طفل . والمُطْفِلة : الظبية معها طفلها، وهى قريبة عهد بالنّتاج . وكذلك الناقة، [والجمع] مَطافِلُ ومطافيل . والطَّفْل (بالفتح فى الطاء) الناعم؛ يقال : جارية طَفْلة أى ناعمة، وبنان طَفْل . وقد طَفَّل الليل إذا أقبل ظلامه . والطَّفَل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب . والطَّفَل (أيضا) : مطر؛ قال :

* لِوَهْدٍ (٣) جاده طَفَلُ الثُّرَيَّا *

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ قيل : إن « ثم » زائدة كالواو فى قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » (٤)؛ لأن ثم من حروف النَّسَق كالواو . « أشُدَّكم » كمال عقولكم ونهاية قُواكم . وقد مضى فى « الأنعام » (٥) بيانه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسّه وأدونه، وهو الهَرَم والخَرَف حتى لا يعقل؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ . كما قال فى سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » (٦) . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : " اللّهمّ إنى أعوذ بك من البُخْل وأعوذ بك من الجُبْن وأعوذ بك أن أرَدّ إلى أرذل العمر وأعوذبك من فتنة الدنيا وعذاب القبر " . أخرجه النَّسائىّ عن سعد، وقال : وكان يعلمهنّ بَنِيه كما يعلّم المُكْتِبُ (٧) الغلمان . وقد مضى فى النحل (٨) هذا المعنى .

---

(١) آية ٣١ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الوهد والوهدة : المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة . (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٣٤
(٦) آية ٦٨ (٧) المكتب : المعلم . (٨) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ذكر دلالة أقوى على البعث فقال فى الأوّل : « فإنا خلقناكم مِن تراب » فخاطب جمعا . وقال فى الثـانى : « وَتَرَى الْأَرْضَ » فخاطب واحدا ، فانفصل اللفظ عن اللفــظ ، ولكن المعنى متصــل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث . ﴿ هَامِدَةً ﴾ يابســة لا تنبت شيئا ؛ قاله ابن جُريج . وقيــل : دارســة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُتيلةُ ما لجسمك شاحِباً * وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمّــدَا

الهَرَوِىّ : « هامدة » أى جافة ذات تراب . وقال شَمِر : يقال : هَمَد شجر الأرض إذا بَلِيَ وذهب . وهمــدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر . وفى الحديث : " حتى كاد يَهْمُد من الجوع " أى يهلك . يقال : هَمَد الثوب يَهْمُد إذا بَلِيَ . وهَمَدت النار تَهْمُد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى تحركت . والاهتزاز : شدّة الحركة ؛ يقال : هَزَزْت الشيء فاهتز ؛ أى حركته فتحرك . وهَزّ الحـادى الإبل هزيزا فاهتزت هى إذا تحركت فى سـيرها بحُدائه . واهتز الكوكب فى انقضاضه . وكوكب هازّ . فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فسماه اهتزازا مجازا . وقيــل : اهتز نباتها ، فحــذف المضاف ؛ قاله المــبرّد . واهتزازه شــدّة حركته ، كما قال الشاعر :

تَثَنَّى إذا قامت وتهــتزّ إن مشت * كما اهتز غصن البان فى ورق خُضْر

والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى ارتفعت وزادت . وقيــل : انتفخت ؛ والمعنى واحد ، وأصــله الزيادة . رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا أى زاد ؛ ومنــه الربا والرّبوة . وقــرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن اليــاس « وَرَبَأَتْ » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة ، وهو الذى يحفظ القوم على شيء مُشْرِف ؛ فهو رابئ وربيئة على المبالغة . قال آمرؤ القيس :

بَعَثْنَا رَبِيئًا قبل ذاك مُخَمَّلًا * كذئب الغَضَا يمشى الضَّرَاء ويتَّقِى[1]

﴿ وأنبتت ﴾ أى أخرجت . ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى لَون . ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أى حسن؛ عن قتادة . أى يُبهج من يراه . والبَهْجة الحُسْن؛ يقال : رجل ذو بَهجة . وقد بَهُج (بالضم) بَهاجة وبَهْجة فهو بهيج . وأبهجنى أعجبنى بحسنه . ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله : « اهتزت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات . والله أعلم .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وَفْق اقتداره واختياره فى قوله : « يأيها الناسُ إن كُنْتُم فِى رَيْبٍ مِن البعث — إلى قوله — بهيج » . قال بعد ذلك : « ذلك بِأن اللهَ هو الحَقُّ وأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وأنّ الساعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ » . فنبّه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخّر مصرّف . والحق الحقيقىّ : هو الموجود المطلق الغنىّ المطلق ؛ وأن وجود كلّ ذى وجود عن وجوب وجوده؛ ولهذا قال فى آخر السورة : « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ »[2] . والحق الموجود الثابت الذى لا يتغيّر ولا يزول ، وهو الله تعالى . وقيل : ذو الحق على عباده . وقيل : الحق بمعنًى فى أفعاله[3] . وقال الزجاج : « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ما وُصف لكم وبُيّن . ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى لأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون

(١) المخمل : الذى يخمل نفسه ، أى يسترها ويخفيها لئلا يشعر به الصيد . والغضى : الشجر، والعرب تقول : أخبث الذئاب ذئب الغضى ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا اذا أراد أن يغير . والضراء (بالفتح والمد) : الشجر الملتف فى الوادى يستر من دخل فيه . وفلان يمشى الضراء : اذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر .

(٢) آية ٦٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل « وقيل الحق أى بمعنى كذا فى أفعاله » .

« ذلك » نصبا ؛ أى فعل الله ذلك بأنه هو الحق . ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أى بأنه ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى و بأنه قادر على ما أراد . ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ عطف على قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » من حيث اللفظ ، وليس عطفا فى المعنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ماذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فعل يتضمنه ؛ أى وليعلموا أن الساعة آتية ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى لا شك . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نير بيّن الحجة . نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام ؛ قاله ابن عباس . والمُعْظم على أنها نزلت فى النضر بن الحارث كالآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، والتكرير للمبالغة فى الذم ؛ كما تقول للرجل تذمّه وتوبّخه : أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا ! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفه فى كل آية بزيادة ؛ فكأنه قال : إن النضر بن الحارث يجادل فى الله بغير علم و يتبع كلّ شيطان مريد ، والنضر بن الحارث يجادل فى الله من غير علم ومن غير هُدًى وكتاب منير ؛ ليُضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتمنى وزيد يضربنى ؛ وهو تكرار مفيد ؛ قاله القشيرى . وقد قيل : نزلت فيه بضع عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، و بالثانية إنكاره النبوّة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقد قيل : كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جدال فى الله تعالى . « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : «ومِنَ الناس» . ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ نصب على الحال . و يتأوّل على معنيين : أحدهما — روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث ،

لَوَى عنقه مَرَحًا وتعظُّماً . والمعنى الآخر — وهو قول الفراء — أن التقدير: ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ثانى عِطْفه ، أى مُعْرِضا عن الذّكر؛ ذكره النحاس . وقال مجاهد وقتادة : لاوِيًا عنقه كفرا . ابن عباس : مُعْرِضا عما يُدْعَى إليه كفرا . والمعنى واحد . وروى الأوزاعىّ عن مَخْلَد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس فى قوله عز وجل: « ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيل الله » قال : هو صاحب البدعة . المبرّد : العِطْف ما انثنى من العنق . وقال المفضّل : والعطف الجانب؛ ومنه قولهم : فلان ينظر فى أعطافه ، أى فى جوانبه . وعِطْفَا الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه . وكذلك عِطْفَا كلّ شىء جانباه . ويقال : ثَنَى فلان عنى عِطفه إذا أعرض عنك . فالمعنى : أى هو معرض عن الحق فى جِداله ومُولٍّ عن النظر فى كلامه؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»(١) . وقوله تعالى : « لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ »(٢) . وقوله : «أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ»(٣) . وقوله : «ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى»(٤) . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى عن طاعة الله تعالى . وقرئ « لِيَضِل » بفتح الياء . واللام لام العاقبة ؛ أى يجادل فيضل؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »(٥) أى فكان لهم كذلك . ونظيره «إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا»(٦) . ﴿ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ أى هوان وذلّ بما يجرى له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة؛ كما قال : «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ»(٧) الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزى ها هنا القتل ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صَبْراً؛ كما تقدّم فى آخر الأنفال . ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى نار جهنم . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أى يقال له فى الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يداك من المعاصى والكفر . وعبّر باليد عن الجملة؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة . و «ذلك» بمعنى هذا، كما تقدّم فى أوّل البقرة(٨) .

(١) آية ٧ سورة لقمان . (٢) آية ٥ سورة المنافقون . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .
(٤) آية ٣٣ سورة القيامة . (٥) آية ٨ سورة القصص . (٦) آية ٥٤ سورة النحل .
(٧) آية ١٠ سورة القلم . (٨) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١)

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء، والتمام «ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ» على قراءة الجمهور «خَسِر» . وهذه الآية خبر عن المنافقين . قال ابن عباس : يريد شيبة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما أوحى إليه ٱرتدّ شيبة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخُدْرِىّ : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله؛ فتشاءم بالإسلام فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : أَقِلْنِى ! فقال : "إن الإسلام لا يُقال" فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيرا! ذهب بصرى ومالى وولدى! فقال : "يا يهودىّ إن الإسلام يَسْبِك الرجال كما تَسْبِك النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب"؛ فأنزل الله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ» . وروى إسرائيل عن أبى حُصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال : كان الرجل يَقْدَم المدينة فإن ولدت ٱمرأته غلاما ونُتِجت خيله قال هذا دين صالح؛ فإن لم تلد ٱمرأته ولم تُنْتَج خيله قال هذا دِين سَوْء . وقال المفسرون : نزلت فى أعراب كانوا يَقْدَمون على النبىّ صلى الله عليه وسلم فيُسلِمون؛ فإن نالوا رخاء أقاموا ، وإن نالتهم شدّة ارتدّوا . وقيل نزلت فى النضر بن الحارث . وقال ابن زيد وغيره : نزلت فى المنافقين . ومعنى ﴿ على حَرْفٍ ﴾ على شكّ ؛ قاله مجاهد وغيره . وحقيقته أنه على ضعف فى عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرفُ كل شىء طَرَفه وشَفيره وحدّه؛ ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدّد . وقيل : « على حرف » أى على وجه واحد ، وهو أن يعبده على السرّاء دون الضرّاء؛ ولو عبدوا الله على الشكر فى السراء والصبر على الضراء لمـا عبدوا الله على حرف . وقيل : « على حرف » على شرط ؛ وذلك أن شيبة بن ربيعة قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : أُدع لى ربّك أن يرزقنى مالا و إبلا

وخيلا وولدا حتى أومن بك وأعدل إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنّى؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو أعلم به فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « ومن الناس مَن يعبد الله على حَرْف » يريد شرط . وقال الحسن : هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذى يعبد الله على حَرْف ليس داخلا بكلّيته؛ وبيّن هذا بقوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحةُ جسم ورَخاء معيشة رَضيَ وأقام على دينه . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أى خلاف ذلك مما يختبر به ﴿ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى ٱرتدّ فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرى وٱبن أبى إسحاق — وروى عن يعقوب — «خاسرَ الدنيا» بألف، نصبا على الحال، وعليه فلا يوقف على « وجهه » . وخسرانه الدنيا بأن لا حظّ له فى غنيمة ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ قال الفرّاء : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه يدعو مَن ضرّه أدنى من نفعه؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعا أصلا، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعا للكلام ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مبين» (١) . وقيل : يعبدونهم توهّم أنهم يشفعون لهم غدًا كما؛ قال الله تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة سبأ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » [1] . وقال تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » [2] . وقال الفرّاء والكسائي والزجاج : معنى الكلام القسم والتأخير ؛ أي يدعو واللهِ لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدّمة فى غير موضعها . و «مَن» فى موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القَسَم . و «ضَرُّه» مبتدأ . و « أقْرَبُ» خبره . وضعّف النحاس تأخير اللام وقال : وليس لِلّام من التصرّف ما يوجب أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤخّر ؛ قال الشاعر :

خالِى لأنت ومَن جَرِيرٌ خالُه　＊　ينـلِ العَلَاء ويُكرِمِ الأخوالا

أى لخالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا علىّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلهًا . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطا على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصب إله ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل فى الآية عندى ، والله أعلم ، قال : «يدعو» بمعنى يقول . و « من » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهُه .

قلت : وذكر هذا القول القشيرىّ رحمه الله عن الزجاج والمهدوىّ عن الأخفش ، وكمّل إعرابه فقال : «يدعو » بمعنى يقول ، و «من» مبتدأ ، و «ضره» مبتدأ ثانٍ ، و « أقرب » خبره ، والجملة صلة « مَن » ، وخبر « مَن » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه ؛ ومثله قول عنترة :

يدعون عَنْتَرُ والرِّماحُ كأنها　＊　أشْطانُ بئر فى لَبَانِ الأدْهمِ [3]

قال القشيرى : والكافر الذى يقول الصنم معبودى لا يقول ضَرُّه أقربُ من نفعه ؛ ولكن المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه فى قول المسلمين معبودى و إلهى . وهو كقوله

---

(١) آية ١٨ سورة يونس .　(٢) آية ٣ سورة الزمر .　(٣) الأشطان : جمع شطن ، وهو حبل البئر . واللبان (بفتح اللام) : الصدر . والأدهم : الفرس . يريد أن الرماح فى صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء ؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الجرَفة اضطربت الدلو فيها فيجعل لها حبلان لئلا تضطرب . (عن شرح المعلقات).

تعالى : « يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ »[1] ؛ أى يأيها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحرا . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمرة ، و يوقف على هذا على «يدعو» . وقوله : «لَمَنْ ضَرُّه أقربُ مِن نفعِه» كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ، وخبره «لَبِئْسَ الْمَوْلَى» ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، و يكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله «لَمَنْ ضَرُّه» كلام مبتدأ ، و «لَبِئْسَ الْمَوْلَى» خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى هو الضلال البعيد ؛ قدّم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو علىّ . وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليك إمارةٌ * نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلين طَلِيقُ[2]

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والفرّاء : يجوز أن يكون « يدعو » مكرّرة على ما قبلها ، على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تُعدّيه إذ قد عدّيته أوّلا ؛ أى يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاء بالأولى . قال الفرّاء : ويجوز « لِمَنْ ضَرُّه » بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى مَن ضره أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقال الفراء أيضا والقفّال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أى يعبده . وكذلك هو فى قراءة عبد الله بن مسعود . ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أى فى التناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أى المعاشر والصاحب والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

---

(١) آية ٤٩ سورة الزخرف . (٢) هذا البيت أول أبيات ليزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى . وعدس : زجر للبغل ليسرع . وعباد هو ابن زياد أخو عبيد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما فى كربلاء . هجا ابن مفرّغ هذا عبادا لحقد عليه وبجفاء ؛ فأخذه أخوه عبيد الله وحبسه وعذبه ، فلما طال حبسه دخل أهل اليمن الى معاوية فشفعوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمته فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الثالث بعد الثلثمائة والثامن والعشرين بعد الأربعمائة) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معالل بفعل العبيد .

قوله تعالى : مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه . ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له . ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم . والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هـذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن عباس : إن الكناية في « ينصره الله » ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي من كان يظن ممن يعادي محمدا صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حَرْف أنا لا ننصر محمدا فليفعل كذا وكذا . وعن ابن عباس أيضا أن الهاء تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عَوْن الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرنى نصره الله ؛ أى من أعطانى أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة ؛ أى ممطورة . قال الفقعسى[1] :

وانك لا تعطى امرأ فوق حقه * ولا تملك الشق الذى الغيث ناصره

وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه . وهو قول أبى عبيدة . وقيل : إن الهاء تعود على الدّين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أى بحبل . والسبب مايتوصل به إلى الشىء . ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ إلى سقف البيت . ابن زيد : هى السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام . قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية ؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ، لأنها يوقف عليها وتنفرد . وفى قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ » . قيل : « ما » بمعنى الذى ؛ أى هل يذهبن كيده الذى يغيظه ، فحذف الهاء ليكون أخف . وقيل : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى هل يذهبن كيدُه غيظَه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَأَنَّ اللهَ ﴾ أى وكذلك أن الله ﴿ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ ﴾ ، علّق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادى لا هادى سواه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ هم قوم يعبدون النجوم .

(١) فى الأصول الفقيمى . والتصويب عن تفسير الطبرى .

﴿ والنَّصارَى ﴾ هم المنتسبون إلى ملّة عيسى . ﴿ والمَجُوسَ ﴾ هم عَبَدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة . قال قتادة : الأديان خمسة، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل: المجوس في الأصل النجوس لتدّينهم باستعمال النجاسات؛ والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين، والأيْم والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفًى[1] . ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ هم العرب عبدة الأوثان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يقضي ويحكم؛ فللكافرين النار، وللؤمنين الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يعرّفهم المحقَّ من المبطل بمعرفة ضرورية، واليوم يتميز المحق عن المبطل بالنظر والاستدلال . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله « إن الله يفصل بينهم » خبر « إن » في قوله « إن الذين آمنوا »؛ كما تقول : إن زيدا إن الخير عنده . وقال الفراء : ولا يجوز في الكلام إن زيدا إن أخاه منطلق؛ وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة؛ أي من آمن ومن تهوّد أو تنصّر أو صبأ يفصل بينهم ، وحسابُهم على الله عز وجل . وردّ أبو إسحاق على الفراء هذا القول، واستقبح قوله : لا يجوز إن زيدا إن أخاه منطلق؛ قال : لأنه لافرق بين زيد وبين الذين، و«إن» تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيدا هو منطلق، ثم تأتي بإن فتقول : إن زيدا إنه منطلق . وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله سَرْبَـــله * سربالَ عزّ به تُرْجَى الخواتيم[2]

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) ويروى : «تزجى» بالزاي والجيم؛ والازجاء السوق . والخواتيم جمع الخاتام لغة في الخاتم . يريد أن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتمهم خوفا منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (عن خزانة الأدب) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب؛ أى ألم تر بقلبك وعقلك . وتقدّم معنى السجود فى «البقرة» (١) ، وسجود الجماد فى «النحل» (٢) . ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على «مَن» . وكذا ﴿ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ وهذا مشكل من الإعراب ، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣) » ؟ فزعم الكسائى والفراء أنه لو نصب لكان حسنا ، ولكن آختير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود؛ فيكون ابتداء وخبرا ، وتم الكلام عند قوله «وكثير من الناس» . ويجوز أن يكون معطوفا ، على أن يكون السجود التذلّل والانقيادَ لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شيء . ويجوز أن ينتصب على تقدير : وأهان كثيرا حق عليه العذاب ، ونحوه . وقيل : تم الكلام عند قوله « والدوابُّ » ثم آبتدأ فقال «وكثير من الناس» فى الجنة «وكثير حق عليه العذاب» . وكذا روى عن ابن عباس أنه قال : المعنى وكثير من الناس فى الجنة وكثير حق عليه العذاب ؛ ذكره ابن الأنبارى . وقال أبو العالية : ما فى السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه . قال القُشَيرى : وورد هذا فى خبر مسند فى حق الشمس؛ فهذا سجود حقيقى ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل فى هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذى أشار إليه خرجه مسلم ، وسيأتى فى سورة « يس » عند قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا (٤) » . وقد تقدم فى البقرة معنى السجود لغة ومعنًى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه . وقال ابن عباس : إن من تهاون بعبادة الله صار إلى النار . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه . وحكى الأخفش والكسائى والفراء « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ » أى إكرام .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٢
(٣) آية ٣١ سورة الإنسان . (٤) آية ٣٨ .

قوله تعـالى : هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ﴾ خرّج مسلم عن قيس بن عُبَاد قال : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً إنّ «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» إنها نزلت فى الذين بَرَزُوا يوم بدر : حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث رضى الله عنهم وعتبةُ وشيبةُ آبنا ربيعة والوليدُ بن عتبة . وبهذا الحديث ختم مسلم رحمـه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هـذه الآيات الثلاث على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين؛ وسمّـاهم، كما ذكر أبو ذر . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إنى لأوّل من يجثو للخصومة بين يدى الله يوم القيـامة ؛ يريد قصته فى مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخارى . وإلى هـذا القول ذهب هلال بن يَساف وعطاء بن يَسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة والنار؛ اختصمتا فقالت النار : خلقنى لعقوبته . وقالت الجنة خلقنى لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "احتجت الجنـة والنار فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابى أعذب بك من أشاء وقال لهـذه أنت رحمتى أرحم بك من أشـاء ولكل واحدة منكما ملؤها" . خرّجه البخارى ومسلم والترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عبـاس أيضا : هم أهـل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم، وأقدم منكم كتابا، ونبيُّنا قبل نبيّكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبمـا أنزل إليـه من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه وكفرتم به حسدا ؛ فكانت هـذه خصومتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ، والقول الأوّل أصح رواه البخارى عن حَجّاج بن مِنْهال عن هُشيم عن أبى هاشم عن أبى مِجْلَز عن

قيس بن عُباد عن أبى ذر ، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة عن هُشيم ، ورواه سليمان التيمىّ عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد عن علىّ قال : فينا نزلت هذه الآية وفى مبارزتنا يوم بدر « هذان خصمان اختصموا فى ربهم — إلى قوله — عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذانّ خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأول الفرّاء الخصْمَين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى ، اختصموا فى دين ربهم؛ قال : فقال «اختصموا» لأنهم جمع، قال : ولو قال «اختصما» لجاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير؛ لأن الحديث فى هذه الآية مشهور، رواه سفيان الثَّوْرى وغيره عن أبى هاشم عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد قال : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَمًا إن هذه الآية نزلت فى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة آبنى ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أى ملة كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبى رَبَاح وعاصم بن أبى النَّجُود والكلبى . وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت فى الخصومة فى البعث والجزاء؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم .

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى من الفِرق الذين تقدم ذكرهم . ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أى خِيطت وسُوِّيت ؛ وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب . وقوله ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أى تقطع لهم فى الآخرة ثياب من نار ؛ وذُكر بلفظ الماضى لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقَّق ؛ قال الله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس »[1] أى يقول الله تعالى . ويحتمل أن يقال قد أعدّت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهى السرابيل المذكورة فى « قِطْرٍآنٍ »[2] وليس فى الآنية شىء إذا حَمِى

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أى فى قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران » آية ٥٠ سورة إبراهيم . فقد قرئ « من قطرآن » والقطر : النحاس والصفر المذاب . والآنى الذى انتهى إلى حرّه . راجع جـ ٩ ص ٣٨٥

يكون أشدّ حرًّا منه . وقيـل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هـذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا »[(١)] . ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ أى المـاء الحار المُغْلَى بنـار جهنم . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن الحميم لَيُصَبّ على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه فَيَسْلِت ما فى جوفه حتى يَمْرُق من قدميـه وهو الصَّهْر ثم يعاد كما كان ". قال: حديث حسن صحيح غريب . ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب . ﴿ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ والصَّهر إذابة الشحم . والصُّهارة ما ذاب منـه؛ يقال : صَهَرْتُ الشيء فانصهر؛ أى أذبته فذاب، فهو صهير . قال ابن أحمر يصف فرخ قَطاة :

تَرْوِى لَقًى أُلْقِىَ فى صَفْصَفٍ * تَصْهره الشمسُ فمـا يَنْصَهِرْ[(٢)]

أى تذيبه الشمس فيصبر على ذلك . ﴿ وَالْجُلُودُ ﴾ أى وتُحرق الجلود، أو تُشوى الجلود؛ فإن الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمّ فى كل شيء ما يليق به؛ فهو كما تقول : أتيته فأطعمنى ثريدا، إى والله ولبنا قارصًا[(٣)]؛ أى وسقانى لبنا . وقال الشاعر :

* عَلَفتها تبنـا وماء باردا *

﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ أى يُضربون بها ويدفعون؛ الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضا كالمِحْجَن، يضرب به على رأس الفيل . وقد قَمَعته إذا ضربته بهـا . وقمعته وأقمعته بمعنًى؛ أى قهرته وأذللتـه فانقمع . قال ابن السِّكيت : أقمعت الرجلَ عنّى إقمـاعا إذا طلع عليـك فرددته عنك . وقيل : المَقامع المطارق، وهى المرازب أيضا . وفى الحديث " بيد كل مَلَك من خَزَنة جهنم مِرْزَبَة لها شُعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألفا " . وقيل : المقامع سياط من نار، وسُمّيت بذلك لأنها تقمع المضروب؛ أى تذلّله .

---

(١) آية ١٠ سورة النبأ .
(٢) تروى : تسوق اليه المـاء؛ أى تصيره كالراوية . واللقى (بالفتح) : الشيء الملقى لهوانه . والصفصف : المستوى من الأرض .
(٣) القارص : الحامض من ألبان الإبل خاصة . وقيل : القارص اللبن الذى يحذى اللسان؛ ولم يخصص .

قوله تعـالى : كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ بالضرب بالمقامع . وقال أبو ظبيان : ذُكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتُلْقِي من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتدّ غمهم فيها فرّوا، فمن خَلَص منهم إلى شَفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع، ويقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى المُحْرِق؛ مثلُ الأليم والوجيع . وقيل : الحريق الاسم من الاحتراق . تحرّق الشيء بالنار واحترق ، والاسم الحُرْقة والحريق . والذّوق : مماسّةٌ يحصل معها إدراك الطعم؛ وهو هنا توسّع ، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ لمّا ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ « مِن » صِلة[1] . والأساور جمع أَسْورة ، وأسورة واحدها سِوار؛ وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها وإسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفى فاطر[2]:

(١) هـذا على مذهب الأخفش والكوفيين الذين يجيزون زيادة « من » فى الإيجاب . أما الذين لا يجيزون زيادتها فى الإيجاب فقال بعضهم إنها للتبعيض ، وبعضهم إنها للابتداء، وبعضهم إنها بيانية . (راجع البحر المحيط وروح المعانى فى الكلام عن هذه الآية) .

(٢) آية ٣٣

« مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا » وقال فى سورة الإنسان[1] : « وَحُلُّوا أَسَـاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ » . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة سمعت خليلى صلى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " . وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر، والقـرآن يرده . ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشـيبة وعاصم هنـا وفى سورة الملائكة « لؤلؤًا » بالنصب، على معنى ويُحَلَّون لؤلؤا؛ واستدلوا بأنها مكتوبة فى جميع المصاحف هنا بألف . وكذلك قرأ يعقوب والجَحْدَرِىّ وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخفض فى « فاطر» اتباعا للمصحف، ولأنها كتبت ها هنا بألف وهناك بغير ألف[2] . الباقون بالخفض فى الموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز « اللؤلؤ » فى كل القـرآن ؛ وهو ما يستخرج من البحـر من جوف الصَّدَف . قال القُشيرِىّ : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ؛ ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مُصْمَت[3] .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصّه . وقال ابن الأنبارى : من قرأ «ولؤلؤٍ» بالخفض وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السِّجستانِىّ : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافى « من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنبارى : وليس كما قال ، لأنا إذا خفضنا «اللؤلؤ» نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ؛ وكأنا قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا، فهو فى النصب بمنزلته فى الخفض، فلا معنى لقطعه من الأوّل.

قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أى وجميع مايلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وستورهم حرير، وهو أعلى ممـا فى الدنيا بكثير . وروى النَّسائىّ عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من لبِس الحرير فى الدنيا لم يلبَسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربه فى الآخرة ومن شرب فى آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها فى الآخرة — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لباسُ أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة " . فإن قيل : قد سوّى النبىّ صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يُحَرِّمُها فى الآخرة؛ فهل يحرمها

(١) آية ٢١ (٢) الذى فى المصحف طبعة الحكومة المصرية أنها بالألف فى الموضعين .
(٣) المصمت : الذى لا يخالطه غيره .

اذا دخل الجنــة ؟ قلنا : نعم ! إذا لم يتب منها حُرِمها فى الآخرة وإن دخل الجنة ؛ لاستعجاله ما حرم الله عليه فى الدنيا . لا يقال : إنما يُحْرَم ذلك فى الوقت الذى يعذَّب فى النار أو بطول مقامه فى الموقف ، فأما اذا دخل الجنــة فلا ؛ لأن حرمان شيء من لذّات الجنــة لمن كان فى الجنــة نوع عقوبةٍ ومؤاخذةٍ ، والجنــة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذةَ فيهــا بوجه . فإنا نقول : ما ذكرتموه محتمل ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردّه من ظاهر الحديث الذى ذكرناه . وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمها فى الآخرة" . والأصــل التمسك بالظاهر حتى يرد نصّ يدفعه ؛ بل قد ورد نصّ على صحــة ما ذكرناه ، وهو ما رواه أبو داود الطيالسيّ فى مسنده : حدّثنا هشام عن قتادة عن داود السرّاج عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "من لبس الحرير فى الدنيــا لم يلبسه فى الآخرة و إن دخل الجنة لبسه أهــل الجنة ولم يلبسه هو" . وهــذا نص صريح و إسناده صحيح . فإن كان "و إن دخل الجنــة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الغاية فى البيان ، و إن كان من كلام الراوى على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعــد بالحال ، ومثــله لا يقال بالرأى ، والله أعلم . وكذلك "من شرب الخمر ولم يتب" و"من استعمل آنيــة الذهب والفضة" وكما لا يشتهى منزلة من هو أرفع منــه ، وليس ذلك بعقوبة ، كذلك لا يشتهى خمر الجنــة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة . وقد ذكرنا هذا كله فى كتاب التذكرة مستوفى ، والحمد لله ، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمــارَها يتفتق عن ثياب الجنة ، وقد ذكرناه فى سورة الكهف[1] .

قوله تعــالى : وَهُــدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَــوْلِ وَهُــدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيــدِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أُرشدوا إلى ذلك . قال ابن عباس : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . وقيل : القرآن ، ثم قيل : هذا فى الدنيا ، هُدُوا إلى الشهادة ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧

وقراءة القـرآن . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيـدِ ﴾ أى إلى صراط الله . وصراط الله : دينـه وهو الإسلام . وقيل : هُدُوا فى الآخرة إلى الطيّب من القول، وهو الحمد لله؛ لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذى هدانا لهذا، الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن؛ فليس فى الجنة لَغْوٌ ولا كذب فـا يقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُوا فى الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس فى الجنـة شىء من مخالفة أمر الله . وقيـل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البشارات الحسـنة . ﴿ وَهُدُوا إلى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أى إلى طريق الجنة .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُـدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشركى العرب حين صَدُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة،وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدّ قبل ذلك الجمع؛ إلا أن يريد صدّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك فى صدر المبعث . والصد : المنع ؛ أى وهم يصدّون . وبهذا حسن عطف المستقبل على المـاضى . وقيـل : الواو زائدة «ويصدون» خبر «إنّ» . وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإنما الخبر محذوف مقدّر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء «ويصدون» مستقبلا إذ هو فعـل يُديمُونه؛ كما جاء قوله تعالى : «الذين آمنوا وَتَطْمَئِنّ قُلوبُهم بذكر الله»[1]؛فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصدّ . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لجاز . قال النحاس : وفى كتابى عن أبى إسحاق قال وجائز أن يكون — وهو الوجه — الخبر « نُذِقْه من عذاب أليم » . قال أبو جعفر : وهذا غلط، ولست أعرف ما الوجه فيه؛ لأنه جاء بخبر « إنّ » جزما، وأيضا

(١) آية ٢٨ سورة الرعد .

فإنه جواب الشرط، ولو كان خبر « إن » لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذى فى الشرط مستقبل فلا بُدّ له من جواب .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره . وقيـــل : الحرم كله؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه عنه عامَ الحديبية ، فنزل خارجا عنه؛ قال الله تعالى : « وَصَدُّوكُم عن المسجِدِ الحرام »[(١)] وقال : « سُبْحَانَ الذى أسْرَى بعبده لَيْلًا من المسجد الحرام » . وهذا صحيح، لكنه قصد هنا بالذكر المهمّ المقصود من ذلك .

الثـالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أى للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعـالى : « إنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ »[(٢)] . ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيـهِ وَالْبَادِ ﴾ العاكف : المقيم الملازم . والبادى : أهل البادية ومن يَقْدَم عليهم . يقول : سواء فى تعظيم حرمته وقضاء النّسك فيه الحاضرُ والذى يأتيه من البلاد؛ فليس أهـل مكة أحقّ من النازح إليه . وقيـل : إن المساواة إنمـا هى فى دُوره ومنازله ، ليس المقيم فيهـا أولى من الطارئ عليها . وهذا على أن المسجد الحرام الحَرَم كله؛ وهذا قول مجاهد ومالك، رواه عنه ابن القاسم . ورُوِى عن عمر وابن عباس وجماعة إلى أن القادم له النزول حيث وُجِد ، وعلى رب المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى . وقال ذلك سفيان الثورىّ وغيره. وكذلك كان الأمر فى الصدر الأوّل، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق بابا فى وجه حاج بيت الله؟ فقال : إنمـا أردت حفظ متاعهم من السرقة ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه أيضـا أنه كان يأمر فى الموسم بقلع أبواب دور مكة، حتى يدخلها الذى يقـدم فينزل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب فى الدور . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد؛ وهذا هو العمل اليوم . وقال بهذا جمهور من الأمة .

---

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) آية ٩٦ سورة آل عمران .

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين : أحدهما أن دور مكة هل هى ملك لأربابها أم للناس .
والخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان عَنْوَة فتكون مغنومة، لكن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقسمها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم؛ كما فعل عمر رضى الله عنه بأرض السَّواد وعفا لهم عن الخراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحسانا إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعيّ . أو كان فتحها صلحا — وإليه ذهب الشافعيّ — فتبقى ديارهم بأيديهم ، وفى أملاكهم يتصرفون كيف شاءوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بن أمية بأربعة آلاف وجعلها سجنا ، وهو أوّل من حبس فى السجن فى الإسلام، على ما تقدّم بيانه فى آية المحاربين من سورة «المائدة»[1] . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حَبس فى تُهمة . وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغىْ لبيت عذابٍ أن يكون فى بيت رحمة .

قلت : الصحيح ما قاله مالك، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عَنوة .
قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شىء من البلاد . وروى الدّارَقُطْنىّ عن علقمة بن نَضْلة قال : توفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما وما تُدْعَى رِباع مكة إلا السوائب؛ من احتاج سَكَن ومن استغنى أسكن . وزاد فى رواية : وعثمان . وروى أيضا عن علقمة بن نَضْلة الكنانىّ قال : كانت تدعَى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما السوائب، لاتباع؛ من احتاج سَكَن ومن آستغنى أسكن .
وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها — وقال — من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل نارا" .
قال الدارقطنى : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعا ووَهِم فيه، ووهم أيضا فى قوله عبيد الله بن أبى يزيد[2] وإنما هو ابن أبى زياد القداح ، والصحيح أنه موقوف، وأسند الدار قطنىّ أيضا عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مكة مُناخ لا تُباع رِباعها ولا تؤاجر

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) أحد رجال سند الحديث .

بيوتها". وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله، ألا أبنى لك بمنًى بيتا أو بناء يُظلك من الشمس؟ فقال : "لا، إنما هو مُناخ من سبق إليه" . وتمسك الشافعى رضى الله عنه بقوله تعالى : «الذين أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم» فأضافها إليهم . وقال عليه السلام يوم الفتح : "من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن" .

الرابعـــة — قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكف» خبره. وقيل : الخبر « سواء » وهو مقـدّم؛ أى العاكف فيه والبادى سواء؛ وهو قول أبى علىّ، والمعنى : الذى جعلناه للناس قِبلة أو متعبَّدًا العاكفُ فيه والبادِى ســواء . وقرأ حفص عن عاصم «سواءً» بالنصب ، وهى قراءة الأعمش . وذلك يحتمل أيضا وجهين : أحدهما — أن يكون مفعولا ثانيا لجعل، ويرتفع « العاكف » به لأنه مصدر، فأعمِل عَمَل ٱسم الفاعل لأنه فى معنى مستوٍ . والوجه الثانى — أن يكون حالا من الضمير فى جعلناه . وقرأت فرقة «سواء» بالنصب « العاكِفِ » بالخفض، و « البادى » عطفا على الناس؛ التقدير : الذى جعلناه للناس العاكِفِ والبادى . وقراءة ابن كَثير فى الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء . وقرأ نافع بغير ياء فى الوصل والوقف . وأجمع الناس على الاستواء فى نفس المسجد الحرام، واختلفوا فى مكة؛ وقد ذكرناه .

الخامســـة — ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرط، وجوابه «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» . والإلحاد فى اللغة : الميل؛ إلا أن الله تعالى بيّن أن الميل بالظلم هو المراد . واختلف فى الظلم؛ فـروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس « ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم » قال : الشرك . وقال عطاء : الشرك والقتل . وقيل : معناه صَيْد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرِم . وقال ابن عمر : كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان : لا والله ! و بلى والله ! وكلّا والله ! ولذلك كان له فسطاطان، أحدهمـا فى الحِل والآخر فى الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحَرَم، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم كلّا والله و بلى والله، حين عظّم الله الذنب فيه . وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما

فى الحِل والآخر فى الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهـله عاتبهم فى الحِلّ ، وإذا أراد أن يصلّى صلّى فى الحـرم ، فقيل له فى ذلك فقال : إن كنّا لنتحدّث أن من الإلحاد فى الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله ، والمعاصى تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانيــة بإسقاط حُرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحُـرُم سواء . وقد تقدّم . وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أمية أن رســـول الله صلى الله عليــه وســـلم قال : "احتكار الطعام فى الحَرم إلحاد فيه" . وهو قول عمر بن الخطاب . والعموم يأتى على هذا كله .

السادســـة — ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقَب على ما ينوِيه من المعــاصى بمكة وإن لم يعمله . وقد رُوِى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو همّ رجل بقتل رجل بهذا البيت وهو (بعَدَن أَبْيَن)[1] لعـــذّبه الله .

قلت : هذا صحيح ، وقد جاء هــذا المعنى فى سورة «نٓ والقلمِ» مبيَّناً ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى .

السابعــــة — الباء فى « بِإِلحادٍ » زائدة كزيادتها فى قوله تعالى : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ »[2] ؛ وعليه حملوا قول الشاعر :

نحن بنو جَعْـدة أصحاب الفَلَج[3] * نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعشى :

* ضمنت برزق عيالنا أرماحُنا *

أى رزق . وقال آخر[4] :

ألم يأتيك والأنبــاءُ تَنْمِى * بما لاقت لَبُون بنى زياد

(١) عدن : مدينة مشهورة واقعة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف الى « أبين » وهو مخلاف عدن .

(٢) آية ٢٠ سورة المؤمنون .

(٣) الفلج (بتحريك ثانيه) : موضع لبنى جعدة بن قيس بنجد ، وهو فى أعلى بلاد قيس (راجع معجم ما استعجم وكتاب خزانة الأدب فى الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة) .

(٤) القائل هو قيس بن زهـــير العبسى ، شاعر جاهلى . وهو من قصيدة دالية قالها فيا كان شجر بينه وبين الربيع ابن زياد العبسى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد السادس والثلاثين بعد الستمائة) .

أى ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير . وقال الفراء: سمعت أعرابيا وسألته عن شيء فقال: أرجو بذاك، أى أرجو ذاك . وقال الشاعر:

بوادٍ يَمانٍ يُنبت الشثَّ صدرُه * وأسفله بالمَرْخ والشَّبَهانِ[1]

أى المرخ. وهو قول الأخفش، والمعنى عنده: ومن يرد فيه إلحادا بظلم . وقال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف . ويجوز أن يكون التقدير: ومن يرد الناس فيه بإلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصى من الكفر إلى الصغائر؛ فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلا فى مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرهم، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أى واذكر إذ بوّأنا لإبراهيم؛ يقال: بوّأته منزلا وبوّأت له . كما يقال: مكّنتك ومكّنت لك؛ فاللام فى قوله: «لإبراهيمَ» صلة للتأكيد؛ كقوله: «رَدِفَ لكم»[2]، وهذا قول الفراء . وقيل: «بوّأنا لإبراهيم مكان البيت» أى أرَيناه أصله ليَبْنِيَه، وكان قد دَرَس بالطوفان وغيره، فلما جاءت مدّة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرا، فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام، فرتّب قواعده عليه؛ حسبما تقدم بيانه فى «البقرة»[3] . وقيل: «بوّأنا» نازلة منزلة فعل يتعدّى باللام؛ كنحو جعلنا، أى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مُبَوَّأً . وقال الشاعر:

كم من أخ لى ماجد * بوّأته بيدىّ لَحْدَا[4]

---

(١) الشث: شجر طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به . والمرخ: شجر كثير النار . والشبهان: نبت شائك له ورد لطيف أحمر . (٢) آية ٧٢ سورة النمل . (٣) راجع ج ٢ ص ١٢٢ طبعة ثانية . (٤) البيت من قصيدة لعمرو بن معديكرب الزبيدى .

الثانيـــة ـــ ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ ﴾ هى مخاطبة لإبراهيم عليه السلام فى قول الجمهور . وقرأ عكرمة « أن لا يُشْرِك » باليـاء، على نقل معنى القول الذى قيل له . قال أبو حاتم : ولا بدّ من نصب الكاف على هـذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك . وقيـل : إن « أن » مخففة من الثقيلة . وقيـل مفسرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أن جاء البشير »[1] . وفى الاية طعن على من أشرك من قُطّان البيت ؛ أى هـذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده وأنتم ، فلم تَفُوا بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أن لا تشرك » لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج . والجمهـور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهـو الأصح . وتطهير البيت عام فى الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء . وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان؛ كما قال تعالى : «فآجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثان»[2] ؛ وذلك أن جُرْهُمًا والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نزّه بيتى عن أن يعبد فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ماللعلماء فى تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفاية فى سورة « براءة »[3] . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها ، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعـالى : وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قرأ جمهور الناس « وأذِّن » بتشديد الذال . وقرأ الحسن بن أبى الحسن وابن مُحَيْصِن « وآذن » بتخفيف الذال ومدّ الألف . ابن عطية : وتصحّف هذا عَلَى ٱبنِ جنّى، فإنه حكى عنهما « وآذن » على أنه فعل ماض ، وأعرب عَلَى ذلك بأن جعله عطفا على «بوّأنا»[4] . والأذان الإعلام، وقد تقدّم فى «براءة» .

(١) آية ٩٦ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٠٤ طبعـة أولى أو ثانيـة . (٤) جـ ٨ ص ٦٩

الثانيـة — لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له : أذّن فى الناس بالحج، قال : يارب ! وما يبلغ صوتى؟ قال : أذّن وعلىّ الإبلاغ ؛ فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبى قُبيس وصاح : يأيها الناس ! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار، فحُجّوا؛ فأجابه من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك ! فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرّةً فمرّة، وإن أجاب مرتين فمرّتين؛ وجرت التلبية على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير. وروى عن أبى الطُّفيل قال قال لى ابن عباس : أتدرى ما كان أصل التلبية؟ قلت لا ! قال : لما أُمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن فى الناس بالحج خفضت الجبال رءوسها ورُفعت له القرى؛ فنادى فى الناس بالحج فأجابه كل شيء : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك. وقيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تمّ عند قوله « السجود »، ثم خاطب الله عز وجل محمدا عليه الصلاة والسلام فقال «وأذّن فى الناس بالحج»؛ أى أعلمهم أن عليهم الحج. وقول ثالث — إن الخطاب من قوله «أن لا تشرك» مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم. وهذا قول أهل النظر؛ لأن القرآن أنزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فكل ما فيه من المخاطبة فهى له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك.. وهاهنا دليل آخر يدل على أن المخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو « أن لا تشرك بى » بالتاء، وهذا مخاطبة لمشاهد، وإبراهيم عليه السلام غائب؛ فالمعنى على هذا : وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت فجعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان يعبد الله وحده. وقرأ جمهور الناس « بالحج » بفتح الحاء. وقرأ ابن أبى إسحاق فى كل القرآن بكسرها . وقيل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أُمر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ وعده إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب، وإنما قال « يأتوك » وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المنادىَ إبراهيم، فمن أتى الكعبة حاجا فكأنما أتى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف إبراهيم. ابن عطية : « رجالا » جمع راجل مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصحاب. وقيل : الرجال

جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل تجار وتجر وتاجر، وصحاب وصحب وصاحب . وقد يقال في الجمع : رُجّال، بالتشديد؛ مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجَالا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، وروِيت عن مجاهد . وقرأ مجاهد «رُجَالَى» على وزن فُعَالَى؛ فهو مثل كسالى . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه، رُجّال مثل رُكّاب، وهو الذي روى عن عكرمة، ورجال مثل قيام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجّالة . والذي روى عن مجاهد رُجَالًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كُسالى وسُكارى ، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل . وقدّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي . ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ لأن معنى « ضامر » معنى ضوامر . قال الفراء : ويجوز « يأتى » على اللفظ . والضامر : البعير المهزول الذى أتعبه السفر؛ يقال : ضَمَرَ يَضْمُر ضُمورا ؛ فوصفها الله تعالى بالمآل الذى انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يَأتين مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » أى أثّر فيها طول السفر . وردّ الضمير إلى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ؛ كما قال : « والعادِياتِ ضَبْحًا » في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعـــة — قال بعضهم : إنما قال «رجالا» لأن الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث؛ فقوله « رجالا » من قولك : هذا رجل؛ وهذا فيه بعد؛ لقوله «وعلى كل ضامر» يعني الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجالا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الراجل أفضل من حج الراكب . قال ابن عباس : ما آسَى على شيء فاتنى إلا أن لا أكون حججتُ ماشيا، فإنى سمعت الله عز وجل يقول «يأتوك رجالا». وقال ابن أبي نجيح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهى قراءة ابن أبي عَبْلة والضحاك، والضمير للناس .

الخامســـة — لا خلاف في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعي في آخرين إلى أن الركوب أفضل، اقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكثرة

النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشى أفضل لما فيه من المشقّة على النفس ، ولحديث أبى سعيد قال : حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة، وقال : "اربطوا أوساطكم بأُزُرِكم" ومشى خلْطَ الهَرْوَلة[1] ؛ خرّجه ابن ماجه فى سننه . ولا خلاف فى أن الركوب عند مالك فى المناسك كلّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة — استدلّ بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط . قال مالك فى المَوّازِيّة : لا أسمع للبحر ذكرا، وهذا تأنس، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه؛ وذلك أن مكة ليست فى ضِفّة بحر فيأتيها الناس فى السفن؛ ولا بد لمن ركب البحر أن يصير فى إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر، فإنما ذكرت حالتا الوصول؛ وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقوىّ . فأما إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ أو هَوْل شديد أو مرض يَلْحَق شخصا ، فمالكٌ والشافعىّ وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيل يستطاع . قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار فى هذا المعنى كلاما ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشىء من هذه الأعذار؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف، وقد مضى فى « البقرة » بيانه . والفَجّ : الطريق الواسعة، والجمع فِجاج . وقد مضى فى « الأنبياء »[2] . والعميق معناه البعيد . وقراءة الجماعة « يأتين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركبان و « يأتين » للجمال ؛ كأنه قال : وعلى إبل ضامرة يأتين ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أى بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أى بعيدة القعر ؛ ومنه :

* وقاتِمِ الأعْماق خاوِى المخْتَرَق[3] *

(١) خلط الهرولة (بالكسر) أى شيئا مخلوطا بالهرولة ، بأن يمشى حينا ويهرول حينا أو معتدلا .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أرجوزة من أراجيز رؤبة بن العجاج ، وبعده :

* مشتبه الأعلام لمّاع الخفق *

السابعـــة — واختلفوا فى الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عنـد رؤيته أم لا ؟ فروى أبو داود قال : سـئل جابر بن عبـد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقـال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ترفع الأيدى فى سـبع مواطن افتتاح الصـلاة واستقبال البيت والصّفَا والْمَرْوَة والموقفين والجمرتين" . وإلى حديث ابن عباس هـذا ذهب الثورىّ وابن المبارك وأحمـد وإسحاق وضعفوا حديث جابر؛ لأن مهاجرا المكىّ راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعـالى : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أى أذّن بالحج يأتوك رجالا وركبانا ليشهدوا ؛ أى ليحضروا . والشهود الحضور . ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أى المناسك؛ كعرفات والمَشْعَر الحرام . وقيل المغفرة . وقيـل التجارة . وقيل هو عموم ؛ أى ليحضروا منافع لهم، أى ما يرضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربى؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسـك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى . ولا خلاف فى أن المراد بقوله : « ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فَضْلاً من ربكم[(١)] » التجارة .

الثـانيـــة — ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ قد مضى فى « البقرة » الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات[(٢)] . والمراد بذكر اسم الله ذكر التسمية عند الذبح والنحر؛ مثل

(١) راجع جـ ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١

قولك: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صلاتِى ونسكِى »[1] الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيّن الرب أن الواجب الذبح على اسم الله؛ وقد مضى فى « الأنعام »[2] .

الثالثة — واختلف العلماء فى وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضى الله عنه: بعد صلاة الإمام وذبحه ؛ إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدّى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح. والشافعىّ دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين؛ فاعتبر الوقت دون الصلاة . هذه رواية المُزَنِىّ عنه، وهو قول الطبرىّ . وذكر الربيع عن البُوَيْطِىّ قال قال الشافعىّ : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح ، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حلّ الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة، فتقدّم رجال فنحروا وظنّوا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد نحر، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبىّ صلى الله عليه وسلم . خرجه مسلم والترمذىّ وقال : وفى الباب عن جابر وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمِر بن أشقر وابن عمر وأبى زيد الأنصارىّ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحّى بالمصر حتى يصلى الإمام . وقد احتج أبو حنيفة بحديث البَرَاء ، وفيه : "ومن ذبح بعد الصلاة فقد تمّ نُسُكُه وأصاب سنة المسلمين" . خرجه مسلم أيضا . فعلّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ، وحديث جابر يقيّده . وكذلك حديث البراء أيضا، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا" الحديث . وقال أبو عمر بن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه السلام : "من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحمٍ" .

---

(١) آية ١٦٢ سورة الأنعام . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢

الرابعـــة ـــ وأما أهل البوادى ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يتحرى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأى : يجزيهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك، ذكره عنه الترمذىّ . وتمسكوا بقوله تعالى : « وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنعامِ » ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس، قولان . ولا خلاف أنه لا يجزى ذبح الأضحيّة قبل طلوع الفجر من يوم النحـــر .

الخامســـة ـــ واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك : ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثورىّ وأحمد بن حنبل، وروى ذلك عن أبى هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعىّ : أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده، وبه قال الأوزاعىّ، وروى ذلك عن علىّ رضى الله عنــه وابن عبــاس وابن عمر رضى الله عنهــم، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيــل : هو يوم النحر خاصــة وهو العاشر من ذى الحجة ؛ وروى عن ابن ســيرين . وعن سعيد بن جُبير وجابر بن زيد أنهما قالا : النحر فى الأمصار يوم واحد وفى منًى ثلاثة أيام . وعن الحسن البصرىّ فى ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعىّ ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة؛ فإذا أهــل هلال المحرم فلا أَضْحَى .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبى سلمة بن عبــد الرحمن ، ورويا حديثا مرســلا مرفوعا خرجه الدّارَقُطْنىّ : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ؛ ولم يصح ، ودليلنا قوله تعــالى : « فى أيام معلوماتٍ » الآية، وهــذا جمع قِلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أَضْحَى ، وأجمعوا أن لا أضحى بعــد انسلاخ ذى الحجة، ولا يصح عندى فى هذه إلا قولان : أحدهما ـــ قول مالك والكوفيين . والآخر ـــ قول الشافعىّ والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له فى السنة ولا فى قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فمتروك لهما . وقد روى عن قتادة قول سادس، وهو أن الأضحى يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة — واختلفوا فى ليالى النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروى عن مالك فى المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحابه وأصحاب الرأى ؛ لقوله تعالى : « ويذكروا اسم اللهِ فِى أيام » فذَكَرَ الأيامَ، وذِكْرُ الأيامِ دليل على أن الذبح فى الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبو ثور : الليالى داخلة فى الأيام ويجزى الذبح فيها . وروى عن مالك وأشهب نحوه، ولأشهب تفريق بين الهَدْى والضحية، فأجاز الهَدْىَ ليلا ولم يُجز الضحية ليلا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . ﴿ من بهِيمةِ الأنعامِ ﴾ والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى، ومسجد الجامع .

الثامنة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضْحِيته وأن يتصدق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشذّت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : "فكلوا وادّخروا وتصدّقوا" . قال الكِيَا : قوله تعالى « فكلوا مِنها وأطعِموا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة — دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها . ومشهور مذهب مالك رضى الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد، ونذر المساكين وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلّه ، واجبا كان أو تطوعا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار .

العاشرة . فإن أكل مما منع منه فهل يَغْرَم قدر ما أكل أو يغرم هَدْيًا كاملا ؛ قولان فى مذهبنا، وبالأول قال ابن الماجشون . قال ابن العربى : وهو الحق، لا شىء عليه غيره .

وكذلك لو نذر هَـدْياً للساكين فيأكل منه بعـد أن بلغ مَحِلّه لا يَغْرَم إلا ما أكل — خلافا للمدوّنة — لأن النحر قد وقع، والتعدّى إنما هو على اللحم، فيغرم قدر ما تعدّى فيه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النـذر إن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجـوز أن يأكل منه وفاء بالنذر ، وكذلك جزاء الصيد وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتى به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْىٌ كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يَغْرَم قيمة اللحم أو يغرم طعاما؛ ففى كتاب محمـد عن عبـد الملك أنه يغرم طعاما . والأول أصح؛ لأن الطعام إنمـا هو فى مقابلة الهدْى كله عند تعذره عبادة، وليس حكم التعدى حكم العبادة .

الثانيـة عشرة — فإن عَطِب من هذا الهَـدْى المضمونِ الذى هو جزاء الصيد وفدية الأَذَى ونذر المساكين شيء قبـل مَحِلّه أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنيـاء والفقراء ومن أحب، ولا يبيع من لحمـه ولا جلده ولا من قلائده شيئا . قال إسماعيل بن إسحـاق : لأن الهدى المضمون إذا عَطِب قبـل أن يبلغ مَحِلّه كان عليـه بدله، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويطعم . فإذا عطِب الهدى التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمـا لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهَدْيِ وينحر من غير أن يعطَب، فٱحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل . وروى أبو داود عن ناجية الأسلمى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهَدْى وقال : "إن عطِب منها شيء فٱنحره ثم ٱصبغ نعله فى دمه ثم خلّ بينه وبين النـاس" . وبهذا الحديث قال مالك والشافعىّ فى أحد قوليه، وأحمـد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى ومن ٱتبعهم فى الهدى التطوع : لا يأكل منها سائقها شيئا، ويخلّى بينها وبين النـاس يأكلونها . وفى صحيح مسلم : "ولا تأكل منهـا أنت ولا أحد من أهل رفقتك" . وبظاهر هذا النهى قال ابن عباس والشافعىّ فى قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رفقته . قال أبو عمر : قوله عليه السلام "ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رفقتك" لا يوجد إلا فى حديث ٱبن عباس . وليس ذلك

فى حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية. وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس، وعليه العمل عند الفقهاء . ويدخل فى قوله عليه السلام : "خلّ بينها وبين الناس" أهلُ رفقته وغيرُهم . وقال الشافعىّ وأبو ثور : ما كان من الهَدْى أصله واجبا فلا يأكل منه، وما كان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وادّخر وتصدّق. والمتعة والقِران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعىّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هَدْى المتعة والتطوّع، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام . وحكى عن مالك : لا يأكل من دم الفساد . وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر؛ كقول الشافعىّ والأوزاعى . تمسّك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى : « أوْ كفارةٌ طَعامُ مساكِينَ »(1) . وقال فى فِدْية الأذَى : « فَفِدْيَةٌ مِن صِيامٍ أو صدقةٍ أو نسكٍ »(2) . وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرة : "أطعم ستة مساكين مُدَّيْن لكل مسكين أو صُمْ ثلاثة أيام أو انْسُك شاة" . ونذر المساكين مصرّح به؛ وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله : « والبُدْنَ جعلناها لكم مِن شعائِرِ الله — إلى قوله — فكلوا منها» . وقد أكل النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلىّ رضى الله عنه من الهدى الذى جاء به وشَرِبا من مَرَقه ، وكان عليه السلام قارِنا فى أصح الأقوال والروايات ؛ فكان هديه على هذا واجبا ، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح . والله أعلم .

وإنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلّغ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ قال بعض العلماء : قوله تعالى « فكلوا مِنها » ناسخ لفعلهم؛ لأنهم كانوا يحرّمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها — كما قلناه فى الهدايا — فنسخ الله ذلك بقوله : « فكلوا مِنها » ، وبقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من ضحّى فليأكل من أضحيّته" ولأنه عليه السلام أكل من أضحيّته وهديه . وقال الزهرىّ : من السنة أن تأكل أوّلا من الكبِد .

(1) آية ٩٥ سورة المائدة . (2) آية ١٩٦ سورة البقرة .

الرابعة عشرة — ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدّق بالثلث ويطعم الثلث ويأكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا فى الضحايا قسم معلوم موصوف. قال مالك فى حديثه : وبلغنى عن ابن مسعود، وليس عليه العمل. روى الصحيح وأبو داود قال : ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : "يا ثَوْبان ، أصلح لحم هذه الشاة" قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة . وهذا نص فى الفرض . واختلف قول الشافعيّ؛ فمرة قال : يأكل النصف ويتصدّق بالنصف لقوله تعالى : «فكلوا مِنها وأطعِموا البائس الفقِير» فذكر شخصين . وقال مرة : يأكل ثلثا ويهدى ثلثا ويطعم ثلثا؛ لقوله تعالى : «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ» فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة — المسافر يخاطب بالأضحيّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء . وخالف فى ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيّ، وروى عن عليّ؛ والحديث حجة عليهم . واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاج بمنًى، فلم ير عليه أضحية ؛ وبه قال النخعيّ . وروى ذلك عن الخليفتين أبى بكر وعمر وجماعة من السلف رضى الله عنهم؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب فى الأصل بالهَدْى ، فإذا أراد أن يضحى جعله هديا ، والناس غير الحاج إنما أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل منًى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة — اختلف العلماء فى الادّخار على أربعة أقوال. روى عن عليّ وابن عمر رضى الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يدّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ . ورويناه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسيأتى . وقالت جماعة : ما روى من النهى عن الادّخار منسوخ ؛ فيدّخر إلى أى وقت أحبّ . وبه قال أبو سعيد الخُدْرى وبُرَيدة الأسلمى . وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقا. وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يدّخر؛ لأن النهى إنما كان لعلة وهى قوله عليه السلام : "إنما نهيتكم من أجل الدّافة التى دفّت"(1) ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدّم لارتفاع موجِبه، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهى :

(1) الدافة : القوم يسيرون جماعة سيرا ليس بالشديد . والدافة : قوم من الأعراب يريدون المصر؛ يريد أنهم قوم قدموا المدينة عند الأضحى ، فنهاهم عن ادخار لحوم الأضاحى ليفرقوها ويتصدّقوا بها فينتفع أولئك القادمون بها . (ابن الأثير) .

السابعة عشرة — وهى الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه لارتفاع علّته . اعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبدا ، والمرفوع لارتفاع علّته يعود الحكم لعَوْد العلة؛ فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون فى زمان الأَضْحى ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعة يسدّون بها فاقتهم إلا الضحايا لتعيّن عليهم ألا يدّخروها فوق ثلاثٍ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — الأحاديث الواردة فى هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة معا؛ كما هو منصوص فى حديث عائشة وسَلَمة بن الأَكْوَع وأبى سعيد الخُدْرىّ رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبى عبيد مَوْلَى ٱبن أزهر أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العيد مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه؛ قال : فصلّى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليالٍ فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . وروى أبو داود عن نُبيشة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاث لكى تَسَعكم جاء الله بالسَّعة فكلوا وادّخروا وأْتَجِروا ألا إن هذه الأيام أيامُ أكل وشرب وذكرٍ لله عز وجل" . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ماقيل فى هذا حتى تتفق الأحاديث ولا تتضادّ، ويكون قول أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب وعثمانُ محصور؛ لأن الناس كانوا فى شدّة محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدافّة . والدليل على هذا ما حدّثنا إبراهيم بن شريك قال : حدّثنا أحمد قال حدّثنا ليث قال حدّثنى الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبى يزيد عن ٱمرأته أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن لحوم الأضاحى فقالت : قدم علينا علىّ بن أبى طالب من سفر فقدّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فقال : "كُلْ من ذى الحجة إلى ذى الحجة" . وقال الشافعىّ : من قال بالنهى عن الادّخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة . ومن قال بالرخصة مطلقا لم يسمع النهى عن الادّخار . ومن قال بالنهى

والرخصة سمعهما جميعا فعمل بمقتضاهما . والله أعلم . وسيأتى فى سورة « الكوثر » الاختلافُ فى وجوب الأضحيّة وندبيّتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدّم، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة البائس، وهو الذى ناله البؤس وشدّة الفقر؛ يقال : بَئِس يبأس بأسا إذا افتقر؛ فهو بائس . وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم يكن فقيرا؛ ومنه قوله عليه السلام : " لكن البائس سعد بن خَوْلة "(١). ويقال: رجل بَئِيسٌ أى شديد . وقد بَؤُسَ يبؤس بأسا إذا اشتدّ؛ ومنه قوله تعالى : « وأَخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ »(٢) أى شديد . وكلما كان التصدق بلحم الأضحيّة أكثر كان الأجر أوْفر . وفى القدر الذى يجوز أكله خلاف قد ذكرناه ؛ فقيل النصف؛ لقوله : « فكُلُوا ، وأطعِموا » وقيل الثلثان؛ لقوله : " ألَا فكُلُوا وادّخروا وأْتَجِروا " أى اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف فى الأكل والإطعام؛ فقيل واجبان . وقيل مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام ؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب؛ وهو قول الشافعيّ .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقى عليهم من أمر الحج؛ كالحَلْق ورَمْى الجمار وإزالة شَعث ونحوه . قال ابن عرفة: أى ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهريّ : التَّفَث الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شُميل : التفث فى كلام العرب إذهاب الشَّعَث، وسمعت الأزهرى يقول : التفث فى كلام العرب لا يعرف إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقال الحسن : هو إزالة قشف الإحرام . وقيل : التفث مناسك الحج كلّها ؛ رواه ابن عمر وابن عباس . قال ابن العربيّ : لو صح عنهما لكان حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ، قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعرا ولا أحاطوا بها خبرا ؛ لكنى تتبعت التفث لغةً فرأيت أبا عبيدة مَعْمر بن الْمُثَنَّى قال :

(١) رثى له النبيّ صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . يعنى فى الأرض التى هاجر منها . (راجع ترجمته فى كتاب الاستيعاب) . (٢) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه قص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يَحْـرُم على المحرِم إلا النكاح . قال : ولم يجئ فيه شعر يُحتج به . وقال صاحب العين : التفث هو الرمى والحلق والتقصير والذبح وقص الأظفار والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفرّاء نحوه ، ولا أراه أخذوه إلا من قول العلماء . وقال قُطْرُب : تفثَ الرجلُ إذا كثر وسخه . قال أميّة بن أبى الصَّلْت :

حَفُّوا رءوسهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً * ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئْبانا

وما أشار إليه قُطْرُب هو الذى قاله ابن وهب عن مالك، وهو الصحيح فى التفث . وهذه صورة إلقاء التفث لغة، وأما حقيقته الشرعية فإذا نحر الحاج أو المُعْتَمِر هَدْيَه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتنقّى ولبس فقد أزال تفثه ووفّى نذره ؛ والنذر ما لزم الإنسان والتزمه .

قلت : ما حكاه عن قُطْرُب وذكر من الشعر قد ذكره فى تفسيره الماوردىّ، وذكر بيتا آخر فقال :

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً(١) ثم ساروا * إلى نَجْـدٍ وما انتظروا عليّاً

وقال الثعلبىّ : وأصل التفث فى اللغة الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك؛ أى ما أوسخك وأقذرك . قال أمية بن أبى الصلت :

ساخّين(٢) آباطهم لم يقذفوا تفثاً * وينزعوا عنهمُ قَمْلاً وصِئْبانا

الماوردىّ : قيل لبعض الصلحاء ما المعنىّ فى شعث المحْرِم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته .

الحادية والعشرون — ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمِروا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية؛ لقوله عليه السلام : "لا وفاء لنذر فى معصية الله"، وقوله : "من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه" . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الطواف المذكور فى هذه الآية هو طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج . قال الطبرىّ : لا خلاف بين المتأولين فى ذلك .

---

(١) من معانى النحب : الحاجة والنذر . (٢) ساخين : تاركين .

الثانيــة والعشرون ــ للحج ثلاثة أطواف : طواف القُــدوم ، وطواف الإفاضــة ، وطواف الوَداع . قال إسماعيل بن إسحاق : طواف القــدوم سُنّة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكىّ وعن كل من يُحرِم بالحج من مكة . قال : والطواف الواجب الذى لا يسقط بوجه من الوجوه، وهو طواف الإفاضة الذى يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بِالبيتِ العتِيقِ » . قال: فهذا هو الطواف المفترض فى كتاب الله عز وجل، وهو الذى يحــل به الحاج من إحرامه كله . قال الحــافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل فى طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة، وهى رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنــه . وهو قول جمهور أهل العــلم من فقهاء أهل الحجــاز والعراق . وقد روى ابن القاسم وابن عبــد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم فى غير موضع من المدوّنة ورواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القادم مكة . وقال: من نسى الطواف فى حين دخوله مكة أو نسى شوطا منه ، أو نسى السّعْى أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يُهْــدِى . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسى طواف الإفاضة سواء . فعلى هذه الرواية الطوافان جميعا واجبان، والسّعْىُ أيضا . وأما طواف الصَّدَر وهو المسمى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضــة على غير وضــوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوّع بعد ذلك . وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يجزيه تطوعه عن الواجب المفترض عليــه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من فعل فى حجه شيئا تطوّع به من عمل الحج، وذلك الشىء واجب فى الحج قد جاز وقته، فإن تطوّعه ذلك يضير للواجب لا للتطوع؛ بخلاف الصــلاة . فإذا كان التطوّع ينــوب عن الفرض فى الحج كان الطواف لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا ما كان من الطواف بعد رَمْى جمرة العَقَبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبــد الحكم عن مالك بخــلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعى ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَـدْى، كما ينوب طواف الإفاضــة مع السعى لمن لم يَطُف ولم يَسْـعَ حين دخوله مكة مع الهـدى أيضا عن طواف القدوم . ومن قال هذا قال : إنمـا قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسى أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحـاج إلا طوافا واحدا بقوله : « وأَذِّنْ فِى الناسِ بِالحج » ، وقال فى سياق الآية : « ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ » والواو عندهم فى هــذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسند الطبرىّ عن عمرو بن أبى سلمة قال : سألت زهيرا عن قوله تعالى : «وليطوّفوا بِالبيتِ العتِيقِ» فقال : هو طواف الوداع. وهــذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولى الشافعىّ ؛ لأنه عليه السـلام رخّص للحائض أن تَنْفِر دون أن تطوفه، ولا يرخَّص إلا فى الواجب .

الثالثــة والعشرون ـــ اختلف المتأولون فى وجه صــفة البيت بالعتيق ؛ فقال مجاهــد والحسن : العتيق القــديم . يقال : سيف عتيق، وقد عَتُق أى قَدُم؛ وهــذا قول يَعْضُده النظر. وفى الصحيح "أنه أول مسجد وُضع فى الأرض". وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلّط عليــه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفى الترمذىّ عن عبــد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "إنمـا سُمِّىَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار" قال : هــذا حديث حسن صحيح ، وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا . فإن ذكر ذاكر الحجّاجَ بن يوسف ونَصبه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها قيل له : إنمـا أعتقها عن كفار الجبابرة؛ لأنهم إذا أَتَوْا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين، وقصــدوا الكعبة بالسوء فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهــم إن كَفُّوا عنها لم يكن فى ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها فى كف الأعداء؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهى والوعيد، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار،

وجعـل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمرّ . وقالت طائفـة : سُمّى عتيقا لأنه لم يُملك موضـعه قطّ . وقالت فرقة : سمى عتيقا لأن الله عز وجل يعتق فيـه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سمى عتيقا لأنه أعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتق الكرم . قال طَرفَة يصف أذن الفرس :

مُؤَلَّلتان تَعْـرِف العِتْـقَ فيهـما * كسامِعَتَىْ مذعورة وسط رَبْرَبِ (١)

وعِتْقُ الرقيق : الخروج من ذُلِّ الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضى جودة الشيء ؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق؛ الحديث . والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى عام، وسمى عتيقا لهذا ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون فى موضع رفع بتقـدير : فرضُكم ذلك، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب بتقدير: امتثلوا ذلك؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هـذا وليس كمن يَعْيا بخُطّتـه * وسْطَ النَّدِىّ إذا ما قائل نطقا

---

(١) المؤلل : المحدد . والربرب : القطيع من بقر الوحش ؛ وقيل الظباء . وهذه الرواية فى البيت مخالفـة لمـا فى ديوانه ومعلقته . والرواية فيهما :

مؤللتـان تعرف العتق فيهـما * كسامعتى شاة بحومَلَ مُفْرَدِ

ويريد بالشاة هنا الثور الوحشى .

والحرمات المقصودة هنا هى أفعال الحج المشار إليها فى قوله : « ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفُوا نذورهم » ، ويدخل فى ذلك تعظيم المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره . ويجمع ذلك أن تقول : الحرمات امتثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خيراته يُنتفع به ، وليست للتفضيل وإنما هى عِدَة بخير .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ ﴾ أن تأكلوها ؛ وهى الإبل والبقر والغنم . ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فى الكتاب من المحرمات؛ وهى المَيْتة والمَوْقُوذة وأخواتها . ولهذا اتصال بأمر الحج؛ فإن فى الحج الذبح، فبيّن ما يحلّ ذبحه وأكل لحمه . وقيل: « إلا ما يتلى عليكم » غيرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حرم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ الرجس : الشيء القذِر . والوَثَن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضا . وقال عَدِىّ ابن حاتم : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب فقال : " ألْقِ هذا الوثن عنك " أى الصليب ؛ وأصله من وَثَن الشيء أى أقام فى مقامه . وسمى الصنم وَثَنًا لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روى عن ابن عباس وابن جُرَيج . وسماها رجسا لأنها سبب الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس، والرجس النجس فهى نجسة حكما . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للاعيان وإنما هى وصف شرعىّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعــة — ﴿ مِن ﴾ فى قوله : « مِنَ الأوثانِ » قيل : إنها لبيان الجنس، فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نهيها فى غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية؛ فكأنه نهاهم عن الرجس عاما ثم عيّن لهم مبدأه الذى منه يلحقهم ؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن «مِن» للتبعيض، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب . وسمى زورا لأنه أميل عن الحق؛ ومنه «تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ»، ومدينةٌ زوراء؛ أى مائلة . وكل ما عدا الحق فهو كذب و باطل وزُور . وفى الخبر أنه عليه السـلام قام خطيبا فقال : " عَدَلت شهادةُ الزور الشِّركَ بالله " قالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن فى النهى عنها .

السادســـة — هذه الآية تضمّنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغى للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزّره وينادى عليـه ليُعرف لئلا يغترّ بشهادته أحد . ويختلف الحكم فى شهادته إذا تاب؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرّز فيها لم تقبل؛ لأنه لا سبيل إلى علم حاله فى التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر ممـا هو عليه . وإن كان دون ذلك فشمّر فى العبادة وزادت حاله فى التُّقَى قبل شهادته . وفى الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله وعقوقَ الوالدين وشهادةَ الزور وقول الزور" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا لَيْتَه سكت .

السابعـــة — ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسـلمين مائلين إلى الحق . ولفظة «حنفاء» من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و «حنفاء» نصب على الحال . وقيل : «حنفاء» حجاجا؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفســه نفعا ولا يدفع عن نفســه ضرا ولا عذابا ؛ فهو بمنزلة من خرّ من السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفســه . ومعنى ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أى تقطعه بمخالبها . وقيـل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بهـا إلى سماء الدنيا ، فلا يُفتح لها فيرمى بهـا إلى الأرض؛ كما فى حديث البَرَاء، وقد ذكرناه فى التـذكرة . والسحيق : البعيد؛ ومنه قوله تعالى : «فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام : "فسُحْقًا فسحقا".

(١) آية ١١ سورة الملك .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

فيــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه . قيـل : يكون فى موضـع رفع بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجـوز أن يكون فى موضع رفع على خبر ابتـداء محذوف . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، أى آتّبعوا ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائر جمع شَعيرة ، وهو كل شىء لله تعالى فيه أمر أشعَر به وأعلم ؛ ومنه شِعار القوم فى الحرب ؛ أى علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البَدَنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهى تسمى شعيرة بمعنى المشعورة . فشعائر الله أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البُدْن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ؛ قاله آبن عباس ومجاهد و جماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البُدْن ربما يحمل على فعل ما لا بدّ منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بمـا دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب . والله أعلم .

الثالثـــة — الضمير فى « إنها » عائد على الفِعلة التى يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لجاز . وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ؛ أى فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ، فرجعت الكناية إلى الشعائر .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ قرئ « القلوبُ » بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذى هو « تَقْوَى » وأضاف التقوى إلى القلوب(1) لأنّ حقيقة التقوى فى القلب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى صحيح الحديث : " التقوى هاهنا " وأشار إلى صدره .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافِعُ ﴾ يعنى البُدْن من الركوب والدَّرّ والنَّسل والصوف وغير ذلك ، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْيًا ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى ؛ قاله آبن عباس .

(1) فى الأصول : « وأضاف إلى القلب » .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْيًا فالمنافع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِىّ فصيلها . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بَدَنة فقال : "ٱركبها" فقال : إنها بدنة . فقال : "ٱركبها" قال : إنها بدنة . قال : "ٱركبها وَيْلَكَ" فى الثانية أو الثالثة . وروى عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهَدْى فقال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ٱركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظَهْراً" . والأجل المسمَّى على هذا القول نحرها؛ قاله عطاء بن أبى رَباح .

السادســة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام : "ٱركبها" . وممن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر . وروى ٱبن نافع عن مالك : لا بأس بركوب البَدَنة ركوبا غيرَ فادح . والمشهور أنه لا يركبها إلا إن ٱضطر إليها لحديث جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضى على المطلق . وبنحو ذلك قال الشافعيّ وأبو حنيفة . ثم إذا ركبها عند الحاجة نزل؛ قاله إسماعيل القاضى . وهو الذى يدل عليه مذهب مالك، وهو خلاف ما ذكره ٱبن القاسم أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحة النبيّ صلى الله عليه وسلم له الركوب فجاز له استصحابه . وقوله : "إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظهرا" يدل على صحة ما قاله الإمام الشافعيّ وأبو حنيفة رضى الله عنهما؛ وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك . وقد جاء صريحا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بَدَنة وقد جُهِد، فقال : "ٱركبها" . وقال أبو حنيفة والشافعيّ : إن نَقَصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدّق به .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يريد أنها تنتهى إلى البيت، وهو الطواف . فقوله : « مَحِلّها » مأخوذ من إحلال المحرم . والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة وَرَمْى الجمار والسّعى ينتهى إلى طواف الإفاضــة بالبيت العتيق . فالبيت على هــذا التأويل مراد بنفســه؛ قاله مالك فى الموطأ . وقال عطاء : ينتهى إلى مكة . وقال الشافعيّ : إلى الحرم . وهــذا بناء على أن الشــعائر هى البُدْن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ لما ذكر تعالى الذبائح بيّن أنه لم يُخْلِ منها أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا . والمنسك الذبح و إراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : نَسَك إذا ذبح يَنْسُك نَسْكا . والذبيحة نسيكة ، وجمعها نُسُك ؛ ومنه قوله تعالى : «أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ»[(١)] . والنسك أيضا الطاعة . وقال الأزهرىّ فى قوله تعالى « وِلكُلِّ أمّةٍ جعلنا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع النحر فى هذا الموضع ، أراد مكان نَسْك . و يقال : مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان ، وقرئ بهما . قرأ الكوفيون إلا عاصما بكسر السين ، الباقون بفتحها . وقال الفراء : المَنْسَك فى كلام العرب الموضع المعتاد فى خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى . وقال ٱبن عرفة فى قوله « وِلكل أمةٍ جعلنا مَنْسَكًا » : أى مذهبا من طاعة الله تعالى ؛ يقال : نَسَك نَسْك[(٢)] قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عيدا ؛ قاله الفرّاء . وقيل حجًّا ؛ قاله قتادة . والقول الأول أظهر؛ لقوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ اللهِ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أى على ذبح مارزقهم . فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر فى الذبيحة إنما ينبغى أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ معناه لحقّه ولوجهه و إنعامه آمنوا وأسلموا . و يحتمل أن يريد الاستسلام؛ أى له أطيعوا وٱنقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المخبت : المتواضع الخاشع من المؤمنين . والخَبْت ما انخفض من الأرض ؛ أى بشرهم بالثواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : المخبتون الذين لا يظلمون، و إذا ظُلموا لم يَنْتصروا[(٣)] . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ٱبن أبى نجيح : المخبتون المطمئنون بأمر الله عز وجل .

(١) آية ١٩٦ سورة البقرة . (٢) مثلثة النون؛ وبضمتين . (٣) الانتصار : الانتقام .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته . فوصفهم بالخوف والوَجَل عندذكره ، وذلك لقوّة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها . وروى أن هذه الآية قولَه : « وَبَشِّرِ المُخْبِتِين » نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور «الصلاةِ» بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاةَ » بالنصب على توهّم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم . وأنشد سيبويه :

* الحافظُو عَوْرَةَ العَشيرة[1] ... *

الثانيــة — هذه الآية نظير قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيت عليهم آياتُه زادَتْهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكّلون[2] » ، وقوله تعالى : «اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتشابِهاً مَثانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْه جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ الله[3] » . هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغام من الزعيق والزئير ، ومن النُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير ؛ فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله . وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم ؛ قال الله تعالى : « وإذا سَمِعُوا ما أُنزِل إلى الرسولِ تَرَى أعينَهم

(١) البيت بتمامه : الحافظو عورة العشيرة لا * يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

(٢) آية ٢ سورة الأنفال . (٣) آية ٢٣ سورة الزمر .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مما عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يقولون رَبَّنَا آمنَّا فاكتبنا مع الشاهِدِين»[(١)] . فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ؛ فمن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالا ؛ والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه[(٢)] فى المسألة ، فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال : "سلونى لا تسألونى عن شيء إلا بيّنته لكم ما دمت فى مقامى هذا " فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا[(٣)] ورهِبوا أن يكون بين [يدى][(٤)] أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه فى ثوبه يبكى . وذكر الحديث . وقد مضى القول فى هذه المسألة بأشبعَ من هذا فى سورة « الأنفال »[(٥)] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ وقرأ ابن أبى إسحاق « والبُدُن » لغتان ، واحدتها بَدَنة . كما يقال : ثمرة وثُمُر وثُمْر ، وخشبة وخُشُب وخُشْب . وفى التنزيل « وكان له ثُمُر » وقرئ « ثُمْر » لغتان . وسميت بَدَنة لأنها تَبْدُن ، والبدانة السِّمن . وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل . وقيل : البُدْن جمع « بَدَن » بفتح الباء والدال . ويقال : بَدُن الرجل (بضم الدال) إذا سَمِن . وبدّن (بتشديدها) إذا كبِر وأسنّ . وفى الحديث " إنى قد بدّنت " أى كبِرت وأسننت . وروى "بَدُنْت" وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم . يقال : بَدُن الرجل يبدُن بُدْنا و بَدانة فهو بادن ؛ أى ضخم .

---

(١) آية ٨٣ سورة المائدة . (٢) أى أكثروا عليه . وأحفى فى السؤال وألحف بمعنى ألح .
(٣) ارمّ الرجل : سكت ، فهو مرمّ . (٤) الزيادة عن صحيح مسلم . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى البُدْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيّ : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وفائدة الخلاف فيمن نذر بَدَنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعيّ وعطاء لا تجزيه . وعلى مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعيّ وعطاء؛ لقوله عليه السـلام فى الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : " من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة " الحديث . فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبَـدَنة يدلّ على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ؛ والله أعلم . وأيضا قوله تعالى : « فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها » يدل على ذلك ؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقر يضجع و يذبح كالغنم ؛ على ما يأتى . ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعا . وأيضا فإن البقرة فى التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة فى الضحايا عن سبعةٍ كالإبل . وهذا حجة لأبى حنيفة حيث وافقه الشافعيّ على ذلك ، وليس ذلك فى مذهبنا . وحكى ابن شجرة أنه يقال فى الغنم بدنة ، وهو قول شاذ . والبُـدْن هى الإبل التى تُهْدَى إلى الكعبة . والهَدْى عامّ فى الإبل والبقر والغنم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ نصّ فى أنها بعض الشعائر . وقوله : ﴿ لَكُمْ فيهَا خَيْرٌ ﴾ يريد به المنافع التى تقدم ذكرها . والصواب عمومه فى خير الدنيا والآخرة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ أى انحروها على اسم الله . و « صـوافّ » أى قد صفّت قوائمها . والإبل تُنحر قياما معقولة . وأصل هـذا الوصف فى الخيـل ؛ يقال : صَفَن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثَنَى سُنْبُك الرابعـة ؛ والسّنبك طرف الحافر . والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريّ «صَوافِيَ» أى خوالص لله عز وجل لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحدا . وعن الحسن أيضا «صوافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفّفةً ، وهى بمعنى التى قبلها ، لكن حذفت اليـاء تخفيفا على غير قياس

و « صوافَّ » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها؛ من صفّ يَصُفّ . و واحد صوافّ صافة ، و واحد صوافى صافية . وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن على «صوافِن» بالنون جمع صافنة . ولا يكون واحدها صافنا ؛ لأن فاعلا (١) لا يجمع على فواعل إلا فى حروف مختصة لا يقاس عليها ؛ وهى فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخالف وخوالف (٢) . والصافنة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلا تضطرب . ومنه قوله تعالى : « الصّافِناتُ الجِيادُ » (٣) . وقال عمرو بن كُلْثوم :

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه * مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونَا

ويروى :

تظل جيادُه نَوْحًا عليه * مقلَّدةً أعنَّتَها صفونا

وقال آخر :

ألِف الصُّفون فما يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال أبو عمرو الجَرْمِىّ : الصافن عرق فى مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس رفع رجله . وقال الأعشى :

وكلّ كُمَيْت كجِذع السَّحو * ق يَرْنُو القِناء إذا ما صَفَنْ

الخامسة — قال ابن وهب : أخبرنى ابن أبى ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال : تقيِّدها ثم تصفها . وقال لى مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك؛ إلا أبا حنيفة والثّورىّ فإنهما أجازا أن تنحر باركة وقياما . وشذّ عطاء فخالف واستحب نحرها باركة . والصحيح ما عليه الجمهور؛ لقوله تعالى : « فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » معناه سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجَبت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زياد بن جُبير أن ابن عمر أتى على رجل وهو ينحر بَدَنته باركةً فقال : ابعثها قائمة مقيَّدة سنةَ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم . وروى أبو داود عن أبى الزبير عن جابر، وأخبرنى عبد الرحمن بن سابط أن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنة معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقى من قوائمها .

---

(١) «فاعل» الذى لا يجمع على «فواعل» اذا كان وصفا لمذكر عاقل؛ أما «صافن» فليس وصفا لعاقل .

(٢) فى شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك أنها فارس وناكس وهالك وغائب وشاهد . (٣) آية ٣١ سورة ص .

السادســـة ــ قال مالك : فإن ضَعُف إنسان أو تخوّف أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأسا أن يحـرها معقولة . والاختيار أن تُنحر الإبل قائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرْقَب إلا أن يخاف أن يضعف عنهـا ولا يقوى عليها . ونحرها باركة أفضـل من أن تعرقب . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوان أَيْده فينحرها في صدرها ويخرجها على سنامها، فلما أسنّ كان ينحرها باركة لضعفه، ويمسك معه الحربة رجل آخرُ، وآخر بخِطامها. وتضجع البقر والغنم .

السابعـــة ــ ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحيّة لا تجوز قبـل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر بِمِنًى ، وليس عليهـم انتظار نحر إمامهم؛ بخـلاف الأضحيّة في سائر البـلاد . والمنحر مِنًى لكل حاج، ومكة لكل معتمِر . ولو نحر الحاج بمكة والمعتمرُ بمِنًى لم يَحْرَج واحد منهما، إن شاء الله تعالى .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَـا ﴾ يقال : وجبت الشـمس إذا سقطت، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخَطِيم :

أطاعت بنـو عوف أميرا نهاهمُ * عن السِّلْم حتى كان أوّل واجبِ

وقال أَوْس بن حَجَر :

ألم تكسف الشمسُ والبدرُ والـ * ـكواكبُ للجبـــل الواجبِ [(١)]

فقوله تعالى : «فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها» يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كنّى عن الموت بالسـقوط على الجنب كما كنّى عن النحر والذبح بقوله تعالى : « فاذكروا اسم اللهِ عليها » . والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر :

فتركته جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَه * ما بين قُلّة رأسه والمِعْصَمِ [(٢)]

---

(١) هذه رواية البيت كما في ديوانه . وروايته في الأصول :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار * والبـــدر للجبـــل الواجب

ويريد بالجبل : فضالة بن كلدة . وهو من قصيدة يرثيه بها ، وفيها :

لهلك فضـالة لا تستوى الـ * ـفقود ولا خَـلّة الذاهب

(٢) البيت من معلقة عنترة . والجزر : جمع جزرة ، وهي الشاة والناقة تذبح وتنحر .

وقال عنترة : * وضربت قَرْنَىْ كبشها فتَجدّلا * (١)

أى سقط مقتولا إلى الجَدالة، وهى الأرض ؛ ومثله كثير . والوُجوب للجَنْب بعد النحر علامة نزف الدّم وخروج الروح منها، وهو وقت الأكل ، أى وقت قرب الأكل ؛ لأنها إنما تبتدأ بالسلخ وقطع شىء من الذبيحة ثم يطبخ . ولا تسلخ حتى تَبْرُد لأن ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تعجلوا الأنفس أن تزهق .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر معناه الندب . وكل العلماء يستحبّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه ، وفيه أجر وامتثال؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدّم . وقال أبو العباس بن شُريح : الأكل والإطعام مستحبان، وله الاقتصار على أيهما شاء . وقال الشافعىّ : الأكل مستحب والإطعام واجب ، فإن أطعم جميعها أجزاه وإن أكل جميعها لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوّعا ؛ فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا حسبما تقدّم بيانه .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرىّ : قوله « وأطعموا » أمر إباحة . و « القانع » السائل . يقال : قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعا إذا سأل ، بفتح النون فى الماضى وكسرها فى المستقبل (٢) ، يقنَع قناعة فهو قَنِع ، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل ؛ مثل حمِد يحمَد ، قَناعة وقَنَعا وقَنَعانا ؛ قاله الخليل . ومن الأوّل قول الشّماخ :

لَمَالُ المرء يُصلِحه فيُغْنِي * مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوع

وقال ابن السِّكيت : من العرب من ذكر القُنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفّف وترك المسألة . وروى عن أبى رجاء أنه قرأ « وأطعموا القَنِع » ومعنى هذا مخالف للأوّل .

---

(١) هذا صدر بيت ، وعجزه كما فى ديوانه :

* وحملت مهرى وسطها فضاها *

(٢) هذه اللغة لم نجدها فى المعاجم ؛ على أن فى العبارة هاهنا اضطرابا . والذى فى كتب اللغة أنه يقال : قنع الرجل يقنع (بفتح النون فيهما) قنوعا إذا سأل . وقنع يقنع (بكسر النون فى الماضى وفتحها فى المستقبل) قناعة وقنعا وقنعانا — كما ذكر المؤلف — إذا رضى . وراجع معاجم اللغة .

يقال : قَنِـع الرجل فهو قَنِـع إذا رضي . وأما المعترّ فهو الذى يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلا كان أو ساكتا . وقال محمـد بن كعب القُـرَظيّ ومجاهد و إبراهيم والكلبيّ والحسن بن أبي الحسن : المعترّ المعترض من غير سؤال . قال زهير :

على مُكْثِرِيهم رزقُ من يعتريهمُ * وعنـد المُقِلّين السماحةُ والبَـذْلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقـيرُ، والمعتر الزائر . وروى عن الحسن أنه قرأ « والمعترِيَ » ومعناه كمعنى المعترّ . يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعراه إذا تعرّض لما عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس .

قوله تعـالى : لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضرّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية . والنَّيل لا يتعلق بالبارئ تعالى ، ولكنه عبّر عنـه تعبيرا مجازيا عن القبول ، المعنى : لن يصـل إليه . وقال ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماءها، ولكن يصل إليـه التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه، فذلك الذى يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثيب عليـه ؛ ومنه الحديث " إنما الأعمال بالنيات " . والقراءة « لن ينال اللهَ » و « يناله » بالياء فيهما . وعن يعقوب بالتاء فيهما، نظرا إلى اللحوم .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ مَنّ سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهى أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبـد من التدبير، وإنمـا هى بحسب ما يريدها العزيز القـدير، فيغلِب الصغيرُ الكبيرَ ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ذكر آسمه عليها فى الآية قبلها فقال عزّ من قائل : « فاذكروا آسم الله عليها » ، وذكر هنا التكبير . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هَدْيَه فيقول : بآسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضى الله عنه . وفى الصحيح عن أنس قال : ضَحَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكَبْشين أَمْلَحين[1] أَقْرَنَيْن . قال : ورأيته يذبحهما بيده ، ورأيته واضعا قدمه على صِفاحهما[2] ، وسَمّى وكبّر .

وقد آختلف العلماء فى هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متّعينة كالتكبير فى الصلاة ؛ وكافّة العلماء على آستحباب ذلك . فلو قال ذكرا آخر فيه آسم من آسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز . وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أو لا إله إلا الله ؛ قاله ابن حبيب . فلو لم يرد التسمية لم يُجْزِ عن التسمية ولا تؤكل ؛ قاله الشافعى ومحمد بن الحسن . وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند التسمية فى الذبح أو ذكره ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده . وأجاز الشافعيّ الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

الرابعـة — ذهب الجمهور إلى أن قول المضحِّى : اللّٰهُمّ تقبل منى ؛ جائز . وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والحجة عليه مارواه الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ، وفيه : ثم قال "باسم الله اللّٰهُمّ تقبّل من محمد وآل محمد ومن أمّة محمد" ثم ضَحَّى به . وآستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنك أنت السميع العليم »[3] . وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة . وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن ؛ والحجـة لهما ما رواه أبو داود عن جابر بن عبـد الله قال : ذبح النبيّ صـلى الله عليه وسـلم يوم الذبح كبشين أقرنين مَوْجُوءَيْن[4] أملحين ، فلما وجّههما قال : "إِنِّى وَجَّهتُ وَجْهِيَ لِلذى فَطَر السمواتِ والأرضَ حَنِيفًا — وقرأ إلى قوله : وأنا أوّلُ المسـلمين — اللّٰهُمّ منك ولك عن محمد وأمته بآسم الله والله أكبر" ثم ذبح . فلعلّ مالكا لم يبلغه هذا الخبر ، أولم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه . وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة . والله أعلم .

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده . وقيل : النقى البياض . (٢) الصفاح (بكسر الصاد) : الجوانب ؛ المراد الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما ثنى إشارة الى أنه فعل ذلك فى كل منهما .
(٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أى خصيين .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ رُوى أنها نزلت فى الخلفاء الأربعة؛ حسبما تقدّم فى الآية التى قبلها . فأما ظاهر اللفظ فيقتضى العموم فى كل محسن .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

رُوى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار و يغتالَ و يغْدِر و يحتال؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهى عن الخيانة والغدر . وقد مضى فى «الأنفال»[1] التشديد فى الغدر؛ وأنه "يُنصب للغادر لواء عند آسته بقدر غدْرته يقال هذه غَدْرة فلان" . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه فيعصمهم حتى لا يرتدّوا بقلوبهم . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة . ثم قتل كافرٍ مؤمنا نادر، وإنْ فيدفع الله عن ذلك المؤمن بأن قبضه إلى رحمته . وقرأ نافع «يُدافِع» « ولولا دِفاع » . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « يدافِع » « ولولا دفع الله » . و يدافع بمعنى يدفع؛ مثل عاقبت اللص، وعافاه الله؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دِفاعا » مصدر دفع؛ كحسب حِسابا .

قوله تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إن الله يُدافِع عَنِ الذين آمنوا » أى يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال و ينصرهم؛ وفيه إضمار، أى

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

أذن للذين يَصْلُحون للقتال فى القتال؛ فحذف لدلالة الكلام على المحذوف . وقال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال الكفار إذ آذوهم بمكة؛ فأنزل الله «إن الله لا يُحبُّ كُلَّ خَوّانٍ كفورٍ» فلما هاجر نزلت «أذن لِلذين يقاتَلون بِأنهم ظلِموا» . وهذا ناسخ لكل مافى القرآن من إعراض وترك صفح . وهى أوّل آية نزلت فى القتال(١) . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وروى النّسائىّ والترمذىّ عن ابن عباس قال : لما أخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم ليهلِكنّ؛ فأنزل الله تعالى «أُذِن لِلذِين يقاتلون بِأنهم ظُلِموا وإن الله على نَصْرِهِم لقدير» فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال . فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البَطِين عن سعيد بن جُبير مرسلا، ليس فيه : عن ابن عباس .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع، خلافا للمعتزلة؛ لأن قوله : « أذِن » معناه أبيح؛ وهو لفظ موضوع فى اللغة لإباحة كل ممنوع . وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» وغير موضع . وقرئ «أَذن» بفتح الهمزة؛ أى أذن الله . «يقاتِلون» بكسر التاء أى يقاتلون عدوّهم . وقرئ « يقاتَلون » بفتح التاء؛ أى يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون . ولهذا قال : « بِأنهم ظلِموا » أى أخرجوا من ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) يلاحظ أن الذى تقدّم فى الجزء الثانى ص ٣٤٧ طبعة ثانية عند قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله ... » خلاف ما هنا .

فيه سبع مسائل[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم ﴾ هـذا أحد ما ظلموا به ؛ وإنما أخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ؛ أى لكن لقولهم ربنا الله؛ قاله سيبويه . وقال الفراء يجوز أن تكون فى موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ؛ وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله؛ أى أخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهل الأوثان . و«الذين أخرجوا » فى موضع خفض بدلا من قوله : « لِلذِين يقاتَلون » .

الثانيـــة — قال ابن العربى : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحلّ له الدماء؛ إنمـا يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدّة عشرة أعوام؛ لإقامة حجـة الله تعـالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً[2] » . فاستمرّ الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت مَن اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفَوْهم عن بلادهم ؛ فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى . فلما عَتَتْ قريش على الله تعالى وردّوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحّده وعبده، وصدّق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل «أُذِن لِلذِين يقاتلون بِأنهم ظُلموا — إلى قوله — الأُمُور» .

الثالثـــة — فى هـذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكره إلى الذى ألجأه وأكرهـه ؛ لأن الله تعـالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام فى معنى تقدير الذنب وإلزامه . وهذه الآية مثل قوله تعالى : «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدّم فى « براءة[3] » والحمد لله .

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر ثمـانى مسائل .	(٢) آية ١٥ سورة الاسراء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة — ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطّلوا ما بيّنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدّم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبّدات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « ولولا دَفْعُ اللهِ النـاسَ » الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لَتُغُلِّبَ على الحق فى كل أمة . فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقى الدّين الذى يذبّ عنه . وأيضا هذه المواضع التى اتّخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . ﴿لَهُدِّمَتْ﴾ من هدمت البناء أى نقضته فانهدم . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفارَ عن التابعين فمن بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق؛ كما تقدّم . وقال مجاهد: لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظّلمة بعدل الولاة. وقال أبو الدّرداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن فى المساجد عمن ليس فى المساجد، وبمن يغزو عمن لا يغزو، لأتاهم العذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسِّر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه، فتأمله .

الخامسة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتركون أن يحدثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان لا سعة ولا ارتفاعا، ولا ينبغى للسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها . ويُنقض ما وجد فى بلاد الحرب من البِيع والكنائس . وإنما لم ينقض

ما فى بلاد الإسـلام لأهل الذمة ؛ لأنهـا جرت مجـرى بيوتهم وأموالهم التى عاهدوا عليهـا فى الصيانة . ولا يجوز أن يمكّنوا من الزيادة لأن فى ذلك إظهارَ أسباب الكفر . وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضى الله عنه بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادســـة — قرئ «لهدمت» بتخفيف الدال وتشديدها . ﴿صَوامِـعُ﴾ جمع صَوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهى بناء مرتفعٌ حديدُ الأعلى ؛ يقال : صمّع الثريدة أى رفع رأسها وحدّده . ورجل أصمع القلب أى حادّ الفطنة . والأصمع من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبّاد الصابئين — قاله قتادة — ثم استعمل فى مئذنة المسلمين . والبِيَع جمع بِيعة، وهى كنيسة النصارى . وقال الطبريّ : قيل هى كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال الزجاج والحسن : هى كنائس اليهود؛ وهى بالعبرانية صَلُوتا . وقال ابو عبيدة : الصلوات بيوت تبنى للنصارى فى البرارى يصلون فيها فى أسفارهم، تسمّى صلوتا فعرّبت فقيل صلوات . وفى « صلوات » تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صُلُوات، صَلْوات، صِلْوات، صُلُولى على وزن فعولى، صُلُوب بالباء بواحدة جمع صليب، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضم الصاد واللام وألف بعد الواو، صُلُوثا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثلثة، [صِلْوِيثَا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف][1] . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجَحْـدَرِيّ أنه قرأ « وصُلُوب » . وروى عن الضحاك «وَصلُوث» بالثاء معجمة بثلاث؛ ولا أدرى أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هـذا تجيء هنا عشر قراءات . وقال ابن عبـاس : الصلوات الكنائس . أبو العاليـة : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هى صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العـدوّ وتهدم المساجد ؛ فعلى هـذا استعير الهدم للصـلوات من حيث تُعَطّل، أو أراد موضع صلوات فحذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم

---

(١) ما بين المربعات عبارة أبي حيان . والذى فى الأصل : صلوثيا بكسر الصاد والثاء المثلثة .

حقيقة . وقال الحسن : هدم الصلوات تركها . قُطْرُب : هى الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم . فالصوامع للرهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للسلمين . قال آبن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة فى ذكر المتعبَّدات . وهذه الأسماء تشترك الأمم فى مسمياتها، إلا البِيعة فإنها مختصة بالنصارى فى لغة العرب . ومعانى هذه الأسماء هى فى الأمم التى لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر فى هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُذْكَرُ فِيها آسْمُ اللهِ» الذى يجب فى كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون «يُذْكَرُ فِيها آسْمُ اللهِ » عائدا على المساجد لا على غيرها ؛ لأن الضمير يليها . ويجوز أن يعود على «صوامع » وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم و إقامتهم الحق .

السابعة — فإن قيل : لِمَ قدّمت مساجد أهل الذمّة ومصلّياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل : لأنها أقدم بناء . وقيل لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق فى قوله : « فمِنهم ظالِمٌ لِنفسِهِ ومِنهم مُقْتَصِدٌ ومِنهم سابِقٌ بِالخيراتِ » (١) .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أى من ينصر دينَه ونبيَّه . ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ أى قادر . قال الخطابى : القوِىّ يكون بمعنى القادر، ومن قَوِى على شىء فقد قدر عليه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أى جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل الممتنع الذى لا يرام ؛ وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال الزجاج : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع نصب رَدًّا على « مَن » ، يعنى فى قوله : « وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه » . وقال غيره : « الذين » فى موضع خفض ردّا على قوله : « أُذِنَ لِلذين

(١) آية ٣٢ سورة فاطر .

يقاتلون » ، ويكون « الذين إن مكناهم في الأرض » أربعةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم . وقال ابن عباس : المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نجيح : يعنى الولاة . وقال الضحاك : هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك ؛ وهذا حسن . قال سهل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه . وليس على الناس أن يأمروا السلطان ؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزيةٌ ؛ أي كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فاقتد بهم واصبر . ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ أي كذبه فرعون وقومُه . فأما بنو إسرائيل فما كذبوه ، فلهذا لم يعطفه على ما قبله فيكون وقومُ موسى . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي أخّرت عنهم العقوبة . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ فعاقبتهم . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام بمعنى التغيير ؛ أي فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش . قال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير .

قوله تعالى : فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى أهلكنا أهلها . وقد مضى فى «آل عمران»(١) الكلام فى كأين . ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى بالكفر . ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ تقدّم فى الكهف(٢) . ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال الزجاج : «وبئرٍ معطلةٍ» معطوف على «من قريةٍ» أى ومن أهل قرية ومن أهل بئر . والفرّاء يذهب إلى أن «وبئرٍ» معطوف على «عروشها» . وقال الأصمعىّ : سألت نافع بن أبى نعيم أيهمز البئر والذئب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزهما فآهمزهما . وأكثر الرواة عن نافع بهمزهما ؛ إلا وَرْشًا فإن روايته عنه بغير همز فيهما ، والأصل الهمز . ومعنى «معطلةٍ» متروكة ؛ قاله الضحاك . وقيل : خالية من أهلها لهلاكهم . وقيل : غائرة الماء . وقيل : معطلة من دِلائها وأَرْشِيَتها ؛ والمعنى متقارب . ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل . قال عدِىّ بن زيد :

شاده مَرْمَرًا وجَلّله كِلْـ * ـسًا فللطير فى ذُراه وُكور

أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مجصّص ؛ من الشِّيد وهو الجصّ . قال الراجز(٣) :

لا تَحْسَبَنّى و إن كنت آمرأ غَمِرًا * كحيّة الماء بين الطين والشِّيد

وقال امرؤ القيس :

* وَلَا أُطُمًا إلا مَشِيدًا بجَنْدَلِ(٤) *

وقال ابن عباس : «مشِيد» أى حصين ؛ وقاله الكلبىّ . وهو مَفْعِل بمعنى مفعول كمبيع بمعنى مبيوع . وقال الجوهرىّ : والمشِيد المعمول بالشيد . والشيد (بالكسر) : كل شىء طلَيت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر . تقول : شاده يَشِيده شَيْدا جَصّصه . والمشيّد (بالتشديد) المطوّل . وقال الكسائىّ : «المشِيد» للواحد ، من قوله تعالى : «وقصرٍ مَشِيدٍ» ، والمشيّد للجمع ، من قوله تعالى : «فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» . وفى الكلام مضمر

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٠ (٣) البيت للشماخ ، كما فى اللسان . والغمر (بفتح الغين وكسر الميم) لغة فى الغمر (بضم الغين وسكون الميم) وهو الغرّ الذى لم يجرب الأمور .

(٤) هذا عجز البيت . وصدره : * وتيماء لم يترك بها جذع نخلة *

محذوف تقديره : وقصر مشـيد مثلها معطل . ويقال : إن هـذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قُلّة جبل لا يرتقَى إليه بحال ، والبئر فى سفحه لا تُقِرّ الريح شيئا سقط فيـه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادى ؛ أى فأهلكنا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبيّ وأبو بكر محمـد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرّس ، وكانت بعـدن باليمن بحضرَمَوْت ، فى بلد يقال له حَضُور ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ونجوْا من العذاب ومعهم صالح، فمـات صالح فسُمّيَ المكان حضرموت؛ لأن صالحا لمـا حضره مات فبنَوْا حضور وقعدوا على هذه البئر، وأمّروا عليهم رجلا يقال له العلس بن جلاس بن سويد، فيما ذكر الغزنوىّ . الثعلبيّ : جلهس بن جلاس، وكان حسن السـيرة فيهم عاملا عليهم، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة ، فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا، وكانت البئر تسق المدينة كلها وباديتها وجميعَ ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك؛ لأنها كانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها، وأبازن (بالنون) من رخام وهى شبه الحياض كثيرة تملأ للناس، وأُخر للدواب، وأُخر للبقر، وأخر للغنم . والقُوّام يسقون عليها بالليـل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال عمر المـلك الذى أمّروه ، فلما جاءه الموت طُلِيَ بدهن لتبقى صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهـم الميت وكان ممن يكرم عليهم . فلما مات شق ذلك عليهـم ورأوا أن أمرهم قد فسد ، وضجوا جميعا بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم فدخل فى جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة، فكلمهم وقال : إنى لم أمت ولكن تغيبت عنـكم حتى أرى صنيعكم ؛ ففرحوا أشدّ الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلمهم من ورائه لئـلا يعرف المـوت فى صورته . فنصبوا صنمـا من وراء الحجـاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبدا وأنه إلٰههم ؛ فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقلّ من المصـدّق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زُجر وقُهر . فأصفقوا[1] على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحى ينزل عليه فى النوم دون اليقظة، كان اسمه

(١) أصفقوا على الأمر : اجتمعوا عليه .

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يتمثل بالخلق ، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكا لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ؛ فآذوه وعادوه وهو يتعهدهم بالموعظة ولا يغبهم بالنصيحة ، حتى قتلوه فى السوق وطرحوه فى بئر ؛ فعند ذلك أصابتهم النقمة ، فباتوا شباعا رواء من المـاء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطل رشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم وضج النساء والولدان ، وضجت البهائم عطشا ؛ حتى عمهم الموت وشملهم الهلاك ، وخلفتهم فى أرضهم السباع ، وفى منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جناتهم وأموالهم بالسدر[1] وشوك العضاه[2] والقتاد[3] ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نعوذ بالله من سطواته ، ومن الإصرار على ما يوجب نقماته .

قال السهيلى . وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم يبن فى الأرض مثله — فيما ذكروا وزعموا — وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنيس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ؛ لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ؛ فذكرهم الله تعالى فى هذه الآية موعظة وعبرة وتذكرة ، وذكرا وتحذيرا من مغبة المعصية وسوء عاقبة المخالفة ؛ نعوذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل . وقيل : إن الذى أهلكهم بختنصر[4] على ما تقدم فى سورة « الأنبياء » فى قوله : « وكم قصمنا من قرية » . فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

---

(١) السدر من الشجر ، وهو سدران : أحدهما برى لا ينتفع بثمره ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق ، والعرب تسميه الضال . والسدر الثانى : ينبت على المـاء وثمره النبق وورقه غسول.

(٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ؛ واحدها عضاهة وعضهة وعضة .

(٣) القتاد : شجر صلب له شـوك كالإبر .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٧٤

قوله تعـالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعنى كفار مكة فيشاهدوا هـذه القرى فيتّعظوا، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن . وقد قيل : إن العقل محله الدماغ ؛ وروى عن أبى حنيفة، وما أراها عنـه صحيحة . ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ قال الفراء : الهاء عماد، ويجوز أن يقال فإنه ، وهى قراءة عبـد الله بن مسعود، والمعنى واحد، التذكير على الخـبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصــة؛ أى فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة . ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ أى أبصار العيون ثابتـة لهم . ﴿ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُـلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أى عن درك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل بُلْغة ومنفعة، والبصر النافع فى القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين؛ يعنى لكل إنسان أربع أعين : عينان فى رأســه لدنياه ، وعينان فى قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبــه فلم يضرّه عماه شيئا ، وإن أبصرت عينا رأســه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال قتادة وابن جُبير : نزلت هــذه الآية فى ابن أُمّ مَكْتُوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل : لـمـا نزل « ومن كان فِي هــذِهِ أعمى »[1] قال ابن أمّ مكتوم : يا رسول الله ، فأنا فى الدنيـا اعمى أفأكون فى الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فإِنّها لا تَعمَى الأَبْصارُ وَلٰكِن تَعْمَى الْقُـلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدورِ » . أى من كان فى هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو فى الآخرة فى النار .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ نزلت فى النضر بن الحـارث ، وهو قوله : « فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيـل : نزلت فى أبى جهـل بن هشام ، وهو قوله : « اللّٰهُـمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَـقَّ مِنْ عِنْدِك » . ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ ﴾ أى فى إنزال العذاب . قال الزجاج : استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شىء ؛ وقد نزل بهم فى الدنيا يوم بدر .

(١) آية ٧٢ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . عكرمة : يعنى من أيام الآخرة؛ أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة . قال الفرّاء : هذا وعيدلهم بامتداد عذابهم فى الآخرة؛ أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة ألف سنة . وقيل : المعنى وإن يوما فى الخوف والشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ؛ وكذلك يوم النعيم قياسا . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « مما يعدّون » بالياء المثناة تحت ، وآختاره أبو عبيد لقوله : « ويستعجلونك » . والباقون بالتاء على الخطاب ، وآختاره أبو حاتم .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أى أمهلتها مع عتوّها . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ أى بالعذاب . ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يعنى أهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى منذر مخوّف . وقد تقدّم فى البقرة الإنذار فى أوّلها . ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى أبيّن لكم ما تحتاجون إليه من أمر دينكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال آياتنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أى مغالبين مشاقّين؛ قاله ابن عباس . الفرّاء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : مثبّطين عن الإسلام . وقال

الأخفش : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقــدر عليهم ؛ وقاله قتــادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو « مُعَجِّزِين » بلا ألف مشدّدا . ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين فى الإيمـان بالنبيّ عليه السلام و بالايات؛ قاله السُّدِّى . وقيل : أى يَنْسُبون من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العجز؛ كقولهم : جهّلته وفسّقته . ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿تَمَنَّى﴾ أى قرأ وتلا . و ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى قراءته وتلاوته . وقد تقــدّم فى البقرة[1] . قال ابن عطيــة : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِيٍّ ولا مُحَدَّث » ذكره مَسْلمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المُحَدَّثين[2] معتصمين بالنبوّة — على قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خَطَرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعُصموا فيما نطقوا ؛ كعمر بن الخطاب فى قصة سارية[3] ، وما تكلم به من البراهين العالية .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٥ طبعة ثانية . (٢) المحدثون (بفتح الدال وتشديدها) قال ابن الأثير : انهم الملهَمون ، والملهم هو الذى يلقَى فى نفسه الشىء فيخبر به حَدْسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر؛ كأنهم حدّثوا بشىء فقالوه . (٣) هو سارية بن زنيم بن عبد الله . وكان من قصته أن عمر رضى الله عنه أمّره على جيش وسيّره الى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فوقع فى خاطر سيدنا عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدوّ وهم فى بطن وادٍ وقــد هموا بالهزيمة ، وبالقرب منهم جبــل ، فقال فى أثناء خطبته : يا سارية ، الجبلَ الجبلَ ! ورفع صوته ، فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس الى الجبل وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . (راجع ترجمته فى كتب الصحابة) .

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الردّ له ، وقد حدّثنى أبى رحمه الله حدّثنا علىّ بن حرب حدّثنا سفيان بن عُيينة عن عمرو عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِىّ ولا مُحَدَّث» قال أبو بكر: فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن . والمحدَّث هو الذى يوحى إليه فى نومه؛ لأن رؤيا الأنبياء وَحْىٌ .

الثانيــة — قال العلماء : إن هـذه الاية مشكلة من جهتين : إحداهما — أن قوما يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبىّ حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك مِن رسولٍ ولا نَبِىّ» فأوجب للنبىّ صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى «نَبِىّ» أنبأ عن الله عز وجل ، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال الفراء : الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السـلام إليه عِيانا ، والنبىّ الذى تكون نبوّته إلهـاما أو مناما ؛ فكل رسول نبىٌّ وليس كلّ نبىّ رسولا . قال المهدوىّ : وهذا هو الصحيح ، أن كلَّ رسـول نبىٌّ وليس كل نبىّ رسـولا . وكذا ذكر القاضى عِياض فى كتاب الشفا قال : والصحيح والذى عليه الجمّ الغفير أن كلّ رسول نبىّ وليس كل نبىّ رسولا ؛ واحتج بحديث أبى ذرّ ، وأن الرسل من الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم .
والجهة الأخرى التى فيها الإشكال وهى :

الثالثــة — الأحاديث المروِيّة فى نزول هذه الآية ، وليس منها شىء يصح . وكان مما تموّه به الكفار على عوامّهم قولهم : حق الأنبيـاء ألا يعجِزوا عن شىء ؛ فلِم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا فى عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغى ألا يجرى عليهم سَهْوٌ وغلط ؛ فبيّن الرب سبحانه أنهم بَشَر ، والآتى بالعذاب هو الله تعـالى على ما يريد ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يُحكم الله آياته وينْسَخ حِيَل الشيطان . روى اللّيث عن يونس عن الزهرىّ عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إذا هَوَى » فلمـا بلغ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »

سها فقال : " إن شفاعتهم تُرْتَجى " فلقيه المشركون والذين فى قلوبهم مرض فسلّموا عليه وفرحوا ؛ فقال : " إن ذلك من الشيطان " فأنزل الله تعالى « وما أرسلنا مِنْ قَبْلِك مِن رسولٍ ولا نَبِيٍّ » الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا حديث قتادة وزاد فيه "وإنهنّ لهنّ الغَرَانيق العُلَا" . وأقطعُ من هذا ما ذكره الواقدى عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه أخذ ترابا من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا . ويقال إنه أبو أُحَيْحة سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "ما جئتك به"! وأنزل الله «لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً» (١) . قال النحاس : وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدىّ . وفى البخارىّ أن الذى أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسيأتى تمام كلام النحاس على الحديث — إن شاء الله — آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذى فيه هى الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخارىّ ولا مسلم ، ولا ذكره فى علمى مصنّف مشهور ؛ بل يقتضى مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقَى ، ولا يعيّنون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس فى صورة هذا الإلقاء ، فالذى فى التفاسير وهو مشهور القول أن النبىّ صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على لسانه . وحدّثنى أبى رضى الله عنه أنه لَقِيَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفارَ عند قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : «أفرأيتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» ، وقرّب صوته من صوت النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها . وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام أبى المعالى . وقيل : الذى ألقى شيطانُ الإنس ؛ كقوله عز وجل : «وَالْغَوْا فِيهِ» (٢) . قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

(١) آية ٧٤ سورة الإسراء .		(٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

وقال القاضى عياض فى كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقــه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه، لا قصــدا ولا عمدا ولا سهوا وغلطا : اعلم أكرمك الله أن لنــا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما — فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه . أما المأخذ الأوّل فيكفيك أن هذا حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقةٌ ؛ وإنمــا أولِــع به و بمثــله المفسّرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقّفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهــذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ؛ إلا ما رواه شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس فيما أحسب، الشك فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة ... وذكر القصة . ولم يسنده عن شــعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن ســعيد بن جبير . وإنمــا يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ؛ فقــد بيّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبّه عليه مع وقوع الشك فيه الذى ذكرناه، الذى لا يُوثق به ولا حقيقةَ معه . وأما حديث الكلبىّ فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذِكره لقوّة ضعفه وكذبه؛ كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذى منه فى الصحيح : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ «والنجم» بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثانى فهو مبنىّ على تسليم الحديث لو صح . وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقــد أجاب أئمة المسلمين عنــه بأجوبة ؛ منها الغَثّ والسَّمين . والذى يظهر ويترجح فى تأويله على تسليمه أن النبىّ صــلى الله عليه وســلم كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلا، ويفصّل الآى تفصيلا فى قراءته؛ كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ماٱختلقه من تلك الكلمات، محاكياً نغمة النبىّ صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليــه من الكفار، فظنّوها من قول النبىّ صــلى الله عليه وســلم وأشاعوها .

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلهـا الله ، وتحققهم من حال النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعَيْبها ما عُرِف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسببِ هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : «وما أرسلنا مِن قبلِك من رسولٍ ولا نبيّ [1]» الآية .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيــل فى هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « فى » بمعنى عند ؛ أى ألقى الشيطان فى قلوب الكفار عنــد تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله عز وجل : « وَلَبِثْتَ فِينَا [2] » أى عنــدنا . وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيــه عن علمــاء الشرق ، و إليــه أشار القاضى أبو بكر بن العربى ، وقال قبله : إن هــذه الآية نص فى غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل فى براءة النبيّ صلى الله عليه وسلم ممـا ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا مِن قبلك من رســول ولا نبيّ إلا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشيطانُ فى أُمْنِيَّتِه» أى فى تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سنته فى رسله وسيرتِه فى أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولا زاد الشيطان فيه من قِبل نفسه كما يفعل سائر المعاصى . تقول : ألقيت فى الدار كذا وألقيت فى الكيس كذا ؛ فهــذا نص فى الشيطان أنه زاد فى الذى قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدِى لهذا إلا الطبرى لجلالة قدره وصفاء فكره وسَعة باعه فى العلم ، وشِدّة ساعده فى النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوّب على هذا المرمى ، وقرطس بعدما ذكر فى ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لمـا رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعال لمـا يريد .

وأما غيره من التأويلات فمـا حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبرا عنه : « وما كانَ لِيَ عليكم مِن سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكُم فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى [3] » ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لمـا بقى لأحد

(١) راجع كتاب الشفا للقاضى عياض جـ ٢ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الآستانة .
(٢) آية ١٨ سورة الشعراء .　　(٣) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بنى آدم قوّة فى طاعة ، ومن توَهّم أن للشيطان هذه القوّة فهو قول الثَّنَوِيَّة والمجوس فى أن الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه فجرى عند قراءة السورة ما كان فى حفظه سهوا ؛ وعلى هذا يجـوز السهو عليهم ولا يُقَرّون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الاية تمهيدا لعذره وتسلية له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبيّن أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنمـا ينتفى عن الله تعالى ؛ وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل عليه السلام وألقى فى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لَتُرْتَجَى . وهذا التأويل وإن كان أشبه ممـا قبله فالتأويل الأوّل عليه المعوّل ، فلا يُعدل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ، وضعفُ الحـديث مُغْنٍ عن كل تأويل ، والحمد لله . وممـا يدل على ضـعفه أيضا وتوهينه من الكتاب قولُه تعالى : « وإن كادُوا لَيَفْتِنُونَك »[(1)] الآيتين ؛ فإنهما تردّان الخبر الذى رَوَوْه ؛ لأن الله تعـالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته لكان يركن إليهـم . فمضمون هـذا ومفهومه أن الله تعـالى عَصَمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يروُون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : ٱفتريت على الله وقلت مالم يقل . وهـذا ضـدّ مفهوم الآية ، وهى تضعّف الحديث لو صح ؛ فكيف ولا صحة له . وهذا مِثل قوله تعالى : « ولولا فضلُ الله عليك ورحمتُه لَهَمّتْ طائفة مِنهم أن يُضلوك وما يُضلون إلا أنفُسَهم وما يَضُرّونك مِن شىء »[(2)] . قال القُشَيْرِىّ : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعدوه بالإيمان به إن فعـل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال ٱبن الأنبارى : ما قارب الرسول ولا رَكَن . وقال الزجاج : أى كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقـد قيل : إن معنى « تمنّى » حدّث ، لا « تلا » . روى عن علىّ بن أبى طلحة عن بن ٱعباس فى قوله عز وجل « إلا إذا تمنى » قال : إلا إذا حدّث « ألقى الشيطان فى أمنيته » قال : فى حديثه « فيَنْسَخ

(١) آية ٧٣ سورة الاسراء . (٢) آية ١١٣ سورة النساء .

اللهُ ما يُلْقِي الشيطانُ » قال : فيبطل الله ما يلقى الشيطان . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه وأجله . وقد قال أحمــد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفةً فى التفسير ، رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصــدا ما كان كثيرا . والمعنى عليــه : أن النبيّ صلى الله عليه وســلم كان إذا حدّث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيْطة فيقول : لو سألتَ الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون ؛ و يعلم الله عز وجل أن الصلاح فى غير ذلك ؛ فيبطل ما يلقى الشــيطان كما قال ابن عباس رضى الله عنهما . وحكى الكسائى والفراء جميعا « تمنى » إذا حدّث نفسه ؛ وهذا هو المعروف فى اللغة . وحَكَيَا أيضا « تمنى » إذا تلا . وروى عن آبن عباس أيضا وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدى : ليس هذا التمنى من القرآن والوحى فى شىء ، و إنمــا كان النبيّ صلى الله عليه وســلم إذا صفِرت يداه من المــال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنّى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان . وذكر المهدوىّ عن آبن عباس أن المعنى : إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه ؛ وهو اختيار الطبرى .

قلت : قوله تعــالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ الآية ، يردّ حديث النفس ، وقد قال آبن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنمــا هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ؛ فالله أعلم . قال النحاس : ولو صح الحديث وآتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا ، و يكون معنى سها أسقط ، ويكون تقديره : أفرأيتم اللّاتَ والعُزَّى ؛ وتم الكلام ، ثم أسقط (والغرانيق العلا) يعنى الملائكة (فإن شفاعتهم) يعود الضــمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهن الغرانيق العلا ، ففى روايته أجوبة ؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب فى أشياء كثيرة ، و يجوز أن يكون بغــير حذف ، ويكون توبيخا ؛ لأن قبله « أفرأيتم » و يكون هذا احتجاجا عليهم ؛ فإن كان فى الصلاة فقــد كان الكلام مباحا فى الصلاة . وقد روى فى هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرأيتم اللات والعُزّى . ومناة الثالثة الأخرى . والغرانقة العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالغرانيق العلا الملائكة ؛ و بهذا فسر الكلبيّ الغرانقة أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [أن] الأوثان والملائكة بنات

الله، كما حكى الله تعالى عنهم ، وردّ عليهم فى هذه السورة بقوله « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى » فأنكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح؛ فلما تأوّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبّس عليهم الشيطان بذلك، نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للتلبيس، كما نُسخ كثير من القرآن؛ ورفعت تلاوته . قال القُشَيرى : وهذا غير سديد ؛ لقوله « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم . « حكيم » فى خلقه .

قوله تعالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ أى ضلالة . ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شرك ونفاق . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلين لأمر الله تعالى . قال الثعلبى : وفى الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شغل القلب حتى يغلَط، ثم يُنَبَّهُ ويرجع إلى الصحيح؛ وهو معنى قوله : « فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ » . ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلَط أحدنا، فأما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرانيق العلا ، فكذب على النبى صلى الله عليه وسلم؛ لأن فيه تعظيم الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وظننته قرآنا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى الكافرين لفى خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى « البقرة »(1) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

(1) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى من المؤمنين . وقيـل : أهل الكتاب . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى أن الذى أحكم من آيات القـرآن هو ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى تخشع وتسكن . وقيل : تخلص . ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهَـادِى الَّذِين آمنوا ﴾ قرأ أبو حَيْوَة « وإن الله لهـادٍ الذين آمنوا » بالتنوين . ﴿ إلى صِراطٍ مستقيم ﴾ أى يثبتهم على الهـــداية .

قوله تعـالى : وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْـهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُـمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يعنى فى شـك من القرآن ؛ قاله ابن جُرَيج . وغيره : من الدِّين ؛ وهو الصراط المستقيم . وقيـل : ممـا ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسـلم ، ويقولون : ما باله ذكر الأصنام بخـير ثم ارتدّ عنها . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ « فى مُرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة . ﴿ بَغْتَـةً ﴾ أى فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُـمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال الضحاك : عذاب يوم لا ليـلة له وهو يوم القيامة . النحاس : سمى يوم القيامة عقيما لأنه ليس يَعْقُب بعـده يوما مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عمن لا يكون له ولد ؛ ولمـا كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبلُ وبعدُ ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة ، ولمـا لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس ومجاهـد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثـل له فى عظمه ؛ لأن الملائكة قاتلت فيــه . ابن جُرَيج : لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليـل ، بل قتلوا قبـل المساء فصار يوما لا ليـلة له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا ليلة له . وقيـل : لأنه لم يكن فيه رأفة ولا رحمـة ، وكان عقيما من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلنا عليهمُ الرِّيحَ العَقِيم »[1] أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر ولا رحمة .

(١) آية ٤١ سورة الذاريات .

قوله تعالى : ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعنى يوم القيامة هو لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع . والملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور . ثم بيّن حكمه فقال : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ فِى جَنّاتِ النعيم . وَالّذِينَ كَفَرُوا وَكَذّبُوا بِآياتِنا فأولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة بـ « يومئذٍ » ليوم بَدْر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد قال عليه السلام لعمر : " وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلا لهم وتشريفا على سائر الموتى .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مَظْعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل فى سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول فى سبيل الله والميتَ فى سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول مَزِيّة ما أصابه فى ذات الله . وقال بعضهم : هما سواء ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »[1] ، وبحديث أم حَرام؛ فانها صُرعت عن دابتها فماتت ولم تُقتل فقال لهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنت من الأوّلين"، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله ابن عَتيـك : " من خرج من بيتـه مهاجرا فى سبيل الله فخرّ عن دابته فمات أو لدغته حية فمات أو مات حَتْفَ أنفه فقد وقع أجره على الله ومن مات قَعْصًا[2] فقد استوجب المآب " .
وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عبيـد فى حديث ذكر فيـه رجلين أحدهما أصيب فى غَزاة بمَنْجَنيق فمات والآخر مات هناك؛ فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنـده؟ فقال : ما أبالى من أيّ حفرتيهما بُعثت؛ ثم تلا قوله تعـالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتوا» الآية كلها . وقال سليمان بن عامر : كان فضالة برُودِس أميرا على الأرباع فخُرِج بجنازتى رجلين أحدهما قتيل والآخر متوَفّى؛ فرأى ميـل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته؛ فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذى نفسى بيده ما أبالى من أيّ حفرتيهما بُعثت، اقرءوا قوله تعـالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتـلوا أو ماتوا» . كذا ذكره الثعلبى فى تفسيره، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك . واحتج من قال : إن للمقتول زيادةَ فضل بمـا ثبت عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم أنه سئل : أيّ الجهاد أفضل؟ قال : " من أُهْرِيق دمُه وعُقِر جواده " . وإذا كان من أهريق دمه وعُقر جواده أفضلَ الشهداء عُلِم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول . قرأ ابن عامر وأهل الشام « قُتِّلوا » بالتشـديد على التكثير . الباقون بالتخفيف . ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَـوْنَهُ ﴾ أى الجنان . قراءة أهـل المدينة « مَدخلا » بفتح المـيم ؛ أى دخولا . وضمها الباقون ، وقد مضى فى « سبحان »[3] . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْـلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْــهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

---

(١) آية ١٠٠ سورة النساء .
(٢) القعص : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد بوجوب المآب حسن المرجع بعد الموت .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣١٣

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ؛ أى ذلك الأمر الذى قصصنا عليك . قال مقاتل : نزلت فى قوم من مشركى مكة لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فآحملوا عليهم ؛ فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ؛ فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ؛ وحصل فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام شىء ؛ فنزلت هذه الآية . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين ، مثّلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أُحُد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله . فمعنى « من عاقب بمثل ما عوقب به » أى من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ؛ فسمّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة ؛ فهو مثل « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[(1)] . ومثل « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »[(2)] . وقد تقدم . ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أى بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيّهم وآذَوْا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم . ﴿ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ أى لينصرنّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار بَغَوا عليهم . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أى عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم فى الشهر الحرام وستر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ أى ذلك الذى قصصت عليك من نصر المظلوم هو بأنى أنا الذى أولج الليل فى النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أى من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى فى « آل عمران »[(3)] معنى يولج الليل فى النهار . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها .

---

(1) آية ٤٠ سورة الشورى . (2) آية ١٩٤ سورة البقرة . (3) راجع جـ ٤ ص ٥٦

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينــه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى الأصــنام التى لا استحقاق لهــا فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر « وأن ما تدعون » بالتــاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقون باليــاء على الخــبر هنا وفى لقمان[1]، واختاره أبو عبيد . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أى العالى على كل شىء بقدرته ، والعالى عن الأشباه والأنداد، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أى الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أى له الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقى بعــد فنــاء خلقـــه .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قَدَر على هــذا قَدَر على إعادة الحياة بعــد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » . ومثله كثير . « فَتُصبِـحُ » ليس بجواب فيكون منصوبا ، وإنمــا هو خبر عند الخليل وسيبويه . قال الخليــل : المعنى انْتَبِه ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

ألم تسأل الرَّبْعَ القَـوَاء فَيَنْطِقُ * وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[2]

(١) آية ٣٠   (٢) البيت لجميل بن عبد الله صاحب بثينة . والقواء (بفتح القاف) : القفر . والبيداء : القفر أيضا ، الذى يبيد من سلك فيــه . والسملق (بفتح السين وسكون الميم وفتح اللام) : الأرض التى لا تنبت ، وهى السهلة المستوية . (شواهد العينى) .

معناه قد سألته فنطق . وقيل ٱستفهام تحقيق؛ أى قد رأيت، فتأمل كيف تصبح ! أو عطف لأن المعنى ألم تر أن الله ينزل . وقال الفــراء : « ألم تر» خبر؛ كما تقــول فى الكلام : اعلم أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أى ذات خضرة ؛ كما تقول : مُبْقِلَة ومَسْبَعَة ؛ أى ذات بقل وسباع . وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول المــاء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . قال ابن عطية : و روى عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلا بمكة وتهامة . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فتصبِــح » مقصودا به صباح ليلة المطر ، وذهب إلى أن ذلك الأخضرار يتأخر فى سائر البــلاد ، وقد شاهدت هــذا [فى] السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد قحط أصبحت تلك الأرض الرملة التى نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : « خبير » بما ينطوى عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر . « لطيف » بأرزاق عباده . وقيــل : لطيف باستخراج النبات من الأرض ، خبير بحاجتهم وفاقتهم .

قوله تعــالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قوله تعــالى : ﴿ لَهُ ما فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا؛ وكلٌّ محتــاج إلى تدبيره و إتقانه . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ فلا يحتاج إلى شىء، وهو المحمود فى كل حال .

قوله تعــالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعــالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعــمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار . ﴿ وَالْفُلْكَ ﴾ أى وسخّر لكم الفلك فى حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « والفُلْكُ » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما فى الأرض » . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لئلا تقع . وإمساكه لها خلق السكون فيها حالا بعد حال . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى إلا بإذن الله لها بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أى بإرادته وبحيلته . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فى هذه الأشياء التى سخرها لهم .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ﴾ أى بعد أن كنتم نُطَفًا . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى للحساب والثواب والعقاب . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أى لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته . قال ابن عباس : يريد الأسود ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين . وقيل : إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم؛ كما قال تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»[1] .

قوله تعالى : لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أى شرعا . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أى عاملون به . ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ﴾ أى لا ينازعنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع فى كل عصر . وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وقولهم للؤمنين : تأكلون ماذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة، فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ؛ فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة . وقد مضى هذا فى « الأنعام »[2] والحمد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنْسَكًا »[3] . وقوله : « هم ناسكوه » يعطى أن المَنْسك المصدر، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

(١) آية ١٣ سورة سبأ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢ (٣) ص ٥٨ من هذا الجزء .

وقال الزجاج : « فلا يُنازِعُنَّك فى الأمر » أى فلا يجادلنّك ؛ ودلّ على هذا « وإن جَادَلُوكَ » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا ينازعنك ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ، تقول : لا يضاربنك فلان فلا تضارب به أنت؛ فيجرى هذا فى باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربنك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقرأ أبو مِجْلَز « فلا يَنْزِعنّك فى الأمر » أى لا يستخفلنك ولا يغلبنك عن دينك . وقراءة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى فى القراءتين للكفار ، والمراد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى توحيده ودينه والإيمان به . ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى ﴾ أى دين . ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشركى مكة . ﴿ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يريد من تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مُقاتل : هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو فى السماء السابعة لما رأى من آيات ربّه الكبرى؛ فأوحى الله إليه « وإنْ جادلوك » بالباطل فدافعهم بقولك « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانةً له عن الاشتغال بتعنّتهم؛ ولا جواب لصاحب العِناد . ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يريد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه . ﴿ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد فى خلافكم آياتى ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل .

مسألة — فى هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علّمه الله عبادَه فى الرّد على من جادل تعنّتًا ومِراء ألا يجاب ولا يناظر ويُدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ يعنى السكوت عن مخالفه والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى وإذ قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فآعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم . وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ أى كلّ ما يجرى فى العـالَم فهو مكتوب عند الله فى أم الكتاب . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أى إن الفصل بين المختلفين على الله يسير . وقيـل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أى حجة وبرهانا . وقد تقدم فى « آل عمران »(1) . ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِـــيرٍ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القـرآن . ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ أى الغضب والعُبوس . ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ أى يبطشون . والسطوة شدّة البطش ؛ يقال : ســطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشتم ؛ وســطا

(1) راجع ج ٤ ص ٢٣٢

عليه . ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ . وقال ابن عباس : يسطون يبسطون إليهم أيديهم . محمــد بن كعب : أى يقعون بهم . الضحاك : أى يأخذونهم أخذًا باليد ، والمعنى واحد . وأصل السَّطْو القهر . والله ذو سـطوات ؛ أى أخذات شديدة . ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ ﴾ أى أكره من هذا القرآن الذى تسمعون هو النار ؛ فكأنهم قالوا : ما الذى هو شر؛ فقيل هو النــار . وقيل : أى هل أنبئكم بشر مما يلحق تالى القرآن منكم هو النــار ؛ فيكون هذا وعيدا لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز فى « النار » الرفع والنصب والخفض؛ فالرفع على هو النار، أو هى النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل الثانى ، أو يكون محمولا على المعنى ؛ أى أعرفكم بشر من ذالكم النار . والخفض على البدل . ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى القيامة . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى الموضع الذى يصيرون إليه وهو النــار .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا متصل بقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا » . وإنما قال « ضُرِبَ مَثَلٌ » لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقربُ إلى أفهامهــم . فإن قيــل : فأين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان : الأوّل — قال الأخفش : ليس ثَمّ مثل، وإنمــا المعنى ضربوا لى مثلا فاستمعوا قولهم؛ يعنى أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره؛ فكأنه قال جعلوا لى شبيها فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه . الثانى — قول القُتَبِىّ : وأن المعنى يأيها الناس، مَثَلُ من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل ما يُعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أى بيّن الله لكم شبها

ولمعبودكم . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة « تدعون » بالتاء . وقرأ السُّلَمِيّ وأبو العالية ويعقوب « يدعون » بالياء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله . وكانت حول الكعبة ، وهى ثلثمائة وستون صنما . وقيل : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى؛ والأول أصوب . ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذِبّان ؛ على مثل غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته . الجوهرى : والذباب معروف الواحدة ذُبابة ، ولا تقل ذِبّانة . والمِذَبّة ما يُذَبّ به الذباب . وذُبَاب أسنان الإبل حدّها . وذُباب السيف طَرَفه الذى يضرب به . وذُباب العين إنسانها . والذُّبَابة البقية من الدَّين . وذَبَّب النهار إذا لم يبق منه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذَّبْذَبة نَوْس الشيء المعلّق فى الهواء . والذَّبْذَب الذكر لتردّده . وفى الحديث "مَن وُقِيَ شَرّ ذَبْذَبِه". [وهذا مما لم يذكره ، أعنى قوله : وفى الحديث](١) . ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ التخليص . قال ابن عباس : كانوا يَطْلُون أصنامهم بالزّعفران فتجفّ فيأتى فيختلسه . وقال السُّدِّى : كانوا يجعلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيل : الطالب الآلهةُ والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس . وقيل : الطالب عابدُ الصنم والمطلوبُ الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : «وإنْ يَسْلُبْهم الذّبابُ شيئا» راجع إلى ألمه فى قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها . وخصّ الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته؛ فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٧٤)

(١) ما بين المربعين غير واضح المعنى . وما نقله المؤلف رحمه الله عن الجوهرى مذكور كله فى الصحاح الى قوله : « ... شر ذبذبه » .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى ما عظّموه حق عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام»(١) . ﴿ إن اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ختم السورة بأن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعثه محمدا أمرا بِدعيًّا . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد ما قدموا . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يريد ما خلفوا؛ مثل قوله فى يسۤ : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا »(٢) يريد ما بين أيديهم « وآثارهم » يريد ما خلفوا . ﴿ وإلى اللهِ ترجع الأمور ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ تقدّم فى أوّل السورة أنها فضلت بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه قرن الركوع بالسجود، وأن المراد بها الصلاةُ المفروضة ؛ وخصّ الركوع والسجود تشريفا للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود مبيَّنا فى «البقرة»(٣) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى امتثلوا أمره . ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ نَدْب فيما عدا الواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦ (٢) آية ١٢ سورة يس . (٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ﴾ قيل : عنى به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظَّلَمةَ في رد ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : «فٱتقوا الله ما ٱستطعتم» (١) . وكذا قال هبة الله : إن قوله «حَقَّ جِهاده» وقولَه في الآية الأخرى : « حَقَّ تُقاتِه » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هـذه الأوامر . ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أوّل الحكم ؛ لأن « حق جهاده » ما ارتفع عنه الحرج . وقد روى سعيد بن المسيّب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيرُ دينكم أيْسَرُه" . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حَيْوَةُ بن شُرَيح يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل" . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أيّ الجهاد أفضل؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ، ثم سأله عند الجمرة الثانيـة فلم يجبه ، ثم سأله عند جمرة العقبة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين السائل"؟ فقال : أنا ذا ؛ فقال عليه السلام : "كلمةُ عَدْل عند سلطان جائر" .

---

(١) آية ١٦ سورة التغابن .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ﴾ أى اختاركم للذبّ عن دينه والتزام أمره؛ وهـذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أى وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى من ضِيق . وقد تقدّم فى « الأنعـام »[١] . وهذه الآية تدخل فى كثير من الأحكام؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى معمر عن قتادة قال : أعطِيتْ هـذه الأمة ثلاثا لم يُعْطَها إلا نبيّ : كان يقال للنبيّ اذهب فلا حرج عليك، وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج » . والنبيّ شهيد على أمته، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شُهَداءَ على الناس » . و يقال للنبيّ : سَلْ تُعْطَه، وقيـل لهذه الأمة : « ادعونى أستجبْ لكم » .

الثانيـــة ــ واختلف العلماء فى هذا الحَرَج الذى رفعه الله تعـالى؛ فقال عكرمة : هو ما أُحِلّ من النسـاء مَثْنَى وثلاثَ ورُباع، وما ملكتْ يَمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة، والإفطارُ للسافر، وصلاةُ الإيمـاء لمن لا يقدر على غيره، وَحطُّ الجهاد عن الأعمى والأعرج والمريض والعَديم الذى لا يجد ما ينفق فى غَزْوه، والغَرِيم ومن له والدان، وحَطّ الإصْر الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشـياء[٢] . وروى عن ابن عبـاس والحسن البصرى أن هذا فى تقديم الأهِلّة وتأخيرها فى الفطر والأضحى والصوم؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم، على خلاف فيه بيناه فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح فى الباب . وكذلك الفطر والأضحى؛ لمـا رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المُنْكَدِر عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فِطرُكم يوم تُفْطِرون وأضحاكم يوم تضحون " . خرجه أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتهادكم من غير حرج يلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء، فمـا يسئل عن

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣٠، جـ ٧ ص ٣٠٠

أمر ممـا ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيهـا : " افعل ولا حرج " .

الثالثـــة ــ قال العلماء : رفع الحَرَج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السلّابة والسُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدّين ، وليس فى الشرع أعظم حرجا من إلزام ثبوت رجل لاثنين فى سبيل الله تعـالى ؛ ومع صحـة اليقين وجودة العزم ليس بحرج .

قوله تعـالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم . الفرّاء : انتصب على تقـدير حذف الكاف؛ كأنه قال كمِلّة . وقيل : المعنى وافعلوا الخـير فعل أبيكم ؛ فأقام الفعل مقام الملة . و إبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميـع المسلمين، و إن لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم؛ والمعنى : هو سماكم المسلمين من قبل النبيّ صلى الله عليـه وسلم . ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أى وفى حكمه أن من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ[1] » . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عظماء الأمة . روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله عز وجل المسلمين من قبلُ، أى فى الكتب المتقدمة وفى هـذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيـدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى بتبليغه إياكم . ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلهم قد بلّغتهـم ؛ كما تقـدّم فى « البقرة[2] » . ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ[3] ﴾ تقـدّم مستوفًى والحمد لله .

---

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة .　　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤، ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٤ ص ١٥٦

سورة المؤمنون

مكيّة كلها فى قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ روى البَيْهقِىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما خلق الله جنة عَدْن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلّمى فقالت قد أفلح المؤمنون " . وروى النّسائىّ عن عبد الله بن السائب قال : حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلّى فى قِبَل الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فٱفتتح سورة المؤمنين، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سَعْلة فركع . خرجه مسلم بمعناه . وفى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى سُمع عند وجهه كَدَوِىّ النحل؛ وأنزل عليه يوما فمكثنا ساعةً فسُرِّىَ عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : " اللّهمّ زِدْنا ولا تنقصنا وارضنا وٱرض عنّا — ثم قال —

أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة — ثم قرأ — قد أفلح المؤمنون " حتى ختم عشر آيات ؛ صحّحه ابن العربى . وقال النحاس : معنى " من أقامهن " من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن ؛ كما تقول : فلان يقوم بعمله . ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والحج فدخل معهن . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « قد أُفْلِح المؤمنون » بضم الألف على الفعل المجهول ؛ أى أُبْقُوا فى الثواب والخير . وقد مضى فى أوّل « البقرة » معنى الفلاح لغةً ومعنًى (١) ، والحمد لله وحده .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ روى المُعْتَمِر عن خالد عن محمد بن سيرين قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء فى الصلاة ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد . وفى رواية هُشيم : كان المسلمون يلتفتون فى الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ؛ فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم . وقد تقدم ما للعلماء فى حكم المصلّى إلى حيث ينظر فى « البقرة » عند قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرام » (٢) . وتقدم أيضا معنى الخشوع لغة ومعنًى فى البقرة أيضا عند قوله تعالى : « وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ » (٣) . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلّها لخشوعه ؛ إذ هو مَلِكُها ، حسبما بيّنّاه أوّل البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمنَ أن يمدّ بصره إلى شىء وأن يحدّث نفسه بشىء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألّا يعبث بشىء من جسده فى الصلاة . وأبصر النبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه " . وقال أبو ذرٍّ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى " . رواه الترمذى . وقال الشاعر :

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَلَا فى الصلاة الخيرُ والفضل أجمعُ * لأنَّ بها الآراب[1] لله تخضـــعُ
وأوَّل فرضٍ مِن شريعة ديننـا * وآخر ما يبقى إذا الدِّين يُرفع
فمَـن قام للتكبير لاقته رحمـة * وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْـرَعُ
وصـار لربِّ العرش حين صـلاته * نَجِيًّـا فيَا طُوباه لو كان يخشـع

وروى أبو عمر أن الجَوْنِيّ قال : قيل لعائشة مَا كان خُلُق رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : أتقرءون سـورة المؤمنين ؟ قيـل نعم . قالت : اقرءوا ؛ فقرئ عليها « قـد أفلح المؤمنون — حتى بلغ — يحافظون » . وروى النَّسائىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ فى صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوى عنقه خلف ظهره . وقال كعب بن مالك فى حديثـه الطويل : ثم أصلى قريبا منـه — يعنى من النبىّ صلى الله عليه وسـلم — وأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ وإذا التفتّ نحوه أعرض عنى ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثـــة — اختلف الناس فى الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين . والصحيح الأوّل ، ومحله القلب ، وهو أوّل علم يرفع من الناس ؛ قاله عُبادة بن الصامت ، رواه الترمذى من حديث جُبـير بن نُفير عن أبى الدّرداء ، وقال : هذا حديث حسن غريب . وقد خرجه النّسائى من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف بن مالك الأشجعىّ من طريق صحيحة . قال أبو عيسى : ومعاوية[2] بن صالح ثقة عنـد أهل الحديث ، ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القَطّان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمـرو ويقال أبو عمر الحضرمى الحمصى قاضى الأندلس ، سئل عنه أبو حاتم الرازى فقال : صالح الحـديث ، يُكتب حديثـه ولا يحتج به . واختلف فيه قول يحيى بن معين ، ووثّقه عبد الرحمن بن مهدى وأحمد بن حنبل وأبو زُرْعة الرازى ، واحتج به مسـلم فى صحيحه . وتقدم فى « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة[3] . وقال

(١) الآراب : جمع الإرب (بكسر فسكون) وهو العضو . (٢) هو أحد رجال سند الحديث المتقدم .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٤٣ ، ج ٣ ص ٩٩

الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصى كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقولُ من قال هو الغناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد ابن المُنْكَدِر، على ما يأتى فى « لُقْمان » بيانه . ومعنى « فاعلون » أى مؤدّون ؛ وهى فصيحة ، وقد جاءت فى كلام العرب . قال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

المطعمون الطعام فى السنة الأزْ * مــة والفاعلون للزّكَواتِ

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربى : « من غريب القرآن أن هــذه الآيات العشر عامّةٌ فى الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التى هى محتملة لهم فإنها عامّة فيهم ، إلا قوله «والذين هم لفروجهم حافظون» فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات؛ بدليل قوله : «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم» . وإنما عُرِف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عموما وخصوصا وغير ذلك من الأدلّة» .

قلت : وعلى هذا التأويل فى الآية فلا يحلّ لامرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعا من العلماء؛ لأنها غير داخلة فى الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له جاز له أن يتزوّجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ أنها لو أعتقته حين ملكته كانا على نكاحهما . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن تملّكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد ولو كانت فى عدّة منه .

الخامســـة — قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حَرْمَلة بن عبد العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يَجْلِد عُمَيرة ، فتلا هــذه الآية « والذين هم لفروجهم حافظون — إلى قوله — العادون » . وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكَر بعُمَيْرة؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَلْتَ بوادٍ لا أنيس به * فاجلد عُمَيرة لا داءٌ ولا حَرَجُ

ويسميه أهــل العراق الاستمناء، وهو استفعال من المَنِىّ . وأحمــد بن حنبل على ورعه يجوّزه ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة؛ أصله الفَصْد والحجامة . وعامة

العلماء على تحريمه . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قِيلة ، و ياليتها لم تُقَل ؛ ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يَعْرِض عنها لدناءتها . فإن قيل : إنها خير من نكاح الأَمَة ؛ قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، و إن كان قد قال به قائل أيضا، ولكن الاستمناء ضعيف فى الدليل عارٌ بالرجل الدنىء فكيف بالرجل الكبير .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفَرّاء : أى من أزواجهم اللاتى أحل الله لهم لا يجاوزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فى موضع خفض معطوفة على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء ونكاح المُتْعة؛ لأن المتمتَّع بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المدّة التى عُقدت عليها وصارت كالمستأجَرة . ابن العربى : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهى زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . و إن قلنا بالحق الذى أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل فى الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحدّ ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحدّ للشبهة ويلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا . وقد كان للتعة فى التحليل والتحريم أحوال؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زَمَنَ خَيْبَر، ثم حللها فى غَزاة الفتح، ثم حرمها بعدُ؛ قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه، وإليه أشار ابن العربى . وقد مضى فى « النساء » القول فيها مستوفًى[1] .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فسمّى من نكح ما لا يحل عاديا ، وأوجب عليه الحدّ لعدوانه ، واللائط عادٍ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » وكما تقدم فى « الأعراف »[2] ؛ فوجب أن يقام الحدّ عليهم، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ وما بعدها .

قلت : فيه نظر، ما لم يكن جاهلا او متأوّلا، وإن كان الإجماع منعقدا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » خصّ به الرجال دون النساء؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال : تسرّرت امرأة غلامها؛ فذُكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحلّ لى بملك يمينى كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين؛ فاستشار عمر فى رَجْمها أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأوّلتْ كتاب الله عزّ وجلّ على غير تأويله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا جَرَم! والله لا أُحِلّك لحرّ بعده أبدا . عاقبها بذلك ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد ألّا يقربها . وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة بغلام لها وَضِيء فقالت : إنى استسررته فمنعنى بنو عمى عن ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها؛ فانْهَ عنى بنى عمى؛ فقال عمر : أتزوّجتِ قبله؟ قالت نعم؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها . و « وَرَاءَ » بمعنى سِوى، وهو مفعول بـ « ٱبْتَغَى » أى من طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة له . وقال الزجاج : أى فمن ابتغى ما بعد ذلك؛ فمفعول الابتغاء محذوف ، و « وَرَاءَ » ظرف . و « ذَلِكَ » يشار به إلى كل مذكور مؤنثا كان أو مذكرا . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ أى المجاوزون الحدّ؛ من عدا أى جاوز الحدّ وجازه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا . وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك؛ وغايةُ ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

التاسعة — قرأ الجمهور « صَلَوَاتِهِمْ » وحمزة والكسائى « صلاتهم » بالإفراد؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو فى معنى الجميع . والمحافظة على الصلاة إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ

أوقاتها ، و إتمـام ركوعها وسجودها . وقد تقدم فى « البقرة » مستوفًى . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عمل بما ذكر فى هـذه الآيات فهم الوارثون؛ أى يرثون منازل أهل النار من الجنـة . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكنا فى الجنة ومسكنا فى النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم و يرثون منازل الكفار ويجعـل الكفار فى منازلهم فى النار" . خرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: « أولئـك هم الوارثون » " . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين . والفردوس رَبْوَة الجنـة وأوسطها وأفضلها . خرّجه الترمذىّ من حديث الرُّبَيِّع بنت النضر أم حارثة، وقال: حديث حسن صحيح . وفى حديث مسـلم "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنـة وأعلى الجنة ومنه تُفْجَر أنهار الجنـة" . قال أبو حاتم محمـد بن حِبّان : قوله صـلى الله عليه وسلم "فإنه أوسط الجنة" يريد أن الفردوس فى وسط الجِنان فى العرض وهو أعلى الجنـة؛ يريد فى الارتفاع . وهذا كله يصحح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التى تتفجر منه أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : رُومية عُرّبت . وقيل : هى فارسية عربت . وقيل حبشية ؛ و إن ثبت ذلك فهو وِفاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربىّ وهو الكَرْم ؛ والعرب تقول للكروم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فأنّث على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره، لأنه آستُلّ من الطين . ويجيء الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر ؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى توارت بِالحِجَابِ »[1] . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم ؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة على هذا صفوة المـاء ، يعني المنيّ . والسـلالة فُعالة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء؛ يقال : سللت الشعر من العجين، والسيف من الغِمد فآنسل؛ ومنه قوله :

* فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[2] *

فالنطفة سُلالة ، والولد سَليل وسُلَالة؛ عنى به المـاء يُسَلّ من الظهر سَلًّا . قال الشاعر :

فجاءت به عَضْبَ الأدِيم غَضَنْفَرًا * سـلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حصِين[3]

وقال آخر :

وما هِنْدُ إلّا مُهْرَةٌ عربيّة * سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بَغْلُ[4]

وقوله « من طين » أي أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أي من طين خالص ؛ فأما ولده فهو من طين ومنيّ ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[5] . وقال الكَلْبيّ : السلالة الطين إذا عصرته انســل من بين أصابعك ؛ فالذي يخرج هو السُّلالة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ نُطْفَةً ﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج[6] ، والحمد لله على ذلك .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ آختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس والشَّعْبيّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس . وصدره :

* وإن تك قـد ساءتك مني خليقة *

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) نسب صاحب لسان العرب هذا البيت لهند بنت النعمان (مادة سلل) . وتجللها : علاها . وقوله «بغل» قال ابن برى : وذكر بعضهم أنها تصحيف ، وأن صوابه «نغل» بالنون وهو الخسيس من الناس والدواب ؛ لأن البغل لا ينسل . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ (٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

جمادا . وعن ابن عباس : خروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره . الضحاك : خروج الأسنان ونباتُ الشعر . مجاهد : كمال شبابه؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه عام فى هذا وفى غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله « خلقا آخر » قال فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت". وفى مسند الطَّيَالِسِىّ : ونزلت « ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين » الآية؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت « تبارك الله أحسن الخالقين » . ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جَبَل . وروى أن قائل ذلك عبد الله بن أبى سَرْح، وبهذا السبب ارتد وقال : آتى بمثل ما يأتى محمد ؛ وفيه نزل « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما تقدم بيانه فى «الأنعام»[1] . وقوله تعالى «تبارك» تفاعل من البركة . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أتقن الصانعين . يقال لمن صنع شيئا خَلَقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تَفْرِى ما خلقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى[2]

وذهب بعض الناس إلى نفى هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى . وقال ابن جُريج : إنما قال « أحسن الخالقين » لأنه تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم فى ذلك . ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر فى معنى الصنع ؛ وإنما هى منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسئلة[3] — من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم؛ فقال عمر : ما تقول يا بن عباس؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرضين سبعا، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه فى سبع ، فأراها

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩ (٢) البيت لزهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . والفرى : القطع .
(٣) ذكر المؤلف أن المسائل خمس، ولم يذكر إلا أربعا ؛ ولعل هذه المسألة هى الخامسة .

فى ليلة سبع وعشرين . فقال عمر رضى الله عنه : أعجزكم[١] أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذى لم تجتمع شؤون رأسه . وهذا الحديث بطوله فى مسند ابن أبى شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية[٢] ، وبقوله « وجعل رزقه فى سبع » قوله « فأنبتنا فيها[٣] حَبًّا . وعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وفاكِهةً وأَبًّا » الآية . السبع منها لابن آدم ، والأَبُّ للأنعام . والقَضْبُ يأكله ابن آدم ويَسْمَن منه النساء ؛ هذا قول . وقيل : القَضْب البقول لأنها تُقْضَبُ ؛ فهى رزق ابنِ آدم . وقيل : القَضْب والأبّ للأنعام ، والستُّ الباقية لابن آدم ، والسابعةُ هى للأنعام ؛ إذ هى من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ أى بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال فى هذا المعنى لمائتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ قال أبو عبيدة : أى سبع سموات ؛ وحكى عنه أنه يقال : طارقتُ الشيء ، أى جعلت بعضه فوق بعض ؛ فقيل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمّى كلّ شيء فوق شيء طَريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ قال بعض العلماء : أى عن خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أى عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عن الخلق غافلين » أى فى القيام بمصالحه وحفظه ؛ وهو معنى الحيّ القيوم ؛ على ما تقدم[٤] .

(١) فى الدور المنثور : «أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام» . (٢) كذا فى الأصول ، وسياق الكلام يقتضى أن تكون العبارة هكذا : فأراد ابن عباس بقوله «خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ...» الخ .
(٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة عبس . (٤) راجع جـ ٣ ص ٢٧١

قوله تعالى : وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما آمتنّ به عليهم ؛ ومن أعظم المنن الماءُ الذى هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والماءُ المنزل من السماء على قسمين : هذا الذى ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه فى الأرض، وجعله فيها مختزنا لسقْى الناس يجدونه عند الحاجة إليه؛ وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار . وروى عن ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار الأربعة : سَيْحان وجَيْحان ونيل مصر والفُرات . وقال مجاهد : ليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهذا ليس على إطلاقه، وإلا فالأُجاج ثابت فى الأرض، فيمكن أن يقيّد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل فى الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيل : إن قوله « وأ نزلنا من السماء ماء » إشارةٌ إلى الماء العذب، وأن أصله من البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد؛ ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفع به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أى على مقدار مصلح، لأنه لو كثر أهلك؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »[١] . ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يعنى الماء المختزن . وهذا تهديد ووعيد؛ أى فى قدرتنا إذهابه وتغويره ، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا — أى غائرا — فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ»[٢] .

الثالثة — ذكر النحاس : قرئ على أبى يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سوادة قال : حدّثنا سعيد بن سابق قال حدّثنا مسلمة بن علىّ عن مقاتل بن حيان

(١) آية ٢١ سورة الحجر . (٢) آية ٣٠ سورة الملك .

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سَيْحون وهو نهر الهند وجَيْحون وهو نهر بَلْخ ودِجْلة والفُرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فى أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم وذلك قوله جل ثناؤه : « وأنزلنا مِن السماءِ ماء بِقدرٍ فأسكناه فِى الأرضِ » فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : « وإنا على ذهاب به لقادرون » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا " .

الرابعــة — كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه ؛ على ما يأتى فى «الفرقان»[1] بيانه .

قوله تعـالى : فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ أى جعلنا ذلك سبب النبات ، وأوجدناه به وخلقناه . وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ؛ قاله الطبرى . ولأنها أيضا أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفا لها وتنبيها عليها . ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أى فى الجنات . ﴿فَوَاكِهُ﴾ من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصّة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأول أعم لسائر الثمرات .

الثانيــة — من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففى الرواية عندنا يحنث بالباقِلّاء الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يحنث بأكل القِثّاء والخيار والجزر ؛ لأنها من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفستق ؛ لأن هذه الأشياء لا تُعَدّ من الفاكهة .

(١) فى قوله تعالى : «وهو الذى أرسل الرياح بُشْرًا بين يدى رحمته ... » آية ٤٨

و إن أكل تفاحا أو خوخا أو مشمشا أو تينا أو إجّاصا يحنث . وكذلك البِطّيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكّه قبل الطعام و بعده؛ فكانت فاكهة . وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا فى بعض البلدان . ولا يحنث بأكل البطيخ الهندى لأنه لا يعدّ من الفواكه . و إن أكل عنبا أو رمّانا أو رطبا لا يحنث . وخالفه صاحباه فقالا يحنث؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه ، وتؤكل على وجه التنعم. والإفراد لها بالذكر فى كتاب الله عز وجل لكمال معانيها؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال « فيهما فاكهة ونخل ورمّان»[(1)] ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشـياء فقال : « وفاكِهةً وأبًّا » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشىء الواحد بلفظين مختلفين فى موضع المنّة . والعنب والرمان يُكتفى بهما فى بعض البلـدان فلا يكون فاكهة؛ ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه و يابسه، و يابسُ هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ شجرة عطف على جنات . وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمعنى وثَمّ شجرة ؛ و يريد بهـا شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظيم منافعها فى أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلّة تعاهدها بالسّقى والحفر وغير ذلك من المراعاة فى سائر الأشجار . ﴿ تَخْرُجُ ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ أى أنبتها الله فى الأصل من هـذا الجبل الذى بارك الله فيه . وطورُ سَيْناء من أرض الشام وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد تقدّم فى البقرة والأعراف[(2)] . والطور الجبل فى كلام العرب . وقيل : هو مما عُرّب من كلام العجم . وقال ابن زيد : هو جبل

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٤ ، جـ ٧ ص ٢٧٨

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيْلة [١] . واختُلف فى سَيْناء ؛ فقال قتادة : معناه الحسَن ؛ و يلزم على هذا التأويل أن يُنَوَّن الطور على النعت . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر؛ و يلزمهم أن ينوّنوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل؛ كما تقول جبل أُحُد . وعن مجاهد أيضا : سَيْناء حجـر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سيناء ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء، وفعلاء فى كلام العرب كثير؛ يمنع من الصرف فى المعرفة والنكرة؛ لأن فى آخرها ألف التأنيث ، وألفُ التأنيث ملازمة لمـا هى فيه، وليس فى الكلام فِعلاء، ولكن من قرأ سِيناء بكسر السين جعله فِعلالا؛ فالهمزة فيه كهمزة حِرباء ، ولم يصرف فى هـذه الآية لأنه جعل ٱسم بقعة . وزعم الأخفش أنه ٱسم أعجمىّ .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ قرأ الجمهور « تَنبت » بفتح التاء وضم الباء، والتقدير : تنبت ومعها الدهن ؛ كما تقول : خرج زيد بسـلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف فى التقدير على هذه القراءة؛ فقال أبو علىّ الفارسى : التقدير تنبت جناها ومعه الدهن؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة؛ مثـلُ « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبى عبيدة . وقال الشاعر :

* نضرب بالسيف ونرجو بالفَـرَج *

وقال آخــــر :

هنّ الحرائر لا رَبّاتُ أَخْمِرة [٢] * سود المحاجر لا يقرأن بالسُّوَرِ

ونحو هـذا قاله أبو علىّ أيضا ؛ وقد تقـدّم . وقيـل : نبت وأنبت بمعنًى ؛ فيكون المعنى كما مضى فى قراءة الجمهور، وهو مذهب الفراء وأبى إسحاق، ومنه قول زُهير :

* ... حتى إذا أنبت البَقْلُ *

---

(١) أيلة : تعرف اليوم باسم « العقبة » . (٢) كذا فى الأصول ولسان العرب مادة « سور » بالخاء المعجمة . وأورده صاحب خزانة الأدب بالحاء المهملة ، قال : « والأحمرة جمع حمار (بالحاء المهملة) جمع قلة ، وخص الحمير لأنها رُذال المال وشره ... وقد صحف الدماميني هذه الكلمة بالخاء المعجمة ، وقال والأخمرة جمع خمار ، وهو ما تستر به المرأة رأسها » . (راجع الشاهد الخامس بعد السبعمائة من الخزانة) .

والأصمعى ينكر أنبت، ويتّهم قصيدة زهير التى فيها :

رأيتُ ذوى الحاجاتِ حَوْلَ بيوتِهم * قَطِينًا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزُّهْرى والحسن والأعرج « تُنْبَت بالدهن » برفع التاء ونصب الباء . قال ابن جِنّى والزجاج : هى باء الحال؛ أى تُنْبَت ومعها دهنها . وفى قراءة ابن مسعود : « تخرج بالدهن » وهى باء الحال . ٱبنُ دَرَسْتَوَيْه : الدهن المـاء اللين؛ تنبت من الإنبات . وقرأ زِرّ بن حُبَيش « تُنْبِت — بضم التاء وكسر الباء — الدهنَ » بحذف الباء ونصبه . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب « بالدهان » . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهى من أركان النعم التى لا غنًى بالصحة عنها . ويدخل فى معنى الزيتون شجر الزيت كلّه على اختلافه بحسب الأقطار .

الثـالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ قراءة الجمهور . وقرأت فرقة « وأصباغ » بالجمع . وقرأ عامر بن عبد قيس « ومتاعا »؛ ويراد به الزيت الذى يصطبغ به الأكل؛ يقال : صِبغ وصِباغ ؛ مثلُ دِبْغ ودِباغ ، ولِبس ولبـاس . وكل إدام يؤتدم به فهـو صِبْغ ؛ حكاه الهَرَوِيّ وغيره . وأصل الصِّبغ ما يلوّن به الثوب، وشبّه الإدام به لأن الخبز يلوّن بالصِّبغ إذا غُمس فيه . وقال مقاتل : الأُدْم الزيتون ، والدهن الزيت . وقد جعل الله تعالى فى هذه الشجرة أُدْمًا ودُهْنًا ؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ .

الرابعـة — لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المـائعات كالزيت والسمن والعسل والرُّبّ والخلّ وغير ذلك من الأمراق أنه إدام . وقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخل فقال : "نعم الإدام الخل" رواه تسعة من الصحابة، سبعة رجال وآمرأتان . وممن رواه فى الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسَمُرة بن جُنْدب وأنس وأم هانئ .

الخـامسـة — واختلف فيما كان جامدا كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أن ذلك كله إدام؛ فمن حلف ألا يأكل إداما فأكل لحما أو جبنا حنِث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث؛ وخالفه صاحباه . وقد روى عن أبى يوسف مثل قول أبى حنيفة . والبقل ليس بإدام فى قولهم جميعا . وعن الشافعى فى التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام لقوله فى التنبيه .

وقيل يحنث ؛ والصحيح أن هذا كله إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلّام قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمرة فقال : "هذه إدام هذه". وقال صلى الله عليه وسلم: "سيّد إدام الدنيا والآخرة اللحم". ذكره أبو عمر. وترجم البخارى (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة وهى الموافقة ، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداما . وفى الحديث عنه عليه السلام : " ائتدموا ولو بالماء" . ولأبى حنيفة أن حقيقة الإدام الموافقة فى الآجتماع على وجه لايقبل الفصل؛ كالخل والزيت ونحوهما ، وأمّا اللحم والبيض وغيرهما لا يوافق الخبز بل يجاوزه كالبطيخ والتمر والعنب . والحاصل : أن كل ما يحتاج فى الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل مالا يحتاج ويؤكل على حدة لا يكون إداما، والله أعلم .

السادسة — روى الترمذى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُوا الزيت وآدهنوا به فإنه من شجرة مباركة". هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يضطرب فيه، فربما يذكر فيه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقال مقاتل : خُصّ الطّور بالزيتون لأن أوّل الزيتون نبت منها . وقيل : إن الزيتون أوّل شجرة نبتت فى الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وإنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدّم القول فيهما فى « النحل »(١) والحمد لله . وفى هود(٢) قصة السفينة ونوح، وركوب البحر فى غير موضع(٣) .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى وعلى الأنعام فى البر . ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر . ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يحمل فى البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام . وروى أن رجلا ركب بقرة فى الزمان الأوّل فأنطقها الله تعالى معه فقالت : إنا لم نخلق لهذا ! وإنما خلقت للحرث .

قوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ قرئ بالخفض ردًّا على اللفظ ، وبالرفع ردا على المعنى . وقد مضى فى «الأعراف»(٤) .

قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعا ونحن له تبع . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى لو شاء الله ألّا يعبد شىء سواه لجعل رسوله ملكا . ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى بمثل دعوته . وقيل : ما سمعنا بمثله بشرا ؛ أى برسالة ربه . ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أى فى الأمم الماضية؛ قاله ابن عباس . والباء فى «بهذا» زائدة؛ أى ما سمعنا هذا كائنا فى آبائنا الأولين، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا ﴿إِنْ هُوَ﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٨، ٨٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٣

يعنون نوحا ﴿ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى جنون لا يدرى ما يقول . ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت بعينه، إنما هو كقوله : دعه إلى يوم ما . فقال حين تمادوا على كفرهم : ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أى انتقم ممن لم يطعنى ولم يسمع رسالتى . ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أرسلنا إليه رسلا من السماء ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ على ما تقدّم بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى أدخل فيها واجعل فيها ؛ يقال : سلكته فى كذا وأسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن ربع الهذلى :

حتى إذا أسلكوهم فى قُتائدةٍ * شَلًّا كما تَطْرد الجمّالةُ الشُّرُدا[(1)]

﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قرأ حفص « مِن كلٍّ » بالتنوين، الباقون بالإضافة ؛ وقد ذكر.[(2)] وقال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئا منها ، وإنما خرج من الطين . وقد مضى القول فى السفينة والكلام فيها مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ ﴾ أى علوت . ﴿ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ راكبين . ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى احمدوا الله على تخليصه إياكم . ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ومن الغرق . والحمد لله : كلمة كل شاكر لله . وقد مضى فى الفاتحة بيانه .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكًا ﴾ قراءة العامة « مُنْزَلا » بضم الميم وفتح الزاى ، على المصدر الذى هو الإنزال؛ أى أنزلنى إنزالا مباركا . وقرأ زِرّ بن حُبيش وأبو بكر

(١) قتائدة : موضع بعينه . والشل : الطرد . والشرد : جمع شرود . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤

عن عاصم والمفضل «مَنزِلا» بفتح الميم وكسر الزاى على الموضع؛ أى أنزلنى موضعا مباركا .
الجوهرى : المَنْزَل (بفتح الميم والزاى) النزول وهو الحلول؛ تقول : نزلت نزولا ومَنْزَلا . وقال :

أأنْ ذكّرتك الدارُ مَنْزَلَها جُمْلُ * بكيتَ فدمعُ العين مُنْحدِرٌ سَجْلُ

نصب «المَنْزَل» لأنه مصدر (١) . وأنزله غيره وآستنزله بمعنى . ونزله تنزيلا؛ والتنزيل أيضا الترتيب . قال ابن عباس ومجاهد : هذا حين خرج من السفينة؛ مثل قوله تعالى : «اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ» (٢) . وقيل : حين دخلها؛ فعلى هذا يكون قوله «مباركا» يعنى بالسلامة والنجاة .

قلت : وبالجملة فالآية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلّموا قالوا . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى فى أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين . ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات على كمال قدرة الله تعالى، وأنه ينصر أنبياءه ويهلك أعداءهم . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أى ما كنا إلا مبتلين الأمم قبلكم ؛ أى مختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ليظهر المطيع والعاصى فيتبيّن للملائكة حالهم ؛ لا أن يستجد الرب علما . وقيل : أى نعاملهم معاملة المختبرين . وقد تقدم هذا المعنى فى «البقرة» (٣) وغيرها . وقيل : «وإن كنا» أى وقد كنا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)

(١) يلاحظ أن «منزلها» بالنصب مفعول ثان لذكرتك . و«جمل» فاعل بالمصدر، وهو المنزل .
(٢) آية ٤٨ سورة هود . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٧٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك قوم نوح . ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ قيل : هم قوم عاد . ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى هودا؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم ثمود «فأرسلنا فيهم رسولا» يعنى صالحا . قالوا: والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية « فأخذتهم الصيحة »؛ نظيرها : « وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » (١) .

قلت : وممن أُخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قومُ شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم . ﴿مِنْهُمْ﴾ أى من عشيرتهم، يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكونهم إلى قوله أكثر.

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى الأشراف والقادة والرؤساء . ﴿ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ يريد بالبعث والحساب . ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وسّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بَطِروا وصاروا يؤتَون بالتُّرْفة، وهى مثل التُّحْفة . ﴿ مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم . وزعم الفراء أن معنى « ويشرب مما تشربون » على حذف مِن، أى مما تشربون منه؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج إلى حذف ألْبتَّة؛ لأن « ما » إذا كان مصدرا لم يحتج إلى عائد، فإن جعلتها بمعنى الذى حذفت المفعول ولم يحتج إلى إضمار من . ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ يريد لمغبونون بترككم آلهتكم واتّباعكم إياه

(١) آية ٦٧ سورة هود .

من غير فضيلة له عليكم . ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أى مبعوثون من قبوركم . و « أنّ » الأولى فى موضع نصب بوقوع « يعدكم » عليها ، والثانية بدل منها ؛ هــذا مذهب سيبويه . والمعنى : أيعــدكم أنكم مخرجون إذا متم . قال الفــرّاء : وفى قراءة عبد الله «أيعدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون» ؛ وهو كقولك : أظن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفرّاء والجَرْميّ وأبو العباس المبرد إلى أن الثانيــة مكررة للتوكيد ، لمــا طال الكلام كان تكريرها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أيعــدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما يحدث إخراجكم؛ فـ « أنّ» الثــانية فى موضع رفع بفعل مضمر؛ كما تقول : اليوم القتــال، فالمعنى اليوم يحدث القتال . وقال أبو إسحاق : ويجوز « أيعدكم إنكم إذا مِتم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون » ؛ لأن معنى «أيعدكم» أيقول إنكم .

قوله تعــالى : ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قال ابن عباس : هى كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا بعيــد ما توعدون؛ أى أن هــذا لا يكون ما يذكر من البعث . وقال أبو علىّ : هى بمنزلة الفعل ؛ أى بَعُــد ما توعدون . وقال ابن الأنبارى : وفى « هيهات » عشر لغات : هيهاتَ لك (بفتح التاء) وهى قراءة الجماعة . وهيهاتِ لك (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع . وهيهاتٍ لك (بالخفض والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهيهاتُ لك (برفع التاء)؛ الثعلبى : وبها قرأ نصر بن عاصم وأبو العالية . وهيهاتٌ لك (بالرفع والتنوين) وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامى؛ ذكره الثعلبى أيضا . وهيهاتًا لك (بالنصب والتنوين) قال الأحوص :

تذكّرت أيامًا مضَيْن من الصِّبا * وهيهات هيهاتًا إليــك رجوعها

واللغة السابعة : أيهات أيهات؛ وأنشد الفرّاء :

فأيهاتَ أيهاتَ العقِيقُ ومن به * وأيهات خِلٌّ بالعقيق نواصــله

قال المهدوىّ : وقرأ عيسى الهَمْدانى « هيهاتْ هيهاتْ » بالإسكان . قال ابن الأنبــارى : ومن العرب من يقول « أيهان » بالنون، ومنهم من يقول « أيها » بلا نون . وأنشد الفرّاء :

ومن دُونِيَ الأعيان والقِنْع كله * وكُتْمانُ أيْهَا ما أشتّ وأبْعَدَا[1]

فهذه عشر لغات . فمن قال «هيهاتَ» بفتح التاء جعله مثل أين وكيف . وقيل : لأنهما أداتان مركّبتان مثل خمسة عشر وبَعْلَبَكّ ورام هُرْمُز، وتقف على الثانى بالهاء؛ كما تقول : خمس عشره وسبع عشره . وقال الفرّاء : نصبها كنصب ثُمَّتَ ورُبَّتَ، ويجوز أن يكون الفتح إتباعا للألف والفتحة التى قبلها . ومن كسره جعله مثل أمسِ وهؤلاءِ . قال :

* وهيهاتِ هيهاتِ إليكَ رجوعها *

قال الكسائى : ومن كسر التاء وقف عليها بالهاء؛ فيقول هيهاه . ومن نصبها وقف بالتاء وإن شاء بالهاء . ومن ضمها فعلى مثل منذُ وقطُّ وحيثُ . ومن قرأ «هيهات» بالتنوين فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير؛ كأنه قال بُعْدًا بُعْدًا . وقيل : خُفِض ونوّن تشبيها بالأصوات بقولهم : غاقٍ وطاقٍ . وقال الأخفش : يجوز فى « هيهات » أن تكون جماعة فتكون التاء التى فيها تاء الجميع التى للتأنيث . ومن قرأ « هيهاتٍ » جاز أن يكون أخلصها آسما معربا فيه معنى البعد، ولم يجعله اسما للفعل فيبنيَه . وقيل : شبه التاء بتاء الجمع، كقوله تعالى : « فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » . قال الفرّاء : وكأنى أستحب الوقف على التاء؛ لأن من العرب من يخفض التاء على كل حال؛ فكأنها مثل عرفات وملكوت وما أشبه ذلك . وكان مجاهد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والكسائى وابن كثير يقفون عليها « هيهاه » بالهاء . وقد روى عن أبى عمرو أيضا أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء، وعليه بقية القرّاء لأنها حرف. قال ابن الأنبارى . من جعلهما حرفا واحدا لا يفرد أحدهما من الآخر، وقف على الثانى بالهاء ولم يقف على الأوّل؛ فيقول : هيهات هيهاه، كما يقول خمس عشره، على ما تقدم . ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعا بالهاء والتاء؛ لأن أصل الهاء تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

---

(١) الأعيان والقنع وكتمان، كلها مواضع . وفى بعض الأصول بدل « الأعيان » الأعيار . وكذا فى اللسان مادة أيه . وفى مادة هيه «الأعراض» والكل مواضع .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ « هى » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تعدنا بعد البعث . ﴿ نموت ونحيا ﴾ يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرّون بالبعث؟ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا، أى نُطَفا ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ؛ كما قال : « واسجدى واركعى » . وقيل : « نموت » يعنى الآباء، « ونحيا » يعنى الأولاد . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون الرسول . ﴿ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى اختلق . ﴿ عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْن لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ تقـدم . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أى عن قليـل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ ﴾ على كفرهم، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ﴿ فَأَخَذَتْهُــمُ الصَّيْحَةُ ﴾ فى التفاسـير : صاح بهـم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فماتوا عن آخرهم . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أى هَلْكَى هامدين كغُثَاء السيل ، وهو ما يحمله من بالى الشجر من الحشيش والقصب ممـا يبس وتفتّت . ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . وقيل بُعْداً لهم من رحمة الله ؛ وهو منصوب على المصدر . ومثله سَقْياً له ورَعْياً .

قوله تعـالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك هؤلاء . ﴿ قُرُونًا ﴾ أى أمما . ﴿ آخَرِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفى الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ « من » صلة ؛ أى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها ولا تتأخره؛ مثل قوله تعالى : « فإذا جاء أَجَلُهُمْ لا يستأخرون ساعة ولا يَسْتَقْدِمون ». ومعنى ﴿ تَتْرَى ﴾ تتواتر، و يتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا . قال الأصمعى: واترتُ كتبي عليه أتبعت بعضها بعضا ؛ إلا أن بين كل واحد منها و بين الآخر مهلة . وقال غيره : المواترة التتابع بغير مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تترًى » بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ؛ كقولك : حَمْدًا وشكرا ؛ فالوقف على هذا على الألف المعوّضة من التنوين . ويجوز أن يكون ملحقا بجعفر، فيكون مثل أَرْطًى وعَلْقًى ؛ كما قال :

* يَسْتَنّ فى عَلْقًى وفى مُكُورِ *

فإذا وقف على هذا الوجه جازت الإمالة ، على أن ينوى الوقف على الألف الملحقة . وقرأ ورْشٌ بين اللفظتين؛ مثل سكرى وغضبى؛ وهو اسم جمع؛ مثل شَتّى وأسرى . وأصله وَتْرى من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء؛ مثل التقوى والتّكلان وتُجاه ونحوها . وقيل : هو الوتر وهو الفرد ؛ فالمعنى أرسلناهم فَرْدًا فردا . النحاس : وعلى هذا يجوز « تِتْرًا » بكسر التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصدر ؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » واترنا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال أى متواترين . ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أى بالهلاك . ﴿ وجعلناهم أَحَادِيثَ ﴾ جمع أحدوثة وهى ما يتحدّث به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجّب منه . قال الأخفش : إنما يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير؛ كما يقال : صار فلان حديثا أى عِبرة ومثلا ؛ كما قال فى آية أخرى : « فجعلناهم أحاديثَ ومَزَّقناهم كلَّ مُمَزَّقٍ » (١) .

قلت : وقد يقال فلانٌ حديثٌ حَسَن ، إذا كان مقيّدا بذكر ذلك ؛ ومنه قول ابن دُريد :

وإنما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وَعَى

(١) آية ١٩ سورة سبأ .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ تقدم[1] . ومعنى ﴿عَالِينَ﴾ متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم؛ كما قال تعالى : «إِن فِرْعَوْن عَلَا فِي الأَرْضِ»[2] . ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِن لِبَشَرين مِثْلِنَا﴾ الآية، تقدم أيضا . ومعنى ﴿مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ أى بالغرق فى البحر.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ؛ وخصّ موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور، وهارون خليفة فى قومه . ولو قال « ولقد آتيناهما » جاز ؛ كما قال : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان »[3] .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ تقدم فى « الأنبياء »[4] القول فيه . ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم فى « البقرة »[5] . والمراد بها هاهنا فى قول أبى هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة[6] ؛ وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس وابن المسيّب وابن سلّام : دمشق . وقال كعب وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :

فكنت هَميدا تحت رَمْس بِرَبْوَة * تَعاوَرُنى ريحٌ جنوبٌ وشَمْأَلُ

(١) راجع ج ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة القصص (٣) آية ٤٨ سورة الأنبياء .
(٤) راجع ج ١١ ص ٣٣٧ (٥) راجع ج ٣ ص ٣١٥
(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطا للسلمين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سـعيد بن جُبير «وآويناهما إلى ربوة» قال : النَّشز من الأرض . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أى مستوية يُستقر عليها . وقيل : ذات ثمـار، ولأجل الثمـار يَستقر فيها الساكنون . ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جارٍ ظـاهر للعيون . يقال : مَعِين ومُعُن ؛ كما يقال : رغيف ورُغُف ؛ قاله على بن سليمان . وقال الزجاج : هو المـاء الجارى فى العيون ؛ فالميم على هـذا زائدة كزيادتها فى مبيع ، وكذلك الميم زائدة فى قول من قال إنه المـاء الذى يرى بالعين . وقيـل : إنه فعيل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان : يقال مَعَن المـاء إذا جرى فهو معين ومَعْيُون . ابن الأعرابى : معن المـاء يَمْعَن مُعونا إذا جرى وسَهُل، وأمعن أيضا وأمعنته ، ومياه مُعْنان .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "أيّها النـاس إن الله طيّب لا يَقْبَـل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بمـا أمر به المرسلين فقال « يأيها الرسل كُلُوا من الطيبات وآعمـلوا صالحا إنى بمـا تعملون عليم » وقال تعـالى « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ـــ ثم ذكر[1] ـــ الرجلَ[2] يُطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يارب يارب ومَطْعَمُه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يستجاب لذلك" .

الثانيـــة ـــ قال بعض العلماء : والخطاب فى هـذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسـلم ، وأنه أقامه مقام الرسـل ؛ كما قال : « الذين قال لهم النـاس »[3] يعنى نُعيم بن مسعود ؛ وقال

(١) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير فيه للنبى صـلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالرفع مبتدأ ، مذكور على وجه الحكاية من لفظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩

الزجاج : هذه مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ؛ أى كلوا من الحلال . وقال الطبرىّ : الخطاب لعيسى عليه السلام ؛ روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البَرِّيّة . ووجه خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبىّ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها . فيكون المعنى: وقلنا يأيها الرسل كلوا من الطيبات؛ كما تقول لتاجر : يا تجار ينبغى أن تجتنبوا الربا ؛ فأنت تخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه، فلم يخاطبوا قطّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خوطب كل واحد فى عصره . قال الفرّاء : هو كما تقول للرجل الواحد : كُفُّوا عنا أذاكم .

الثالثة — سوّى الله تعالى بين النبيّين والمؤمنين فى الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل فى الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى : «إِنّى بِما تعملون عليم» صلى الله على رسله وأنبيائه . وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول فى الطيبات والرزق فى غير موضع[1]، والحمد لله . وفى قوله عليه السلام "يمد يديه" دليل على مشروعية مدّ اليدين عند الدعاء إلى السماء ؛ وقد مضى الخلاف فى هذا والكلام فيه[2] والحمد لله . وقوله عليه السلام "فأنّى يستجاب لذلك" على جهة الاستبعاد؛ أى أنه ليس أهلا لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلا ولطفا وكرما .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

---

(١) راجع ج ١ ص ١٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة، وج ٧ ص ١٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٣

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ المعنى : هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالتزموه . والأمّة هنا الدِّين؛ وقد تقدم محامله[1]؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[2] » أى على دين . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وهــل يَأْثَمَنْ ذو أُمّةٍ وهو طائع

الثانيـــة — قرئ « وإن هذه » بكسر « إنّ » على القطع، وبفتحها وتشديد النون . قال الخليــل : هى فى موضع نصب لمّــا زال الخــافض؛ أى أنا عالم بأن هــذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفرّاء : « أنّ » متعلقة بفعل مضمر تقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وهى عنــد سيبويه متعلقة بقوله « فاتقون »؛ والتقدير فاتقون لأن أمتكم واحدة . وهــذا كقوله تعــالى : « وأنّ المساجد لله فلا تَدْعُوا مَعَ الله أحدا[3] »؛ أى لأن المساجد لله فلاتدعوا معه غيره . وكقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » ؛أى فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف قريش .

الثالثـــة — وهــذه الآية تقوّى أن قوله تعــالى : « يأيها الرسل » إنمــا هو مخاطبة لجميعهم ، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يأيها الرسل » مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فَلَق[4] اتصالَ هذه الآية واتصالَ قوله « فتقطعوا » . أما أنّ قوله « وأنا ربّكم فاتقون » وإن كان قيل للانبياء فأممهم داخلون فيه بالمعنى؛ فيحسن بعد ذلك اتصال . ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ أى افترقوا، يعنى الأمم، أى جعــلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برأيه وضلالته وهذا غاية الضلال .

الرابعـــة — هــذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسـلم : "ألَا إنّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتيــن وسبعين ملّة وإن هــذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة" الحديث . خرّجه أبو داود، ورواه

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية وجـ ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزخرف . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا فى نسخ الأصل . والمعنى المراد واضح، وهو أن هذا التقدير يفلق ويقطع الاتصال بين الاثنين .

الترمذى وزاد : قالوا ومن هى يا رسول الله؟ قال : " ما أنا عليه وأصحابى " خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو . وهذا يبيّن أن الافتراق المحذر منه فى الآية والحديث إنما هو فى أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مِلَلًا، وأخبر أن التمسك بشىء من تلك الملل موجب لدخول النار . ومثل هذا لا يقال فى الفروع، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جعلنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً »(١) .

قوله تعالى : ﴿ زُبُرًا ﴾ يعنى كتبا وضعوها وضلالات ألّفوها؛ قاله ابن زيد . وقيل : إنهم فرّقوا الكتب فاتّبعت فرقةٌ الصحفَ وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل ، ثم حرف الكلّ وبدّل؛ قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتابا آمن به وكفر بما سواه . و « زُبُرًا » بضم الباء قراءة نافع، جمع زبور . والأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه « زُبَرًا » بفتح الباء، أى قطعا كقطع الحديد؛ كقوله تعالى : « آتُونى زُبَرَ الحديد »(٢) . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أى فريق ومِلّة . ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى عندهم من الدين . ﴿ فَرِحُونَ ﴾ أى معجبون به . وهذه الآية مثال لقريش خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم فى شأنهم متصلا بقوله ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ أى فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم؛ فلكل شىء وقت . والغَمْرة فى اللغة ما يَغْمُرك ويعلوك ؛ وأصله الستر؛ ومنه الغِمْر الحقد لأنه يغطّى القلب . والغَمْر الماء الكثير لأنه يغطى الأرض . وغَمْرُ الرداء الذى يشمل الناس بالعطاء؛ قال :

غَمْرُ الرداء إذا تبسّم ضاحكا * غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المالِ

المراد هنا الحَيْرة والغفلة والضلالة . ودخل فلان فى غمار الناس، أى فى زحمتهم . وقوله تعالى: ﴿ حتى حِينٍ ﴾ قال مجاهد : حتى الموت، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال : سيأتى لك يوم .

قوله تعالى : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

(١) آية ٤٨ سورة المائدة . (٢) آية ٩٦ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ « ما » بمعنى الذى ؛ أى أيحسبون يا محمد أن الذى نعطيهم فى الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم ، إنما هو استدراج وإملاء ، ليس إسراعا فى الخيرات . وفى خبر « أنّ » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف . وقال الزجاج : المعنى نسارع لهم به فى الخيرات ، وحذفت به . وقال هشام الضرير قولا دقيقا ، قال : « أنما » هى الخيرات ؛ فصار المعنى : نسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال « فى الخيرات » ، ولا حذف فيه على هذا التقدير . ومذهب الكسائى أن « أنما » حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير حذف ، ويجوز الوقف على قوله « وبنين » . ومن قال « أنما » حرفان فلابدّ من ضمير يرجع من الخبر إلى اسم « أنّ » ولم يتم الوقف على « و بنين » . وقال السِّخْتِيانىّ : لا يحسن الوقف على « وبنين » ؛ لأن « يحسبون » يحتاج إلى مفعولين ، فتمام المفعولين « فى الخيرات » . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن « أنّ » كافية من اسم أن وخبرها ولا يجوز أن يؤتى بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ وعبد الرحمن بن أبى بكرة « يسارِع » بالياء ، على أن يكون فاعله إمدادنا . وهذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ أى يسارع لهم الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرئ « يسارَع لهم فى الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارَع الامدادُ . ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ؛ ذكره النحاس . قال المهدوىّ : وقرأ الحرّ النحوى « نسرع لهم فى الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الثعلبى : والصواب قراءة العامة ؛ لقوله « نمدهم » . ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك فتنة لهم واستدراج .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعّدهم عقّب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين فى الخيرات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم . و ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون مما خوّفهم الله تعالى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة» قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون فى الخيرات" . وقال الحسن : لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها . وقرأت عائشة رضى الله عنها وابنُ عباس والنَّخَعِيّ «والذين يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان . قال الفرّاء : ولو صحت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف فى كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سُئل الرجل بألف بعد السين ، ويستهزئون بألف بين الزاى والواو ، وشيءٌ وشيء بألف بعد الياء ، فغير مستنكر فى مذهب هؤلاء أن يكتب «يؤتون» بألف بعد الياء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤتون ما آتوا» و «يأتون ما أتوا» . وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين : أحدهما — والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر — والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما آتوا وقلوبهم وجلة ؛ فحُذف مفعولٌ فى هذا الباب لوضوح معناه ؛ كما حذف فى قوله عز وجل : «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ»(1) والمعنى يعصرون السمسم والعنب ؛ فاختزل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل فى الحرف على هجائه الموجود فى الإمام «يأتون» بألف مبدلة من الهمزة فكتبت الألف

(1) آية ٤٩ سورة يوسف .

واوًا لتآخى حروف المد واللين فى الخفاء ؛ حكاه ابن الأنبارى . قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أتوا » وهى القراءة المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضى الله عنها، ومعناها يعملون ما عملوا؛ كما رُوى فى الحديث . والوَجل نحو الإشفاق والخوف؛ فالتقِيّ والتائب خوْفه أمر العاقبة وما يطلع عليه بعد الموت . وفى قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفى صحيح البخارى "وإنما الأعمال بالخواتيم". وأما المخلِّط فينبغى له أن يكون تحت خوف من أن ينفَّذ عليه الوعيد بتخليطه . وقال أصحاب الخواطر : وَجَل العارف مَن طاعته أكثر وجلا من وجله من مخالفته ؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى لأنهم، أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ﴾ أى فى الطاعات ، كى ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات . وقرئ « يُسْرِعون » فى الخيرات، أى يكونوا سراعا إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها؛ فالمفعول محذوف. قال الزجاج : يسارعون أبلغ من يسرعون .

﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودلّ بهذا أن الصلاة فى أوّل الوقت أفضل ؛ كما تقدم فى « البقرة »[1] . وكل من تقدم فى شىء فهو سابق إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام فى « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « بأنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى أوحى إليها . وأنشد سيبويه :[2]

تجانَفُ عن جَوّ اليمامة ناقتى ＊ وما قصدَتْ من أهلها لسَوائكا

وعن ابن عباس فى معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فلذلك سارعوا فى الخيرات . وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية .　(٢) البيت للأعشى . والتجانف : الانحراف .

قوله تعالى : وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ قد مضى فى « البقرة »(١) وأنه ناسخ لجميع ما ورد فى الشرع من تكليف ما لا يطاق . ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذى ترفعه الملائكة ؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره ، فهو ينطق بالحق . وفى هذا تهديد وتأييس من الحَيْف والظلم . ولفظ النطق يجوز فى الكتاب ؛ والمراد أن النبيين تنطق بما فيه . والله أعلم . وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء ، فهم لا يجاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله «ولدينا كتاب» القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل والأوّل أظهر .

قوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ قال مجاهد : أى فى غطاء وغفلة وعَماية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاه . ونهر غَمْر يغطّى من دخله . ورجل غمر يغمره آراء الناس(٢) . وقيل : « غمرة » لأنها تغطّى الوجه . ومنه دخل فى غُمار الناس وخُمارهم ، أى فيما يغطيه من الجمع . وقيل : « بل قلوبهم فى غمرة » أى فى حَيْرة وعَمًى ؛ أى مما وصف من أعمال البر فى الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذى ينطق بالحق . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لا بدّ أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من

(١) راجع ج ٣ ص ٤٢٧ (٢) كذا فى الأصول . والذى فى كتب اللغة : « ورجل غُمْرٌ وغَمِر لا تجربة له بحرب ولا أمر ، ولم تحنكه التجارب .

دو ن ما هم عليه، لابدّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشِّقوة. ويحتمل ثالثا — أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي. والمعنى متقارب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ يعني بالسيف يوم بدر؛ قاله ابن عباس. وقال الضحاك: يعني بالجوع حين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اللّهُمّ أشدد وطأتك على مُضَر اللّهُمّ اجعلها عليهم سنين كسِنِيّ يوسف". فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجيف، وهلك الأموال والأولاد. ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ أي يضجّون ويستغيثون[1]. وأصل الجُؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تُضيف وتجأرا

قال الجوهري: الجؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر أي صاح. وقرأ بعضهم «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جؤار» حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء. قتادة: يَصْرُخون بالتوبة فلا تقبل منهم. قال:

يراوح من صلوات المَليك * فطَوْرًا سجودا وطَوْرًا جؤارا

وقال ابن جريج: «حتّى إذَا أخذنا مُتْرَفِيهِمْ بالْعَذَابِ» هم الذين قتلوا ببدر «إذا هم يَجْأَرُونَ» هم الذين بمكة؛ فجمع بين القولين المتقدمين، وهو حسن. ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا ﴾ أي من عذابنا. ﴿ لَا تُنصَرُونَ ﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم. وقال الحسن: لا تنصرون بقبول التوبة. وقيل: معنى هذا النهي الإخبارُ؛ أي إنكم إن تضرعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) راجع هامش ص ١١٥ من جـ ١٠

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ الايات يريد بها القرآن . ﴿ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى تقرأ . قال الضحاك : قبل أن تعذبوا بالقتل و ﴿ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأخرون؛ وأصله أن ترجع القَهْقَرى . قال الشاعر :

زعموا بأنهم(١) على سبل النجا * ة وإنما نُكُص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه «على أدباركم» بدل «على أعقابكم» ، «تنكصون» بضم الكاف . و﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والضمير فى «به» قال الجمهور : هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذى هو مكة ، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظمَ الحقوق على الناس والمنازل ؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات ؛ والمعنى : يُحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأوّل أولى ، والمعنى : أنهم يفتخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سامِرا تهجرون ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ «سامِرًا» نصب على الحال ، ومعناه سُمّارا ، وهو الجماعة يتحدثون بالليل ، مأخوذ من السَّمَر وهو ظل القمر ؛ ومنه سُمرة اللون . وكانوا يتحدثون حول الكعبة فى سَمَر القمر؛ فسمّى التحدث به . قال الثورى : يقال لظل القمر السَّمَر؛ ومنه السُّمْرة فى اللون ، ويقال له : الفَخْت؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء «سُمّارا» وهو جمع سامر؛ كما قال :

* ألستَ ترى السُّمّارَ والنّاسَ أحوالى *(٢)

(١) فى الأصول : «أنهم» والبيت لا يتّزن إلا بدخول الباء، وهى هنا زائدة؛ كقول النابغة :

* زعم الغُدَاف بأن رحلتنا غدا *

(٢) هذا عجز بيت لامرئ القيس . وصدره :

* فقالت سباك الله إنك فاضحى *

وفى حديث قَيْلة : إذا جاء زوجها من السامر ؛ يعنى من القوم الذين يَسْمُرون بالليل ؛ فهو اسم مفرد بمعنى الجمع ، كالحاضر وهم القوم النازلون على الماء ، والباقر جمع البقر ، والجامل جمع الإبل ، ذكورتها وإناثها ؛ ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى أطفالا . يقال : قوم سَمْر وسُمَّر وسامر ، ومعناه سهر الليل ؛ مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهرى : السامر أيضا السُّمّار ، وهم القوم الذين يَسْمُرون ؛ كما يقال للحاج حُجّاج ، وقول الشاعر :

* وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ *

كأنه سمى المكان الذى يجتمع فيه للسمر بذلك . وقيل : وحّد سامرا وهو بمعنى السُّمّار ؛ لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

مِن دونهم إن جئتَهم سَمَرًا * عَزْفُ القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْرُ

فقال : سَمَرًا ، لأن معناه : إن جئتهم ليلا وجدتهم وهم يسمرون . وابنا سَمِير : الليل والنهار ؛ لأنه يُسْمَر فيهما ، يقال : لا أفعله ما سَمَر ابنا سمير أبدا . ويقال : السَّمير الدهر ، وابناه الليل والنهار . ولا أفعله السَّمَرَ والقمرَ ؛ أى ما دام الناس يَسْمُرون فى ليلة قمراء . ولا أفعله سَمِيرَ الليالى . قال الشَّنْفَرَى :

هنالك لا أرجو حياةً تَسُرُّنِى * سَمِيرَ الليالى مُبْسَلًا بالجرائر

والسَّمَار (بالفتح) اللبن الرقيق . وكانت العرب تجلس للسمر تتحدّث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس فى الصحراء فترى الطوالع من الغوارب . وكانت قريش تَسْمُر حول الكعبة مجالس فى أباطيلها وكفرها ، فعابهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، إذا نطق بالفحش . وبنصب التاء وضم الجيم من هَجَر المريضُ إذا هَذَى . ومعناه : يتكلمون بهَوَس وسَيِّئ من القول فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانيــة — روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : إنما كُره السّمر حين نزلت هذه الآية « مستكبرين به سامرا تهجرون » ؛ يعنى أن الله تعالى ذمّ أقواما يَسْمُرون فى غير

طاعة الله تعالى ، إما فى هَذَيان وإما فى إذاية . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فٱصفعه فإنه من شيوخ القمر ؛ يعنى يجتمعون فى ليالى القمر فيتحدّثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثـة — روى مسلم عن أبى بَرْزَة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديثَ بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فلئلا يعرّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضل وقتها ؛ ولهذا قال عمر : فمن نام فلا نامت عينه ؛ ثلاثا . وممن كره النوم قبلها عمر وٱبنه عبد الله وٱبن عباس وغيرهم ، وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم ، منهم علىّ وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يجعل معه من يوقظه للصلاة . وروى عن ابن عمر مثله ، وإليه ذهب الطحاوى . وأما كراهية الحديث بعدها فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة ، وقد ختم الكُتّاب صحيفته بالعبادة ؛ فإنْ هو سَمَر وتحدّث فيملؤها بالهَوَس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر فى الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربما ينام عن صلاة الصبح . وقد قيل : إنما يكره السمر بعدها لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إياكم والسَّمَرَ بعد هَدْأة الرجل فإن أحدكم لا يدرى ما يبث الله تعالى من خلقه أغلقوا الأبواب وأَوْكُوا السقاء وخَمّروا الإناء وأطفِئوا المصابيح" . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ، ويقول : أسمرًا أوّلَ الليل ونوما آخره ! أريحوا كُتّابكم . حتى أنه روى عن ابن عمر أنه قال : من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يُصبح . وأسنده شدّاد بن أَوْس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن الحكمة فى كراهية الحديث بعدها إنما هو لما أن الله تعالى جعل الليل سَكَنا ، أى يُسكن فيه ، فإذا تحدّث الإنسان فيه فقد جعله فى النهار الذى هو متصرف المعاش ؛ فكأنه قصد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التى أجرى عليها وجوده فقال « وهو الذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا والنَّوْمَ سُبَاتًا وجعل النّهارَ نُشُوراً »[1] .

(١) آية ٤٧ سورة الفرقان .

الرابعــة ــ هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم، ومسامرةِ الأهل بالعلم و بتعليم المصالح وما شابه ذلك؛ فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن السلف ما يدل على جواز ذلك، بل على ندبيّته . وقد قال البخاريّ : (باب السَّمَر فى الفقه والخير بعد العشاء) وذكر أن قُرّة بن خالد قال : انتظرْنا الحسن وراث[1] علينا حتى جاء قريبا من وقت قيامه، فجاء فقال : دعانا جيراننا هؤلاء . ثم قال أنس : انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل فجاء فصلى ثم خطبنا فقال : " إن الناس قد صَلّوْا و إنكم لم تزالوا فى صلاة ما انتظرتم الصلاة " . قال الحسن : فإن القوم لا يزالون فى خير ما ٱنتظروا الخير . قال : (باب السمر مع الضيف والأهل) وذكر حديث أبى بكر بن عبد الرحمن أن أصحاب الصُّفّة كانوا فقراء... الحديث . أخرجه مسلم أيضا . وقد جاء فى حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور فى الأخبار . وقد مضى من ذلك جملة فى آخر « آل عمران[2] » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ يعنى القرآن؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ[3] » . وسُمِّىَ القرآن قولا لأنهم خوطبوا به . ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه . وقيل : « أم » بمعنى بل؛ أى بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له . وقال ابن عباس : وقيل المعنى أم جاءهم أمان من العذاب ، وهو شىء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأمر .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾

(١) راث : أبطأ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ وما بعدها . (٣) آية ٨٢ سورة النساء .

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح ، فيقولون : الخير أحبّ إليك أم الشر ؛ أى قد أخبرت الشر فتجنّبه ، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة ؛ ففى اتباعه النجاة والخير لولا العَنَت . قال سفيان : بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى أم يحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ، فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد الحق والدِّين الحق . ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أى كلهم ﴿ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ حسدا وبغيًا وتقليدا .

قوله تعالى : وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ الْحَقُّ ﴾ « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى؛ قاله الأكثرون، منهم مجاهد وابن جُريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق؛ قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواءهم؛ بجعل موافقته اتباعا مجازا؛ أى لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقَبون ولا يجازون على ذلك إمّا عجزا وإمّا جهلا لفسدت السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من ٱتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدت السموات والأرض، وإذا فسدتا فسد من فيهما. وقيل: « لو ٱتبع الحق أهواءهم» أى بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالَم؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضادّ، وسبيلُ الحق أن يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : «الحق» القرآن ؛ أى لو نزل القرآن بما يحبون لفسدت السموات والأرض . ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ إشارة إلى من يعقل من ملائكة السموات وإنس الأرض وجنّها ؛ الماوَرْدي . وقال الكلبي : يعني وما بينهما من

خلق ؛ وهي قراءة ابن مسعود « لفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على تأويل الكلبيّ وقراءةِ ابن مسعود محمولا على فساد من يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد. وظاهر التنزيل في قراءة الجمهور يكون محمولا على فساد ما يعقل من الحيوان؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السموات من الملائكة بأن جُعلت أربابا وهي مربوبة، وعُبدت وهي مستعبدة . وفساد الإنس يكون على وجهين : أحدهما — باتباع الهوى، وذلك مهلك . الثاني — بعبادة غير الله، وذلك كفر. وأما فساد ماعدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبَّرون بذوي العقول فعاد فساد المدبِّرين عليهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أي بما فيه شرفهم وعزّهم ؛ قاله السُّدّي وسفيان . وقال قتادة : أي بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم . ابن عباس : أي ببيان الحق وذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أي أجرًا على ما جئتهم به؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثّاب « خراجا » بألف . الباقون بغير ألف . وكلهم قد قرءوا « فخراج » بالألف إلا ابن عامر وأبا حَيْوة فإنهما قرأا بغير الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي ليس يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا يُنعم مثل إنعامه . وقيل : أي ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاء إليه خيرٌ من عَرَض الدنيا، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى رجل من قريش فلم تجبهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والخَرْج والخراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : الخَرْج الجُعْل، والخراج العطاء.

المبرّد : الخرج المصدر ، والخراج الاسم . وقال النضر بن شُميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك، والخَرْج ما تبرّعت به . وعنه أن الخَرْج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأول الثعلبيّ والثانى الماوردىّ .

قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ؛ فسُمّىَ الدِّين طريقا لأنه يؤدّى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ قيل : هو مثل الأول . وقيل : إنهم عن طريق الجنة لناكبون حتى يصيروا إلى النار . نَكَب عن الطريق يَنْكُب نُكوبا إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مَجْرًى . وشرّ الريح النَّكْباء .

قوله تعالى : وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم ﴿ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السُّدِّى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جُريج : «ولو رحمناهم» يعنى فى الدنيا «وَكَشَفْنَا ما بِهِم مِنْ ضُرٍّ» أى من قَحْط وجوع «لَلَجُّوا» أى لتمادَوْا «فِى طُغْيَانِهِمْ» وضلالتهم وتجاوزهم الحد «يَعْمَهُونَ» يتذبذبون ويخبِطون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى ما خضعوا . ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أى ما يخشعون لله عز وجل فى الشدائد تصيبهم . قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمَامة بن أُثَال لما أسرته السّرية وأسلم وخلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة وبين المِيرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حَبّةُ حِنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهِز ؛ قيل وما العِلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوَبَر فيبلّونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أَنْشُدكَ اللهَ والرَّحِم ! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال "بلى" . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ؛ فنزل قوله «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» .

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعمائة ألف ، سودٌ وجوههم ، كالحةٌ أنيابهم ، قد قُلعت الرحمة من قلوبهم ؛ إذا بلغوه فتحه الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو القحط الذى أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع ؛ على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى يائسون متحيّرون لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم فى «الأنعام»[1] .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ عرّفهم كثرة نعمه وكمال قدرته . ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أى لا تشكرون ألْبَتّة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى أنشأكم وبثّكم وخلقكم . ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون للجزاء .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى جعلهما مختلفين ؛ كقولك : لك الأجر والصّلة ؛ أى إنك تؤجر وتوصل ؛ قاله الفرّاء . وقيل : اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما فى النور والظلمة . وقيل : تكررهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كُنْهَ قدرته وربوبيّته ووحدانيّته ، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيّرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ هــذا لا يكون ولا يتصوّر . ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْـلُ ﴾ أى من قبل مجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم نر له حقيقة . ﴿ إِنْ هَـذَا ﴾ أى ما هـذا ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أباطيلهم وتُرّهاتهم ؛ وقد تقدّم هـذا كله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد جوابا لهم عما قالوه ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يخـبر بربو بيّته و وحدانيته وملكه الذى لا يزول، وقدرته التى لا تحول؛ فـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ولا بُدّ لهم من ذلك . فـ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتـداء فهو على إحياء الموتى بعـد موتهم قادر . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّـبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يريد أفلا تخافون حيث تجعلون لى ما تكرهون؛ زعمتم أن الملائكة بناتى، وكرهتم لأنفسكم البنات . ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد السموات وما فوقها وما بينهن، والأرضين وما تحتهن وما بينهن ،وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد: « ملكوت كلّ شيء » خزائن كل شيء . الضحاك : ملك كل شيء . والملكوت من صفات المبالغة كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت ؛ وقد مضى فى « الأنعام »[(1)] . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى يَمنع ولا يُمنع منه . وقيل : « يُجير» يؤمّن من شاء . « ولا يُجَار عَلَيْه » أى لا يؤمّن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا؛ أى من أراد الله إهلا كه وخوفه لم يمنعه منه مانع، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع . وقيل : هـذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعـه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعـه عن مستوجب العذاب دافع . ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعتـه وتوحيده . أو كيف يخيّـل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخييل . وكل هـذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو «سيقولون الله » فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأوّل أنه « لله » ؛ لأنه جواب لـ«ـقل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدّمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣

مكتوب فى جميع المصاحف بغير ألف . وأما من قرأ « سيقولون الله » فلان السؤال بغير لام جاء الجواب على لفظه، وجاء فى الأوّل « لله » لمّا كان السؤال باللام . وأما من قرأ « لله» باللام فى الأخيرين وليس فى السؤال لام فلأن معنى « قل مَن ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم » : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « لله » ؛ حين قدّرت اللام فى السؤال . وعلّة الثالثة كعلة الثانية . وقال الشاعر :

إذا قيل من ربّ المزالف والقُرَى * وربُّ الجياد الجُرْد قلت لخالد [1]

أى لمن المزالف .

ودلّت هذه الآيات على جواز جدال الكفار و إقامة الحجة عليهم . وقد تقدم فى «البقرة» . ونبهتْ على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالقول الصدق ، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك ونَفْى البعث . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ « مِن » صلة . ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ « من » زائدة ؛ والتقدير : ما ٱتخذ الله ولدا كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفى الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه . ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى ولغالب وطلب القوىُّ الضعيف كالعادة بين الملوك ، وكان الضعيف المغلوبُ لا يستحق الإلهيّة . وهذا الذى يدل على نفى الشريك يدل على نفى الولد أيضا ؛ لأن الولد ينازع الأب فى الملك منازعة الشريك .

(١) المزالف : القرى التى بين البر والبحر ؛ الواحدة مزلفة . والأجرد من الخيل والدواب : القصير الشعر .

﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيهًا له عن الولد والشريك . ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه وتقديس . وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى « عالمُ » بالرفع على الاستئناف؛ أى هو عالم الغيب . الباقون بالجر على الصفة لله . وروى رُوَيس عن يعقوب « عالِمِ » إذا وصل خفضا . و « عالمُ » إذا ابتدأ رفعا .

قوله تعالى : قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾

علّمه ما يدعو به ؛ أى قل رب، أى يارب إن أريتنى ما يوعدون من العذاب . ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجنى منهم . وقيل : النداء معترض ؛ و « ما » فى « إمّا » زائدة . وقيل : إن أصل إمّا إن ما ؛ ف « إن » شرط و « ما » شرط ، فجمع بين الشرطين توكيدا ، والجواب « فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » ؛ أى إذا أردت بهم عقوبة فأخرجنى منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله فى القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الربّ بهذا الدعاء والسؤال ليعظم أجره وليكون فى كل الأوقات ذاكرا لربّه تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾

نبّه على أن خلاف المعلوم مقدور، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف ، ونجّاه الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ أمر بالصفح ومكارم الأخلاق ؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ فى الأمة أبدا . وما كان فيها من موادعة الكفار وترك التعرّض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أى من الشرك والتكذيب . وهذا يقتضى أنها آية موادعة، والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ الهمزات هى جمــع هَمْزة . والهَمْز فى اللغة النَّخْس والدفع؛ يقال : هَمَزَه ولَمَزَه ونَخَسه دفعه . قال الليث : الهمز كلامٌ من وراء القَفَا، واللَّمْزُ مواجهةً . والشيطان يوسوس فيهمس فى وسواسه فى صدر ابن آدم؛ وهو قوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين » أى نزغات الشياطيــن الشاغلة عن ذكر الله تعــالى . وفى الحديث : كان يتعوّذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه . قال أبو الهَيْثَم : إذا أسرّ الكلام وأخفاه فذلك الهمس من الكلام . وسمى الأسد هَمُوسا؛ لأنه يمشى بخفة فلا يُسمع صوت وطئه . وقد تقدم فى « طه »(١) .

الثانيــة ــ أمر الله تعالى نبيّــه صلى الله عليه وسـلم والمؤمنين بالتعوّذ من الشيطان فى همزاته ، وهى سَورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفســه ، وكأنها هى التى كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحـادّة فلذلك اتصلت بهــذه الآية . فالنزغات وسورات الغضب الواردةُ من الشيطان هى المتعوَّذ منهــا فى الآية ؛ وقد تقــدم فى آخر « الأعراف »(٢) بيانه مستوفًى ، وفى أوّل الكتاب أيضا(٣) . وروى عن علىّ بن حرب بن محمــد الطائى حدّثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حِبّان أن خالدا كان يؤرّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسـلم ، فأمره أن يتعوّذ بكلمات الله التّامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همــزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون . وفى كتاب أبى داود قال عمــر : وهَمْزه المُــوتَةُ ؛ قال ابن ماجه : المُوتة يعنى الجنون . والتعوذ أيضــا من الجنون وكيد . وفى قراءة أُبَىّ « رَبِّ عائذًا بك من همزات الشياطين ، وعائذا بك أن يَحْضُرونِ » ؛ أى يكونوا معى فى أمورى،

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧

(٣) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدّين للهمز؛ وإذا لم يكن حضور فلا همز. وفى صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كلّ شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليُمط ما كان بها من أذًى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان فإذا فرغ فلْيَلْعَق أصابعه فإنه لا يدرى فى أىّ طعامه البركة".

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر المشركين؛ أى قالوا «أئذا متنا — إلى قوله — إنْ هذا إلا أساطير الأولين». ثم احتج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء، ثم قال هم مصرّون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقّن ضلالته وعاين الملائكة التى تقبض روحه؛ كما قال تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ»(١). ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ تمنّى الرجعة كى يعمل صالحا فيما ترك. وقد يكون القول فى النفس؛ قال الله عز وجل : «وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ»(٢). فأما قوله «ٱرْجِعُونِ» وهو مخاطب ربّه عز وجل ولم يقل «ٱرجعنى» جاء على تعظيم الذكر للمخاطب. وقيل : استغاثوا بالله عز وجل أولا، فقال قائلهم : ربّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا؛ قاله ابن جُريج. وقيل : إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير؛ أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى وهكذا. قال المُزَنِىّ فى قوله تعالى «أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ» قال : معناه ألْقِ ألْقِ. قال الضحاك : المراد به أهل الشرك.

قلت : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما فى آخر سورة المنافقين على ما يأتى. ودلّت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرارا أهو من أولياء

---

(١) آية ٥٠ سورة الأنفال.		(٢) آية ٨ سورة المجادلة.

الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه.
﴿ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أى فيما ضيّعت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : «فيما تركت» من المال فأتصدق . و «لعلّ» تتضمن ترددا؛ وهذا الذى يسأل الرجعة قد استيقن العذاب، وهو يوطّن نفسه على العمل الصالح قطعا من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا، وإما إلى التوفيق؛ أى أعمل صالحا إن وفقتنى؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدّ إلى الدنيا .
﴿ كَلَّا ﴾ هذه كلمة رَدّ؛ أى ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يطيح فى أدراج الريح . وقيل : لو أجيب إلى ما يطلب لما وَفَّى بما يقول؛ كما قال : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه»[1] . وقيل : «كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هو قائِلُها» ترجع إلى الله تعالى؛ أى لا خلف فى خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : «إنها كلمة هو قائلها» عند الموت، ولكن لا تنفع . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ أى ومن أمامهم وبين أيديهم . وقيل : من خلفهم . «بَرْزَخٌ» أى حاجز بين الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أن البرزخ هو الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس : حجاب . السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيل : الإمهال إلى يوم القيامة؛ حكاه ابن عيسى . الكلبى : هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة . وهذه الأقوال متقاربة . وكُلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخ . قال الجوهرى : البرزخ الحاجز بين الشيئين . والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث؛ فمن مات فقد دخل فى البرزخ . وقال رجل بحضرة الشَّعْبِىّ : رحم الله فلانا فقد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يَصِر من أهل الآخرة، ولكنه صار من أهل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف «يوم» إلى «يبعثون» لأنه ظرف زمان، والمراد بالإضافة المصدر .

---

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخةُ الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب فى الآخرة كما يفتخرون بها فى الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون فى الدنيا ؛ من أىّ قبيلةٍ أنت ولا من أىّ نسب ، ولا يتعارفون لِهَوْل ما أذهلهم . وعن ابن عباس أن ذلك فى النفخة الأولى حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(١) فقال : لا يتساءلون فى النفخة الأولى ؛ لأنه لا يبقى على الأرض حىّ ، فلا أنساب ولا تساؤل . وأما قوله « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عنى فى هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخير واليمنة قد سبقونى إليه ، فناديت بأعلى صوتى : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أنى رجل أعجمىّ أدنيت هؤلاء وأقصيتنى ! فقال : ادْنُهْ ؛ فدنوت ، حتى ما كان بينى و بينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ثم ينادى منادٍ : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ؛ فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على أبيها أو على زوجها أو على أخيها أو على ابنها ؛ ثم قرأ ابن مسعود : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فيقول الربّ سبحانه وتعالى "آت هؤلاء حقوقهم" فيقول : يا ربّ قد فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم ؛ فيقول الرب للملائكة : "خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طَلِبَته" فإن كان وليًّا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ

(١) آية ٥٠ سورة الصافات .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً[(١)] » . وإن كان شقيا قالت الملائكة : ربّ ! فنيت حسناته وبقى طالبون ؛ فيقول الله تعالى : " خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته وصكّوا له صكّا إلى جهنّم " .

قوله تعالى : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾

تقدم الكلام فيهما[(٢)] .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ويقال « تنفح » بمعناه ؛ ومنه « وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ[(٣)] » . إلا أن « تلفح » أبلغ بأسا ؛ يقال : لفحته النار والسَّموم بحرها أحرقته . ولفحته بالسيف لفحة إذا ضربته به [ضربة] خفيفة . ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : عابسون . وقال أهل اللغة : الكُلوح تَكَشُّر فى عُبوس . والكالح : الذى قد تشمّرت شفتاه وبدت أسنانه . قال الأعشى :

وله المُقْدَمُ لا مِثْلَ له * ساعةَ الشِّدْقِ عن النّاب كَلَحْ

وقد كَلَح الرجل كُلوحا وكُلَاحا . وما أقبح كَلْحَتَه ؛ يراد به الفَمُ وما حواليه . ودهر كالح أى شديد . وعن ابن عباس أيضا « وهم فيها كالحون » يريد كالذى كَلَح وتقلّصت شفتاه وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقَلَصت شفتاه . وفى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " وهم فيها كالحون — قال — تشويه النار فتقلِصُ شَفَتُه العليا حتى تبلغ وَسَط رأسه وتسترخى شَفَتُه السفلى حتى تضرب سُرّته " قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شِقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصما « شقاوتنا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن . ويقال : شقاء وشقًا ؛ بالمد والقصر . وأحسن ما قيل فى معناه : غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ؛ فسمى اللّذات والأهواء شِقوة ، لأنهما يؤدّيان إليها ، كما قال الله عز وجل : «إنّ الذين يأكُلون أموالَ اليتامَى ظُلْمًا إنما يأكُلون فِي بُطونِهِم نَارًا »[1] ؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار . وقيل : ما سبق فى علمك ، وكتب علينا فى أمّ الكتاب من الشقاوة . وقيل : حسن الظن بالنفس وسوءُ الظن بالخلق . ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أى كنا فى فعلنا ضالين عن الهدى . وليس هذا اعتذارا منهم إنما هو إقرار ، ويدلّ على ذلك قولهم ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى الكفر ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه فيجابون بعد ألف سنة : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أى ٱبْعُدُوا فى جهنم ؛ كما يقال للكلب : اِخْسأ ؛ أى ٱبْعُدْ . خسأت الكلب خَسْئًا طردته . وخسأ الكلبُ بنفسه خسوءا ؛ يتعدّى ولا يتعدى . وانخسأ الكلب أيضا . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة يذكره عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : إن أهل جهنم يَدْعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يردّ عليهم : إنكم ماكثون . قال : هانت والله دعوتهم على مالك وربِّ مالك . قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسئوا فيها . قال : فوالله ما نَبَس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزَّفير والشّهيق فى نار جهنم .

(١) آية ١٠ سورة النساء .

فشبّه أصواتهم بصوت الحمير، أوّلها زفير وآخرها شهيق . خرجه الترمذى مرفوعا بمعناه من حديث أبى الدرداء . وقال قتادة : صوت الكفار فى النار كصوت الحمار، أوّله زفير وآخره شهيق . وقال ابن عباس : يصير لهم نُباح كنباح الكلاب . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى أو ذُكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة ... الخبر بطوله، ذكره ابن المبارك، وقد ذكرناه بكماله فى التذكرة، وفى آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » قال: فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرحمنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » أى الكتاب الذى كتب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجوه بعض، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال مجاهد : هم بِلال وخَبّاب وصُهَيب، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين؛ كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم . ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بالضم قراءة نافع وحمزة والكسائى هاهنا وفى « ص »[(١)] . وكسر الباقون . قال النحاس : وفرّق أبو عمرو بينهما، فجعل المكسورة من جهة التهزّؤ، والمضمومة من جهة السُّخْرة، ولا يعرف هذا التفريق الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائىّ ولا الفرّاء . قال الكسائىّ : هما لغتان بمعنًى واحد؛ كما يقال : عُصِىّ وعِصِىّ، ولُجِىّ ولِجِىّ . وحكى الثعلبىّ عن الكسائىّ والفرّاء الفرقَ الذى ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى الاستهزاء

(١) فى آية ٦٣

والسخرية بالقول ، والضّم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التفريق بين المعانى عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر فى سخرىّ فى المعنيين جميعا ؛ لأن الضمة تستثقل فى مثل هذا . ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم، وأضاف الإنساء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سببا لاشتغالهم عن ذكره؛ وتعدّى شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على أذاكم ، وصبروا على طاعتى . ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائىّ بكسر الهمزة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، وفتح الباقون ؛ أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى فى آخر المطفّفين : « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذيرُ من السّخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإزراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يعنى، وأن ذلك مُبْعِد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قيل : يعنى فى القبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدّة حياتهم فى الدنيا . وهذا السؤال للشركين فى عَرَصات القيامة أو فى النار . ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ بفتح النون على أنه جمع مسلّم ، ومن العرب من يخفضها وينوّنها . ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أنساهم شدّةُ العذاب مدّةَ مكثهم فى القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتَلَه نبىّ أو قتل نبيًّا

أو مات بحضرة نبيّ إلا عُذب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى ، ثم يُمسَك عنه العذاب فيكون كالماء حتى يُنفخ الثانية . وقيل : استقصروا مدّة لَبثهم فى الدنيا وفى القبور ورأوه يسيرا بالنسبة إلى ماهم بصدده . ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ أى سل الحُسّاب الذين يعرفون ذلك فإنا قد نسيناه، أو فاسأل الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا ؛ الأول قول قتادة، والثانى قول مجاهد . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « قل كم لبثتم فِى الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها — قولوا كم لبثتم ؛ فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمرادُ الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوما . الثانى — أن يكون أمرًا للمَلَك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم فى الدنيا . أو أراد قل أيها الكافر كم لبثتم، وهو الثالث . الباقون « قال كم » على الخبر؛ أى قال الله تعالى لهم، أو قالت الملائكة لهم كم لبثتم . وقرأ حمزة والكسائىّ أيضا ﴿ قل إن لبثتم إلا قليلا ﴾ الباقون « قال » على الخبر، على ما ذكر من التأويل فى الأول؛ أى ما لبثتم فى الأرض إلا قليلا؛ وذلك أن مكثهم فى القبور وإن طال كان متناهيا . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم فى النار ؛ لأنه لا نهاية له . ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أى مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها؛ مثل قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »[1] يريد كالبهائم مهملا لغير فائدة . قال الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن علىّ : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا، ملوك فى دار الإسلام؛ وإن رفضوا العبوديّة فهم اليوم عبيد أُبّاق سُقّاط لئام، وغدًا أعداء فى السجون بين أطباق النيران . و « عَبَثًا » نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أو لأنه مفعول له . ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتجازون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائىّ « تَرْجِعون » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .

(١) آية ٣٦ سورة القيامة .

قوله تعالى : فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أى تنزه وتقدس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد ، وعن أن يخلق شيئا عبثا أو سفها ؛ لأنه الحكيم . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ ليس فى القرآن غيرها . وقرأ ابن مُحَيْصِن و روى عن ابن كثير « الكريمُ » بالرفع نعتا لله[1] .

قوله تعالى : وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ أى لا حجة له عليه ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى هو يعاقبه ويحاسبه . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن . ﴿ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة « لا يَفْلَح » — بالفتح — من كذب وجحد ما جئت به وكفر نعمتى . ثم أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتقتدى به الأمة . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وأسند الثعلبىّ من حديث ابن لَهِيعة عن عبد الله بن هُبيرة عن حَنَش بن عبد الله الصنعانىّ عن عبد الله بن مسعود أنه مر بمصاب مبتلًى فقرأ فى أذنه « أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثًا » حتى ختم السورة فبرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماذا قرأت فى أذنه "؟ فأخبره، فقال : " والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال " .

---

(١) فى روح المعانى : « الكريم بالرفع على أنه صفة الرب ، وجوّز أن يكون صفة للعرش على القطع » .

سورة النور

مدنية بالإجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ﴾

مقصود هذه السورة ذكرُ أحكام العفاف والسّتر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علّموا نساءكم سورة النور . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تُنزلوا النساء الغُرَف ولا تعلموهنّ الكتابة وعلموهنّ سورة النور والغزل . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قرئ بتخفيف الراء؛ أى فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أى أنزلنا فيها فرائض مختلفة . وقرأ أبو عمرو : « وفرّضناها » بالتشديد أى قطّعناها فى الإنزال نُجُماً نُجُماً . والفرض القطع؛ ومنه فُرْضة القوس . وفرائض الميراث وفرض النفقة . وعنه أيضا « فرّضناها » فصلناها و بيناها . وقيل : هو على التكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة؛ ولذلك سُمّيت السورة من القرآن سورة . قال زهير[1] :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كلّ مَلْكٍ دونها يتذبذب

وقد مضى فى مقدّمة الكتاب[2] القول فيها . وقرئ « سورةٌ » بالرفع على أنها مبتدأ وخبرها «أنزلناها»؛ قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والفرّاء والمُبرّد : « سورةٌ » بالرفع لأنها خبر الابتداء؛ لأنها نكرة ولا يبتدأ بالنكرة فى كل موضع؛ أى هذه سورة . ويحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حدّ النكرة المحضة فحسن الابتداء لذلك ، ويكون الخبر فى قوله « الزّانِيَةُ والزّانِي » . وقرئ «سورةً» بالنصب، على تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر[3] :

---

(١) كذا فى الأصول . والمعروف أن هذا البيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها النعمان و يعتذر .

(٢) راجع جـ١ ص٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) هو الربيع بن ضبيع بن وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للعينى) .

والذئبَ أخشاه إن مررتُ به * وَحْدِى وأخشى الرياح والمطرا

أو تكون منصوبة بإضمار فعل؛ أى آتل سورة . وقال الفرّاء : هى حال من الهاء والألف ، والحال من المكنى يجوز أن يتقدم عليه .

قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِى ﴾ كان الزّنَى فى اللغة معروفا قبل الشرع ، مثل اسم السرقة والقتــل . وهو اسمٌ لوطء الرجل آمرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها . وإن شئت قلت : هو إدخال فرج فى فرج مشتهًى طبعا محرّم شرعا؛ فإذا كان ذلك وجب الحــدّ . وقد مضى الكلام فى حدّ الزنى وحقيقته وما للعلماء فى ذلك . وهــذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة «النساء»[1] باتفاق .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ هــذا حدّ الزانى الحر البالــغ البكر ، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرّة . وثبت بالسُّنّة تغريب عام؛ على الخلاف فى ذلك . وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »[2] وهذا فى الأَمَة ، ثم العبدُ فى معناها . وأما المُحْصَن من الأحرار فعليه الرّجْم دون الجلد . ومن العلماء من يقول : يجلد مائة ثم يُرْجَم . وقد مضى هذا كله ممهَّدًا فى « النساء » فأغنى عن إعادته ، والحمد لله .

الثالثـــة — قرأ الجمهور «الزّانِيَةُ والزّانِى» بالرفع . وقرأ عيسى بن عمر الثّقَفِى «الزانيةَ» بالنصب ، وهو أوجه عند سيبويه ؛ لأنه عنده كقولك : زيدا آضرب . ووجه الرفع عنده :

(١) راجع جـ ٥ ص ٨٢ وما بعدها . (٢) آية ٢٥ سورة النساء .

خبر ابتداء[1]، وتقديره : فيما يتلى عليكم [حكم][2] الزانية والزانى . وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب . وأما الفرّاء والمبرد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه ، والخبر فى قوله « فآجلدوا »؛ لأن المعنى : الزانية والزانى مجلودان بحكم الله؛ وهو قول جيد ، وهو قول أكثر النحاة . وإن شئت قدّرت الخبر : ينبغى أن يجلدا . وقرأ ابن مسعود « والزان » بغير ياء .

الرابعة — ذكر الله سبحانه وتعالى الذّكر والأنثى ، والزانى كان يكفى منهما؛ فقيل : ذكرهما للتأكيد؛ كما قال تعالى : « والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقطعوا أيديَهما » . ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظن ظانّ أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل ليست بواطئة فلا يجب عليها حدّ؛ فذكرها رفعا لهذا الإشكال الذى أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعىّ . فقالوا : لا كفارة على المرأة فى الوطء فى رمضان؛ لأنه قال جامعت أهلى فى نهار رمضان؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "كفِّر" . فأمره بالكفارة، والمرأةُ ليست بمجامعة ولا واطئة .

الخامسة — قُدّمت « الزانية » فى هذه الآية من حيث كان فى ذلك الزمان زِنَى النساء فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكنّ مجاهراتٍ بذلك . وقيل : لأن الزنى فى النساء أعر وهو لأجل الحبل أضر . وقيل : لأن الشهوة فى المرأة أكثر وعليها أغلب؛ فصدّرها تغليظا لتَرْدَع شهوتها ، وإن كان قد رُكِّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله . وأيضا فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهنّ الحجب[3] والصيانة فقدم ذكرهنّ تغليظا واهتماما .

السادسة — الألف واللام فى قوله « الزانية والزانى » للجنس، وذلك يعطى أنها عامة فى جميع الزناة . ومن قال بالجلد مع الرجم قال : السُّنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد . وهو قول إسحاق بن رَاهْوَيْه والحسن بن أبى الحسن ، وفعله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بشُرَاحة، وقد مضى فى « النساء » بيانه[4] . وقال الجمهور : هى خاصة فى البكرين ، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج العبيد والإماء منها .

---

(١) فى هذه العبارة تساهل؛ فان التقدير الذى ذكره يقتضى أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين . (٢) زيادة من كتب التفسير . (٣) فى الأصول : « الحجبة » . (٤) راجع ج ٥ ص ٨٧

السابعـــة — نصّ الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزانِيَيْن إذا شُهد بذلك عليهما؛ على ما يأتى، وأجمع العلماء على القول به. واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة فى ثوب واحد؛ فقال إسحاق بن رَاهْوَيه : يضرب كل واحد منهما مائة جلدة . وروى ذلك عن عمر وعلىّ، وليس يثبت ذلك عنهما . وقال عطاء وسـفيان الثّورىّ : يؤدّبان . وبه قال مالك وأحمد؛ على قدر مذاهبهم فى الأدب . قال ابن المنذر : والأكثر ممن رأيناه يرى على من وُجد على هـذه الحال الأدبَ . وقد مضى فى « هود »(١) اختيار ما فى هـذه المسئلة، والحمد لله وحده .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَٱجْلِدُوا ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمرُ مضارع للشرط . وقال المبرّد : فيـه معنى الجزاء، أى إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا، ولهـذا دخلت الفاء؛ وهكذا « السارق والسارقة فٱقطعوا أيديهما » .

التاســعة — لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمامُ ومن ناب منابه . وزاد مالك والشافعىّ : السادة فى العبيد . قال الشافعىّ : فى كل جلد وقطع . وقال مالك : فى الجـلد دون القطع . وقيــل : الخطاب للسلمين؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين، ثم الإمام ينوب عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

العاشـــرة — أجمع العلماء على أن الجلد بالسَّـوْط يجب . والسَّـوْط الذى يجب أن يجلد به يكون سوطا بين سَوْطين، لا شـديدا ولا لَيِّنًا . وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفســه بالزنى على عهد رسول الله صـلى الله عليه وسلم؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسـلم بسَوْط، فأُتِىَ بسَوْط مكسور، فقال : "فوق هذا" فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته(٢)، فقال : "دون هذا" فأُتِى بسوط قد رُكب به ولان(٣) . فأمر به رسـول الله صلى الله عليه وسلم فجلد ... الحديث . قال أبو عمر : هكذا رَوى هذا الحديثَ مرسلا جميعُ

(١) كذا فى الأصول، ولعله يريد سورة النساء . راجع المسألة الثانية جـ ٥ ص ٨٦

(٢) الثمرة : الطرف . يريد أن طرفه محدد لم تنكسر حدّته ولم يُخْلق بعد .

(٣) يريد قد انكسرت حدّته ولم يخلق ولا بلغ من اللين مبلغا لا يألم من ضرب به . (راجع الموطأ كتاب الحدود) .

رواة الموطّا ، ولا أعلمه يستند بهـذا اللفظ بوجه من الوجوه ، وقد روى معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم مثله سواء . وقد تقدّم فى « المـائدة » ضرب عمر قُدامةَ[(١)] فى الخمر بسوط تام . يريد وَسَطًا .

الحادية عشـرة — اختلف العلماء فى تجريد المجلود فى الزنى ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : يجرّد ، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب . وقال الأوزاعىّ : الإمامُ مخيّر إن شاء جرّد وإن شاء ترك . وقال الشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ : لا يجرّد ، ولكن يترك عليه قميص . قال ابن مسعود : لا يحل فى هذه الأُمّة تجريد ولا مدّ ، وبه قال الثورىّ .

الثانيـــة عشرة — اختلف العلماء فى كيفية ضرب الرجال والنساء ؛ فقال مالك : الرجل والمرأة فى الحدود كلّها سواء ، لا يقام واحد منهما ؛ ولا يجزى عنده إلا فى الظهر . وأصحاب الرأى والشافعى يرون أن يُجـلد الرجل وهو واقف ، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقال اللّيْث وأبو حنيفة والشافعىّ : الضرب فى الحـدود كلها وفى التعزير مجرّدا قائمـا غير ممدود ؛ إلا حدّ القـذف فإنه يضرب وعليـه ثيابه . وحكاه المهدوىّ فى التحصيل عن مالك . وينزع عنه الحَشْوُ والفَرْو . وقال الشافعى : إن كان مدّه صلاحا مُدّ .

الثالثـــة عشرة — واختلفوا فى المواضـع التى تضرب من الإنسان فى الحـدود ؛ فقال مالك : الحـدود كلها لا تضرب إلا فى الظهر ، وكذلك التعزير . وقال الشافعىّ وأصحابه : يُتَّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء ؛ وروى عن علىّ . وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجْلَىْ أَمَة جلدها فى الزنى . قال ابن عطيـة : والإجماع فى تسليم الوجه والعورة والمَقاتل . واختلفوا فى ضرب الرأس ؛ فقال الجمهور : يُتّقَى الرأس . وقال أبو يوسف : يضرب الرأس . وروى عن عمر وابنـه فقالا : يضرب الرأس . وضرب عمـر رضى الله عنه صَبِيغًا[(٢)] فى رأسه وكان تعزيرا لا حدًّا . ومن حجة مالك ما أدرك عليـه الناس ، وقوله عليه السـلام : "البينةَ وإلا حَدٌّ فى ظهرك" وسيأتى .

(١) فى الأصول : «الجارود» وهو تحريف ؛ لأن الذى ضرب به سيدنا عمر رضى الله عنه هو قدامة بن مظعون ، وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى قصته فى ج ٦ ص ٢٩٧ فراجعه هنـاك ؛ وراجع ترجمته فى كتب الصحابة .

(٢) هو صبيغ (كأمير) بن عِسْل ، كان يعنّت الناس بالغوامض والسؤالات ؛ فنفاه سيدنا عمر إلى البصرة .

الرابعـــة عشرة — الضرب الذى يجب هو أن يكون مؤلما لا يَجرح ولا يَبْضع ، ولا يُخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما . وأُتِىَ عمر رضى الله عنـه برجل فى حدٍّ فأتى بسـوط بين سوطين وقال للضارب : اضرب ولا يُرى إبطك ؛ وأعط كلّ عضو حقه . وأتى رضى الله عنـه بشارب فقال : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة ؛ فبعثه إلى مطيع بن الأسود العدوىّ فقال : إذا أصبحت الغد فاْضربه الحد ؛ فجاء عمر رضى الله عنه وهو يضربه ضربا شديدا فقال : قتلت الرجل ! كم ضربتـه ؟ فقال ستين ؛ فقال : أَقِصّ عنه بعشرين . قال أبو عبيدة : « أَقِصّ عنه بعشرين » يقول : اجعل شدّة هذا الضرب الذى ضربته قصاصا بالعشرين التى بقيت ولا تضربه العشرين . وفى هـذا الحديث من الفقه أن ضرب الشـارب ضرب خفيف . وقد اختلف العلماء فى أشد الحدود ضربا وهى :

الخامســـة عشرة — فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب فى الحـدود كلها سـواء ، ضربٌ غير مُبرِّح ، ضربٌ بين ضربين . وهو قول الشافعىّ رضى الله عنـه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشدّ الضرب ؛ وضرب الزنى أشدّ من الضرب فى الخمر ، وضرب الشارب أشدّ من ضرب القذف . وقال الثّوْرِىّ : ضرب الزنى أشـدّ من ضرب القذف ، وضرب القذف أشـدّ من ضرب الخمر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يَرِد فى شىء منها تخفيف ولا تثقيل عمن يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب فى التعزير ضربا أشدّ منه فى الزنى . احتج الثورِىّ بأن الزنى لمـا كان أكثر عددا فى الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغ فى النكاية . وكذلك الخمر ؛ لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوّة مسائل التوقيف .

السادســـة عشرة — الحـدّ الذى أوجب الله فى الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغى أن يقام بين أيدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضـلاء الناس وخيارهم يختـارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شىء من ذلك ، رضى الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعية وقُرْبة تعبُّديّة ، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالها ، بحيث لا يُتعدّى شيء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن . روى الصحيح عن حُضين[1] بن المنذر أبى ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان وأُتِى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان ، أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ؛ فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا علىّ قم فآجلده . فقال علىّ : قم يا حسن فآجلده . فقال الحسن : وَلِّ حارّها من تَوَلَّى قارّها[2] (فكأنه وَجَد عليه) فقال : يا عبد الله بن جعفر ، قم فآجلده ؛ فجلده وعلىّ يَعُدّ ... الحديث . وقد تقدم فى المائدة . فآنظر قول عثمان للإمام علىّ : قم فآجلده .

السابعة عشرة — نص الله تعالى على عدد الجلد فى الزنى والقذف ، وثبت التوقيف فى الخمر على ثمانين من فعل عمر فى جميع الصحابة — على ما تقدم فى المائدة[3] — فلا يجوز أن يُتعدّى الحد فى ذلك كله . قال ابن العربىّ : « وهذا ما لم يتتابع الناس فى الشر ولا آحْلَوْلت لهم المعاصى ، حتى يتخذوها ضَراوة[4] ويعطفون عليها بالهوادة فلا يتناهوْا عن منكرٍ فعلوه ؛ فحينئذ تتعين الشدّة ويزاد الحدّ لأجل زيادة الذنب . وقد أُتِىَ عمر بسكران فى رمضان فضربه مائة ؛ ثمانين حدّ الخمر وعشرين لهتك حرمة الشهر . فهكذا يجب أن تركّب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحرمات . وقد لعب رجل بصبىّ فضربه الوالى ثلثمائة سوط فلم يغيّر [ذلك[5]] مالك حين بلغه ، فكيف لو رأى زماننا هذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصى ، والتظاهر بالمناكر وبيع الحدود واستيفاء العبيد لها فى منصب القُضاة ، لمات كمدا ولم يجالس أحدا ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

---

(١) بحاء مهملة مضمومة وضاد معجمة . (٢) قال النووى فى شرح هذا الحديث « الحار : الشديد المكروه ، والقارّ : البارد الهنىء الطيب . وهذا مثل من أمثال العرب ، معناه : وَلِّ شدّتها وأوساخها من تولّى هنيئها ولذاتها ؛ والضمير عائد الى الخلافة والولاية ؛ أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنىء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها . ومعناه : ليتولّ هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصة أقاربه الأدْنَيْن » .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضراوة : العادة . (٥) زيادة عن ابن العربى .

قلت : ولهذا المعنى — والله أعلم — زيد فى حدّ الخمر حتى ٱنتهى إلى ثمانين . وروى الدَّارَقُطْنِيّ « حدّثنا القاضى الحسين بن إسماعيل حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ حدّثنا صفوان بن عيسى حدّثنا أسامة بن زيد عن الزهرىّ قال أخبرنى عبد الرحمن بن أزهر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين وهو يتخلل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد ، فأتى بسكران ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده فضربوه بما فى أيديهم . وقال : وحثا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه التراب . قال : ثم أُتِيَ أبو بكر رضى الله عنه بسكران ، قال : فتوخّى الذى كان من ضربهم يومئذ ؛ فضرب أربعين . قال الزهرىّ : ثم أخبرنى حميد بن عبد الرحمن عن ٱبن وَبَرَة الكلبى قال : أرسلنى خالد بن الوليد إلى عمر ، قال فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلىّ وطلحة والزبير وهم معه متكئون فى المسجد فقلت : إن خالد بن الوليد أرسلنى إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول : إن الناس قد انهمكوا فى الخمر ! وتحاقروا العقوبة فيه ؛ فقال عمر : هم هؤلاء عندك فَسَلْهم . فقال علىّ : نراه إذا سكر هَذَى وإذا هَذَى افترى وعلى المفترى ثمانون ؛ قال فقال عمر : أبلغ صاحبك ما قال . قال : فجلد خالد ثمانين وعمرُ ثمانين . قال : وكان عمر إذا أُتِى بالرجل الضعيف الذى كانت منه الذلّة ضربه أربعين . قال : وجلد عثمان أيضا ثمانين وأربعين » . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " لو تأخر الهلال لزدتكم " كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا . فى رواية " لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا يَدَع المتعمقون تعمّقهم "[1] . وروى حامد بن يحيى عن سفيان عن مِسْعَر عن عطاء بن أبى مَرْوان أن عليًّا ضرب النجاشىّ فى الخمر مائة جلدة ؛ ذكره أبو عمر ولم يذكر سببا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقةً على المحدود ، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع ؛ هذا قول جماعة أهل التفسير . وقال الشَّعْبىّ والنَّخَعىّ وسعيد بن جُبير : « لا تأخذكم بهما رأفةٌ » قالوا

(١) الحديث ذكر فى صحيح مسلم فى (كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم) . وصحيح البخارى فى (كتاب الاعتصام . باب ما يكره من التعمق والتنازع ... الخ) .

فى الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إقامة حدّ بأرضٍ خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة؛ ثم قرأ هذه الآية . والرأفة أرقّ الرحمة . وقرئ « رأَفةٌ » بفتح الألف على وزن فَعَلة . وقرئ « رآفة » على وزن فَعالة؛ ثلاث لغات، وهى كلها مصادر، أشهرها الأولى؛ من رَؤُف إذا رَقّ ورَحِم . ويقال : رأْفة ورآفة؛ مثل كأْبة وكآبة . وقد رَأَفْتُ به ورؤُفْت به . والرءوف من صفات الله تعالى : العطوفُ الرحيم .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى فى حُكم الله؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ »(١) أى فى حكمه . وقيل : « فى دِينِ الله » أى فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود . ثم قررهم على معنى التثبيت والحضّ بقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وهذا كما تقول لرجل تحضّه : إن كنت رَجلا فافعل كذا ! أى هذه أفعال الرجال .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُلٌ فما فوقه إلى ألف . وقال ابن زيد : لابدّ من حضور أربعة قياسا على الشهادة على الزنى، وأن هذا باب منه؛ وهو قول مالك والليث والشافعىّ . وقال عكرمة وعطاء : لابدّ من اثنين؛ وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة . وقال الزهرىّ : ثلاثة؛ لأنه أقلّ الجمع . الحسن : واحد فصاعدا، وعنه عشرة . الربيع : ما زاد على الثلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنهم طائِفةٌ »(٢)، وقولُه : « وإِنْ طائِفتان »(٣)، ونزلت فى تقاتل رجلين؛ فكذلك قوله تعالى : « ولْيَشْهَدْ عذابَهما طائِفةٌ مِن المؤمِنين » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو بَرْزَة الأسلمىُّ بجارية له قد زنت وولدت فألقى عليها ثوبا، وأمر ابنه أن يضربها خمسين ضربة غير مُبَرِّح ولا خفيفٍ لكن مؤلم، ودعا جماعة ثم تلا « وليشهد عذابَهما طائِفةٌ مِن المؤمِنين » .

---

(١) آية ٧٦ سورة يوسف . (٢) آية ١٢٢ سورة التوبة . (٣) آية ٩ سورة الحجرات .

الحـادية والعشرون — اختلف فى المراد بحضور الجماعة ، هـل المقصود بها الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخُ بحضرة النـاس ، وأن ذلك يُرْدِع المحدود ، ومن شَهِده وحضره يتّعظ به و يزدجر لأجله ، و يَشيع حديثُه فيَعْتبر به مَن بعده ، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة ؛ قولان للعلماء .

الثانية والعشرون[1] — روى عن حُذيفة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا معاشر الناس آتقوا الزنى فإن فيه ستَّ خصال ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة فأما اللواتى فى الدنيا فيذهب البهاء و يورث الفقر ويَنْقُص العمر وأما اللواتى فى الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود فى النار " . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أعمال أمتى تعرض علىّ فى كل جمعة مرتين فآشتد غضب الله على الزناة" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ليلة النصف من شعبان آطلع الله على أمتى فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا خمسةً ساحرا أو كاهنا أو عاقا لوالديه أو مدمِنَ خمر أو مصرًّا على الزنى " .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَـةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَـةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :

الأول — أن يكون مقصد الآية تشنيعَ الزنى وتبشيعَ أمره ، وأنه محرّم على المؤمنين . واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسن بليغ . ويريد بقوله « لا يَنْكِح » أى لا يطأ ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردّد القصـة مبالغة وأخذًا من كِلَا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشركة والمشرك من حيث الشرك أعم فى المعاصى من الزنى ؛ فالمعنى : الزانى لا يطأ فى وقت زناه إلا زانيـة من المسلمين ، أو من هى أحسن منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح فى هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح فى كتاب الله تعالى إلا

---

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .

بمعنى التزويج . وليس كما قال؛ وفى القرآن «حتى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء، وقد تقدّم فى «البقرة»(١) . وذكر الطبريّ ما يَنْحُو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، ولكن غير مخلص ولا مكمل . وحكاه الخطابيّ عن ابن عباس، وأن معناه الوطء؛ أى لا يكون زِنًى إلا بزانية ، ويفيد أنه زنًى فى الجهتين ؛ فهـذا قول .

الثـانى — ما رواه أبو داود والترمذيّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن مَرْثد ابن أبى مرثد كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بَغِيّ يقال لها «عَناق» وكانت صديقته ، قال : فجئت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، أنكِح عَناق ؟ قال : فسكت عنى ؛ فنزلت «والزَّانِيَةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ» ؛ فدعانى فقرأها عليّ وقال : "لا تنكحها" . لفظ أبى داود، وحديث الترمذى أكمل . قال الخطابيّ : هـذا خاص بهـذه المرأة إذ كانت كافرة ، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ .

الثـالث — أنها مخصوصة فى رجل من المسلمين أيضا استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح امرأة يقال لها «أم مهزول» وكانت من بغايا الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ قاله عمرو بن العاصى ومجاهد .

الرابـع — أنها نزلت فى أهل الصُّفّة ، وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم فى المدينة مساكن ولا عشائر فنزلوا صُفّة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصّفة بالليل ، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور ، مخاصيب بالكُسْوة والطعام ؛ فهمّ أهـل الصفة أن يتزوّجوهنّ فيأووا إلى مساكنهنّ ويأكلوا من طعامهنّ وكسوتهنّ ؛ فنزلت هذه الآية صيانةً لهم عن ذلك ؛ قاله ابن أبى صالح .

الخـامس — ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزانى المحـدودُ والزانيةُ المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوّج إلا محدودة .

(١) راجع جـ ٣ ص ١٤٦

وقال إبراهيم النَّخَعِىّ نحوه . وفى مصنَّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينكح الزانى المحدودُ إلا مثله" . وروى أن محدودا تزوّج غير محدودة ففرّق علىّ رضى الله عنه بينهما . قال ابن العربى : وهذا معنًى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا ، وهل يصح أن يوقف نكاح من حُدّ من الرجال على نكاح من حُدّ من النساء ! فبأىّ أثر يكون ذلك ، وعلى أىّ أصل يقاس من الشريعة !

قلت — وحكى هذا القول الكِيَا عن بعض أصحاب الشافعى المتأخرين ، وأن الزانى إذا تزوج غير زانية فُرّق بينهما لظاهر الآية . قال الكِيَا : وإنْ هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوّز للزانى التزوّج بالمشركة ، ويجوّز للزانية أن تزوّج نفسها من مشرك ؛ وهذا فى غاية البعد ، وهو خروج عن الإسلام بالكلية ، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة فى المشرك خاصّةً دون الزانية .

السادس — أنها منسوخة ؛ روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب قال : « الزانى لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ » قال : نسخت هذه الآيةَ التى بعدها « وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنكم »(1) ؛ وقاله ابن عمرو ، قال : دخلت الزانية فى أيامَى المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفُتْيا يقولون : إنّ من زنى بٱمرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوّجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . وقال الشافعىّ : القول فيها كما قال سعيد بن المسيّب ، إن شاء الله هى منسوخة . قال ابن عطية : وذِكْر الإشراك فى هذه الآية يضعف هذه المناحى . قال ابن العربىّ : والذى عندى أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو العقد ؛ فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنًى إلا بزانية ، وذلك عبارة عن أن الوطأين من الرجل والمرأة زنًى من الجهتين ؛ ويكون تقدير الآية : وطءُ الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك ؛ وهذا يؤثر عن ابن عباس ، وهو معنى صحيح .

(1) آية ٣٢ من هذه السورة .

فإن قيل : فإذا زنى بالغٌ بصبية، أو عاقلٌ بمجنونة، أو مستيقظٌ بنائمة فإن ذلك من جهة الرجل زنًى ؛ فهذا زانٍ نكح غير زانيـة ، فيخرج المراد عن بابه الذى تقدم . قلنا : هو زنًى من كل جهة، إلا أن أحدهما سقط فيه الحـد والآخر ثبت فيه . وإن أريد به العقـد كان معناه : أن متزوّج الزانية التى قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزانى ، إلا أنه لا حدّ عليه لاختلاف العلماء فى ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعا. وقيل : ليس المراد فى الآية أن الزانى لا ينكح قطّ إلا زانية ؛ إذ قـد يتصوّر أن يتزوّج غير زانيـة ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ؛ فكأنه قال : لا ينكح الزانيةَ إلا زانٍ؛ فقلَب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضا يزنى .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن التزوّج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وسيأتى .

الثالثـــة — روى أن رجلا زنى بامرأة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فجلدهما مائة جلدة، ثم زوّج أحدَهما من الآخر مكانه، ونفاهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمر وابن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل سَرَق من حائط ثمره ثم أتى صاحبَ البستان فاشترى منه ثمره[(١)] ؛ فما سَرَق حرام وما اشترى حلال . وبهذا أخذ الشافعىّ وأبو حنيفة، ورأوا أن المـاء لا حرمة له . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعـد ذلك فهما زانيان أبدا . وبهـذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسـد ؛ لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمته ألا يُصَبّ على ماء السِّـفاح ؛ فيختلط الحـرام بالحـلال ، ويمتزج ماء المهـانة بمـاء العـــزّة .

---

(١) عبارة ابن العربى كما فى أحكامه : « مثل رجل سرق ثمرة ثم اشتراها » .

الرابعـــة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : من كان معروفا بالزنى أو بغيره من الفسوق مُعْلِنًا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغَرّهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه؛ وذلك كعَيْب من العيوب ، وآحتج بقوله عليه السـلام : " لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثلـه " . قال ابن خُوَيْزمنداد : و إنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق، وهو الذي يجب أن يفرّق بينه و بين غيره؛ فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامســـة — قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة ، وعند هؤلاء : من زنى فسد النكاح بينه و بين زوجته ، و إذا زنت الزوجة فسد النكاح بينهـا وبين زوجها . وقال قوم من هؤلاء : لا ينفسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقهـا إذا زنت ، ولو أمسكها أثم ، ولا يجوز التزوج بالزانيـة ولا من الزاني ؛ بل لو ظهرت التو بة فحينئذ يجـــوز النكاح .

السادســـة — ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نكاح أولئك البغايا؛ فيزعم بعض أهل التأويل أن نكاح أولئك البغايا حرّمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام، ومن أشهرهن عَناق .

السابعـــة — حرم الله تعالى الزنى في كتابه؛ فحيثما زنى الرجل فعليه الحدّ . وهذا قول مالك والشافعيّ وأبي ثَوْر . وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم إذا كان في دار الحرب بأمان وزنى هنالك ثم خرج لم يحدّ . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليـه الحد؛ على ظاهر قوله « الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة » .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — هذه الآية نزلت فى القاذفين. قال سعيد بن جُبير: كان سببها ما قيل فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . وقيل : بل نزلت بسبب القَذَفة عاماً لا فى تلك النازلة . وقال ابن المنذر : لم نجد فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يدل على تصريح القذف، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنًى به ، دالًّا على القذف الذى يوجب الحدّ ، وأهل العلم على ذلك مجمعون .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يريد يسبُّون ، وآستعير له اسم الرَّمْى لأنه اذاية بالقول ؛ كما قال النابغة :

* وجرح اللسان كجرح اليد *

وقال آخر :

رَمَانِى بأمْرٍ كنتُ منه ووالدِى * بريئا ومن أجْل الطَّوِىّ رمانِى (١)

ويسمّى قذفا؛ ومنه الحديث : إن ابن أميّة قذف امرأته بشريك بن السّحماء ؛ أى رماها .

الثالثــة — ذكر الله تعالى فى الآية النساء من حيث هنّ أهمّ (٢)، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس . وقَذْفُ الرجال داخل فى حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك . وهذا نحو نصّــه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه ، ونحــو ذلك بالمعنى والإجماع . وحكى الزّهراوِىّ أن المعنى : والأنفس المحصنات ؛ فهى بلفظها تعم الرجال والنساء، ويدل على ذلك قوله : « والمُحْصَنَاتُ مِن النساءِ » (٣) . وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج؛ كما قال تعالى : « والَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » (٤) فيدخل فيه فروج الرجال والنساء . وقيل : إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت ليعطف عليها قذف الرجل زوجته ؛ والله أعلم . وقرأ الجمهور « المحصَناتُ » بفتح الصاد، وكَسَرها يحيى بن وَثّاب . والمحصَنات العفائف فى هذا الموضع . وقد مضى فى « النساء » ذكر الإحصان (٥) ومراتبه . والحمد لله .

---

(١) البيت لابن أحمر . والطوى : البئر . (٢) فى الأصول : « من حيث هو أهم » . وعبارة البحر المحيط لأبى حيان أبين ، وهى : « وخص النساء بذلك وإن كان الرجال يشركونهن فى الحكم لأن القــذف فيهن أشــنع وأنكر للنفوس ، ومن حيث هن هوى الرجال » الخ . (٣) آية ٢٤ سورة النساء . (٤) آية ٩١ سورة الأنبياء . (٥) راجع جـ ٥ ص ١٣٩ وما بعدها .

الرابعــة — للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان فى القاذف ، وهما العقل والبلوغ ؛ لأنهما أصلا التكليف ، إذ التكليف ساقط دونهما . وشرطان فى الشيء المقذوف به ، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى واللواط ؛ أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصى . وخمسة فى المقذوف ، وهى العقل والبلوغ والإسلام والحرّية والعفة عن الفاحشة التى رُمِىَ بها كان عفيفا من غيرها أم لا . وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف وإن لم يكونا من معانى الإحصان لأجل أن الحدّ إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرّة على من عدم العقل والبلوغ ؛ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنًى .

الخامســة — اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورَمْيًا موجبا للحدّ ، فإن عرّض ولم يُصرّح فقال مالك : هو قذف . وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا يكون قذفا حتى يقول أردت به القذف . والدليل لمـا قاله مالك هو أن موضوع الحدّ فى القذف إنما هو لإزالة المعرّة التى أوقعها القاذف بالمقذوف ، فإذا حصلت المعرّة بالتعريض وجب أن يكون قــذفا كالتصريح والمعــوّل على الفهم ؛ وقــد قال تعـالى مخبرا عن شعيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى السـفيه الضال ؛ فعرّضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح فى أحد التأويلات ، حسبما تقدم فى هــود [1] . وقال تعالى فى أبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [2] » . وقال حكاية عن مريم : « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا [3] » ؛ فمدحوا أباها ونفَــوْا عن أمها البغــاء ، أى الزنى ، وعرّضــوا لمريم بذلك ؛ ولذلك قال تعــالى : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا [4] » ، وكفرُهم معروف ، والبهتان العظيم هو التعريض لها ؛ أى ما كان أبوك ٱمرأ سوء وما كانت أمّك بغياً ، أى أنت بخلافهما وقد أتيْتِ بهذا الولد . وقال تعــالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُــدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [5] » ؛ فهذا اللفظ قد فُهِم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدًى ، وأن الله تعالى ورسوله على الهُدَى ؛ ففُهِم من هذا التعريض مايفهم من صريحه . وقد حبس عمر رضى الله عنه الحُطيئة لمـا قال :

(١) راجــع جـ ٩ ص ٨٧ طبعة أولى أو ثانيــة .　　(٢) آية ٤٩ ســورة الدخان .
(٣) آية ٢٨ سورة مريم .　　(٤) آية ١٥٦ سورة النساء .　　(٥) آية ٢٤ سورة سبأ .

دَعِ المكارمَ لا ترحــل لبُغْيتها * وٱقعد فإنك أنت الطّاعِمُ الكاسِى

لأنه شبهه بالنساء فى أنهن يُطْعَمْن و يُسقين و يُكسون . ولمـا سمع قول النجاشىّ :

قبيلتــه لا يغدرون بذمة * ولا يظلمون الناس حَبّة خَرْدَلِ

قال : ليت الخَطّاب كذلك ؛ و إنمـا أراد الشاعر ضعف القبيلة ؛ ومثله كثير .

السادســة — الجمهور من العلماء على أنه لا حدّ على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو ٱمرأة منهم . وقال الزُّهرِىّ وسعيد بن المسيّب وٱبن أبى لَيْلَى : عليه الحدّ إذا كان لها ولد من مسلم . وفيــه قول ثالث — وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جُلِد الحدّ . قال ٱبن المنــذر : وجُلّ العلماء مجمعون وقائلون بالقول الأوّل ، ولم أدرك أحدا ولا لقِيته يخالف فى ذلك . و إذا قذف النصرانىّ المسـلمَ الحرّ فعليــه ما على المسلم ثمــانون جلدة ؛ لا أعلم فى ذلك خلافا .

السابعــة — والجمهور من العلماء على أن العبد إذا قذف حُرًّا يجلد أربعين ؛ لأنه حدٌّ يتشطّر بالرق كحدّ الزنى . وروى عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقَبِيصة بن ذؤيب يجلد ثمانين . وجلد أبو بكر بن محمد عبدا قذف حرا ثمــانين ؛ و به قال الأوزاعىّ . احتج الجمهور بقول الله تعــالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَـةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ[(١)] » . وقال الآخرون : فهمنا هناك أن حدّ الزنى لله تعالى ، وأنه ربمــا كان أخفّ فيمن قلّت نعم الله عليــه ، وأفحش فيمن عظمت نعم الله عليه . وأما حدّ القذف فحق للآدمىّ وجب للجناية على عرض المقذوف ، والجنــاية لا تختلف بالرقّ والحرية . وربمــا قالوا : لو كان يختلف لذُكر كما ذكر فى الزنى . قال ابن المنذر : والذى عليه علماء الأمصار القولُ الأوّل ، و به أقول .

الثامنــة — وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه ؛ لتباين مرتبتهما ، ولقوله عليه الســلام : " من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليــه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال" خرّجه البخارىّ ومسلم . وفى بعض طرقه : " من قذف عبده بزنًى ثم لم يُثبت أقيم

(١) آية ٢٥ سورة النساء .

عليه يوم القيامة الحدّ ثمانون" ذكره الدّارَقُطْنِيّ . قال العلماء : وإنما كان ذلك في الآخرة لارتفاع المِلْك واستواء الشريف والوضيع والحرّ والعبد، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ؛ ولما كان ذلك تكافأ الناس في الحدود والحرمة ، واقتُصّ من كل واحد لصاحبه إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم . وإنما لم يتكافئوا في الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين في مكافأتهم لهم، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة، وتبطل فائدة التسخير، حكمةً من الحكيم العليم، لا إله إلا هو .

التاسعة — قال مالك والشافعيّ : من قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحدّ؛ وقاله الحسن البصريّ واختاره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أمّ الولد حُدّ؛ وروى عن ابن عمر، وهو قياس قول الشافعيّ . وقال الحسن البصريّ : لا حدّ عليه .

العاشرة — واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين الفخذين ؛ فقال ابن القاسم : عليه الحدّ؛ لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حدّ فيه؛ لأنه نسبة إلى فعلٍ لا يعدّ زنًى إجماعا .

الحادية عشرة — إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأبو ثور : ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنًى إذ لا حدّ عليها، ويعزّر . قال ابن العربيّ : والمسئلة محتملة مشكلة، لكن مالك طلب[1] حماية عرض المقذوف ، وغيرُه راعى حماية ظهر القاذف ؛ وحمايةُ عرض المقذوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحدّ . قال ابن المنذر : وقال أحمد في الجارية بنتِ تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبيّ إذا بلغ عشرا ضُرب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاما يطأ مثلُه فعليه الحدّ، والجارية إذا جاوزت تسعا مثل ذلك . قال ابن المنذر : لا يحدّ من قَذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب، ويعزّر على الأذى . قال أبو عبيد : في حديث عليّ رضي الله عنه أن امرأة جاءته فذكرت أن زوجها يأتي جاريتها فقال : إن كنتِ صادقةً رجمناه وإن كنت كاذبة

---

(١) في ابن العربي : «غلب» .

جلدناك . فقالت : رُدّونى إلى أهلى غَيْرَى نَغِرَة(١) . قال أبو عبيد : فى هـذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية آمرأته الحدّ .

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك قاذف كان على قاذفه الحـدّ ؛ ألا تسمع قوله : وإن كنتِ كاذبة جلدناك . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بمـا يأتى وبمـا يقول ، فإن كان جاهلا وادّعى شُبهة دُرِئَ عنه الحدّ فى ذلك كله .

وفيه أيضـا أن رجلا لو قذف رجلا بحضرة حاكم وليس المقـذوف بحاضر أنه لا شىء على القاذف حتى يجىء فيطلب حدّه ؛ لأنه لا يدرى لعله يصدّقه ؛ ألا ترى أن علياً عليه السلام لم يعرض لهـا .

وفيه أن الحاكم إذا قُذف عنـده رجل ثم جاء المقذوف فطلب حقه أخذه الحاكم بالحدّ بسماعه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنتِ كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسيأتى . قال أبو عبيد : قال الأصمعى سألنى شعبة عن قوله «غَيْرَى نَغِرة» ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَغَرِ القِدْر ، وهو غليانها وفَوْرُها ؛ يقال منـه : نَغِرت تَنْغَر ، ونَغَرت تَنْغِر إذا غلت . فمعناه أنهـا أرادت أن جوفها يَغْلِي من الغيظ والغَيْرة لمـّا لم تجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يتنغّر على فلان ؛ أى يغلى جوفه عليه غيظا .

الثانية عشرة — من قذف زوجة من أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم حُدّ حدّين ؛ قاله مسروق . قاله ابن العربىّ : والصحيح أنه حدّ واحد ؛ لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضى شرفُهن زيادة فى حَدّ من قذفهن ؛ لأن شرف المنزلة لا يؤثّر فى الحدود ، ولا نقصها يؤثر فى الحدّ بتنقيص . والله أعلم . وسيأتى الكلام فيمن قذف عائشة رضى الله عنها ، هل يقتل أم لا .

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَـةِ شُهَدَاءَ ﴾ الذى يفتقر إلى أربعـة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمةً بعباده وسترا لهم(٢) . وقد تقدّم فى سورة النساء .

---

(١) سيأتى الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة عشرة — من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد؛ فإن افترقت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فرأى مالك أن اجتماعهم تعبد؛ وبه قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعها وقد حصل؛ وهو قول عثمان البَتّيّ وأبي ثَوْر واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة — فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يُعَدَّلوا؛ فكان الحسن البصريّ والشَّعْبِيّ يَرَيَان أن لا حدّ على الشهود ولا على المشهود؛ وبه قال أحمد والنّعمان ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسقوطا عليه أو عبدا يجلدون جميعا . وقال سفيان الثوريّ وأحمد وإسحاق في أربعة عميان يشهدون على امرأة بالزنى : يضربون .

السادسة عشرة — فإن رجع أحد الشهود وقد رُجم المشهود عليه في الزنى؛ فقالت طائفة : يَغْرَم ربع الدية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة وحماد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعيّ : إن قال عمدت ليقتل؛ فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفوا وأخذوا ربع الدية ، وعليه الحدّ . وقال الحسن البصريّ : يقتل ، وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الدية . وقال ابن سِيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الدية كاملة ، وإن قال تعمّدت قتل؛ وبه قال ابن شُبْرُمَة .

السابعة عشرة — واختلف العلماء في حدّ القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميّين أو فيه شائبة منهما؛ الأول — قول أبي حنيفة . والثاني — قول مالك والشافعيّ . والثالث — قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يَطلب ذلك المقذوفُ ، ونفعت القاذف التوبةُ فيما بينه وبين الله تعالى ، ويتشطّر فيه الحدّ بالرق كالزنى . وإن كان حقا للآدمي فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، ويسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذفَ التوبةُ حتى يحلله المقذوف .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير «بأربعةٍ» (بالتنوين) « شُهَدَاءَ » . وفيه أربعة أوجه : يكون فى موضع جر على النعت لأربعة ، أو بدلا . ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا؛ وفى الحال والتمييز نظر؛ إذ الحال من نكرة، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين العدد ، وتركُ إضافته إنما يجوز فى الشعر . وقد حسّن أبو الفتح عثمان ابن جنّى هذه القراءة وحبب[(1)] على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويجوز أن يكون « شهداء » فى موضع نصب؛ بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة — حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة يرَوْن ذلك كالمِرْوَد فى المُكْحُلة؛ على ما تقدّم فى « النساء »[(2)] فى نص الحديث . وأن تكون فى موطن واحد؛ على قول مالك . وإن اضطرب واحد منهم جُلد الثلاثة؛ كما فعل عمر فى أمر المغيرة بن شعبة؛ وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكرة نُفَيع بن الحارث وأخوه نافع؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزياد أخوهما لأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البَجَلى ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زياد ولم يؤدها، جلد عمر الثلاثة المذكورين .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ﴾ الجلد الضرب . والمجالدة المضاربة فى الجلود أو بالجلود؛ ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره . ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرًا * كأن يدى بالسيف مِخْراق لاعب

﴿ ثَمَانِينَ ﴾ نصب على المصدر . ﴿ جَلْدَةً ﴾ تمييز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ فى موضع نصب على الاستثناء . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل . والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد القذف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف :

(1) وردت هذه الكلمة مضطربة فى نسخ الأصل؛ ففى نسخة « خبث » وفى أخرى « وجبت » وفى رابعة « وجبيت » . (2) راجع جـ ٥ ص ٨٣ .

جلده، وردّ شهادته أبدا ، وفسقه . فالاستثناء غير عامل فى جلده بإجماع ؛ إلا ما روى عن الشَّعْبِيّ على ما يأتى . وعاملٌ فى فسقه بإجمـاع . واختلف الناس فى عمـله فى ردّ الشهادة ؛ فقال شُرَيح القاضى و إبراهـيم النَّخَعِيّ والحسن البصرىّ وسفيان الثَّوْرِىّ وأبو حنيفة : لا يعمل الاستثناء فى ردّ شهادته ، و إنمـا يزول فسقه عند الله تعـالى . وأما شهادة القاذف فلا تقبـل ألبتة ولو تاب وأكذب نفسـه ولا بحال من الأحوال . وقال الجمهـور : الاستثناء عامل فى رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قُبلت شهادته ؛ و إنمـا كان ردها لعـلة الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهـادته مطلقا قبل الحـدّ وبعده ، وهو قول عامة الفقهاء . ثم اختلفوا فى صورة توبته ؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه والشّعبِيّ وغيره، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى حُدّ فيه . وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة : من أكذب نفسه أَجَزْت شهادته فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته ؛ فأكذب الشّبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة أنفسهما وتابا، وأبى أبو بكرة أن يفعل؛ فكان لا يقبل شهادته . وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة . وقالت فرقة — منها مالك رحمه الله تعـالى وغيره — : توبتـه أن يَصْلُح ويَحْسُن حاله و إن لم يرجع عن قـوله بتكذيب ؛ وحسبه النـدم على قذفه والاستغفارُ منه وترك العـوْد إلى مثله ؛ وهو قول ابن جرير . ويروى عن الشّعبِيّ أنه قال : الاستثناء من الأحكام الثلاثة . إذا تاب وظهرت توبته لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنـه التفسيق؛ لأنه قد صار ممن يُرْضَى من الشهداء ؛ وقد قال الله عز وجل : « و إنى لَغَفَّارٌ لمن تاب »[1] الاية .

الثانية والعشرون — اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة القاذف ؛ فقال ابن المـاجِشُون : بنفس قذفه . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحْنون : لا تسقط حتى يجلد، فإن مَنع من جلده مانعٌ عفوٍ أو غيره لم تردّ شهادته . وقال الشيخ أبو الحسن اللَّخْمِىّ : شهادته فى مدة الأجل موقوفة؛ ورجّح القول بأن التوبة إنما تكون بالتكذيب فى القذف، و إلا فأىّ رجوع لعَدْل إن قَذف وحُدّ وبقى على عدالته .

(١) آية ٨٢ سورة طـــه .

الثالثة والعشرون — واختلفوا أيضا على القول بجواز شهادته بعد التوبة فى أى شىء تجوز ؛ فقال مالك رحمه الله تعالى : تجوز فى كل شىء مطلقا ؛ وكذلك كل من حُدّ فى شىء من الأشياء ؛ رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك ، وهو قول ابن كنانة . وذكر الوَقّار(١) عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدّ فيه خاصة ، وتقبل فيما سوى ذلك ؛ وهو قول مُطَرِّف وابن الماجِشُون . وروى العُتْبِىّ عن أَصْبَغ وسُحنون مثله . قال سُحْنون : من حُدّ فى شىء من الأشياء فلا تجوز شهادته فى مثل ما حدّ فيه . وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : من حدّ فى قذف أو زنًى فلا تجوز شهادته فى شىء من وجوه الزنى ، ولا فى قذف ولا لِعان و إن كان عدلا ؛ ورو ياه عن مالك . واتفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز فى الزنى .

الرابعة والعشرون — الاستثناء إذا تعقّب جُمَلا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعىّ وأصحابهما . وعند أبى حنيفة وجُلِّ أصحابه يرجع الأستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق ؛ ولهذا لا تقبل شهادته ، فإن الأستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة .

وسبب الخلاف فى هذا الأصل سببان : أحدهما — هل هذه الجمل فى حكم الجملة الواحدة للعطف الذى فيها ، أو لكل جملة حكمُ نفسها فى الأستقلال وحرفُ العطف محسّن لا مُشْرِك ، وهو الصحيح فى عطف الجمل ؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض ، على ما يعرف من النحو .

السبب الثانى — يشبه الاستثناء بالشرط فى عوده إلى الجمل المتقدمة ، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء ، أولا يُشَبَّه به ، لأنه من باب القياس فى اللغة وهو فاسد على ما يعرف فى أصول الفقه . والأصل أن كل ذلك محتمَل ولا ترجيح ، فتعيّن ما قاله القاضى من الوقف . ويتأيّد الإشكال بأنه قد جاء فى كتاب الله عز وجل كِلَا الأمرين ؛ فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع بآتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ فيها ردّ الأستثناء إلى الأخيرة باتفاق ، وآية القذف محتملة للوجهين ، فتعيّن الوقف من غير مَيْن . قال علماؤنا : وهذا نظر

(١) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصرى .

كلىّ أصولى . ويترجح قول مالك والشافعىّ رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئى بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهى[1] عن قبول الشهادة جميعا إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الكفر، فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى ؛ والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ؛ قال : وليس مَن نسب إلى الزنى بأعظم جرما من مرتكب الزنى ، ثم الزانى إذا تاب قبلت شهادته ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ؛ مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن ؛ منها قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ — إلى قوله — إلا الذين تَابُوا »[2] . ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع ؛ وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته . قال : وقوله « أَبَدًا » أى مادام قاذفا ؛ كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ؛ فإن معناه ما دام كافرا . وقال الشَّعْبِى للمخالف فى هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين فقوله : « وأولئك هم الفاسِقون » تعليل لا جملة مستقلة بنفسها ؛ أى لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلمَ لا تقبل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكذابه نفسه ، كما قال عمر لقَذَفة المغيرة بحضرة الصحابة من غير نكير ، مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يجز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ، ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبدا ، ولم يسعهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب ؛ فسقط قولهم ، والله المستعان .

الخامسة والعشرون — قال القشيرىّ : ولا خلاف أنه إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقذوف قبل أن يطالِب القاذفَ بالحدّ ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقذوف ، فالشهادة مقبولة ؛ لأن عند الخصم فى المسألة النهى عن قبول الشهادة معطوف على الجلد ؛ قال الله تعالى :

---

(١) عبارة الأصل : «الاستثناء راجع الى الفسق والتوبة جميعا ... » والتصويب عن كتب الفقه .

(٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

« فاجلدوهم ثمانين جَلْدَةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدا » . وعند هذا قال الشافعيّ : هو قبل أن يُحَدّ شرّ منه حين حُدّ ؛ لأن الحدود كفارات فكيف تردّ شهادته فى أحسن حاليه دون أخسهما .

قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف تردّ شهادته . وهو قول الليث والأوزاعيّ والشافعيّ : تردّ شهادته وإن لم يحدّ ؛ لأنه بالقذف يفسق ، لأنه من الكبائر فلا تقبل شهادته حتى تصح براءته بإقرار المقذوف له بالزنى أو بقيام البينة عليه .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ يريد إظهار التوبة . وقيل : وأصلحوا العمل . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث تابوا وقبل توبتهم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه ثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ «أنفسُهم» بالرفع على البدل . ويجوز النصب على الاستثناء، وعلى خبر « يكن » . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ؛ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « أربعَ » بالنصب ؛ لأن معنى « فشهادةُ » أن يشهد ؛ والتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربعَ شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع شهادات ؛ ولا خلاف فى الثانى أنه منصوب بالشهادة . ﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾ رفع بالابتداء .

والخــبر « أنّ » وصلتها ؛ ومعنى المخففة كمعنى المثقلة لأن معناها أنه . وقرأ أبو عبــد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص «والخامسةَ» بالنصب، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقون بالرفع على الابتداء، والخبر فى « أنّ لعنةَ اللّهِ عليه » ؛ أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه .

الثانيــة — فى سبب نزولها، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشَرِيك بن سَحْماء؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "البيّنةَ أو حدٌّ فى ظهرك" قال : يارسول الله، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة! فجعل النبيّ صــلى الله عليه وسلم يقول : "البينةَ و إلا حَدٌّ فى ظهرك" فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق، وَلَيُنْزِلَنّ الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحدّ ؛ فنزلت « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » فقرأ حتى بلغ « مِنَ الصَّادِقِينَ » الحديث بكماله . وقيل : لمــا نزلت الآية المتقدمة فى الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواجَ وغيرَهم قال ســعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهــله حتى آتى بأربعة ! والله لأضربنّــه بالسيف غير مُصْفِح عنه . فقال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : "أتعجبون من غَيْرة سعدٍ لأنا أغْيَرُ منه والله أغْيَرُ منى" . وفى ألفاظ سعد روايات مختلفة ، هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفى فرمى زوجته بشَرِيك بن سَحْماء البَلَوِى على ما ذكرنا ، وعزم النبيّ صــلى الله عليه وسلم على ضربه حدّ القذف؛ فنزلت هــذه الآية عند ذلك ، فجمعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وتلاعنا ، فتلكّأت المرأة عند الخامسة لمّــا وُعظت وقيل إنها موجِبة[(١)]؛ ثم قالت : لا أفضح قومى سائرَ اليوم[(٢)]؛ فالْتعنت ، وفرّق رسول الله صلى الله عليه وســلم بينهما، وولدت غلاما كأنه جَمَلٌ أَوْرَق[(٣)] — على النعت المكروه — ثم كان الغلام بعــد ذلك أميرا بمصر، وهو لا يعرف لنفســه أباً . وجاء أيضا عُوَيْمِر العَجْلانىّ فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبــلُ ، وأنها سبب الآية . وقيل : نازلة عُويمر بن أشقر كانت قبلُ ؛ وهو حديث صحيح مشهور خرّجه الأئمة .

---

(١) أى الشهادة الخامسة موجبــة للعذاب الأليم ان كانت كاذبة .　(٢) أريد باليــوم الجنس؛ أى جميع الأيام .　(٣) الأورق من الإبل : الذى فى لونه بياض الى سواد .

قال أبو عبد الله بن أبى صُفْرة : الصحيح أن القاذف لزوجه عُويمر، وهلال بن أمية خطأ .
قال الطبرى: يستنكر قوله فى الحديث هلال بن أمية : وإنما القاذف عويمر بن زيد بن الجَدّ ابن العَجْلانى، شهد أُحُدًا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، رماها بشَرِيك بن السَّحْماء، والسَّحماء أمه؛ قيل لها ذلك لسوادها، وهو ابن عبدة بن الجدّ بن العَجْلانى؛ كذلك كان يقول أهل الأخبار . وقيـل : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على الناس فى الخطبة يوم الجمعة « والذين يَرْمُون المحصنات» فقال عاصم بن عَدِىّ الأنصارى : جعلنى الله فداك! لو أن رجلا منّا وجد على بطن امرأته رجلا، فتكلم فأخبر بمـا جرى جُلد ثمـانين، وسماه المسلمون فاسقا فلا تقبل شهادته؛ فكيف لأحدنا عنـد ذلك بأربعة شهداء، وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته! فقال عليه السلام: "كذلك أنزلت يا عاصم بن عَدِىّ". فخرج عاصم سامعا مطيعا؛ فاستقبله هلال بن أمية يسترجع؛ فقال : ما وراءك؟ فقال : شر! وجدت شريك بن السحماء على بطن امرأتى خَولة يزنى بها؛ وخولة هذه بنت عاصم بن عدى، كذا فى هذا الطريق أن الذى وجد مع امرأته شريكا هو هلال بن أميـة، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه .
قال الكلبى: والأظهر أن الذى وجد مع امرأته شريكا عُوَيْمِر العَجْلانى؛ لكثرة ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لاعن بين العَجْلانى وامرأته . واتفقوا على أن هذا الزانى هو شريك ابن عبدة وأمه السحماء، وكان عُويمر وخولةُ بنت قيس وشَرِيك بنى عم عاصم، وكانت هذه القصة فى شعبان سنة تسع من الهجرة، منصَرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك إلى المدينـة؛ قاله الطبرى . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لاعن بين عُويمر العجلانى وامرأته، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوة تَبُوك، وأنكر حملها الذى فى بطنها وقال هو لابن السَّحْماء؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هاتِ امرأتك فقد نزل القرآن فيكما"؛ فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على خَمْل[1] . فى طريقه الواقدى عن الضحاك بن عثمان عن عمران بن أبى أنس قال : سمعت عبد الله بن جعفر يقول ... ... فذكره .

(١) الخمل : هُدب القطيفة ونحوها مما ينسج وتفضل له فضول كخمل الطِّنْفِسة .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عام فى كل رَمْى، سواء قال : زنيتِ أو يازانية أو رأيتها تزنى، أو هـذا الولد ليس منى ؛ فإن الآية مشتملة عليه . ويجب اللّعان إن لم يأت بأربعـة شهداء ؛ وهـذا قول جمهور العلمـاء وعامّة الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلاعن إلا أن يقول : رأيتك تزنى ؛ أو ينفى حملا أو ولدا منها . وقول أبى الزّناد ويحيى بن سعيد والبَتِّي مثلُ قول مالك : إن الملاعنة لا تجب بالقذف، و إنما تجب بالرؤية أو نفى الحمل مع دعوى الاستبراء؛ هذا هو المشهور عنـد مالك ، وقاله ٱبن القـاسم . والصحيح الأوّل لعموم قوله : « والذين يَرْمُونَ أزواجَهم » . قال ابن العربى : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ؛ فلْتُعَوِّلوا عليه ، لا سيمّا وفى الحـديث الصحيح : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ " فٱذهب فأت بها " ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف ٱمرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى ؛ قاله ابن عمر رضى الله عنهما . وقد ذكر ابن القصّار عن مالك أن لعـان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه فى فرجها . والحجة لمـالك ومن ٱتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء هـلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عنـد أهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يَهِجْه حتى أصبح، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتدّ عليه ؛ فنزلت «والذين يَرْمُونَ أزواجهم ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إلا أَنْفُسُهُمْ » الآية ؛ وذكر الحـديث . وهو نص على أن الملاعنة التى قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسـلم إنما كانت فى الرؤية ، فلا يجب أن يُتعدّى ذلك . ومن قذف ٱمرأته ولم يذكر رؤية حدّ ؛ لعموم قوله تعـالى : « والذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ » .

الرابعة — إذا نفى الحمل فإنه يلتعن ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بدّ من ذكر عدم الوطء والآستبراء بعده . واختلف علماؤنا في الآستبراء؛ فقال المغيرة ومالك فى أحد قوليهما : يجزى فى ذلك حَيْضة . وقال مالك أيضا : لا ينفيه إلا بثلاث حِيَض . والصحيح الأول؛ لأن براءة الرحم من الشّغل يقع بها كما فى استبراء الأمَة ، و إنما راعَيْنا الثلاث حِيَض فى العدد لحكم آخر يأتى بيانه فى الطلاق إن شاء الله تعالى . وحكى اللَّخْمِىّ عن مالك أنه قال مرة : لا يُنْفَى الولد بالآستبراء؛ لأن الحيض يأتى على الحمل . وبه قال أشهب فى كتاب ابن المَوّاز ، وقاله المغيرة . وقال : لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدّم .

الخامسة — اللعان عندنا يكون فى كل زوجين حرّين كانا أو عبدين، مؤمنَيْن أو كافرين، فاسقَين أو عَدْلَين . وبه قال الشافعىّ . ولا لعان بين الرجل وأَمَته، ولا بينه و بين أمّ ولده . وقيل : لا ينتفى ولد الأمة عنه إلا بيمين واحدة ؛ بخلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفى ولدَ أمّ الولد لاعن . والأوّل تحصيل مذهب مالك ، وهو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حُرّين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة، وعندنا وعند الشافعىّ يمين، فكلّ من صحت يمينه صح قذفه ولعانه . وآتفقوا على أنه لابد أن يكونا مكلّفَيْن . وفى قوله[1] : « وجد مع امرأته رجلا » . دليل على أن الملاعنة تجب على كل زوجين؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة، ونزلت آية اللعان على هذا الجواب فقال : « والذين يَرمُون أزواجهم » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة؛ وهو قول الشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى عبيد وأبى ثَوْر . وأيضا فإن اللعان يوجب فسخ النكاح فأشبه الطلاق؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان أيمان لا شهادات؛ قال الله تعالى وهو اصدق القائلين : « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شهادتِهما »[2] أى أيمـاننا . وقال تعالى : « إذا جاءكَ المنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنّكَ لَرَسُولُ اللهِ » . ثم قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً »[3] .

(١) أى قول عويمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفى الأصول : « وفى قوله صلى الله عليه وسلم وجد ... الخ » وهو تحريف .
(٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع جـ ٦ ص ٣٥٩
(٣) آية ١٦ سورة المجادلة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لى ولها شأن". وأما ما احتج به الثورى وأبو حنيفة فهى حجج لا تقوم على ساق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحـرة والعبد لعـان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان" . أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ من طرق ضعفها كلِّها . وروى عن الأوزاعى وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله ، ولم يرفعه[1] إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لمـا استثنوا من جمـلة الشهداء بقوله « ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته . وأيضا فلو كانت يمينا ما رُدّدت، والحكمة فى ترديدها قيامها فى الأعداد مقام الشهود فى الزنى . قلنا : هذا يبطل بيمين القَسَامة فإنهـا تُكَرَّر وليست بشهادة إجماعا ؛ والحكمة فى تكرارها التغليظ فى الفروج والدماء . قال ابن العربى : والفَيْصل فى أنهـا يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفســه فى إثبـات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدّعى فى الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بمـا يوجب حكما على غيره ! هذا بعيد فى الأصل معدوم فى النظر .

السادســـة — واختلف العلماء فى ملاعنة الأخرس؛ فقال مالك والشافعيّ : يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه ، إذا فُهم ذلك عنه . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكننا إقامة الحدّ عليه ؛ وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « مريم »[2] والدليل عليه، والحمد لله .

السابعــــة — قال ابن العربى : رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال : إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن؛ ونسى أن ذلك قد تضمّنه قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » وهــذا رماها محصنة غير زوجة ؛ وإنمـا يكون اللعان فى قذف يلحق فيه النسب، وهذا قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية .

---

(١) فى سنن الدارقطنى : « يرفعاه » . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٠١ طبعة أولى أو ثانية .

الثامنة — إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ؛ فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه أو حَمْل يتبرأ منه لاعن و إلا لم يلاعن . وقال عثمان البَتّى : لا يلاعن بحال لأنها ليست بزوجة . وقال أبو حنيفة . لا يلاعن فى الوجهين ؛ لأنها ليست بزوجة . وهذا ينتقض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفا ، بل هذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد الانتفاء من النسب وتبرئته من ولد يُلحق به فلا بُدّ من اللعان . و إذا لم يكن هنالك حمل يرجى ولا نسب يخاف تعلقه لم يكن للعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفا مطلقا داخلا تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحدّ و بطل ما قاله البَتّى لظهور فساده .

التاسعة — لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدّة إلا فى مسئلة واحدة ، وهى أن يكون الرجل غائبا فتأتى امرأته بولد فى مغيبه وهو لا يعلم فيطلّقها فتنقضى عدّتها ، ثم يَقْدَم فينفيه فله أن يلاعنها هاهنا بعد العدّة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعن لنفسه وهى ميتة بعد مدّة من العدّة ، و يرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما .

العاشرة — إذا انتفى من الحمل و وقع ذلك بشرطه لاعن قبل الوضع ؛ و به قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أن تضع ، لأنه يحتمل أن يكون ريحا أو داء من الأدواء . ودليلنا النص الصريح بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لاعن قبل الوضع ، وقال : " إن جاءت به كذا فهو لأبيه و إن جاءت به كذا فهو لفلان ". فجاءت به على النعت المكروه .

الحادية عشرة — إذا قذف بالوطء فى الدبر [زوجه] لاعن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ و بناه على أصله فى أن اللواط لا يوجب الحدّ . وهذا فاسد ؛ لأن الرمى به فيه معرّة وقد دخل تحت عموم قوله تعالى : « والذين يَرْمُون أزواجهم » وقد تقدم فى «الأعراف[1]، والمؤمنون[2]» أنه يجب به الحدّ .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها . (٢) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء .

الثانية عشرة — قال ابن العربي : من غريب أمر هذا الرجل أنه [قال][1] إذا قذف زوجته وأمها بالزنى : إنه إن حدّ للأم سقط حدّ البنت ، و إن لاعن للبنت لم يسقط حدّ الأم ؛ وهذا لا وجه له ، وما رأيت لهم [فيه] شيئا يُحكى ، وهذا باطل جدا ؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة بحد الأم من غير أثر ولا أصل قاسه عليه .

الثالثة عشرة — إذا قذف زوجته ثم زنت قبل التعانه فلا حدّ ولا لعان . وبهذا قال أبو حنيفة والشافعيّ وأكثر أهل العلم . وقال الثوري والمُزَنِيّ : لا يسقط الحدّ عن القاذف ، وزنى المقذوف بعد أن قُذف لا يقدح في حصانته المتقدمة ولا يرفعها ؛ لأن الاعتبار الحصانةُ والعفة في حال القذف لا بعده . كما لو قذف مسلما فارتد المقذوف بعد القذف وقبل أن يحدّ القاذف لم يسقط الحدّ عنه . وأيضا فإن الحدود كلّها معتبرة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة . ودليلنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحدّ معنًى لو كان موجودا في الابتداء منع صحة اللعان ووجوب الحدّ ، فكذلك إذا طرأ في الثاني ؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما العدالة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شربا خمرا فلم يجز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك . وأيضا فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين ، وقد قال عليه السلام : "ظَهْرُ المؤمن حِمًى" ؛ فلا يحدّ القاذف إلا بدليل قاطع ، وبالله التوفيق .

الرابعة عشرة — من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلاعنا ؛ هو لدفع الحدّ ، وهي لدرء العذاب . فإن كانت صغيرة لا تحمل لاعن هو لدفع الحدّ ولم تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء . وقال ابن الماجِشُون : لا حدّ على قاذف مَن لم تبلغ . قال اللَّخْمِيّ : فعلى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل .

الخامسة عشرة — إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلاعن وتُحَدّ الشهود الثلاثة ؛ وهو أحد قولي الشافعيّ . والقول الثاني أنهم لا يحدّون . وقال أبو حنيفة : إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداءً قبلت شهادتهم وحُدّت المرأة . ودليلنا قوله

---

(١) زيادة عن ابن العربي .

تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية . فأخبر أن من قذف محصنا ولم يأت بأربعة شهداء حُدّ؛ فظاهره يقتضى أن يأتى بأربعة شهداء سوى الرامى، والزوج رامٍ لزوجته فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسة عشرة — إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته . وقال شُريح ومجاهد : له أن ينفيه أبدا . وهذا خطأ؛ لأن سكوته بعد العلم به رِضًى به؛ كما لو أقرّ به ثم ينفيه فإنه لا يُقبل منه، والله أعلم .

السابعة عشرة — فإن أخّر ذلك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون رِيحا يَنْفَشّ أو تسقطه فأستريح من القذف؛ فهل لنَفْيِه بعد وضعه مدّة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك؛ فقد اختلف فى ذلك ، فنحن نقول : إذا لم يكن له عذر فى سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راضٍ به ليس له نفيه ؛ وبهذا قال الشافعى . وقال أيضا : متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكنه من الحاكم فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا أعتبر مدّة . وقال أبو يوسف ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوما ، مدّة النفاس . قال ابن القَصّار : والدليل لقولنا هو أن نفى ولده محرّم عليه ، واستلحاق ولد ليس منه محرّم عليه، فلا بدّ أن يوسّع عليه لكى ينظر فيه ويفكّر، هل يجوز له نفيه أو لا . وإنما جعلنا الحدّ ثلاثة لأنه أوّل حدّ الكثرة وآخر حدّ القلة، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المُصَرّاة[1]؛ فكذلك ينبغى أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدّة الولادة والرضاع؛ إذ لا شاهد لهم فى الشريعة، وقد ذكرنا نحن شاهدا فى الشريعة من مدّة المُصَرّاة .

الثامنة عشرة — قال ابن القصار : إذا قالت امرأة لزوجها أو لأجنبىّ يازانيه — بالهاء — وكذلك الأجنبى لأجنبى، فلست أعرف فيه نصًّا لأصحابنا ، ولكنه عندى يكون قذفا وعلى قائله الحدّ، وقد زاد حرفا؛ وبه قال الشافعىّ ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المصراة : الناقة أو البقرة أو الشاة تصرّ أخلافها ولا تحلب أياما حتى يجتمع اللبن فى ضرعها ، فاذا حلبها المشترى استغزرها . ومنه الحديث : "من اشترى مصراة فهو بخير النظرين" أى خير الأمرين له ؛ إما إمساك المبيع أو رده .

لايكون قذفا . واتفقوا أنه إذا قال لامرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون فى الرجل قذفا هو أن الخطاب إذا فهم منــه معناه ثبت حكمه ، ســواء كان بلفظ أعجمى أو عربى . ألا ترى أنه إذا قال للرأة زنيتَ (بفتح التاء) كان قذفا ؛ لأن معناه يفهم منه . ولأبى حنيفة وأبى يوسف أنه لمـا جاز أن يُخاطَب المؤنث بخطاب المذكر لقوله تعالى : « وقال نسوة » صلح أن يكون قوله يازان للؤنث قذفا . ولمّـا لم يجز أن يؤنث فعــل المذكر إذا تقدم عليــه لم يكن لخطابه بالمؤنث حكم ، والله أعلم .

التاســعة عشرة — يلاعن فى النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق النسب فيه فجرى اللعان عليه .

الموفيــة عشرين — اختلفوا فى الزوج إذا أبى من الالتعان ؛ فقال أبو حنيفة : لاحدّ عليــه ؛ لأن الله تعالى جعــل على الأجنبى الحدّ وعلى الزوج اللّعان ، فلمـا لم ينتقل اللعان إلى الأجنبى لم ينتقل الحــدّ إلى الزوج ، ويسجن أبدا حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤخر قياسا . وقال مالك والشافعىّ وجمهور الفقهاء : إن لم يلتعن الزوج حدّ ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبىّ ، فإن لم يأت الأجنبى بأربعة شهداء حدّ ، فكذلك الزوج إن لم يلتعن . وفى حديث العَجْلانىّ ما يدل على هــذا ؛ لقوله : إنــ سكَتُّ سكتُّ على غَيظ وإن قتلتُ قُتلتُ وإن نطقتُ جُلدت .

الحــادية والعشرن — واختلفوا أيضا هــل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعىّ : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمــل فى غير درء الحدّ ، وأما رفع الفراش ونفى الولد فلا بدّ فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنمـا جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» .

الثانية والعشرون — البداءة فى اللعان بمـا بدأ الله به ، وهو الزوج ؛ وفائدته دَرْء الحدّ عنه ونفى النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : " البينةَ وإلا حَدٌّ فى ظهرك " . ولو بُدئ بالمرأة قبله لم يجز ؛ لأنه عكس ما رتبــه الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يجزى . وهذا باطل ؛ لأنه

خلاف القرآن، وليس له أصل يرده إليه ولا معنًى يقوّى به ، بل المعنى لنا ؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان فتنفى ما لم يُثبت وهذا لا وجه له .

الثالثة والعشرون — وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للملاعن : قل أشهد بالله لرأيتها تزنى ورأيت فرج الزانى فى فرجها كالمِرْود فى المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتى . وإن شئت قلت : لقد زنت وماوطئتها بعد زناها . يردّد ماشاء من هذين اللفظين أربع مرات ، فإن نَكَل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها حُدّ . وإذا نفى حملا قال : أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحمل منى؛ ويشير إليه ؛ فيحلف بذلك أربع مرات ويقول فى كل يمين منها : وإنى لمن الصادقين فى قولى هذا عليها . ثم يقول فى الخامسة «علىّ لعنةُ الله إنْ كُنتُ من الكاذبين» . وإن شاء قال : إن كنت كاذبا فيما ذكرت عنها . فإذا قال ذلك سقط عنه الحدّ وانتفى عنه الولد . فإذا فرغ الرجل من التعانه قامت المرأة بعده فحلفت بالله أربعة أيمان ، تقول فيها : أشهد بالله إنه لكاذب ، أو إنه لمن الكاذبين فيما ادّعاه علىّ وذكر عنى . وإن كانت حاملا قالت : وإن حملى هذا منه . ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان صادقا، أو إن كان من الصادقين فى قوله ذلك . ومَن أوجب اللعان بالقذف يقول فى كل شهادة من الأربع : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى . ويقول فى الخامسة : علىّ لعنة الله إن كنت كاذبا فيما رميت به من الزنى . وتقول هى : أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى . وتقول فى الخامسة : علىّ غضب الله إن كان صادقا فيما رمانى به من الزنى . وقال الشافعىّ : يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجى فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرات، ثم يوعظه الإمام ويذكّره الله تعالى ويقول : إنى أخاف إن لم تكن صدقت أن تبوء بلعنة الله ؛ فإن رآه يريد أن يمضى على ذلك أمر من يضع يده على فيه ، ويقول : إن قولك وعلىّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجِباً ؛ فإن أبى تركه يقول ذلك : لعنة الله علىّ إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى . احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا حيث أمر المتلاعنَيْن أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول : إنها موجِبة .

الرابعــة والعشرون — اختلف العلماء فى حكم من قذف امرأته برجل سمّاه ، هل يحدّ أم لا ؛ فقال مالك : عليــه اللعان لزوجته ، وحُدّ للرمىّ . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه قاذف لمن لم يكن له ضرورة إلى قذفه . وقال الشافعى : لا حدّ عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجتــه بالزنى إلا حدّا واحدا بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين مَن ذكر رجلا بعينه وبين من لم يذكر؛ وقد رمى العَجْلانِىُّ زوجته بشَريك وكذلك هلال ابن أمية؛ فلم يحدّ واحد منهما . قال ابن العربى : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحدّ فى قذف الأجنبى والزوجة مطلقَيْن، ثم خص حدّ الزوجة بالخلاص باللعان وبقى الأجنبىّ على مطلق الآية . وإنمــا لم يُحَدّ العجلانِىُّ لشريك ولا هلالٌ لأنه لم يطلبه ؛ وحدّ القــذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعا منا ومنه .

الخامســة والعشرون — إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعا تفرّقا وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذى يخرج منه صاحبه، ولو خرجا من باب واحد لم يضر ذلك لعانَهما . ولا خلاف فى أنه لا يكون اللعان إلا فى مسجد جامع تجمــع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جمــاعة من أهل العــلم أن يكون اللعان فى الجامع بعــد العصر . وتلتعن النصرانية من زوجها المســلم فى الموضع الذى تعظّمه من كنيستها مثل ما تلتعن به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : وبتمــام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنَيْن، فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان، ولا يحــل له مراجعتها أبدا لا قبــل زوج ولا بعده ؛ وهو قول اللّيث بن سعد وزُفَرَ بن الهُذَيل والأوزاعِىّ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمــد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرّق الحاكم بينهما؛ وهو قول الثورى؛ لقول ابن عمر : فرّق رسول الله صــلى الله عليه وسلم بين المتلاعنَيْن ؛ فأضاف الفرقة إليــه ، ولقوله عليه الســلام : "لا سبيل لك عليها" . وقال الشــافعىّ : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقــد زال فراش امرأته، الْتَعنت أو لم تلتعن . قال : وأما التعان المرأة فإنمــا هو لدرء الحدّ عنها لا غير؛ وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنًى . ولمــا كان لعان الزوج ينفى

الولد ويسقط الحدّ رُفع الفراش . وكان عثمان الْبَتِّى لا يرى التلاعن ينقص شيئا من عصمة الزوجين حتى يطلّق . وهذا قول لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة؛ على أن البَتِّى قد استحب للملاعن أن يطلّق بعد اللعان ، ولم يستحسنه قبل ذلك ؛ فدلّ على أن اللعان عنده قد أحدث حكما . وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبرى ، وحكاه اللَّخْمِىّ عن محمد بن أبى صُفْرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . وآحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس فى كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة ، وبقول عُوَيْمِر : كذبتُ عليها إن أمسكتُها ؛ فطلّقها ثلاثا ، قال : ولم ينكر النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا ، وأنت لا تحتاج إليه ؛ لأن باللعان قد طلقت . والحجة لمالك فى المشهور ومن وافقه قولُه عليه السلام "لا سبيل لك عليها" . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم ، وإنما كان تنفيذا لما أوجب الله تعالى بينهما من المباعدة ، وهو معنى اللعان فى اللغة .

السابعة والعشرون — ذهب الجمهور من العلماء أن المتلاعنَيْن لا يتناكحان أبدا ، فإن أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد ، ولم ترجع إليه أبدا . وعلى هذا السنةُ التى لا شك فيها ولا اختلاف . وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أكذب نفسه بعد اللعان لم يحدّ ، وقال : قد تفرقا بلعنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد ، وكان خاطبا من الخطاب إن شاء ؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبير وعبد العزيز بن أبى سلمة . وقالوا : يعود النكاح حلالا كما لحق به الولد ؛ لأنه لا فرق بين شىء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : "لا سبيل لك عليها" ؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهرى قال : مضت السنة أنهما إذا تلاعنا فُرّق بينهما فلا يجتمعان أبدا . ورواه الدَّارَقُطْنِىّ ، ورواه مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضىَ الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبدا" . وروى عن علىّ وعبد الله قالا : مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان . عن علىّ : أبدا .

الثامنة والعشرون — اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ — وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان — وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان، إن كان بمكة فعند الركن والمقام، وإن كان بالمدينـة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقـدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البـلدان ففي مساجدها، وإن كانا كافرَيْن بُعث بهما إلى الموضـع الذي يعتقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النـار، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه .

والوقت — وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس — وذلك أن يكون هناك أربعـة أنفس فصاعدا ؛ فاللفظ وجمع الناس مشروطان، والزمان والمكان مستحبان .

التاسعة والعشرون — من قال : إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانهما، فعليه لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر. ومن قال : لا يقع إلا بتفريق الإمام فمات أحدهما قبل ذلك وتمام اللعان ورثه الآخر . وعلى قول الشافعيّ : إن مات أحدهما قبل أن تلتعن المرأة لم يتوارثا .

الموفية ثلاثين — قال ابن القَصّار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ؛ وهو مذهب المدوّنة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق، ويعطَى لغـير المدخول بهـا نصف الصداق . وفي مختصر ابن الجَلّاب : لا شيء لها؛ وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۖ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ
عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ
أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

فيه ثمـان وعشرون مسئلة[1] :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خـــبر « إنّ » . ويجوز نصبها على الحال، ويكون الخبر « لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ ماٱكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » . وسبب نزولها ما رواه الأئمـة من حديث الإفك الطويل فى قصة عائشة رضوان الله عليها ، وهو خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذكره، وسيأتى مختصرا . وأخرجه البخاريّ تعليقا، وحديثه أتم . قال : وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة ، وأخرجه أيضا عن محمـد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رُومان أم عائشة أنها قالت : لمـا رُميت عائشة خرّت مغشيًّا عليها . وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال : حدثنى مسروق بن الأجدع قال حدثتنى أمّ رومان وهى أم عائشـة قالت : بينـا أنا قاعدة أنا وعائشةُ إذ وَلَجت امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل [بفلان] ! فقالت أم رومان : وما ذاكِ ؟ قالت ٱبنى فيمن حدّث الحـديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت كذا وكذا . قالت عائشة : سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر؟ قالت نعم ! فخرّت مغشيًّا عليها ؛ فمـا أفاقت إلا وعليها حُمّى بنافضٍ[2] ، فطرحْتُ عليها ثيابها فغطيتها؛ فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " ما شأن هــذه ؟ " فقلت : يا رسول الله ، أخذتها الحُمّى بنافض . قال : " فلعــلّ فى حديثٍ تُحُدِّث به " قالت نعم . فقعدت عائشة فقالت : والله ، لئن حلفتُ لا تصدّقونى ! ولئن قلت لا تَعْذرونى ! مَثَـلى ومثلُكم كيعقوبَ وبَنِيه[3] ، واللهُ المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئا ؛ فأنزل الله عذرها . قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الحميدى : كان بعضُ من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول الإرسال فى هــذا الحديث أبْيَن ، واستدلّ على ذلك بأن أم رومان تُوفّيت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسروقٌ لم يشاهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بلا خلاف . وللبخاريّ من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبى مُليكة أن عائشـة كانت تقرأ « إِذْ تَلِقُونَهُ

(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أى برعدة . (٣) اذ قال فى محنته : والله المستعان ... الخ .

بِأَلْسِنَتِكُمْ » وتقول : الوَلْق الكذب . قال ابن أبى مُليكة : وكانت أعلمَ بذلك[١] من غيرها لأنه نزل فيها . قال البخارىّ : وقال معمر[٢] بن راشد عن الزهرى : كان حديث الإفك فى غَزْوَة المُرَيْسِيع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ستّ . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وأخرج البخارى من حديث معمر عن الزُّهرِى قال قال لى الوليد بن عبد الملك : أبلغك أن عليًّا كان فيمن قَذَف ؟ قال : قلت لا، ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عائشة قالت لهما : كان علىٌّ مُسَلِّمًا[٣] فى شأنها. وأخرجه أبو بكر الإسماعيلىّ فى كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث معمر عن الزهرى، وفيه : قال كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذى تولَّى كِبْرَه منهم علىّ بن أبى طالب ؟ فقلت لا ، حدثنى سعيد بن المسيّب وعُروة وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كلّهم يقول سمعت عائشة تقول : والذى تولّى كبره عبدُ الله بن أبَىّ . وأخرج البخارى أيضا من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة : والذى تولّى كِبْرَه منهم عبدُ الله بن أُبَىّ .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْإِفْكِ ﴾ الإفك الكذب . والعصبة ثلاثة رجال؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة . ابن عُيينة : أربعون رجلا . مجاهد : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة وكلام العرب الجماعةُ الذين يتعصّب بعضهم لبعض . والخـير حقيقته ما زاد نفعه على ضره . والشرّ ما زاد ضره على نفعـه . وإنّ خيرا لا شرَّ فيه هو الجنة . وشرًّا لا خير فيه هو جهـنم . فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليل فى الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير فى الأخرى . فنبّه الله تعالى عائشة وأهلها وصَفْوان، إذ الخطاب لهم فى قوله « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ؛ لرجحـان النفع والخير على جانب الشر .

الثالثـــة — لـما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة معه فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق وهى غزوة المُرَيْسِيع ، وقَفَل ودنا من المدينة آذن ليـلة بالرحيل قامت حين آذنوا بالرحيل

(١) أى بالذى قرأت به. (٢) الذى فى البخارى «النعمان بن راشد». (٣) قوله : «مسلما» بكسر اللام المشددة من التسليم؛ أى سا كتا فى شأنها . وقيل بفتح اللام، من السلامة من الخوض فيه .

فمشت حتى جاوزت الجيش، فلمـا فرغت من شأنها أقبلت إلى الرَّحْل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ من جَزْع ظَفَارِ (١) قد ٱنقطع، فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحدا، وكانت شابّة قليلة اللحم، فرفع الرجال هَوْدَجها ولم يشعروا بزوالها منه؛ فلما لم تجد أحدا اضطجعت فى مكانها رجاءَ أن تُفتقد فيُرجع إليهـا، فنامت فى الموضـع ولم يوقظها إلا قول صَفْوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحِفْظ الساقة. وقيل: إنهـا استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتنحّى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش فى نَحْر الظَّهِيرة؛ فوقع أهل الإفك فى مقالتهم، وكان الذى يُجتمع إليه فيه ويَسْتَوْشِيه (٢) ويُشْعلُه عبدُ الله بن أُبَيّ ٱبن سَلُول المنافق، وهو الذى رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيّكم باتت مع رجل. وكان من قالته حسان بن ثابت ومِسْطح بن أُثَاثة وحَمْنَة بنت جَحْش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه فى البخارى ومسلم، وهو فى مسلم أكمل. ولمـا بلغ صَـفْوان قولُ حسان فى الإفك جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه وقال:

تَلَقَّ ذُباب السـيف عنى فإننى ＊ غلام إذا هُوجِيت ليس بشاعر

فأخذ جماعة حسان ولَبَّبوه (٣) وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان واستوهبه إيّاه. وهذا يدل على أن حسان ممن تَوَلَّى الكِبْر؛ على ما يأتى والله أعلم.

وكان صفوان هـذا صاحبَ ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة. وقيل: كان حَصُورا لا يأتى النساء؛ ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة. وقيل: كان له ابنان؛ يدل على ذلك حديثُـه المروى مع ٱمرأته، وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ابنيه: "لهما أشبه به من الغراب بالغراب". وقوله فى الحديث: والله ما كَشَفْتُ كَنَف أنثى قطّ؛ يريد بزنًى. وقتل شهيدا رضى الله عنـه فى غزوة أرمينيّة سنة تسع عشرة فى زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمـان وخمسين فى زمان معاوية.

---

(١) الجزع (بفتح الجيم وسكون الزاى): خرز معروف فى سواده بياض كالعروق. وظفار (كحضار): مدينة باليمن.

(٢) يستوشيه: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه.

(٣) لبب فلان فلانا: أخذ بتلبيبه؛ أى جمع ثيابه عند صدره ونحره فى الخصومة ثم جره.

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ ما ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ يعنى ممن تكلم بالإفك . ولم يُسَمَّ من أهل الإفك إلا حسان ومِسْطَح وحَمْنة وعبد الله؛ وجُهِل الغير؛ قاله عروة بن الزبير، وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال : إلا أنهم كانوا عُصْبة؛ كما قال الله تعالى . وفى مصحف حَفْصة « عصبة أربعة » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ حُميد الأعرج ويعقوب « كُبْرَه » بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيّد؛ لأن العرب تقول : فلان تولّى عُظْم كذا وكذا ؛ أى أكبره . روى عن عائشة أنه حسان ، وأنها قالت حين عَمِيَ : لعل العذاب العظيم الذى أوعده الله به ذهابُ بصره؛ رواه عنها مسروق . وروى عنها أنه عبد الله بن أُبَيّ؛ وهو الصحيح، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برّأت حسان من الفِرْية، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك فى قوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ (١) * وتُصبح غَرْثَى من لُحُوم الغوافلِ
حَليلةُ خيرِ الناس دِينًا ومَنْصِبًا * نَبِيِّ الهُدَى والمَكْرُمات الفواضل
عَقِيلةُ حَيٍّ من لُؤَيِّ بن غالب * كرامِ المساعى مَجْدُها غيرُ زائل
مُهَذَّبةٌ قد طَيَّب الله خِيمَها (٢) * وطهّرها من كل شَيْن وباطل
فإن كان ما بُلِّغْتِ أَنِّيَ قلتُه * فلا رفعتْ سَوْطى إلىّ أناملى
فكيف وُودِّى ما حَيِيتُ ونُصْرتِى * لآل رسول الله زَيْنِ المحافل
له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلها * تقاصَرُ عنها سَوْرة المتطاول

وقد روى أنه لما أنشدها : حصان رزان؛ قالت له : لستَ كذلك ؛ تريد أنك وقعت فى الغوافل . وهذا تعارض ، ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا، ويكون عرّض بذلك وأومأ إليه فنُسب ذلك إليه؛ والله أعلم .

---

(١) الحصان : العفيفة . ورزان : ذات ثبات ووقار وعفاف . وغرثى : جائعة . ما تزن : ما تتهم . الغوافل : جمع غافلة ؛ أى لا ترتع فى أعراض الناس . (٢) الخيم (بالكسر) : الشيمة والطبيعة والخلق والأصل .

وقد اختلف الناس فيــه هل خاض فى الإفك أم لا ، وهل جلد الحدّ أم لا ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان، وهى المسألة :

السادســـة ـــ فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جلد فى الإفك رجلين وامرأة : مِسْطَحا وحسان وحَمْنة، وذكره الترمذى . وذكر القشيرىّ عن ٱبن عباس قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱبن أُبَىّ ثمانين جلدة، وله فى الآخرة عذاب النار . قال القُشَيْرىّ : والذى ثبت فى الأخبار أنه ضرب ٱبن أُبَىّ وضرب حسان وحمنة، وأما مِسْطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح . قال المـاوردى وغيره : ٱختلفوا هل حدّ النبىّ صلى الله عليــه وسلم أصحاب الإفك؛ على قولين : أحدهما أنه لم يحـدّ أحدا من أصحاب الإفك لأن الحـدود إنمـا تقام بإقرار أو ببيّنة ، ولم يتعبّده الله أن يقيمها بإخباره عنها، كما لم يتعبّده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم .

قلت : وهـذا فاسد مخالف لنص القرآن ؛ فإن الله عز وجل يقول : « وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أى على صـدق قولهم « فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » .

والقول الثانى ـــ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّ أهل الإفك عبدَ الله بن أُبَىّ ومِسْطح ابن أثاثة وحسان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش؛ وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقـد ذاق حسّان الذى كان أهـلَه * وحَمْنَـةُ إذ قالوا هجـيرًا ومِسْـطَحُ
وٱبنُ سَـلُولَ ذاق فى الحـدّ خِزْيَة * كما خاض فى إفك من القول يُفْصِح
تعاطَوْا برجـم الغيب زَوْجَ نبيِّهم * وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا (١)
وآذَوْا رســولَ الله فيهـا فَجُلِّلُوا * مخازِىَ تبـقى عُمِّمُوها وفُضِّـحوا
فصُبّ عليهم مُحْصَـدات كأنهـا * شآبيب قطر من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلمـاء أن الذى حُدّ حسان ومِسْطح وحَمْنـةُ، ولم يُسمع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَىّ . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لمـا نزل عُذْرى قام النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن؛ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين

(١) أى جاءوا بأمر مفرط فى الإثم .

والمـرأة فضُربوا حدَّهم، وسمّاهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحَمْنـة بنت جحش . وفى كتاب الطحاوى « ثمانين ثمانين » . قال علماؤنا . وإنمـا لم يُحدّ عبد الله بن أُبَىّ لأن الله تعالى قد أعدّ له فى الآخرة عذابا عظيما؛ فلو حُدّ فى الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه فى الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشـة رضى الله عنها و بكذب كل من رماها؛ فقد حصلت فائدة الحدّ، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف و براءة المقذوف؛ كما قال الله تعالى: «فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» . و إنما حدّ هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تَبِعة من ذلك فى الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحدود "إنها كفارة لمن أقيمت عليه"؛ كما فى حديث عُبَادة بن الصامت . ويحتمل أن يقال : إنما ترك حدّ ٱبن أُبَىّ ٱستئلافا لقومه واحتراما لٱبنه، و إطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عُبَادة ومن قومه؛ كما فى صحيح مسلم. والله أعلم.

السابعــة — قوله تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هذا عتاب من الله سـبحانه وتعالى للؤمنين فى ظنّهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا . قال ابن زيد : ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمّه؛ قاله المَهْدَوِىّ . و « لولا » بمعنى هَلّا . وقيل : المعنى أنه كان ينبغى أن يقيس فضـلاء المؤمنين والمؤمنات الأمرَ على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد فيهـم فذلك فى عائشة وصفوان أبعـد . وروى أن هذا النظر السديد وقع من أبى أيوب الأنصارىّ وٱمرأته؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب، أسمعتَ ما قيـل ! فقـال نعم ! وذلك الكذب ! أكنتِ أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ! قالت : لا والله! قال : فعائشة والله أفضل منك؛ قالت أم أيوب نعم . فهذا الفعل ونحوه هو الذى عاتب الله تعالى عليه المؤمنين[(1)] إذ لم يفعله جميعهم .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ قال النحاس : معنى « بأنفسهم » بإخوانهم . فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا و يذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه و يكذبوه . وتواعد من ترك ذلك ومن نقله .

(١) فى الأصول وتفسير ابن عطية : « عاتب الله تعالى على المؤمنين » .

قلت : ولأجل هـذا قال العلماء : إن الآية أصـل فى أن درجة الإيمـان التى حازها الإنسان، ومنزلةَ الصلاح التى حلّها المؤمن، ولُبْسة العفاف التى يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل و إن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا .

التاسعـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْـهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ هـذا توبيخ لأهل الإفك . و « لولا » بمعنى هلّا؛ أى هـلّا جاءوا بأربعة شهـداء على ما زعموا من الافتراء . وهذا ردّ على الحكم الأوّل، وإحالة على الآية السابقة فى آية القذف .

العاشـــرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْـدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى هم فى حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق فى قذفه، ولكنه فى حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا فى علم الله تعالى؛ وهو سبحانه إنمـا رتب الحدود على حكمه الذى شرعه فى الدنيا لا على مقتضى علمه الذى تعلق بالإنسـان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة .

قلت : ومما يقوّى هذا المعنى ويَعْضُده ما خرّجه البخارىّ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إن الوَحْىَ قد انقطع و إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنـا خيرا أمّناه وقرّبناه؛ وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمّنه ولم نصدّقه، وإن قال إن سريرته حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾[1] «فَضْلُ» رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب . وحُذف جواب «لولا» لأنه قد ذُكر مثله بعدُ؛ قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته» لمسّكم؛ أى بسبب ما قلتم فى عائشة عذابٌ عظيم فى الدنيا والآخرة . وهـذا عتاب من الله تعـالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم فى الدنيا و يرحم فى الآخرة من أتاه تائبا . والإفاضـة : الأخذ فى الحـديث؛ وهو الذى وقع عليه العتاب؛ يقال : أفاض القوم فى الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يريد آية ١٠ وهى قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم» .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السَّمَيْقَع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ؛ من الإلقاء ، وهذه قراءة بيّنة . وقرأ أُبَىّ وابن مسعود « إذ تتلقّونه » من التَّلَقّ ، بتاءين . وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام ؛ وهذا أيضا من التلق . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائىّ بإدغام الذال فى التاء. وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغام التاء فى التاء ؛ وهذه قراءة قَلِقة ؛ لأنها تقتضى اجتماع ساكنين، وليست كالإدغام فى قراءة من قرأ « فلا تَّناجَوْا . ولا تَّنابزوا » لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذال . وقرأ ابن يَعْمَر وعائشة رضى الله عنهما — وهم أعلم الناس بهذا الأمر — « إذ تَلِقُونه » بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَق الرجل يَلِق وَلْقًا إذا كذب واستمر عليه؛ فجاءوا بالمتعدّى شاهدا على غير المتعدّى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إذ تلقون فيه؛ فحذف حرف الجر فاتّصل الضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل الوَلْق الإسراع؛ يقال : جاءت الإبل تَلِق؛ أى تسرع . قال :

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق * جاءوا بأسراب من الشأم وَلِقْ
إن الحُصَيْن زَلِق وزُمَّلِق * جاءت به عَنْسٌ[1] من الشأم تَلِقْ

يقال : رجل زَلِق وزُمَلِق ؛ مثال هُدَبِد ، وزُمَالِق وزُمَّلِق (بتشديد الميم) وهو الذى ينزل قبل أن يجامع؛ قال الراجز :

* إنّ الحُصين زَلِق وزُمَّلِق *

والوَلْق أيضا أخفّ الطعن . وقد وَلَقه يَلِقه وَلْقًا . يقال : وَلَقه بالسيف وَلَقات، أى ضربات؛ فهو مشترك .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ مبالغة وإلزام وتأكيد . والضمير فى « تَحْسَبُونَهُ » عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له . و﴿ هَيِّنًا ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم . ﴿ وهو عند الله ﴾ فى الوزر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام فى حديث القَبْرين : ” إنهما ليُعَذَّبان وما يُعَذَّبان فى كبير “ أى بالنسبة إليكم .

(١) العنس : الناقة القوية .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغى عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هـذا من زوج نبيّـه عليه الصـلاة والسلام ، وأن تحكموا على هـذه المقالة بأنها بهتان؛ وحقيقة البهتان أن يقـال فى الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقـال فى الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء فى صحيح الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم . ثم وعظهم تعالى فى العودة إلى مثل هذه الحالة . و « أنْ » مفعول من أجله ، بتقدير : كراهية أن، ونحوه .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد ؛ كما تقـول : ينبغى لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ يعنى فى عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول فى المقُول عنـه بعينه ، أو فيمن كان فى مرتبته من أزواج النبيّ صـلى الله عليه وسـلم؛ لمـا فى ذلك من إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرْضه وأهله ؛ وذلك كفر من فاعله .

السابعة عشرة — قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سَبّ أبا بكر وعمر أُدّب ، ومن سبّ عائشة قُتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سَبّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل . قال ابن العربيّ : « قال أصحاب الشافعيّ من سبّ عائشة رضى الله عنها أُدّب كما فى سائر المؤمنين ، وليس قوله « إن كنتم مؤمنين » فى عائشة [لأن ذلك][1] كفر، وإنمـا هو كما قال عليه السلام : "لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقه" . ولو كان سلب الايمـان فى سبّ من سبّ عائشة حقيقة لكان سلبه فى قوله : "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن" حقيقة . قلنا : ليس كما زعمتم[2] ؛ فإن[3]

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى الأصول : « لئن كان كما زعمتم أن أهل » والتصويب عن ابن العربى . (٣) فى الأصول وابن العربى : « أن » بدون فاء .

أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذّب لله ، ومن كذّب الله فهو كافر ؛ فهـذا طريق قول مالك ، وهى سبيل لاحـة[1] لأهل البصائر . ولو أن رجلا سبّ عائشة بغير ما برأها الله منه[2] لكان جزاؤه الأدب » .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى تفشو ؛ يقال : شاع الشىء شُيُوعا وشَـيْعًا وشَيَعانا وشَيْعُوعة ؛ أى ظهـر وتفرّق . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى فى المحصنين والمحصنات . والمراد بهـذا اللفظ العام عائشةُ وصَفْوان رضى الله عنهما . والفاحشة : الفعـل القبيح المُفْرِط القبح . وقيل : الفاحشة فى هـذه الآية القولُ السيئُ . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الحدّ . وفى الآخرة عذاب النار؛ أى للمنافقين؛ فهو مخصوص . وقد بينا أن الحدّ للؤمنين كفارة . وقال الطبرى : معناه إن مات مُصِرًّا غير تائب .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليـه ، ويعلم كل شىء . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ روى من حديث أبى الدَّرْدَاء أن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم قال : " أيَّما رجلٍ شَدّ عَضُدَ آمرئ من الناس فى خصومة لا علم له بها فهو فى سخط الله حتى ينزِع عنها . وأيّما رجل قال بشفاعته دون حدّ من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة . وأيّما رجل أشاع على رجل مسلم كلمةً وهو منها برىء يرى أن يَشِينه بها فى الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها فى النـار — ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعـالى : — إن الذين يحبّون أن تَشيع الفاحشة فى الذين آمنوا " الآية .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى مسالكه ومذاهبه؛ المعنى : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليها الشيطان . وواحد الخُطُوات خُطْوة ، وهو ما بين القدمين . والخَطْوة (بالفتح) المصدر؛ يقال : خَطَوتُ خَطْوة ، وجمعها خَطَوات . وتخطّى إلينا فلان ؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلا يَتخطّى رقابَ الناس يوم الجمعة .

(١) فى الأصول : « الآية » . (٢) فى الاصول : « ولو أن رجلا سب عائشة بعين ما برأها الله منه لكان جزاؤه الكفر » . والتصويب عن ابن العربى .

وقرأ الجمهور « خُطُوات » بضم الطاء . وسكّنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَا زَكَى » بتخفيف الكاف؛ أى ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رُشْدا . وقيل : « ما زكى » أى ما صلح؛ يقال : زَكَا يزكو زَكاء؛ أى صلح . وشـدّدها الحسن وأبو حَيْـوة ؛ أى أن تزكيتـه لكم وتطهيره وهدايته إنمـا هى بفضله لا بأعمالكم . وقال الكسائى : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان » معترض، وقوله « ما زكى منكم من أحدٍ أبدا » جواب لقوله أولا وثانيا « ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ الآية . المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قُحافة رضى الله عنه ومِسْطح بن أُثَاثة. وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البَدْريِّين المساكين . وهو مِسْطح بن أُثَاثة ابن عَبّاد بن المطلب بن عبد مناف . وقيل : اسمه عَوف، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقرابته ؛ فلمـا وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا ، فجاء مسطح فاعتذر وقال : إنمـا كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل ؛ ومرّ على يمينه ، فنزلت الآية . وقال الضحاك وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال فى الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم فى شأن عائشة؛ فنزلت الآية فى جميعهم . والأول أصح ؛ غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسَـعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابرَ الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ — إلى قوله — أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أَرْجَى آية فى كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إنى لأحبّ أن يغفر الله لى ؛ فرجَع الى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أَنْزِعُها منه أبدا .

الثانية والعشرون — فى هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيرا لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان ؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(١) .

الثالثة والعشرون — من حلف على شىء لا يفعله فرأى فعله أَوْلَى منه أتاه وكفّر عن يمينه، أو كفّر عن يمينه وأتاه؛ كما تقدم فى « المائدة »(٢) . ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سُنّة من السنن أو مندوبا وأبّد ذلك أنها جُرْحة فى شهادته؛ ذكره الباجى فى المنتقى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ ﴾ « ولا يأتل » معناه يحلف؛ وزنها يفتعل، من الأَلِيّة وهى اليمين؛ ومنه قوله تعالى « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ » ؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٣) . وقالت فرقة : معناه يُقَصّر؛ من قولك : أَلَوْتُ فى كذا إذا قصّرت فيه؛ ومنه قوله تعالى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا »(٤) .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ تمثيل وحجة؛ أى كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم ؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : "من لا يرحم لا يرحم" .

السادسة والعشرون — قال بعض العلماء : هذه أرْجى آية فى كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ . وقيل . أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا »(٥) . وقد قال تعالى فى آية أخرى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ »(٦)؛ فشرح الفضل الكبير فى هذه الآية، وبشر به المؤمنين فى تلك . ومن آيات الرجاء قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ »(٧) وقوله تعالى : « اللَّهُ لَطِيفٌ

---

(١) آية ٦٥ سورة الزمر. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها. (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٣
(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨ (٥) آية ٤٧ سورة الأحزاب . (٦) آية ٢٢ سورة الشورى .
(٧) آية ٥٣ سورة الزمر .

بِعِبَادِهِ»[1] . وقال بعضهم: أرجى آية فى كتاب الله عز وجل: « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»[2] ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته فى النار .

السابعــة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ أى ألا يؤتوا، فحذف « لا » ؛ كقول القائل : * فقلت يمين الله أَبْرَحُ قاعدًا[3] *

ذكره الزجاج . وعلى قول أبى عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا» . ﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ من عَفا الربع أى دَرَس ؛ فهو مَحْوُ الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع .

قوله تعــالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتانـــ :

الاولى — قوله تعالى : ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ تقدّم فى «النساء»[4] . وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين فى القذف كحكم المحصنات قياسا واستدلالا ، وقــد بيناه أول السورة والحمد لله . واختلف فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال سعيد بن جُبير : هى فى رُماة عائشة رضوان الله عليها خاصّةً . وقال قوم : هى فى عائشة وسائر أزواج النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما . ولا تنفع التوبة . ومن قــذف غيرهن من المحصنات فقــد جعل الله له توبة ؛ لأنه قال : «والذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثم لَمْ يَأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ — إلى قوله — إلا الَّذِينَ تابوا » فجعل الله لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة ؛ قاله الضحاك . وقيل : هذا الوعيد لمن أصرّ على القذف ولم يتب . وقيل : نزلت فى عائشــة ، إلا أنه يراد بها كل من آتّصف بهــذه الصفة . وقيل : إنه عام لجميع النــاس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ؛ فدخل فى هــذا المذكر والمؤنث ؛ واختــاره النحاس . وقيل : نزلت فى مشركى مكة ؛ لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنمــا خرجت لتَفْجُر .

(١) آية ١٩ سورة الشورى . (٢) آية ٥ سورة الضحى . (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس ، وتمامه .
* ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى *

(٤) راجع ج ٥ ص ١٢٠

الثانيــة : ﴿لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا والْآخِرَةِ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الاية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعادُ وضربُ الحد واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجْرُهم لهم، وزوالُهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هى خاصة لعائشة تترتب هذه الشدائد فى جانب عبد الله بن أُبَىّ وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت فى مشركى مكة فلا كلام، فإنهم مبعدون، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم؛ ومن أسلم فالإسلام يَجُبّ ما قبـله . وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل فى هذا المذكر والمؤنث، وكذا فى الذين يرمون؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث .

قوله تعـالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

قراءة العامة بالتـاء، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف «يشهد» بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بمـا كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهـم ألسنتهم ذلك اليوم بمـا تكلموا به . ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ أى وتتكلم الجوارح بمـا عملوا فى الدنيـا .

قوله تعـالى : يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

أى حسابهم وجزاؤهم . وقرأ مجاهد « يومئذ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهم الحقُّ » برفع « الحق » على أنه نعت لله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعتا لله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أُبَىّ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت فى مصحف أُبَىّ « يُوَفِّيهمُ اللهُ الحَقُّ دِينَهُمْ » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيد غير

مَرْضِيّ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسّواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أُبَيّ كذا جاز أن تكون القراءة : يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم، يكون «دينهم» بدلا من الحق . وعلى قراءة العامة « دِينَهُمُ الْحَقَّ » يكون « الحقّ » نعتا لدينهم، والمعنى حسن ؛ لأن الله عزّ وجلّ ذكر المسيئين وأعلم أنه يجازيهم بالحق ؛ كما قال الله عزّ وجلّ : «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»(١) ؛ لأن مجازاة الله عزّ وجلّ للكافر والمسيء بالحق والعدل، ومجازاته للمحسن بالإحسان والفضل. ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع، وخاصّةً في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون للخبيثات، وكذا الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات . وقال مجاهد وابن جُبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودلّ على صحة هذا القول « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات. وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» الآية؛ فالخبيثات الزواني، والطيبات العفائف، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا، وهو معنى قول ابن زيد . ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ يعني به الجنس . وقيل : عائشة وصفوان، فجمع؛ كما قال : «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ»(٢) والمراد أخوان؛ قاله الفراء .

---

(١) آية ١٧ سورة سبأ .　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٢

و ﴿ مُبَرَّءُونَ ﴾ يعنى منزّهين مما رُمُوا به . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمى بالفاحشة برّأه الله على لسان صبيّ فى المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برّأها الله تعالى بالقرآن؛ فما رضى لها ببراءة صبيّ ولا نبيّ حتى برّأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وروى عن علىّ بن زيد بن جُدعان عن جدّته عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن آمرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوّجنى، ولقد تزوّجنى بكرا وما تزوّج بكرا غيرى، ولقد تُوُفّىَ صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفى حجرى، ولقد قُبر فى بيتى، ولقد حفّت الملائكة بيتى، وإن كان الوحى لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يُبِينُنى عن جسده، وإنى لأبنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عُذْرِى من السماء، ولقد خُلقتُ طيّبة وعند طيّب، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما؛ تَعْنِى قولَه تعالى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ لما خصّص الله سبحانه ابن آدم الذى كرّمه وفضّله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملّكهم الاستمتاع بها على الآنفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أدّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عَوْرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من آطّلع فى بيت قوم من غير إذنهم حلّ لهم أن يفقئوا عينه" . وقد آختلف فى تأويله؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره،

فإن فقأ فعليه الضمان، والخبر منسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا». ويحتمل أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم، والخبر إذا كان مخالفا لكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به. وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام فى الظاهر وهو يريد شيئا آخر؛ كما جاء فى الخبر أن عباس بن مِرْداس لما مدحه قال لبلال: "قم فاقطع لسانه" وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئا، ولم يرد به القطع فى الحقيقة. وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فَقْء العين والمراد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك فى بيت غيره. وقال بعضهم: لا ضمان عليه ولا قصاص؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتى.

الثانيــة — سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبرى وغيره عن عَدِىّ بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحبّ أن يرانى عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتى الأب فيدخل علىّ وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية. فقال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن؛ فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ».

الثالثــة — مدّ الله سبحانه وتعالى التحريم فى دخول بيت ليس هو بيتك إلى غاية هى الاستئناس، وهو الاستئذان. قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان؛ وكذا فى قراءة أُبَىّ وابن عباس وسعيد بن جُبير «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا». وقيل: إن معنى «تستأنسوا» تستعلموا؛ أى تستعلموا من فى البيت. قال مجاهد: بالتنحنح أو بأى وجه أمكن، ويتأنّى قدرَ ما يعلم أنه قد شُعِر به، ويدخل إثر ذلك. وقال معناه الطبرى؛ ومنه قوله تعالى: «فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا»(1) أى علمتم. وقال الشاعر:

آنَستْ نَبْأة وأفزعها القنّـ　*　ـاص عصرًا وقد دنا الإمساء

(1) راجع جـ ٥ ص ٣٦

قلت: وفى سنن ابن ماجه: حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبى سَوْرة عن أبى أيوب الأنصارىّ قال قلنا : يارسول الله ، هذا السلام، فما الاستئذان؟ قال : "يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة و يتنحنح و يؤذن أهل البيت".

قلت : وهذا نص فى أن الاستئناس غير الاستئذان؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعـــة — وروى عن ابن عبـاس و بعض الناس يقول عن سعيد بن جُبير « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » خطأ أو وَهَم من الكاتب ، إنما هو « حتى تستأذنوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره؛ فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » ، وصح الإجماع فيها من لَدُن مدّة عثمان ، فهى التى لا يجوز خلافها . و إطلاق الخطأ والوَهَم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عزّ وجلّ : « لَا يَأْتِيهِ الْبَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ » . وقد روى عن ابن عباس أن فى الكلام تقديما وتأخيرا؛ والمعنى : حتى تسلِّموا على أهلها وتستأنسوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : ومما يَنْفِى هذا القول عن ابن عباس وغيره أن « تستأنسوا » متمكنة فى المعنى، بيّنةُ الوجه فى كلام العــرب . وقد قال عمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أستأنس يا رســول الله ؛ وعمر واقف على باب الغرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضى أنه طلب الأنس به صلى الله عليــه وسلم، فكيف يخطِّئ ابن عباس أصحاب الرسول فى مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبى أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الاية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلّم . والله أعلم .

الخامســـة — السنّة فى الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليهـا . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من علم أنه لم يُسمع، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يُســمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : الســلام عليكم أأدخل ؛ فإن أُذِن له دخل ، و إن أمر بالرجوع انصرف ، و إن سُكت عنــه استأذن

ثلاثا ، ثم ينصرف من بعد الثلاث . و إنما قلنا : إن السنّة الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها لحديث أبي موسى الأشعريّ ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبي موسى أبو سـعيد الخُدرىّ ، ثم أبيّ بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ؛ فإن فيه : فقال — يعني عمـر — ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : أتيتُ فسلّمت على بابك ثلاث مرات فلم ترد عليّ فرجعت ، وقد قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "إذا اسـتأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع" . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن رِبْعِيّ قال : حدّثنا رجل من بني عامر استأذن على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : أَلِج ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخادمه : "اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أأدخل" فسمعه الرجل فقـال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبيّ صلى الله عليه وسـلم فدخل . وذكره الطبري وقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَمَة له يقال لها « روضة » : "قولي لهذا يقول السلام عليكم أدخل ؟" الحديث . وروى أن ابن عمر آذته الرّمضاء يوما فأتى فسطاطا لامرأة من قريش فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فقالت المرأة : ادخل بسلام؛ فأعاد فأعادت ، فقال لها : قولي ادخل . فقالت ذلك فدخل؛ فتوقف لمـا قالت : بسلام؛ لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادســة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خُصّ الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سُمِـع وفُهم؛ ولذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى يُفْهم عنه ، و إذا سلّم على قوم سلّم عليهم ثلاثا . و إذا كان الغالب هـذا ؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن ربّ المنزل لا يريد الإذن، أو لعلّه يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه؛ فينبغي للستأذن أن ينصرف؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، ور بمـا يضره الإلحاح حتى ينقطع عمـا كان مشغولا به ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم لأبي أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلا فقال : "لعلنا أعجلناك..." الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليمات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد

ابن عُبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يردّوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يردّوا، فآنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما فَقَد سعدٌ تسليمَه عرف أنه قد انصرف؛ فخرج سعد فى أثره حتى أدركه، فقال : وعليك السلام يا رسول الله، إنما أردنا أن نستكثر من تسليمك، وقد والله سمعنا؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته . قال ابن شهاب : فإنما أُخذ التسليم ثلاثا من قِبَل ذلك؛ رواه الوليد ابن مسلم عن الأوزاعىّ قال : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد][1] قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردّ سعد ردًّا خفيا، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ... الحديث، أخرجه أبو داود وليس فيه «قال ابن شهاب فإنما أخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك» . قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعىّ مرسلا لم يذكرا قيس بن سعد .

السابعة — روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الاستئذان تَرَكَ العملَ به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاتخاذ الناس الأبواب وقرعها؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبد الله بن بُسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنة — فإن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن، وإن شاء دقّ الباب؛ لما رواه أبو موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى حائط بالمدينة على قُفّ البئر[2] فمدّ رجليه فى البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ايذن له وبشره بالجنة" . هكذا رواه عبد الرحمن بن أبى الزناد وتابعه صالح بن كَيْسان ويونس بن يزيد؛ فرووه جميعا عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن عبد الرحمن بن نافع

(١) زيادة عن سنن أبى داود يقتضيها السياق .

(٢) قف البئر : هو الدكة التى تجعل حولها . وأصل القف : ما غلظ من الأرض وارتفع .

عن أبي موسى . وخالفهم محمـد بن عمرو الليثي فرواه عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك؛ وإسناده الأوّل أصح، والله أعلم .

التاسـعة — وصفة الدق أن يكون خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنُف في ذلك؛ فقـد روى أنس بن مالك رضي الله عنـه قال : كانت أبواب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم تقرع بالأظافير؛ ذكره أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في جامعه .

العاشـرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبـد الله رضي الله عنهما قال : استأذنت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "من هـذا" ؟ فقلت أنا، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا"! كأنه كره ذلك . قال علماؤنا : إنما كره النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو موسى؛ لأن في ذكر الاسم إسـقاط كُلْفة السؤال والجـواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسـلم وهو في مَشْرُبة له فقال : السـلام عليك يا رسول الله ، السـلام عليكم أيدخل عمر؟ وفي صحيح مسـلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم، هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعري ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب في جامعه عن عليّ بن عاصم الواسـطي قال : قدمت البصرة فأتيت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت أنا؛ فقال : يا هذا ! ما لي صديق يقال له أنا ؛ ثم خرج إليّ فقال : حدّثني محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم في حاجة لي فطرقت عليه الباب فقال : "من هذا" ؟ فقلت أنا؛ فقال : "أنا أنا"! كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولي هذا، أو قوله هذا . وذكر عن عمر بن شَبّة حدّثنا محمد بن سـلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عُبيد الباب فقال لي : من هذا؟ فقلت أنا؛ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت عليّ ابن المُحَسِّن القاضي يحكي عن بعض الشـيوخ أنه كان إذا دُقّ بابُه فقال من ذا ؟ فقال الذي على الباب أنا، يقول الشيخ : أنا هَمٌّ دَقّ .

الثانية عشرة — ثم لكل قوم فى الاستئذان عُرْفُهم فى العبارة؛ كما رواه أبو بكر الخطيب مسندا عن أبى عبـد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قال : أرسلتنى مولاتى إلى أبى هريرة بجاء معى، فلما قام بالباب قال : أندر ؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الدّراوَرْدِىّ من أهل أصبهان[1] نزل المدينة، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون، فلقّبه أهل المدينة الدراوردى .

الثالثة عشرة — روى أبو داود عن كَلَدة بن حنبل أن صفوان بن أُمَيّة بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجَدَاية وضَغَابِيس[2] والنبىّ صلى الله عليه وسـلم بأعلى مكة ، فدخلت ولم أسلم فقال : "ارجع فقل السـلام عليكم" وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له" . وذكر ابن جُرَيج أخبرنى عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتى بالمفتاح؛ فقلت السلام عليكم؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاءه رجل فنظر إلى ما فى البيت فقال : السـلام عليكم أأدخل ؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقـد دخلت ! وأما بآستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة — وممـا يدخل فى هـذا الباب ما رواه أبو داود عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "رسولُ الرجلِ إلى الرجل إذْنُه" ؛ أى إذا أرسل إليـه فقد أذن له فى الدخول، يبيّنه قوله عليه السلام : "إذا دُعِىَ أحدكم [إلى طعام][3] بجاء مع الرسـول فإن ذلك له إذن" . أخرجه أبو داود أيضا عن أبى هريرة .

الخامسة عشرة — فإن وقعت العين على العين فالسـلام قد تعيّن ، ولا تَعُدّ رؤيتك إذنا لك فى دخولك عليه ، فإذا قضيت حق السـلام لأنك الوارد عليه تقول : أدخل؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

---

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبى عبيد . (راجع ترجمته فى كتاب تهذيب التهذيب) . (٢) الجداية : الذكر والأنثى من أولاد الظباء إذا بلغ ستة أشهر أو سبعة ؛ بمنزلة الجدى من المعز . والضغابيس : القثاء ؛ واحدها ضُغبوس . وقيل : هى نبت ينبت فى أصـول الثمام ، يسلق بالخل والزيت ويؤكل . (٣) زيادة عن سنن أبى داود .

السادسة عشرة — هـذه الأحكام كلها إنمـا هى فى بيت ليس لك، فأما بيتـك الذى تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها، إلا أنك تسلّم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا: تنحنح وٱضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أستأذن على أمى؟ قال "نعم" قال : إنى أخدمها؟ قال : "استأذن عليها" فعاوده ثلاثا؛ قال "أتحب أن تراها عُريانة"؟ قال لا؛ قال: "فٱستأذن عليها" ذكره الطبرى .

السابعة عشرة — فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد؛ فقال علماؤنا : يقول السلام علينا، من ربّنا التحيات الطيبات المباركات، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسـنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنـا أن الملائكة تردّ عليهم . قال ابن العربى : والصحيح ترك السلام والاستئذان، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حَسَن .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ الضمير فى «تجدوا فيها» للبيوت التى هى بيوت الغير . وحكى الطبرى عن مجاهـد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا » أى لم يكن لكم فيهـا متاع . وضعّف الطبرى هذا التأويل، وكذلك هو فى غاية الضعف؛ وكأن مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنمـا تُدْخَل دون إذن إذا كان للداخل فيها متاع .

ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذى هو البُسُط والثياب؛ وهذا كله ضعيف . والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث؛ التقدير : يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا؛ كما فعل عليه السلام مع سعد، وأبو موسى مع عمر رضى الله عنهما . فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا . وأسند الطبرى عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخوانى فيقول لى ارجع فارجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى : «هو أزكى لكم» .

الثانيــة — سواء كان الباب مغلقا أو مفتوحا؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه، بل يجب عليه أن يأتى الباب ويحاول الإذن على صفة لا يطّلع منه على البيت لا فى إقباله ولا فى انقلابه . فقد روى علماؤنا عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فَسَق . وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا اطلع فى جُحْرٍ فى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِدْرًى[1] يرجّل به رأسه؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أعلم أنك تنظر لطَعَنْتُ به فى عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر" . وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فخذفته[2] بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح" .

الثالثــة — إذا ثبت أن الإذن شرط فى دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير . وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وغلمانهم رضى الله عنهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعّدٌ لأهل التجسّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصى والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع فى محظور .

(١) المدرى والمدراة : شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر .

(٢) الخذف : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمى بها .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (٢٩)

فيــه مسألتان :

الأولى — رُوى أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمّق فى الأمر ، فكان لا يأتى موضعا خَرِبا ولا مسكونا إلا سلّم واستأذن ؛ فنزلت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان فى كل بيت لا يسكنه أحد ؛ لأن العلة فى الاستئذان إنما هى لأجل خوف الكشفة على الحرمات ؛ فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانيــة — اختلف العلماء فى المراد بهذه البيوت ؛ فقال محمد بن الحنفيّة وقتادة ومجاهد : هى الفنادق التى فى طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ؛ أى استمتاع بمنفعتها . وعن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ؛ و يبيّنه قول مالك . وهـذا على القول بأنها غير متملَّكة ، وأن الناس شركاء فيها ، وأن مكة أخذت عَنْوة . وقال ابن زيد والشّعْبِيّ : هى حوانيت القَيْسَارِيّات . قال الشعبيّ : لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هَلُمّ . وقال عطاء : المراد بها الخَرِب التى يدخلها الناس للبول والغائط ؛ ففى هـذا أيضا متاع . وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ؛ أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خَرِبة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع وكلّ منافع الدنيا متاع . قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة . والمتاع فى كلام العرب : المنفعة ؛ ومنه أمتع الله بك . ومنه « فمتّعوهنّ » .

قلت : واختاره أيضا القاضى أبو بكر بن العربىّ وقال : أما من فسّر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبّق المفصل وجاء بالفَيْصل ، و بيّن أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع ؛ فالطالب يدخل فى الخانكات وهى المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات

وهى الفنانق ، أى الفنادق، والزَّبون يدخل الدكان للابتياع ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة؛ وكلٌّ يؤتى على وجهه من بابه . وأما قول ابن زيد والشّعبيّ فقول ! وذلك أن بيوت القَيْسَارِيّات محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكَّلون بدفع الناس .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ وصل تعالى بذكر السّتر ما يتعلّق به من أمر النظر؛ يقال : غضّ بصره يَغُضّه غضًّا؛ قال الشاعر :

فغُضّ الطَّرْف إنك من نُمَيرٍ * فلا كَعْبًا بلَغْتَ ولا كِلابَا

وقال عَنْتَرَة :

وأغض طرفى ما بدت لِىَ جارتِى * حتى يُوارِىَ جارتِى مأواهَا

ولم يذكر الله تعالى ما يُغَض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرّم دون المحلّل . وفى البخارى : « وقال سعيد بن أبى الحسن للحسن إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن؟ قال : اصرف بصرك ؛ يقول الله تعالى « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » وقال قتادة : عما لا يحلّ لهم؛ « وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ » خائنةَ الأعْيُن [من](١) النظر إلى ما نُهِىَ عنه » .

الثانيـة ــ قوله تعالى : ﴿ مِن أَبْصَارِهِم ﴾ « من» زائدة؛ كقوله « فما مِنكم مِن أحدٍ عنه حاجِزِين »(٢) . وقيل : «من» للتبعيض؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض النقصان ؛ يقال : غض فلان من فلان أى وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكَّن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص . فـ « مِن » صلة للغض، وليست للتبعيض ولا للزيادة .

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثـــة ــ البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته . ووجب التحذير منــه ، وغضّه واجب عن جميـع المحرّمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والجلوس على الطُّرُقات" فقالوا : يا رســول الله، ما لنا من مجالسنا بدٌّ نتحدّث فيهــا . فقال : "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطُوا الطريقَ حقّه" قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : "غَضُّ البصر وكفّ الأذى وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر" . رواه أبو سـعيد الخُدْرِىّ، خرّجه البخارىّ ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "لا تُتبع النظرة النظرة فإنما لك الأُولى وليست لك الثانية" . وروى الأوزاعِىّ قال : حدّثنى هارون بن رِئاب أن غَزْوان وأبا موسى الأشعرىّ كانا فى بعض مَغازِيهم، فكشفت جارية فنظر إليها غَزْوان، فرفع يده فلطم عينه حتى نَفَرَت[1]، فقال : إنك للحّاظة إلى ما يضرك ولا ينفعــك؛ فلقِىَ أبا موسى فسأله فقال : ظلمتَ عينك، فٱستغفر الله وتُب، فإن لها أوّل نظرة وعليها ما كان بعد ذلك . قال الأوزاعى : وكان غَزْوان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضى الله عنه . وفى صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفُجَاءة ؛ فأمرنى أن أصرف بصرى . وهذا يقوّى قول من يقول : إن « من » للتبعيض؛ لأن النظرة الأولى لا تُمْلَك فـلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصودا، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكلفا بهــا؛ فوجب التبعيض لذلك ، ولم يقل ذلك فى الفرج ؛ لأنها تُمْلك . ولقد كره الشعبِىّ أن يُديم الرجل النظر إلى ٱبنته أو أمه أو أخته؛ وزمانُه خير من زماننا هذا !! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتٍ محرّمة نظر شهوة يردّدها .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أى يستروها عن أن يراها من لا يحلّ. وقيل : « ويحفظوا فروجهم » أى عن الزنى؛ وعلى هذا القول لو قال : « من فروجهم » لجــاز . والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام . وروى بَهْز بن حكيم بن معاوية القُشَيْرِىّ عن أبيه عن جده قال : قلت يارسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : "احفظ

(١) نفرت العين وغيرها من الأعضاء تنفِر نفورا : هاجت وورمت .

عورتك إلا من زوجتــك أو ما ملكت يمينك " . قال : الرجل يكون مــع الرجل ؟ قال : " إن استطعت ألا يراها فافعل " . قلت : فالرجل يكون خاليــا ؟ فقال : " الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس " . وقد ذكرت عائشة رضى الله عنها رسولَ الله صلى الله عليه وســلم وحالَها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك منى .

الخامســـة — بهــذه الآية حرّم العلماء نصًّا دخول الحمام بغير مِئزر . وقــد روى عن ابن عمر أنه قال : أطْيَب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام فى خلوة . وصح عن ابن عباس أنه دخل الحمام وهو مُحرِم بالجحفة . فدخوله جائز للرجال بالمآزر، وكذلك النساء للضرورة كغسلهن من الحيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ؛ والأَوْلَى بهن والأفضــلُ لهن غسلهن إن أمكن ذلك فى بيوتهن ، فقد روى أحمــد بن مَنيع حدّثنا الحسن بن موسى حدّثنا ابن لَهيعة حدّثنا زَبّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدَّرْداء أنه سمعها تقول : لقِينى رسول الله صلى الله عليه وســلم وقد خرجت من الحمــام فقال : " من أين يا أمّ الدرداء " ؟ فقالت من الحمام ؛ فقال : " والذى نفسى بيده ما من آمرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمّهاتها إلا وهى هاتكة كلّ ستر بينها وبين الرحمن عز وجل". وخرّج أبو بكر البزّار عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احذروا بيتا يقال له الحمام". قالوا : يا رسول الله، ينقى الوسخ؟ قال : " فاستتروا " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد حديث فى هذا الباب؛ على أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما خرّجه أبو داود فى هذا من الحظر والإباحة فلا يصح منه شيء لضعف الأسانيد؛ وكذلك ما خرّجه الترمذى .

قلت : أما دخول الحمام فى هــذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدِّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسّطوا الحمام رمى مآزرهم، حتى يُرَى الرجل البَهِىّ ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديًا عن عورته ضامًّا بين فخذيه ولا أحد يغيّر عليه . هذا أمر بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيّما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى هى عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! .

السادســة — قال العلماء : فإن استتر فليدخل بعشرة شروط :

الأول — ألّا يدخل إلا بنيّة التداوى أو بنيّة التطهير عن الرُّحَضاء[1] .

الثانى — أن يعتمد أوقات الخلوة أو قلّة الناس .

الثالث — أن يستر عورته بإزار صَفيق .

الرابع — أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور .

الخامس — أن يُغيّر ما يرى من منكر برفق، يقول : استتر سترك الله !

السادس — إن دلّكه أحد لا يمكّنه من عورته ، من سرته إلى ركبته إلا امرأته أو جاريته . وقد اختلف فى الفخذين هل هما عورة أم لا .

السابع — أن يدخله بأجرة معلومة بشرطٍ أو بعادة الناس .

الثامن — أن يصبّ الماء على قدر الحاجة .

التاسع — إن لم يقدر على دخوله وحده اتفق مع قوم يحفظون أديانهم على كرائه .

العاشر — أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستتر وليجتهد فى غضّ البصر.

ذكر الترمذىّ أبو عبد الله فى نوادر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا بيتا يقال له الحمام" . قيل : يا رسول الله، إنه يذهب به الوسخ ويذكّر النار؛ فقال : "إن كنتم لا بُدّ فاعلين فادخلوه مستترين" . وخرّج من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نِعم البيت يدخله الرجل المسلم بيتُ الحمام — وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الجنة واستعاذ به من النار — وبئس البيتُ يدخله الرجل بيتُ العروس" . وذلك لأنه يرغّبه فى الدنيا وينسيه الآخرة . قال أبو عبد الله : فهذا لأهل الغفلة ، صيّر الله هذه الدنيا بما فيها سببا للذّكر لأهل الغفلة ليذكروا بها آخرتهم ؛ فأما أهل اليقين فقد صارت الآخرة نُصب أعينهم فلا بيت حمّام يزعجه ولا بيت عروس

(١) الرحضاء : العرق فى أثر الحمى .

يستفزه، لقد دقّت الدنيا بما فيها من الصنفين والضربين فى جنب الاخرة، حتى أن جميع نعيم الدنيا فى أعينهم كُثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجميع شدائد الدنيا فى أعينهم كتفلة عوقب بها مجرم أو مسيء قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ أى غضّ البصر وحفظ الفرج أطهر فى الدين وأبعد من دنس الأنام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ ﴾ أى عالم . ﴿ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله « قل للؤمنين » يكفى؛ لأنه قول عام يتناول الذّكر والأنثى من المؤمنين، حسب كلّ خطاب عام فى القرآن . وظهر التضعيف فى « يَغْضُضْنَ » ولم يظهر فى « يَغُضُّوا » لأن لام الفعل من الثانى ساكنة ومن الأوّل متحركة، وهما فى موضع

جزم جوابا . وبدأ بالغَضّ قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب ؛ كما أن الحُمَّى رائد الموت .
وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائد * فما تألف العينان فالقلب آلف

وفى الخبر "النظر سَهْم من سهام إبليس مسموم فمن غضّ بصره أورثه الله الحلاوة فى قلبه" .
وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيّنها لمن ينظر؛ فإذا أدبرت جلس على عَجُزها فزيّنها لمن ينظر. وعن خالد بن أبى عمران قال . لا تُتْبِعنّ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرةً نَغِل[1] منها قلبُه كما يَنْغَل الأديم فلا يُنتفع به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا المرأة إلى الرجل؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها ؛ وقصدها منه كقصده منها . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر..." الحديث . وقال الزهرى فى النظر إلى التى لم تَحِض من النساء : لا يصلح النظر الى شيء منهن ممن يُشْتَهَى النظرُ إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتى يبعن بمكة إلا أن يريد أن يشترى . وفى الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجه الفضل عن الخَثْعَمِيّة[2] حين سألته ، وطَفِق الفضل ينظر إليها .
وقال عليه السلام : "الغَيْرة من الإيمان والمِذاء من النفاق" . والمِذاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يخلّيهم يُماذِى بعضهم بعضا؛ مأخوذ من المَذْى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء؛ من قولهم : مَذَيْتُ الفرس إذا أرسلتَها تَرْعَى . وكلّ ذَكَر يَمْذِى، وكلّ أنثى تَقْذِى؛ فلا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدى زينتها إلا لمن تحلّ له ، أو لمن هى محرّمة عليه على التأبيد؛ فهو آمن أن يتحرّك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها .

---

(١) النغل (بالتحريك) : الفساد . ونغل الأديم إذا عفن وتهرّى فى الدباغ فينفسد ويهلك .

(٢) فى البخارى : «عن ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر؛ فقالت : ان فريضة الله أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال نعم » .

الثانية — روى الترمذىّ عن نَبْهان مولى أم سلمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها ولميمونة وقد دخل عليها ٱبن أمّ مَكْتُوم : "احتجبا" فقالتا : إنه أعمى؛ قال : "أفعَمْياوانِ أنتما ألستما تُبصرانه" . فإن قيل : هذا الحديث لا يصحّ عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة . ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تعتدّ فى بيت أمّ شَريك؛ ثم قال : "تلك ٱمرأة يغشاها أصحابى ٱعتدى عند ٱبن أمّ مَكْتُوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك" . قلنا : قد استدلّ بعض العلماء بهذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعلّق القُرْط؛ وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى: «وقل للمؤمنات يَغْضُضن من أبصارهنّ»، وتكون «من» للتبعيض كما هى فى الآية قبلها . قال ابن العربى : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أمّ شَريك إلى بيت ٱبن أمّ مكتوم لأن ذلك أولى بها من بقائها فى بيت أمّ شريك؛ إذ كانت أمّ شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها، فيكثر الرائى لها، وفى بيت ٱبن أمّ مكتوم لا يراها أحد؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى، فرخص لها فى ذلك، والله أعلم .

الثالثة — أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية حذارا من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة؛ واختلف الناس فى قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جبير الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعىّ : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عباس وقتادة والمِسْوَر بن مَخْرَمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسّوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرطة والفَتَخ[1]؛ ونحو هذا فمباح أن تُبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس . وذكر الطبرى عن

---

(١) الفتخ (بفتحتين جمع الفتخة) : خواتيم كبار تلبس فى الأيدى .

قتادة فى معنى نصف الذراع حديثا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضى الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يحل لآمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عَرَكَت[1] أن تظهر إلا وجهها و يديها إلى هاهنا" وقبض على نصف الذراع . قال ابن عطية : و يظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تُبْدِى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابدّ منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فـ«ـما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدّى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفوّ عنه .

قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورَهما عادةً وعبادةً وذلك فى الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رِقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحِيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا" وأشار إلى وجهه وكفّيه . فهذا أقوى فى جانب الاحتياط ؛ ولمراعاة فساد الناس فلا تُبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفّيها ، والله الموفق لا ربّ سواه . وقد قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخِيف من وجهها وكفّيها الفتنةُ فعليها سَتر ذلك ؛ وإن كانت عجوزا أو مُقَبَّحة جاز أن تكشف وجهها وكفّيها .

الرابعة — الزينة على قسمين : خِلْقية ومُكتَسبة ؛ فالخِلْقية وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهى ما تحاوله المرأة فى تحسين خِلقتها ؛ كالثياب والحلى والكُحْل والخضاب ؛ ومنه قوله تعالى : «خُذُوا زِينَتَكُمْ» . وقال الشاعر :

يأخُذْن زينتهنّ أحسنَ ما تَرَى * وإذا عَطِلن فهنّ خير عواطل

الخامسة — من الزينة ظاهر و باطن ؛ فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بَطَن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سمّاهم الله تعالى فى هذه

(١) عركت المرأة : حاضت .

الآية ، أو حلّ محاهم . واختلف فى السِّوار؛ فقالت عائشة : هى من الزينة الظاهرة لأنها فى اليدين . وقال مجاهد : هى من الزينــة الباطنة ؛ لأنهـا خارج عن الكفين و إنمـا تكون فى الذراع . قال ابن العربى : وأما الخضاب فهو من الزينــة الباطنة إذا كان فى القدمين .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التى هى للامر . وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [فى لام] الأمر الكسر، وحذفت الكسرة لثقلها ، و إنمـا تسكينها لتسكين عَضُــد وفَخِذ . و « يَضْرِبْن » فى موضع جزم بالأمر، إلا أنه بُنى على حالة واحدة إتباعا للمـاضى عند سيبويه . وسبب هــذه الآية أن النســاء كنّ فى ذلك الزمان إذا غطين رءوسهنّ بالأخمــرة وهى المقانع سَدَلْنَها من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النَّبَط ؛ فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعـالى بِلَىّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المــرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخارى عن عائشة أنهـا قالت : رحم الله نساءَ[1] المهاجرات الأُوَل؛ لمـا نزل « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شَقَقْن أُزُرَهن فاختمرن بها . ودخلت على عائشــة حفصةُ بنت أخيها عبــد الرحمن رضى الله عنهم وقــد اختمرت بشىء يَشِفّ عن عنقها وما هنا لك؛ فشقّته عليها وقالت : إنمـا يُضرب بالكثيف الذى يستر .

السابعـــة — الخُمُر: جمع الخِمار، وهو ما تغطّى به رأسها؛ ومنه اختمرت المرأة وتخمّرت ، وهى حَسَنة الخِمْرة . والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص؛ وهو من الجَوْب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهنّ » . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء؛ كقراءتهم ذلك فى : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لا يجيزون هذه القراءة ويقولون : بيت و بيوت كفَلْس وفُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال ، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيمـاء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهنّ » أى على صدورهنّ ؛ يعنى على مواضع جيوبهنّ .

---

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نحو شجر الأراك ؛ أى شجر هو الأراك .

الثامنـــة — فى هذه الاية دليل على أن الجيْب إنمـا يكون فى الثوب موضعَ الصدر . وكذلك كانت الجيوب فى ثيـاب السلَف رضـوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عنـدنا بالأندلس وأهـل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخارىّ رحمـة الله تعالى عليه (باب جيب القميص من عند الصدر وغيره) وساق حديث أبى هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليـه وسلم مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد ٱضْطرَّتْ أيديَهما إلى ثُدِيِّهما وتراقيهما ... " الحديث ، وقد تقدم بكماله[1] ، وفيـه : قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول بأصبعيه هكذا فى جَيْبه ؛ فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسّع[2] . فهذا يبيّن لك أن جَيْبه عليه السلام كان فى صدره ؛ لأنه لو كان فى منكِبه لم تكن يداه مضطرّة إلى ثَدْيَيه وتراقِيه . وهذا استدلال حسن .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ البَعْل هو الزوج والسيّد فى كلام العرب ؛ ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل: "إذا ولدت الأَمَة بَعْلَها" يعنى سيدها ؛ إشارة إلى كثرة السّرارى بكثرة الفتوحات ، فيأتى الأولاد من الإماء فتعتق كلّ أم بولدها وكأنه سيّدها الذى مَنّ عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلا لهـا من سببه ؛ قاله ٱبن العربىّ .

قلت : ومنه قوله عليه السلام فى ماريَة : " أعتقها ولدُها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة — فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينـة إذ كل محلٍّ من بدنها حلال له لذةً ونظرا . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن ٱطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانُهم فإنهم غير ملُومين»[3] .

العاشـــرة — اختلف النـاس فى جواز نظـر الرجل إلى فرج المرأة ؛ على قولين : أحدهما — يجوز ؛ لإنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى . وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٠ . (٢) جواب « لو » محذوف ؛ أى لتعجبت .
(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .

رضى الله عنها فى ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك منى . والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربى . وقد قال أصْبَغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها، والأَمَة إلى عورة سيدها .

قلت : وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "النظر إلى الفرج يورث الطمس" أى العمى ، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة — لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنّى بذوى المحارم وسوّى بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر . فلا مِرْية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحْوَط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم ؛ فيبدَى للاب مالا يجوز إبداؤه لولد الزوج . وقد ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحِل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البُعُولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِن » (١) . وقال فى سورة النور : « وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إلّا لِبعُولَتِهِنَّ » الآية . فذهب ابن عباس إلى هذه الاية، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ يريد ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَفَلوا، من ذُكران كانوا أو إناث ؛ كبنى البنين وبنى البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عَلَوْا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الآمهات، وكذلك أبناؤهن وإن سَفَلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن؛ فيستوى فيه أولاد البنين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم مَن ولده الآباء والأمهات أو أحد الصّنفين . وكذلك بنو الإخوة

(١) آية ٥٥ سورة الأحزاب .

وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكران كانوا أو إناث كبني بني الأخوات وبني بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعاني في الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم في « النساء »(١) . والجمهور على أن العَمّ والخال كسائر المحارم في جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم . وليس في الاية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعند الشعبيّ وعكرمة ليس العم والخال من المحارم . وقال عكرمة : لم يذكرهما في الآية لأنهما تبعان لأبنائهما .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني المسلمات ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ؛ فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئا من بدنها بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون أَمَة لها ؛ فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جريج وعُبَادة بن نُسَيّ وهشام القارئ يكرهون أن تقبّل النصرانيةُ المسلمة أو ترى عورتها ؛ ويتأوّلون « أو نسائهن » . وقال عُبَادة بن نُسَيّ : وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح : أنه بلغني أن نساء أهل الذمّة يدخلن الحمّامات مع نساء المسلمين ؛ فامنع من ذلك ، وحُلْ دونه ؛ فإنه لا يجوز أن ترى الذمية عِرْيَة(٢) المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أيّما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيّض وجهها فسوّد الله وجهها يوم تبيضّ الوجوه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ؛ لئلا تصفها لزوجها . وفي هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أَمَةً لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها ؛ وأما غيرها فلا ، لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيّات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وقال أشهب : سئل مالك أتُلْقِي المرأة خمارها بين يدى الخَصِيّ ؟ فقال نعم ، إذا كان

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٥ وما بعدها　　(٢) عِرْيَة المرأة : ما يعرى منها وينكشف .

مملوكا لها أو لغيرها ؛ وأما الحر فلا . وإن كان لخلا كبيرا وَغْدًا تملكه ، لا هيئة له ولا مَنْظَر فلينظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بواسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة على الرجل المرحاضَ ؛ قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . وقال أشهب عن مالك : ينظر الغلام الوَغْد إلى شعر سيّدته ، ولا أحبه لغلام الزوج . وقال سعيد بن المسيب : لا تغرّنكم هذه الاية «أو ما ملكت أيمانهنّ» إنما عَنَى بها الإماء ولم يَعْن بها العبيد . وكان الشعبيّ يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعَبْد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوبٌ إذا غطّت به رأسها لم يبلغ إلى رجليها ، و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ إلى رأسها ؛ فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ما تَلْقَى من ذلك قال : " إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلامك " .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أى غير أولى الحاجة . والإِرْبَةُ الحاجة ، يقال : أَرِبْتُ كذا آرَب أَرَباً . والإِرْب والإربة والمَأْرُبة والأَرَب : الحاجة ؛ والجمع مآرب ؛ أى حوائج . ومنه قوله تعالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » (١) وقد تقدم . وقال طَرَفة :

إذا المرء قال الجهل والحوب والخنا (٢) * تقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

واختلف الناس فى معنى قوله : « أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ » فقيل : هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم ؛ وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن . وقيل العِنّين . وقيل الخصيّ . وقيل المخنث . وقيل الشيخ الكبير، والصبيّ الذى لم يُدْرِك . وهذا الاختلاف كلّه متقارب المعنى، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا هِمّة ينتبه بها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هِيْت المخنّث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادِيَةَ بنة غَيْلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطّأ وغيرهم عن

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٧ (٢) الحوب (بضم الحاء وفتحها) : الإثم . والخنا : الفحش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد فى حديث ابنة غَيْلان : «أن مخنثاً يقال له هِيْت» وليس فى كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغرّبه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحِمَى وهو موضع من ذى الحُلَيْفَة ذات الشمال من مسجدها . قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان فى الحديث : إذا قعدت تَبَنَّتْ(1) ، وإذا تكلّمت تغنّت . قال مالك : صدق، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال فى الحديث يعنى حديث هشام بن عروة «أن مخنثا يدعى هِيتاً» فغير معروف عند أحد من رواته عن هشام، لا ابن عيينة ولا غيره، ولم يقل فى نَسَق الحديث « إن مخنثا يدعى هيتا » ، وإنما ذكره عن ابن جُريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول فى الحديث : إذا قعدت تبنّت وإذا تكلّمت تغنّت ، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره فى حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدى ، والعجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكى عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضا ، والله أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يُكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجيء به . ذكر الواقِدىّ والكَلْبى أن هِيتاً المخنَّث قال لعبد الله بن أُمَيَّة المخزومىّ وهو أخو أمّ سَلَمة لأبيها وأمّه عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له وهو فى بيت أخته أمّ سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائفَ فعليك ببادِيَةَ بنت غَيْلان بن سَلَمَة الثَّقَفِيّ ، فإنها تُقبِل بأربع وتُدْبِر بثمان(2) ، مع ثَغْر كالأُقْحُوان ، إن جلست تَبَنَّت وإن تكلّمت تغنّت ، بين رجليها كالإناء المكفوء(3) ، وهى كما قال قَيْس بن الخَطِيم :

تغْـترِق الطَّرفَ وهى لاهِيَةٌ(4) * كأنما شَــفَّ وَجْهَها نُزُفُ

---

(1) أى صارت كالمبناة من سمنها وعظمها . قال ابن الأثير : أى فرّجت رجليها لضخم رَكَبها (فرجها) ؛ كأنه شبهها بالقبة من الأدم . (2) يعنى تقبل بأربع عكن وتدبر بثمان عُكَن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (3) يعنى ضخم ركبها (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكبوب . (4) يقول : من نظر إليها استغرقت طرفه و بصره وشغلته عن النظار إلى غيرها ، وهى لاهية غير محتفلة . والنزف (بضم فسكون ، وحرك هنا لضرورة الشعر) : خروج الدم . وفى شرح ديوان قيس : «أراد أن فى لونها مع البياض صفرة ؛ وذلك أحسن» .

بين شُكُول النساء خِلقتُها * قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَف[1]

تنام عن كُبْر شأنها فإذا * قامتْ رُوَيْدًا تكاد تَنْقَصِف

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد غلغلت النظر إليها يا عدوّ الله" . ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى . قال : فلما ٱفْتُتِحت الطائف تزوّجها عبد الرحمن بن عَوف فولدت له منه بُرَيْهة ؛ فى قول الكلبى . ولم يزل هِيت بذلك المكان حتى قُبِض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما وَلِىَ أبو بكر كُلِّم فيه فأبى أن يردّه ، فلما وَلِىَ عمر كُلِّم فيه فأبى ، ثم كُلِّم فيه عثمان بعدُ . وقيل : إنه قد كَبِر وضَعُف وٱحتاج ، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل و يرجع إلى مكانه . قال : وكان هِيت مولًى لعبد الله بن [أبى] أمية المخزومى ، وكان له طُوَيْس[2] أيضا ، فمن ثَمّ قَبِل[3] الخَنَث . قال أبو عمر : يقال «بادية» بالياء و «بادنة» بالنون ، والصواب فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السادسة عشرة — وصف التابعين بـ « غير » لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و« غير » لا يتمحّض نكرة فجاز أن يجرى وصفا على المعرفة . وإن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالقول فى «غير المغضوب عليهم» . وقرأ عاصم وابن عامر «غيرَ» بالنصب فيكون ٱستثناء ؛ أى يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإرْبة منهم . ويجوز أن يكون حالا ؛ أى والذين يتبعونهن عاجزين عنهن ؛ قاله أبو حاتم . وذو الحال ما فى «التابعين» من الذكر .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتُه بـ « الذين » . وفى مصحف حَفْصة « أو الأطفال » على الجمع . ويقال : طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم . و﴿ يَظْهَرُوا ﴾ معناه يطلعوا بالوطء ؛ أى لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ . وقيل : لم يبلغوا أن يطيقوا النساء ؛ يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت

(١) الشُّكول : الضروب . وقصْد : ليست بالجسيمة ولا النحيفة . والجبْلة : الغليظة ؛ من جبل (كفرح) فهو جَبِل وجَبْل . والقَضَف : الدقة وقلة اللحم .
(٢) طُوَيس لقب غلب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بنى مخزوم ، وهو أول من غنى بالعربى بالمدينة ، وأول من ألق الخَنَث بها . (راجع ترجمته فى الأغانى جـ ٣ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية) .
(٣) فى الأصول : «قيل المخنث» والتصويب عن الأغانى .

على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من « عورات » لاستثقال الحركة على الواو . وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَفْنة وجفنات . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات » [بفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت، كما تقول : جفنة وجفنات؛ إلا أن التسكين أجود فى « عورات » وأشباهه، لأن الواو إذا تحركت وتحرك ما قبلها قُلبت ألفا؛ فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فى وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين : أحدهما — لا يلزم؛ لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح . والآخر — يلزمه؛ لأنه قد يشتهى وقد تشتهى أيضا هى؛ فإن راهق فحكمه حكم البالغ فى وجوب السّتر. ومثله الشيخ الذى سقطت شهوته؛ اختلف فيه أيضا على قولين كما فى الصبى ، والصحيح بقاء الحرمة؛ قاله ابن العربى .

التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السَّوْءتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلّها عورة، إلا وجهها و يديها فإنهم اختلفوا فيهما . وقال أكثر العلماء فى الرجل : من سرته إلى ركبته عورة؛ لا يجوز أن تُرَى . وقد مضى فى « الأعراف » القول فى هذا مستوفًى (١) .

المُوفية عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السّرة إلى الركبة . ابن العربى : وكأنهم ظنّوها رجلا أو ظنوه آمرأة ، والله تعالى قد حرّم المرأة على الإطلاق لنظر أو لذة ، ثم آستثنى اللذة للأزواج ومِلْك اليمين، ثم آستثنى الزينة لاثنى عشر شخصا العبد منهم، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأوّل بعض الناس قولَه « أو ما ملكت أيمانهنّ » على الإماء دون العبيد؛ منهم سعيد بن المسيِّب، فكيف يحملون على العبيد ثم يلحقون بالنساء ، هذا بعيد جدّا! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولِي الإرْبة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال؛ حكاه المهدوىّ .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية ؛ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتُسْمِع صوت خَلْخالها؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشدّ،

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨٢

والغرض التستر . أسند الطبرى عن المعتمر عن أبيه أنه قال : زعم حضرمىّ أن آمرأة آتخذت بُرتَين[1] من فضة واتخذت جَزْعا[2] فجعلت فى ساقها فمرّت على القوم فضربت برجلها الأرض فوقع الخلخال على الجَزْع فصوّت؛ فنزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها ؛ قاله الزجاج .

الثانية والعشرون — من فعل ذلك منهنّ فَرَحًا بحليهنّ فهو مكروه . ومن فعل ذلك منهنّ تبرّجا وتعرّضا للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك تعجّبا حَرُم، فإن العُجْب كبيرة . وإن فعل ذلك تبرّجا لم يجز .

الثالثة والعشرون — قال مكّىّ رحمه الله تعالى : ليس فى كتاب الله تعالى آيةٌ أكثرَ ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع .

قوله تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المؤمنون ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وتُوبُوا ﴾ أمرٌ . ولا خلاف بين الأئمة فى وجوب التوبة ، وأنها فرض متعيّن ؛ وقد مضى الكلام فيها فى « النساء »[3] وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير فى أداء حقوق الله تعالى، فلا تتركوا التوبة فى كل حال .

الثانيــة — قرأ الجمهور « أَيُّهَ » بفتح الهاء . وقرأ ابن عامر بضمها ؛ ووجهه أن تُجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادى فيها . وضعّف أبو علىّ ذلك جدّا وقال : آخر الأسم هو الياء الثانية من أى ، فالمضموم ينبغى أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاهنا لأقترانها بالكلمة لجاز ضم الميم فى « اللّهُمّ » لأقترانها بالكلمة فى كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصحة فى اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأنشد الفراء :

يأيّــه القلبُ اللَّجُــوجُ النّفس * أفق عن البيض الحسان اللعس

---

(١) البُرَة : الخلخال ، وكل حلقة من سوار وقرط . (٢) الجزع (بفتح الجيم) ضرب من الخرز .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠

اللَّعَس : لون الشَّفَة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك يستملح ؛ يقال : شَفَة لعساء، وفتية ونسوة لُعْس . وبعضهم يقف « أيُّهْ » . وبعضهم يقف «أيّها» بالألف؛ لأن علة حذفها فى الوصل إنما هو سكونها وسكون اللام، فإذا كان الوقف ذهبت العلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على « مُحِلِّى » من قوله تعالى : « غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ »(1) . وهذا الاختلاف الذى ذكرناه كذلك هو فى « يأيّه الساحر» . « يأيه الثقلان » .

قوله تعالى : وَأَنكِحُوا الْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل فى باب السّتر والصلاح ؛ أى زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفّف ؛ والخطاب للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأوّل ؛ إذ لو أراد الأزواجَ لقال «وآنكحوا» بغير همز، وكانت الألف للوصل . وفى هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تُنكح نفسها بغير وَلِىّ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا زوّجت الثيّبُ أو البكر نفسها بغير وَلِىّ كُفْئًا لها جاز . وقد مضى هذا فى « البقرة »(2) مستوفًى .

الثانيـــة — اختلف العلمـاء فى هـذا الأمر على ثلاثة أقوال؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم فى ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العَنت،ومن عدم صبره،ومن قوّته على الصبر وزوال خشـية العَنَت عنـه . وإذا خاف الهلاك فى الدِّين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حَتْمٌ . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعىّ: النكاح مباح،وقال مالك وأبوحنيفة: هو مستحب . تعلّق الشافعِىّ بأنه قضاء لذةٍ فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلّق علماؤنا بالحديث الصحيح : " من رَغِب عن سُنّتِى فليس منّى " .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَيَامَى مِنكُمْ ﴾ أى الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء؛ واحدهم أَيِّم . قال أبو عمرو : أيامى مقلوب أيايم . واتفق أهل اللغة على أن الأيِّم فى الأصل

(1) أوّل سورة المائدة . (2) راجع جـ ٣ ص ٧٢

هى المرأة التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيِّبا؛ حكى ذلك أبو عمرو والكسائى وغيرهما. تقول العرب: تأيَّمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج. وفى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم: "أنا وٱمرأةٌ سَفْعاء[1] الخدّين تأيّمت على ولدها الصّغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين فى الجنة".
وقال الشاعر:

فإن تَنْكِحى أَنْكِحْ وإن تَتَأَيَّمِى * وإن كنتُ أَفْتَى منكمُ أتأيَّمُ

ويقال: أَيِّم بيّن الأَيْمة. وقد آمَتْ هى، وإمْتُ أنا. قال الشاعر:

لقــد إمْتُ حتى لامَنِى كلّ صاحب * رجاءً بسَــلْمَى أن تَئِيمَ كما إمْتُ

قال أبو عبيد: يقال رجل أيِّم وٱمرأة أيِّم؛ وأكثر ما يكون ذلك فى النساء، وهو كالمستعار فى الرجال. وقال أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت:

لله دَرُّ بــنِى عَلِــىٍّ * أيِّم منهم وناكِح

وقال قوم: هــذه الآية ناسخة لحكم قوله تعــالى: «والزَّانِيــةُ لاينْكِحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ وحُرِّم ذلك على المؤمنين». وقد بيّناه فى أوّل السورة[2] والحمد لله.

الرابعــة — المقصود من قوله تعــالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» الحرائرُ والأحرار؛ ثم بيّن حكم الممــاليك فقال «والصّالِحِينَ مِنْ عبادِكم وإمائكم». وقرأ الحسن «والصالحين من عبيدكم»، وعَبيد اسم للجمع. قال الفراء: ويجوز «وإماءَكم» بالنصب، يردّه على «الصالحين» يعنى الذكور والإناث؛ والصلاح الإيمــان. وقيل: المعنى ينبغى أن تكون الرغبة فى تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب؛ كما قال «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا». ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يُعلم أن فى العبد خيرا، ولكن الخطاب ورد فى الترغيب والاستحباب، وإنمــا يُستحب كتابة من فيه خير.

الخامســة — أكثر العلماء على أن للسيّد أن يُكْرِه عبده وأَمَته على النكاح؛ وهو قول مالك وأبى حنيفــة وغيرهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضررا. وروى نحوه عن

(١) السفع: السواد والشحوب. أراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينــة والترفه حتى شحب لونها واسودّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها. (٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

الشافعيّ ، ثم قال : ليس للسيّد أن يكره العبد على النكاح . وقال النَّخَعِيّ : كانوا يكرهون المماليك على النكاح و يغلقون عليهم الأبواب . تمسّك أصحاب الشافعيّ فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح؛ لأن التكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدميّة ، و إنما تتعلق به المملوكية فيما كان حظًّا للسيد من مِلْك الرقبة والمنفعة ، بخلاف الأَمَة فإنه له حق المملوكية فى بُضْعها ليستوفيه؛ فأما بُضْع العبد فلا حقّ له فيه ، ولأجل ذلك لا تباح السيّدة لعبدها . هذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضا الطلاق ، فإنه يملكه العبد بتملّك عقده . ولعلمائنا النكتة العظمى فى أن مالكيّة العبد استغرقتها مالكية السيد؛ ولذلك لا يتزوّج إلا بإذنه بإجماع . والنكاح و بابُه إنما هو من المصالح، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد، هو يراها و يقيمها للعبد .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار؛ أى لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة؛ « إن يكونوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ من فَضْلِه » . وهذا وَعْدٌ بالغنى للمتزوجين طلب رضا الله وٱعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح؛ وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : عَجَبِي ممن لا يطلب الغنى فى النكاح، وقد قال الله تعالى « إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ الله من فضله » . وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة كلّهم حقٌّ على الله عونُه المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتَب يريد الأداء". أخرجه ٱبن ماجه فى سننه . فإن قيل : فقد نجد الناكح لا يستغنى؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هذا على الدوام ، بل لو كان فى لحظة واحدة لصدَق الوعد . وقد قيل : يغنيه ؛ أى يغنى النفس . وفى الصحيح " ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض[1] إنما الغنى غِنَى النفس" . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خُلْف؛ بل المعنى أن المال غادٍ ورائح ، فٱرجوا الغنى . وقيل : المعنى يغنهم الله من فضله إن شاء؛ كقوله تعالى :

---

(١) العرض (بالتحريك) : متاع الدنيا وحطامها

« فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »[1]، وقال تعالى : « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل : المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يُغْنِهِمُ الله بالحلال ليتعفّفوا عن الزنى .

السابعة — هذه الآية دليل على تزويج الفقير، ولا يقول كيف أتزوج وليس لى مال؛ فإن رزقه على الله . وقد زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم المرأة التى أتته تَهَب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد، وليس لها بعد ذلك فسخ النكاح بالإعسار لأنها دخلت عليه؛ وإنما يكون ذلك إذا دخلت على اليسار فخرج معسرا، أو طرأ الإعسار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه؛ قاله علماؤنا . وقال النقاش : هذه الآية حجة على من قال : إن القاضى يفرّق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة ؛ لأن الله تعالى قال « يُغْنِهِم الله » ولم يقل يفرّق . وهذا انتزاع ضعيف، وليس هذه الآية حكما فيمن عجز عن النفقة، وإنما هى وعد بالإغناء لمن تزوّج فقيرا . فأمّا من تزوّج موسرا وأعسر بالنفقة فإنه يفرّق بينهما ؛ قال الله تعالى : « وإنْ يَتَفَرّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلًّا مِن سَعَتِه »[2] . ونفحات الله تعالى مأمولة فى كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فيه أربع مسائل :

(١) آية ٤١ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة النساء .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا لمن زِمامه بيـد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ؛ كالمحجور — قولا واحدا — والأَمةِ والعبـد ؛ على أحد قولى العلماء .

الثانيـــة — « وآستعفف » وزنه اسـتفعل؛ ومعناه طلب أن يكون عفيفا ؛ فأمر الله تعالى بهذه الآية كلَّ من تعذّرعليه النكاح ولايجده بأىّ وجهٍ تعذّر أن يستعفف . ثم لمـا كان أغلب الموانع على النكاح عدم المـال وعد بالإغناء من فضله ؛ فيرزقه ما يتزوّج به ، أو يجـد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء . وروى النسائىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزّ وجل عونُهم المجاهدُ فى سبيل الله والناكح الذى يريد العفاف والمكاتب الذى يريد الأداء" .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أى طَوْل نكاح ؛ فحـذف المضاف . وقيــل : النكاح هاهنا ما تُنكح به المـرأة من المهر والنفقة ؛ كاللِّحاف آسم لمـا يُلتحف به . واللباس اسم لمـا يلبس ؛ فعلى هذا لا حذف فى الآية ، قاله جماعة من المفسرين ؛ وحملهم على هذا قوله تعالى : « حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ من فضله » فظنوا أن المأمور بالآستعفاف إنما هو من عدم المـال الذى يتزوّج به . وفى هذا القول تخصيص المأمورين بالآستعفاف ؛ وذلك ضعيف ، بل الأمر بالآستعفاف متوجّه لكل من تعذّر عليه النكاح بأىّ وجه تعـذّر ، كما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

الرابعـــة — من تاقت نفســه إلى النكاح فإن وجد الطَّوْل فالمستحبّ له أن يتزوّج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وِجَاء ؛ كما جاء فى الخبر الصحيح . ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلى لعبادة الله تعالى . وفى الخبر "خيركم الخفيف الحاذِ الذى لا أهل له ولا ولد" . وقد تقدّم جواز نكاح الإماء عند عدم الطّول للحرة فى « النساء »[1] والحمد لله . ولمـا لم يجعل الله له من العفّة والنكاح درجةً دلّ على أن ما عداهما

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٦ وما بعدها .

محرّم، ولا يدخل فيه ملك اليمين؛ لأنه بنصّ آخر مباح، وهو قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فجاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستمناء ردّا على أحمد[1]. وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه، وقد تقدّم هذا فى «المؤمنين»[1].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فيه ست عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ «الذين» فى موضع رفع. وعند الخليل وسيبويه فى موضع نصب على إضمار فعل؛ لأن بعده أمرًا. ولما جرى ذكر العبيد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فربّما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوّج إذا أراد، فيكون أعفّ له. قيل: نزلت فى غلام لحُوَيْطب ابن عبد العُزّى يقال له صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكاتبه حُوَيطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأدّاها، وقتل بحُنَيْن فى الحرب؛ ذكره القُشَيْرىّ وحكاه النقاش. وقال مَكّىّ: هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بَلْتَعَة. وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يكاتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيّده منه خيرا.

الثانيــة — الكتاب والمكاتبة سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، لأنها معاقدة بين السيّد وعبده؛ يقال: كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة، كما يقال: قاتل قتالا ومقاتلة. فالكتاب فى الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذى يكتب فيه الشىء؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا. فالمعنى يطلبون العتق الذى يُكتب به الكتاب فيدفع إليهم.

الثالثــة — معنى المكاتبة فى الشرع: هو أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤدّيه منجّما عليه؛ فإذا أدّاه فهو حُرّ. ولها حالتان: الأولى — أن يطلبها العبد ويجيبه السيّد؛ فهذا

(١) راجع ص ١٠٥ وما بعدها من هذا الجزء.

مطلق الآية وظاهرها . الثانيــة — أن يطلبها العبد و يأباها الســيد؛ وفيها قولان : الأوّل لعكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دِينار والضحاك بن مُزاحم و جماعة أهل الظاهر أن ذلك واجب على السيد . وقال علماء الأمصار : لا يجب ذلك . وتعلّق من أوجبها بمطلق الأمر، وأفعل بمطلقه على الوجوب حتى يأتى الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمــر بن الخطاب وابن عباس، واختاره الطبرى . واحتج داود أيضا بأن سِيرِين أبا محمد بن سِيرِين سأل أنس بن مالك الكتابة وهو مولاه فأبى أنس؛ فرفع عمر عليه الدِّرة، وتلا « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »، فكاتبــه أنس . قال داود : وما كان عمــر ليرفع الدّرة على أنس فيما له مبــاح ألا يفعله . وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر عليــه و إن ضوعف له فى الثمن . وكذلك لو قال له أعتقنى أو دَبِّرْنى أو زوّجنى لم يلزمه ذلك بإجماع ، فكذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراضٍ . وقولهم : مطلق الأمر يقتضى الوجوب صحيح، لكن إذا عَرِى عن قرينة تقتضى صرفه عن الوجوب، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه؛ فعلّق الوجوب على أمر باطن وهو علم السّيد بالخيريّة . و إذا قال العبد : كاتبنى؛ وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن ، فيرجع فيه إليه و يعوّل عليه . وهذا قوىّ فى بابه .

الرابعــة — واختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ خَيْراً ﴾ فقال ابن عباس وعطاء : المــال . مجاهد : المــال والأداء . الحسن والنَّخَعِىّ : الدِّين والأمانة . وقال مالك : سمعت بعض أهل العــلم يقولون هو القوّة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه ، وهو قول الشافعىّ . وقال عَبيدة السَّلْمانِىّ : إقامة الصلاة والخير[1] . قال الطحاوى : وقول من قال إنه المــال لا يصح عندنا ؛ لأن العبــد مالٌ لمولاه ، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إنْ علمتم فيهم الدِّين والصدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق فى المعاملة فكاتبوهم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المــال أنكر أن يقال إن علمتم فيهم مالا ، و إنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ؛ ولا يقال : علمت فيه المــال ، و إنما يقال علمت عنده المــال .

(١) لعل كلمة « والخير » مقحمة .

قلت : وحديث بَرِيرة يردّ قول من قال : إن الخير المالُ ؛ على ما يأتى .

الخامســة — اختلف العلماء فى كتابة من لا حِرْفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حِرْفة ، ويقـول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس ؛ ونحوه عن سَلْمان الفارسى . وروى حَكِيم بن حِزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد : أما بعد ! فإنه مَن قِبَلك من المسلمين أن يكاتبوا أرقّاءهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعِىّ وأحمد وإسحاق . ورخّص فى ذلك مالك وأبو حنيفـة والشافعىّ . وروى عن علىّ رضى الله عنـه أن ابن التَّيّاح مؤذّنَه قال له : أكاتَب وليس لى مال ؟ قال نعم ؛ ثم حض الناسَ على الصدقة علىّ ؛ فأعطَونى ما فضل عن مكاتبتى ، فأتيت عليًّا فقال : اجعلها فى الرّقاب . وقد روى عن مالك كراهة ذلك ، وأن الأَمَة التى لا حِرفة لها يكره مكاتبتها لمـا يؤدّى إليه من فسادها . والحجة فى السنة لا فيما خالفها . روى الأئمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلتْ علىَّ بَرِيرة فقالت : إنّ أهلى كاتبونى على تسـع أواق فى تسع سنين ، كلّ سنة أوقيّة ، فأعِينِينى ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكاتب عبـده وهو لا شىء معه ؛ ألا ترى أن بَرِيرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها ، وذلك كان فى أوّل كتابتها قبل أن تؤدّى منهـا شيئا ؛ كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أنّ عائشة أخبرته أن بريرة جاءت تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ أخرجه البخارى وأبو داود . وفى هــذا دليل على جواز كتابة الأَمَة ، وهى غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبىّ صلى الله عليه وسـلم هل لها كسب أو عمل واصب[1] أو مال ، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه بُعث مبيّناً معلّما صلى الله عليه وسلم . وفى هذا الحديث ما يدل على أن من تأوّل فى قوله تعالى : « إن علمتم فيهـم خيرا » أن المـال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوّة على الاكتساب مع الأمانة . والله أعلم .

السادســة — الكتابة تكون بقليل المـال وكثيره ، وتكون على أَنْجُم ؛ لحديث بَرِيرة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء والحمد لله . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلا نُجّمت

(١) وصب الشىء : دام .

عليه بقدر سعايته و إن كره السيّد . قال الشافعيّ : لا بُدّ فيها من أجل؛ وأقلها ثلاثة أنجم .
واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد فأكثر أهل العلم يجيزونها على نجم واحد . وقال الشافعيّ :
لا تجوز على نجم واحد ، ولا تجوز حالّةً أَلْبَتَّةَ ، وإنما ذلك عتق على صفة ؛ كأنه قال : إذا
أدّيتَ كذا وكذا فأنت حر وليست كتابة . قال ابن العربيّ : اختلف العلماء والسّلف في الكتابة
إذا كانت حالّة على قولين ، واختلف قول علمائنا كاختلافهم . والصحيح في النظر أن الكتابة
مؤجّلة ؛ كما ورد بها الأثر في حديث بَرِيرة حين كاتبت أهلها على تسع أواق في كل عام أُوقِيّة ،
وكما فعلت الصحابة ؛ ولذلك سُمّيت كتابة لأنها تُكتَب ويُشهد عليها ، فقد استوسق[1] الاسم
والأثر ، وعَضَده المعنى ؛ فإن المال إن جعله حالًّا وكان عند العبد شيء فهو مال مقاطعة
وعقد مقاطعة لا عقد كتابة . وقال ابن خُوَيْز مَنْداد : إذا كاتبه على مال معجّل كان عتقا
على مال ، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالّة وسماها قِطاعة ، وهو القياس ؛
لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد في التكسّب . ألا ترى أنه لو جاء بالمنجّم عليه قبل مَحِلّه
لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجّل للمكاتَب عتقَه . وتجوز الكتابة الحالّة ؛ قاله الكوفيون .

قلت : لم يرد عن مالك نصّ في الكتابة الحالّة ؛ والأصحاب يقولون : إنها جائزة ،
ويسمّونها قِطاعة . وأما قول الشافعي إنها لا تجوز على أقل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح ؛
لأنه لو كان صحيحا لجاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم ؛ لأنها أقلّ النجوم
التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَرِيرة ، وعلِم بها النبيّ صلى الله عليه وسلم
وقضى فيها ، فكان بصواب الحجة أَوْلى . روى البخاري عن عائشة أن بَرِيرة دخلت عليها
تستعينها في كتابتها وعليها خمسة أواق نُجّمت عليها في خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث
عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : وعليها خمسة أواق نجمت عليها في خمس
سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت :
جاءت بَرِيرة فقالت : إني كاتبت أهلي على تسع أواق ... الحديث . وظاهر الروايتين

(١) استوسق : اجتمع .

تعارض، غير أن حديث هشام أولى لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخارى : وقال الليث حدثنى يونس؛ ولأن هشاما أثبت فى حديث أبيه وجده من غيره، والله أعلم .

السابعــة — المكاتَب عبدٌ ما بقى عليه من مال الكتابة شىء؛ لقوله عليــه السلام : "المكاتب عبد ما بقى عليــه من مكاتبته درهم" . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وروى عنه أيضا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيُّما عبدٍ كاتب على مائة دينار فأدّاها إلا عشرة دنانير فهو عبد" . وهذا قول مالك والشافعى وأبى حنيفة وأصحابهم والثورىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور وداود والطبرى . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشــة وأم سلمة، لم يُختلف عنهم فى ذلك رضى الله عنهم . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وبه قال ابن المسيّب والقاسم وسالم وعطاء . قال مالك : وكل من أدركنا ببلدنا يقول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علىّ أنه إذا أدّى الشّطر فهو غريم؛ وبه قال النَّخَعِىّ . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه، والإسناد عنه بأن المكاتَب عبد ما بقى عليه درهم، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتَب إذا أدَّى الشطر فلا رِقّ عليه؛ قاله أبو عمر . وعن علىّ أيضا يعتق منه بقدر ما أدَّى . وعنه أيضا أن العَتاقة تجرى فيــه بأول نَجْم يؤدّيه . وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو عتيق غريم؛ وهــذا قول شريح . وعن ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائتى دينار وقيمة العبد مائة دينار فأدّى العبدُ المــائة التى هى قيمته عتق؛ وهو قول النَّخَعِىّ أيضا . وقول سابع — إذا أدّى الثلاثة الأرباع وبقى الربع فهو غريم ولا يعود عبدا؛ قاله عطاء بن أبى رَباح، رواه ابن جريج عنه . وحكى عن بعض السلف أنه بنفس عقد الكتابة حرّ،وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبدا . وهذا القول يردّه حديث بَرِيرة لصحته عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم . وفيــه دليل واضح على أن المكاتَب عبد، ولولا ذلك ما بِيعت بَرِيرة، ولو كان فيها شىء من العتق ما أجاز بيعَ ذلك؛ إذ من سنّته المجمع عليها ألا يبــاع الحرّ . وكذلك كتابة سَلْمان وجُوَيْرِيَة؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم حكم لجميعهم بالرق حتى أدّوا الكتابة . وهى حجــة للجمهور فى أن المكاتَب عبد ما بقى

عليه شيء . وقد ناظر عليّ بن أبي طالب زيدُ بن ثابت في المكاتب ؛ فقال لعليّ : أكنت راجمه لو زنى ، أو مجيزا شهادته لو شهد ؟ فقال عليّ لا . فقال زيد : هو عبد ما بقي عليه شيء . وقد روى النَّسائيّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المكاتَب يعَتق منه بقدر ما أدّى ويقام عليه الحدّ بقدر ما أدّى ويرث بقدر ما عَتق منه " . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن عليّ ، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نَبْهان مكاتَب أمّ سلمة قال سمعت أمّ سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان لإحداكنّ مكاتب وكان عنده ما يؤدّى فلتحتجب منه " . وأخرجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . إلا أنه يحتمل أن يكون خطابا مع زوجاته ، أخذًا بالاحتياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسَوْدة : " احتجبي منه " مع أنه قد حكم بأخوتها له ، وبقوله لعائشة وحفصة : " أفعَمْيَاوَان أنتما ألستما تُبصرانه " يعني ابن أمّ مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : " اعتدّي عند ابن أم مكتوم " وقد تقدم هذا المعنى .

الثامنــة ــ أجمع العلماء على أن المكاتَب إذا حلّ عليه نَجْم من نجومه أو نجمان أو نجومُه كلُّها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنفسخ ما داما على ذلك ثابتَيْن .

التاســعة ــ قال مالك : ليس للعبد أن يُعجز نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعيّ : لا يمكَّن من تعجيز نفسه إذا كان قويًّا على الأداء . وقال الشافعيّ : له أن يُعجز نفسه ، عُلِم له مال أو قوّةٌ على الكتابة أو لم يُعلم ؛ فإذا قال : قد عَجَزت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا عَجَز المكاتَب فكلّ ما قبضه منه سيّده قبل العجز حلّ له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أُعين به على فَكاك رقبته فلم يَفِ ذلك بكتابته كان لكل من أعانه الرجوع بما أَعْطَى أو تحلّل منه المكاتَب . ولو أعانوه صدقة لا على فَكاك رقبته فذلك إن عجز حلّ لسيّده ولو تمّ به فكاكه وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى الفَكاك ردّها إليهم بالحصص أو يحلّلونه منها . هذا كله مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فَضَل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيده ، يطيب له أخذ ذلك كله . هذا قول الشافعيّ وأبى حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية عن شريح . وقال الثَّوْرِيّ : يجعل السيد ما أعطاه فى الرقاب ؛ وهو قول مسروق والنَّخَعِيّ ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضَل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ؛ وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إسحاق : ما أُعطى بحال الكتابة ردّ على أربابه .

العاشرة — حديث بَرِيرة على ٱختلاف طرقه وألفاظه يتضمّن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابةٍ تقدّمت . واختلف الناس فى بيع المكاتَب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاريّ (باب بيع المكاتب إذا رضى) . وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضى المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا — ذهب ابن المنذر والدّاوُدِيّ ، وهو الذى ٱرتضاه أبو عمر بن عبد البر ، وبه قال ابن شهاب وأبو الزّناد وربيعة ؛ غير أنهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتَب ما دام مكاتبا حتى يعجِز ، ولا يجوز بيع كتابته بحال ؛ وهو قول الشافعيّ بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائزة . وأجاز مالك بيع الكتابة ؛ فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقا لمشترى الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة ؛ لأنه بيع غَرَر . واختلف قول الشافعيّ فى ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتَب على أن يمضى فى كتابته ؛ فإن أدّى عَتق وكان وَلاؤه للذى ٱبتاعه ، ولو عَجَز فهو عبد له . وبه قال النَّخَعِيّ وعطاء واللّيث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعِيّ : لا يباع المكاتب إلا للعتق ، ويُكره أن يباع قبل عجزه ؛ وهو قول أحمد وإسحاق . قال أبو عمر : فى حديث بَرِيرة إجازةُ بيع المكاتب إذا رضى بالبيع ولم يكن عاجزا عن أداء نَجْم قد حلّ عليه ؛ بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز ؛ لأن بَرِيرة لم تذكر أنها عَجَزت عن أداء نجم ، ولا أخبرت بأن النجم قد حلّ عليها ، ولا قال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم أعاجزة أنت أم هل حلّ عليك نجم . ولو لم يجز بيع المكاتب والمكاتبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلّ لكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجزة هى أم لا ، وما كان ليأذن

فى شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسـلم أنها عاجزة ولو عن أداء نجم واحد قد حل عليها .
وفى حديث الزُّهْرِىّ أنهـا لم تكن قضت من كتابتها شيئا . ولا أعلم فى هـذا الباب حجّة أصحّ
من حديث بَريرة هذا ، ولم يُرْوَ عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم شىء يعارضه، ولا فى شىء من
الأخبار دليل على عجزها . استدلّ من منع من بيع المكاتَب بأمور : منها أن قالوا إن الكتّابة
المذكورة لم تكن ٱنعقدت ، وأن قولها كاتبت أهلى معناه أنها راوضتهم عليها، وقدّروا مبلغها
وأجلها ولم يعقدوها . وظاهر الأحاديث خلافُ هـذا إذ تُؤُمِّل مساقها . وقيل : إن بريرة
عجزت عن الأداء فاتفقت هى وأهلها على فسخ الكتّابة، وحينئذ صح البيع ؛ إلا أن هذا إنما
يتمشّى على قول من يقول : إن تعجيز المكاتب غير مفتقر إلى حكم حاكم إذا ٱتفق العبد والسيد
عليه؛ لأن الحق لا يعدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال سُحْنُون : لا بدّ من السلطان ؛
وهذا إنما خاف أن يتواطآا على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما روى أن
بَريرة جاءت عائشـة تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شـيئا؛ فقالت لها عائشة :
ارجعى إلى أهلك فإن أحبّـوا أن أقضى عنك كتابتك فعلت . فظاهر هـذا أن جميع كتابتها
أو بعضها ٱستحقّ عليها؛ لأنه لا يُقْضَى من الحقـوق إلا ما وجبت المطالبة به، والله أعلم .
هذه التأويلات أشبه ما لهم وفيها من الدّخَل ما بيّناه . وقال ابن المنـذر : ولا أعلم حجة لمن
قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عَجَزت . قال الشافعىّ : وأظهر معانيه أن
لمـالك المكاتَب بيْعَه .

الحادية عشرة — المكاتب إذا أدّى كتابته عتَق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيّد .
وكذلك ولده الذين وُلدوا فى كتابته من أمَته ، يَعْتِقون بعتقه ويَرِقّون برقّه ؛ لأن ولد الإنسان
من أمَته بمثابته اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتَبة ، فإن كان لهما ولد قبـل الكتّابة لم يدخل
فى الكتّابة إلا بشرط .

الثانية عشرة — ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾ هـذا أمر للسّادة بإعانتهم فى مال
الكتّابة، إما بأن يعطوهم شيئا مما فى أيديهم — أعنى أيدى السادة — أو يحطّوا عنهم شيئا

من مال الكتابة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن علىّ رضى الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة . قال الزهراوىّ : روى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبى الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جُبير : يسقط عنه شيئا ، ولم يحدّه ؛ وهو قول الشافعى ، واستحسنه الثورى . قال الشافعى : والشىء أقلّ شىء يقع عليه اسم شىء ، ويجبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم ير لقدر الوضيعة حدّا . احتج الشافعىّ بمطلق الأمر فى قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم فى القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبَى » وما كان مثله . قال ابن العربى : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضى ، جعل الشافعىّ الإيتاء واجبا ، والكتابة غير واجبة ؛ فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انعقد وجبت أحكامه ، منها المتعة . قلنا : عندنا لاتجب المتعة فلا معنى لأصحاب الشافعىّ . وقد كاتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألّا يحطّه... ، فى حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والنّخَعِىّ وبُريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين فى أن يتصدقوا على المكاتَبين ، وأن يعينوهم فى فَكاك رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتَبين من مال الصدقة حظّهم ؛ وهو الذى تضمّنه قوله تعالى « وفى الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا عن مكاتبه . ودليل هذا أنه لو أراد حطّ شىء من نجوم الكتابة لقال وضَعُوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة — إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أوّل نجومه ، مبادرةً إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلّة ذلك أنه إذا وضع من أوّل نجم ربّما عجز العبد

فرجع هو وماله إلى السيد ، فعادت إليه وَضيعته وهى شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمر وعلىّ . وقال مجاهد : يترك له من كل نجم . قال ابن العربى : والأقوى عندى أن يكون فى آخرها ؛ لأن الإسقاط أبدا إنما يكون فى أخريات الديون .

الرابعة عشرة — المكاتب إذا بيع للعتق رضًا منه بعد الكتابة وقبض بائعه ثمنـه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئا ، سواء باعه لعتق أو لغير عتق ، وليس ذلك كالسيد يؤدّى إليـه مكاتب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نجما أو ما شاء؛ على ما أمر الله به فى كتابه ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسـلم لم يأمر موالى بَرِيرة بإعطائها ممـا قبضوا شيئا ، وإن كانوا قد باعوها للعتق .

الخامسة عشرة — اختلفوا فى صـفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : صفتها أن يقول السيد لعبده كاتبتك على كذا وكذا من المـال ، فى كذا وكذا نجما ، إذا أدّيته فأنت حر . أو يقول له أدّ إلىّ ألفا فى عشرة أنجم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ فمتى أداها عَتق . وكذلك لو قال العبد كاتبنى ، فقال السـيد قد فعلت ، أو قد كاتبتك . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره فحسن ، وإن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومسائل هـذا الباب وفروعه كثيرة ، وقـد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة — فى ميراث المكاتب ؛ واختلف العلمـاء فى ذلك على ثلاثة أقوال : فمذهب مالك أن المكاتب إذا هلك وترك ما لا أكثر ممـا بقى عليـه من كتابته وله ولد ولدوا فى كتابته أو كاتب عليهم ، ورثوا ما بقى من المـال بعد قضاء كتابتـه ؛ لأن حكمهم كحكمـه ، وعليهـم السعى فيما بقى من كتابتـه لو لم يخلف مالا ، ولا يعتقون إلا بعتقه ، ولو أدّى عنهـم ما رجع بذلك عليهم؛ لأنهم يعتقون عليه ؛ فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له فى جميع حاله .

والقول الثانى — أنه يؤدّى عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حرا ، ويرثه جميع ولده ، وسـواء فى ذلك من كان حرًّا قبـل موته من ولده ومن كاتب عليهـم أو ولدوا

فى كتابته؛ لأنهم قد استووا فى الحرية كلهم حين تأدت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن علىّ وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس و إبراهيم، و به قال فقهاء الكوفة سفيان الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حَىّ، و إليه ذهب إسحاق .

والقول الثالث — أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدّى جميع كتابته فقد مات عبدا، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيده، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرار ولا الذين معه فى كتابته؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدى جميع كتابته فقد مات عبدا وماله لسيده، فلا يصح عتقه بعد موته؛ لأنه محال أن يَعتِق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا فى كتابته أن يسعَوْا فى باقى الكتابة، ويسقط عنهم منها قدر حصته، فإن أدّوا عَتَقوا لأنهم كانوا فيها تَبَعًا لأبيهم، و إن لم يؤدوا ذلك رَقُّوا . هذا قول الشافعى، و به قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضى الله عنهم أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أُبَىّ، وكانت له جاريتان إحداهما تسمى مُعاذة والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرههما على الزنى و يضربهما عليه ٱبتغاء الأجر وكسب الولد؛ فشكتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومعاذة هذه أمّ خولة التى جادلت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى زوجها . وفى صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبَىّ يقال لها مُسَيكة وأخرى يقال لها أُمَيمة فكان يُكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل « ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البِغاء — إلى قوله — غفور رحيم » .

قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجع إلى الفَتَيات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصّن فحينئذ يمكن ويتصوّر أن يكون السيد مكرها، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . و إذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهى مريدة للزنى . فهذا أمر فى سادة وفتيات حالُهم هذه . و إلى هذا المعنى أشار ابن العربى

فقال : إنمـا ذكر الله تعـالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذى يصوّر الإكراه ؛ فأما إذا كانت هى راغبة فى الزنى لم يتصوّر إكراه ، فحصِّلُوه . وذهب هذا النظرُ عن كثير من المفسريــن ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصُّنًا » راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصنا . وقال بعضهم : هــذا الشرط فى قوله : « إن أردن » مُلْغًى، ونحو ذلك ممـا يَضْعُف . والله الموفق .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشيء الذى تَكْسِبه الأَمَة بفرجها، والولد يُســترقّ فيباع . وقيل : كان الزانى يفتدى ولده من المزنىّ بها بمائة من الإبل يدفعها إلى ســـيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ ﴾ أى يقهرهن . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لهن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهن . وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير « لهن غفور » بزيادة لهن . وقد مضى الكلام فى الإكراه فى « النحل »(1) والحمد لله . ثم عدّد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيها ضرب لهم من أمثال المـاضين من الأمم ليقع التحفظ ممـا وقع أولئك فيه .

قوله تعـالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها .

النور فى كلام العرب : الأضـواء المدركة بالبصر . وآستعمل مجـازا فيما صح من المعانى ولاح ؛ فيقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر :

نسب كأن عليـه من شمس الضحا * نورا ومن فـلق الصباح عمـودا

والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس العصر وقمره . قال :

* فإنك شمس والمـلوك كواكبٌ (١) *

وقال آخـر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد * قمـرَ القبائل خالدَ بن يزيد

وقال آخـر :

إذا سـار عبد الله من مَرْوَ ليلةً * فقد سـار منها نورها وجمالهـا

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء، ونورُ جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرا . وقـد قال هشام الجوالقى وطـائفة من المُجَسِّمة : هـو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام . وهـذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقـلا على ما يعرف فى موضعه من علم الكلام . ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليـه بحقيقة ذلك ، وقـولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفىٌ لمـا أثبتوه من الجسميّة والنور؛ وذلك متناقض، وتحقيقه فى علم الكلام . والذى أوقعهم فى ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجّد : "اللّهُمّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض". وقال عليه السلام وقد سئل : هل رأيت ربّك ؟ فقال "رأيت نورا" . إلى غير ذلك من الأحاديث .

وآختلف العلماء فى تأويل هذه الآية؛ فقيل : المعنى أى به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها . فالكلام على التقريب للذهن؛ كما يقال : الملِك نور أهل البلد؛ أى به قِوام أمرها وصلاحُ جملتها؛ لجَرَيان أموره على سنن السّداد . فهو فى الملِك

(١) هذا صدر بيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها النعمان . وعجزه :

* اذا طلعت لم يبد منهن كوكب *

مجـاز ، وهو فى صـفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نورًا هاديا ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضّوْء ظهور المبصَرات ، تبـارك الله تعالى لا ربّ غيره . قال معناه مجـاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن عرفة : أى منوّر السموات والأرض . وكذا قال الضحاك والقُرَظى . كما يقولون : فلان غياثنـا ؛ أى مغيثنا . وفلان زادى ؛ أى مزوّدى . قال جرير :

وأنت لنـا نور وغَيْث وعِصْمة * ونبْتٌ لمن يرجو نَـداك ورِيقُ

أى ذو وَرَق . وقال مجاهد : مدبّر الأمور فى السموات والأرض . أُبَيّ بن كعب والحسن وأبو العالِيَة : مزيّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزيّنُ الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادى أهـل السموات والأرض . والأول أعمّ للعانى وأصح مع التأويل .

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفة دلائله التى يقذفها فى قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نورا . وقد سمّى الله تعالى كتابه نُورًا فقال : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا »[(١)] وسمى نبيّه نورا فقال : « قد جاءكم مِن اللهِ نُورٌ وكتابٌ مبين »[(٢)] . وهذا لأن الكتاب يهدى ويبيّن ، وكذلك الرســول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيّنها وواضعها . وتحتملُ الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من المَثّل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك أن يريد مَثَل نور الله الذى هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أنتم على هذه الصفة ، التى هى أبلغ صفات النور الذى بين أيدى النـاس ؛ فمثل نور الله فى الوضوح كهذا الذى هو منتهاكم أيهـا البشر . والمِشْكاة : الكَوّة فى الحائط غير النـافذة ؛ قاله ابن جبير وجمهور المفسرين ، وهى أجمـع للضوء ، والمصباحُ فيها أكثر إنارة منه فى غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشىء . والمشكاة وعاء من أَدَم كالدَّلْو يبرّد فيها المـاء ؛ وهو على وزن مِفعلة كالمِقراة[(٣)] والمِصْفاة . قال الشاعر :

---

(١) آية ١٧٤ سورة النساء. (٢) آية ١٥ سورة المـائدة. (٣) المقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها .

كأن عَيْنيه مِشكاتان فى حجر * قِيضا اقتياضا بأطراف المناقير (١)

وقيل : المِشْكاة عمود القِنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . وقال « فى زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه فى غير الزجاج . والمصباح : الفتيل بناره . ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أى فى الإنارة والضوء . وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها فى نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك . وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور . قال الضحاك : الكوكب الدُّرِّى هو الزُّهَرة .

قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى من زيت شجرة ، فحذف المضاف . والمباركة المُنَمَّاة ، والزيتون من أعظم الثمار نَماء ، والرمان كذلك . والمعسان يقتضى ذلك (٢) . وقول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس :

ليتَ شِعْرِى مسافرَ بن أبى عمـ * ـرو وليتٌ يقولها المحزونُ

بورِكَ الميْت الغريب كما بُو * رِك نبعُ الرمان والزيتونُ

وقيل : من بركتهما أن أغصانهما تُورق من أسفلها الى أعلاها . وقال ابن عباس : فى الزيتونة منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودِهان ودباغ ، ووَقود يوقد بحطبه وتُفْله ، وليس فيه شىء إلا وفيه منفعة ، حتى الرَّماد يغسل به الإِبْرَيسَم (٣) . وهى أول شجرة نبتت فى الدنيا ، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنبت فى منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة ؛ منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : " اللَّهُمَّ بارك فى الزيت والزيتون " . قاله مرتين .

قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ اختلف العلماء فى قوله تعالى « لا شَرقيّةٍ ولا غَرْبِيةٍ » فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شَرَقت

(١) ورد هذا البيت برواية اخرى فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى وقد نسبه لأبى زبيد . والرواية فيه .

كأنّ عينيه فى وَقْبَين من حجر * قيضا ... ... الخ

والوَقْب : نقرة فى الصخرة يجتمع فيها الماء . وقيضا : شقتا . والمناقير : واحده منقار ، وهى حديدة كالفأس ينقر بها الحجر وغيره . (٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى بعض نسخ الأصل وفى بعضها : «والمعنيان يقتضى» ولعلها « والمعنى يقتضى » . (٣) الإبريسم : معرّب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو الحرير .

ولا تصيبها إذا غَرَبت؛ لأن لهـا سترا . والغربيّة عكسها؛ أى أنها شجرة فى صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزَيْتها ، فليست خالصة للشرق فتسمَّى شرقية ولا للغرب فتسمَّى غربيّـة، بل هى شرقية غربية . وقال الطبرى عن ابن عباس : إنها شجرة فى دَوْحة قد أحاطت بها؛ فهى غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس؛ لأن الثمرة التى بهـذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد فى الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت فى الدنيا لكانت إمّا شرقية وإمّا غربية . الثعلبيّ: وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيـا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشأم؛ فإن شجر الشأم لا شرقىّ ولا غربىّ ، وشجر الشأم هو أفضل الشجر، وهى الأرض المباركة . و« شرقيةٍ » نعت لـ « زيتونةٍ » و« لا » ليست تحول بين النعت والمنعوت، «ولا غربية» عطف عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة فى حسنه وصفائه وجودته . ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ أى اجتمع فى المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هـذه الأنوار فى المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهى برهان بعد برهان، وتنبيه بعـد تنبيه؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله للعباد فى ضرب الأمثال لتقع لهم العـبرة والنظر المؤدى إلى الإيمـان . وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبى ربيعة وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ « اللهُ نَوّر » بفتح النون والواو المشدّدة . واختلف المتأوّلون فى عود الضمير فى « نوره » على من يعود؛ فقال كعب الأحبار وابن جُبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى مَثَل نور محمد صـلى الله عليه وسـلم . قال ابن الأنبارِىّ : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن، ثم تبتدئ « مَثَـلُ نورِه كمشكاةٍ فيها مِصبَاحٌ » على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أُبَىّ بن كعب وابن جبير

أيضا والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفى قراءة أُبَىّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن فى قراءته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكّىّ : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » . قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل؛ فعلى من قال : الممثّل به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول كَعْب الحِبْر[1]؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوّة وما يتصل بها من عمله[2] وهداه، والزجاجة قلبـه، والشجرة المباركة هى الوحى، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التى تضمّنها الوَحْى . ومن قال : الممثّل به المؤمن، وهو قول أُبَىّ؛ فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمـان والعلم، والزجاجة قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التى تضمّنها . قال أُبَىّ : فهو على أحسن الحـال يمشى فى الناس كالرجل الحىّ يمشى فى قبور الأموات . ومن قال : إن الممثّل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذى هو الإيمـان فى صدر المؤمن فى قلبه كمشكاة؛ أى كهذه الجملة . وهذا القول ليس فى مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير فى «نوره» عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبىّ والمـاوَرْدِىّ والمهدِوىّ، وقد تقدّم معناه . ولا يوقف على هذا القول على «الأرض» . قال المهدِوىّ : الهاء لله عزّ وجل؛ والتقدير : الله هادى أهل السموات والأرض، مَثَل هداه فى قلوب المؤمنين كمِشْكاة؛ وروى ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسـلم، والحسن : إن الهاء لله عزّ وجل . وكان أُبَىّ وابن مسعود يقرأانها «مثلُ نُوره فى قلب المؤمن كمشكاة» . قال محمد بن على الترمذى : فأما غيرهما فلم يقرأها فى التنزيل هكذا، وقد وافقهما فى التأويل أن ذلك نوره فى قلب المؤمن، وتصديقه فى آية أخرى يقول « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ[3] » . واْعتلّ الأوّلون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الهـاء لله عزّ وجل؛ لأن الله عزّ وجل لا حدّ

---

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : العالم ذميا كان أو مسلما . وكعب الحـبر (بالكسر) : منسوب الى الحبر الذى يكتب به ؛ لأنه صاحب كتب . (٢) فى ابن عطية : «من علمه» . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

لنوره . وأمال الكسائى فيما روى عنه أبو عمر الدُّورِى الألف من «مشكاة» وكسر الكاف التى قبلها . وقرأ نصر بن عاصم « زَجاجة » بفتح الزاى و « الزَّجاجة » كذلك، وهى لغــة . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم « درّىّ » بضم الدال وشد الياء ؛ ولهذه القراءة وجهان : إمّا أن ينسب الكوكب إلى الدُّرّ لبياضه وصــفائه ؛ وإمّا أن يكون أصــله دُرِّىء مهموز ، فُعِّيل من الدَّرء وهو الدفع، وخُفّفت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التى لا تعرف أسماؤها : الدَّرارى، بغير همز؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزة، والأصــل من الدَّرء الذى هو الدفع . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «دُرّىء» بالهمز والمد، وهو فُعِّيل من الدَّرء؛ بمعنى أنها يدفع بعضُها بعضا . وقرأ الكسائى وأبو عمرو « دِرّىء » بكسر الدال والهمز من الدرء والدفع ؛ مثـل السِّكّير والفِسِّيق . قال سيبويه : أى يدفع بعض ضوئه بعضا من لمعانه . قال النحاس : وضعّف أبو عبيد قراءة أبى عمرو والكسائى تضعيفا شديدا ؛ لأنه تأوّلها من درأت أى دفعتُ؛ أى كوكب يجرى من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن فى الكلام فائدة، ولا كان لهذا الكوكب مزية على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءنى إنسان من بنى آدم . ولا ينبغى أن يتأوّل لمثل أبى عمرو والكسائى مع علمهما وجلالتهما هــذا التأويل البعيد ؛ ولكن التأويل لها على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناهما فى ذلك : كوكب مندفع بالنور؛ كما يقال : اندرأ الحريق أى اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا آمتد ضــوءه وعلا . وقال الجوهرى فى الصّحاح : ودرأ علينا فلان يدرأ دروءًا أى طلع مفاجأة . ومنه كوكب دِرّىء، على فِعّيل؛ مثل سِكّير وخِمير؛ لشدّة توقده وتلألئه . وقد درأ الكوكب دروءا . قال أبو عمرو بن العلاء: سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عِرْق فقلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمُّونه؟ قال : الدِّرّىء، وكان من أفصح الناس . قال النحاس : فأما قــراءة حمزة فأهل اللغة جميعا قالوا : هى لحن لا تجوز ؛ لأنه ليس فى كلام العرب آسم على فُعِّيل . وقد اعترض أبو عبيد فى هذا فاحتج لحمزة فقال : ليس هو فُعِّيل وإنما هو فُعُّول، مثل سبوح، أبدل من الواو ياء؛ كما قالوا : عُتِىّ . قال أبو جعــفر النحاس : وهــذا الآعتراض والآحتجاج من أعظم الغلط

وأشدّه؛ لأن هذا لا يجوز ألْبَتَّة، ولو جاز ما قال لقيل فى سُبّوح سُبّيح، وهذا لا يقوله أحد، وليس عُتِيّ من هذا، والفرق بينهما واضح بيّن؛لأنه ليس يخلو عُتِيّ من إحدى جهتين: إما أن يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازما، لأن الجمع باب تغيير، والواو لا تكون طرفا فى الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز حصين أبدل من الضمة كسرة فقلبت الواو ياء. وإن كان عُتِيّ واحدا كان بالواو أَوْلى، وجاز قلبها لأنها طرف، والواو فى فُعول ليست طرفا فلا يجوز قلبها. قال الجوهرى: قال أبو عبيد إن ضممت الدال قلت دُرِّيّ، يكون منسوبا إلى الدر، على فُعْلِيّ ولم تهمزه لأنه ليس فى كلام العرب فُعّيل. ومن همزه من القراء فإنما أراد فُعُّولا مثل سُبّوح فاستثقل فردّ بعضه إلى الكسر. وحكى الأخفش عن بعضهم «دَرِّىء» من درأته، وهمزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحة الأول. قال: وذلك من تلألئه. قال الثعلبيّ: وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رَجاء «دَرّىء» بفتح الدال مهموزا. قال أبو حاتم: هذا خطأ لأنه ليس فى الكلام فَعّيل؛ فإن صح عنهما فهما حجة. ﴿ يُوقَدُ ﴾ قرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص «يوقد» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال. وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصرى «تَوَقّد» مفتوحة الحروف كلها مشدّدة القاف، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعا للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنه الذى ينير ويضىء، وإنما الزجاجة وعاء له. و«تَوَقَّدَ» فعل ماض من توقّد يتوقّد، ويُوقَد فعل مستقبل من أوقد يُوقَد. وقرأ نصر ابن عاصم «تَوَقَّدَ» والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها. وقرأ الكوفيون «تُوقَد» بالتاء يعنون الزجاجة. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة. ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ تقدم القول فيه. ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ على تأنيث النار. وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم أن السُّدِّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ «ولَوْ لم يمسسه نار» بالياء. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيقى، وكذا سبيل المؤنث عنده.

وقال ٱبن عمر : المشكاة جَوْف محمد صلى الله عليه وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فى قلبه يوقد من شجرة مباركة؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ؛ فأوقد الله تعالى فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله فى قلب إبراهيم عليه السـلام . وقال محمـد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهـم أجمعين؛ سمّاه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال : «وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بُورك فى نسـله وكَثُرَ منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليـه السلام ، سمّاه الله تعـالى مباركا لأنّ أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه . ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيا و إنمـا كان حَنِيفًا مسلما . و إنمـا قال ذلك لأن اليهود تصلّى قِبَل المغرب والنصارى تصلّى قبل المشرق . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ أى يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ . وقال الضحاك : شـبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان فى قلبهما ، فورث النبوّة من إبراهيم . ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أى شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمـان، شجرة أصلها نبوّة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضى أبو بكر ٱبن العربى : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنـه عبد الله ؛ فالمشكاة هى الكوّة بلغـة الحبشة ، فشبّه عبد المطلب بالمشكاة فيها القِنديل وهو الزجاجة ، وشبّه عبد الله بالقِنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلابهما ، وكأنه كوكب دُرِّيٌّ وهو المشترِى « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرْث النبوّة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة، يعنى حنيفيّة لاشرقيّة ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية . « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار» يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحى من قبل أن يوحَى إليه . « نُورٌ على نور » إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضى : وهذا كله عدول عن الظاهر، وليس يمتنع فى التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك فى جميع الأقوال لعـدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هـذا مَثَل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عَرف اللهَ إلّا الله وحده ، قاله ٱبن العربى . قال ٱبن عباس : هذا مَثَل نور الله وهُداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإن مسّته النار زاد ضوءه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هُدًى على هدًى ونورا على نور ؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : « هذا رَبِّى » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رَبًّا ؛ فلما أخبره الله أنه ربُّه زاد هُدًى ، فقال له رَبُّه : «أَسْلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين» . ومن قال إن هذا مَثَل للقرآن فى قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يُهتـدَى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمِشْكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحى . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ تكاد حجج القرآن تتّضح ولو لم يقرأ . ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ يعنى أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فٱزدادوا بذلك نورا على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أى يبيِّن الأشباه تقريبا إلى الأفهام . ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بالمهدِىّ والضّال . وروى عن ٱبن عباس أن اليهود قالوا : يا محمـد ، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء ؛ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره .

قوله تعـالى : فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ الباء فى « بيوت » تضم وتكسر؛ وقد تقدّم[1] . واختلف فى الفاء من قوله « فى » فقيل : هى متعلقة بـ « مصباح » . وقيل : بـ« يسبح له » ؛ فعلى هذا التأويل يوقف على « عليم » . قال ابن الأنبارى : سمعت أبا العباس يقول هو حال للصباح والزجاجة والكوكب ؛ كأنه قال وهى فى بيوت . وقال الترمذى الحكيم محمد بن على : « فى بيوت » منفصل ، كأنه يقول : الله فى بيوت أذن الله أن تُرفع ؛ و بذلك جاءت الأخبار أنه " من جلس فى المسجد فإنه يجالس ربّه " . وكذا ما جاء فى الخبر فيما يحكى عن التوراة " أن المؤمن إذا مشى إلى المســجد قال الله تبارك اسمه عبــدى زارنى وعلىّ قِراه ولن أرضى له قِرًى دون الجنة " . قال ابن الأنبارى : إن جعلت « فى » متعلقة بـ« يسبّح » أو رافعــة للرجال حَسُن الوقف على قــوله « والله بكل شىء عليم » . وقال الرُّمّانى : هى متعلقة بـ« يوقد » وعليــه فلا يوقف على « عليم » . فإن قيل : فمــا الوجه إذا كان البيوت متعلقــة بـ« يوقد » فى توحيــد المصباح والمشكاة و جمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا فى بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتلون الذى يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع ؛ كقوله تعالى : « يأيها النّبىُّ إذا طَلَّقتم النساء » ونحوه . وقيل : رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل : هو كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » وإنمــا هو فى واحدة منها . واختلف الناس فى البيوت هنا على خمسة أقوال : الأوّل — أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة ، وأنها تضىء لأهــل السماء كما تضىء النجوم لأهــل الأرض ؛ قاله ابن عباس ومجاهــد والحسن . الثــانى — هى بيوت بيت المقدس ؛ عن الحسن أيضا . الثــالث — بيوت النبىّ صلى الله عليــه وسلم ؛ عن مجاهــد أيضا . الرابع — هى البيوت كلّها ؛ قاله عكرمة . وقوله « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهــا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » يقوّى أنها المساجد . وقول خامس — أنها المساجد الأربعــة التى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ثانية .

لم يبنها إلا نبىّ : الكعبة و بيت أرِيحَا ومسجد المدينة ومسجد قُبَاء؛ قاله ابن بُريدة . وقد تقدّم ذلك فى « براءة »(١) .

قلت — الأظهر القول الأوّل ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحبَّ الله عزّ وجل فليحبّنى ومن أحبّنى فليُحبّ أصحابى ومن أحب أصحابى فليُحبّ القرآن ومن أحبّ القرآن فليُحبّ المساجد فإنها أفنية الله أبنيته أذن الله فى رفعها و بارك فيها ميمونةٌ ميمون أهلها محفوظةٌ محفوظ أهلها هم فى صلاتهم والله عزّ وجل فى حوائجهم هم فى مساجدهم والله من ورائهم " .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾« أذِن » معناه أمر وقضى . وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر و إنفاذ كان أقوى . و « ترفع » قيل : معناه تُبْنَى وتُعلى؛ قاله مجاهد وعكرمة . ومنه قوله تعالى : « وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ البيت » . وقال صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا فى الجنة " . وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد . وقال الحسن البصرى وغيره : معنى « ترفع » تعظّم، و يرفع شأنها، وتطهر من الأنجاس والأقذار؛ ففى الحديث " أن المسجد ليَنْزَوِى من النجاسة كما ينزوى الجلد من النار " . و روى ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخرج أذًى من المسجد بنى الله له بيتا فى الجنة ". وروى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد فى الدور وأن تطهر وتطيَّب .

الثالثــة — إذا قلنا : إن المراد بنيانها فهل تزيّن وتنقش؟ اختلف فى ذلك؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قِلَابة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى تتباهى الناس فى المساجد ". أخرجه أبو داود . وفى البخارى — وقال أنس :"يتباهَوْن بها ثم لا يَعْمُرونها إلا قليلا ". وقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٠

ابن عباس : لَتُزَخْرِفُنّها كما زَخْرفتِ اليهود والنصارى . وروى الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدَّبار عليكم " . احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله « في بيوت أذن الله أن تُرْفَعَ » يعني تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالسّاج(١) وحسّنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم و بالغ في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر عليه أحد ذلك . وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزيينه مثل خراج الشأم ثلاث مرات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس و بالغ في تزيينه .

الرابعــة — ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبيّنه ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غَزْوة تَبُوك : " من أكل من هذه الشجرة — يعني الثُّوم — فلا يأتِيَنّ المساجد " . وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل من هذه البقلة الثُّوم " وقال مرة : " من أكل البصل والثوم والكُرّاث فلا يقربنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصلَ والثُّومَ ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهُما طبخا . خرّجه مسلم في صحيحه . قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه(٢) لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجذام

(١) الساج : شجر يعظم جدا ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبليه .
(٢) أي لا تفارقه .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول . وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَن أكل الثُّوم وما فى معناه ، مماله رائحة كريهة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام[1] رحمه الله أفتى فى رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم فى المسجد بلسانه ويده فشُووِر فيه ؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول؛ فاستدل بحديث الثُّوم، وقال: هو عندى أكثر أذًى من أكل الثوم، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة فى المسجد .

قلت : وفى الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكَذْبَة فيتباعد عنه المَلَك من نتن ريحه ». فعلى هذا يُخرج من عُرِف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة — أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النهى على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه؛ ولقوله فى حديث جابر : "فلا يقربَنّ مسجدنا". والأول أصح، لأنه ذكر الصفة فى الحكم وهى المسجدية، وذكرُ الصفة فى الحكم تعليل . وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأزِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرّبون وأنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم" . وفى التنزيل « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ »[2] . وهذا عام

(١) فى بعض نسخ الأصل : « هاشم » . (٢) آية ١٨ سورة التوبة . راجع جـ ٨ ص ٩٠ .

فى كل مسجد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فآشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» ". وقد تقدم.

السادســـة — وتصان المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى دعا إلى الجمل الأحمر [(١)] : " لا وَجَدْتَ إنما بُنِيت المساجد لمَـا بُنِيت له ". أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا وَجدتَ إنما بُنِيت المساجد لمَـا بُنِيت له " . وهــذا يدل على أن الأصــل ألا يعمل فى المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن. وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال : بينما نحن فى المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم : مَهٍ مَهْ ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وســلم : " لا تُزْرِمُوه دَعُوه [(٢)] " . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إن هــذه المساجد لا تصلح لشيء من هــذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وســلم . قال : فأمر رجلا من القوم فجــاء بدَلْو من ماء فشنّه [(٣)] عليه . خرّجه مسلم . ومما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : «وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ» . وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السُّلَمِيّ : " إن هذه المساجد [(٤)] لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ". أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله خرجه مسلم فى صحيحه ، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدرى أين أنت ! وكان خَلَف بن أيوب جالسا فى مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقــام وخرج من المســجد وأجابه ؛ فقيل له فى ذلك فقال : ما تكلمت فى المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا ، فكرهت أن أتكلم اليوم .

(١) أى من وجد ضالتى ، وهو الجمــل الأحمر فدعانى اليه .　(٢) أى لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم البول (بالكسر) آنقطع ؛ وأزرمه غيره .　(٣) الشنّ : الصب المنقطع ؛ أى رشه عليه رشا متفرقا .

(٤) الذى فى صحيح مسلم : « إن هذه الصلاة ... الخ » .

السابعة — روى الترمذيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشعار فى المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يتحلّق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفى الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبدالله ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمدا (١) وإسحاق وذكر غيرهما يحتجّون بحديث عمرو بن شعيب . وقد كره قوم من أهل العلم البيع والشراء فى المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام أتى على قوم يتبايعون فى المسجد فجعل رداءه مِخراقا (٢) ، ثم جعل يسعى عليهم ضربا ويقول : يا أبناء الأفاعى ، اتخذتم مساجد الله أسواقا ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان فى المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان بأجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضا من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يتحرّزون عن الأقذار والوسخ ؛ فيؤدّى ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطييبها فقال : " جَنِّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفِكم وإقامةَ حدودِكم ورفعَ أصواتكم وخصوماتكم وأجمروها فى الجُمَع واجعلوا على أبوابها المطاهر " . فى إسناده العلاء بن كثير الدمشقى مولى بنى أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدِىّ الجرجانى الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضا من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : صلّيت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطا فى ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكنس المسجد ويغلق الأبواب ويرشّ أحيانا . فقال عثمان : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " جنّبوا صنّاعكم من مساجدكم " . هذا حديث غير محفوظ ، فى إسناده محمد بن مجيب الثقفى ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد فى هذا المعنى وإن كان طريقه لَيِّنًا فهو صحيح معنًى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذيّ : وقد رُوى عن بعض أهل العلم من التابعين رُخْصةٌ فى البيع

---

(١) الذى فى الترمذى : « احمد » . (٢) المخراق : ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والشراء فى المسجد . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غير حديث رخصةٌ فى إنشاد الشعر فى المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف فى ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن مجيز مطلقا . والأَوْلى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضى الثناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الحض على الخير والوعظ والزهد فى الدنيا والتقلّل منها ، فهو حسن فى المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوّفى يا نفس كى أقصد فردا صمدا * وذرينى لست أبغى غير ربى أحدا

فهو أنسى وجليسى ودعى الناس * فما إن تجدى من دونه ملتحدا (١)

وما لم يكن كذلك لم يجز ؛ لأن الشعر فى الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر ، والمساجد منزهة عن ذلك ؛ لقوله تعالى : « فى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَع » . وقد يجوز إنشاده فى المسجد ؛ كقول القائل :

كفَحْل العَدَاب (٢) الفَرْدِ يضرب به النَّدَى * تَعَلَّى النَّدَى فى متنه وتحدّرا

وقول الآخر :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضابًا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حَمْد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب . وسيأتى ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية فى « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطنىّ من حديث هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : ذُكر الشعراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هو كلام حَسَنه حَسَن وقبيحه قبيح " . وفى الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى هريرة وابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ذكره فى السنن .

قلت : وأصحاب الشافعىّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعىّ وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث فى ذلك . والله أعلم .

---

(١) هكذا ورد هذا الشعر فى نسخ الأصل ؛ ولم نعرف من أى وزن هو . (٢) العداب (بالفتح والدال المهملة) : ما استرق من الرمل . وقيل : جانبه الذى يرق ويلى الجَدَد من الأرض . الواحد والجمع سواء .

الثامنـــة — وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضى مصلحة للرافع صوتَه دُعى عليه بنقيض قصده؛ لحديث بَريرة المتقدّم ، وحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سمع رجلا يَنْشُد ضالّة فى المسجد فليقل لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْن لهذا " . وإلى هــذا ذهب مالك وجماعة، حتى كرهوا رفع الصوت فى المسجد فى العلم وغيره . وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفــعَ الصوت فى الخصومة والعــلم ؛ قالوا : لأنهم لا بدّ لهم من ذلك . وهذا مخالف لظاهر الحديث ، وقولهم : «لا بدّ لهم من ذلك» ، ممنوع ، بل لهم بُدّ من ذلك لوجهين : أحدهما بملازمة الوَقار والحــرمة ، و بإحضار ذلك بالبال والتحرّز من نقيضه . والثانى أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليتّخذ لذلك موضعا يخصّه ، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبة تُسمَّى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعرا — يعنى فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فليخرج إلى هذه الرحبة . وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر فى المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاســـعة — وأما النوم فى المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو آمرأة من الغرباء ومن لا بيت له فجائز ؛ لأن فى البخارى — وقال أبو قِلابة عن أنس : قَدِم رهط من عُكْل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فكانوا فى الصُّفّة (١) ، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : كان أصحاب الصفة فقــراء . وفى الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينــام وهو شاب أعزب لا أهــل له فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وســلم . لفظ البخارى . وترجم (باب نوم المرأة فى المسجد) وأدخل حديث عائشة فى قصة السوداء (٢) التى اتهمها أهلها بالوِشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِبَاء فى المسجد أو حِفْش (٣) ... الحديث . ويقال : كان مبيت عطاء بن أبى رَبَاح فى المسجد أربعين ســـنة .

(١) موضع مظلل فى أخريات المسجد النبوى تأوى إليه المساكين . (٢) السوداء : يريد أمة سوداء كانت لحى من العرب ، فاتهموها بسرقة وشاح وطفقوا يفتشون حتى فتشوا قُبُلها . قالت : والله إنى لقائمة معهــم إذ مرت الحُدَيَّاة فألقته بينهم ... فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، فكان لها خباء فى المسجد ... ... راجع صحيح البخارى (باب المساجد) . (٣) الخباء : الخيمة من صوف أو وبر . والحفش (بكسر الحاء وسكون الفاء) : بيت صغير .

العاشــرة — روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أَسَيْد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فلْيَقُل اللّهُمّ افتح لى أبواب رحمتك و إذا خرج فليقل اللّهُمّ إنى أسألك من فضلك " . خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلِّم ولْيصلِّ(١) على النبيّ صلى الله عليه وسـلم ثم ليقل اللهـم افتح لى ... " الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال " باسم الله والسلام على رسول الله اللّهُمّ اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك و إذا خرج قال بآسم الله والصلاة على رسول الله اللّهُمّ آغفر لى ذنوبى وآفتح لى أبواب رحمتـك وفضلك " . وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصلّ على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللّهُـمّ آفتح لى أبواب رحمتك و إذا خرج فلْيُسَلِّم على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللّهُمّ اعْصِمْنِى من الشـيطان الرجيم " . وخرج أبو داود عن حَيْوة بن شُرَيح قال : لَقِيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغنى أنك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العـاصى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال " أعوذ بالله العظيم و بوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حُفِظ منى سـائرَ اليوم .

الحادية عشرة — روى مسلم عن أبى قتادة أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبـل أن يجلس " وعنـه قال : دخلت المســجد ورسول الله صلى الله عليه وسـلم جالس بين ظَهْرَانَيِ الناس ، قال فجلست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منعك أن تركع ركعتين قبـل أن تجلس " ؟ فقلت : يا رسـول الله ، رأيتـك جالسا والنـاس جلوس . قال : " فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين " . قال العلماء : فجعل صلى الله عليه وسلم للمسجد مزيّة يتميّز بهـا عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وعامّةُ العلمـاء على أن الأمر بالركوع على النـدب والترغيب .

(١) الذى فى سنن أبى داود " فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم " .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب؛ وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه لحـرُم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ ، ولا قائل به فيما أعلم ، والله أعلم . فإن قيل : فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعىّ عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبـد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه فى بيته خيرا" ، وهذا يقتضى التسوِيَة بين المسجد والبيت . قيل : هذه الزيادة فى الركوع عند دخول البيت لا أصل لها ؛ قال ذلك البخارى . وإنمـا يصح فى هذا حديث أبى قتادة الذى تقدم لمسلم ، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد ، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

الثانية عشرة — روى سعيد بن زَبّان حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن أبى هند رضى الله عنه قال : حَمَل تميمٌ — يعنى الدّارِى — من الشأم إلى المدينة قناديل وزَيْتا ومُقُطًا ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاما يقال له أبو البزاد فقام فنَشَط[1] المُقُط وعلق القناديل وصبّ فيها المـاء والزيت وجعـل فيها الفتيل؛ فلمـا غَرَبت الشمس أمر أبا البزاد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها تزهر؛ فقال : "من فعل هذا"؟ قالوا : تميم الدّارِى يا رسول الله؛ فقال: "نورت الإسلام نوّر الله عليك فى الدنيا والآخرة أمَا إنه لو كانت لى ٱبنة لزوّجْتُكها" . قال نَوْفل بن الحارث : لى ٱبنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نَوْفل فٱفعل بها ما أردت ؛ فأنكحه إياها . زَبّان (بفتح الزاى والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتّسمِّى به سـعيد وحده ، فهو أبو عثمان سعيد بن زَبّان بن قائد بن زبان بن أبى هند ، وأبو هند هذا مولى ٱبن بياضة حجّام النبىّ صلى الله عليه وسلم . والمُقُط : جمع المِقاط ، وهو الحبل ، فكأنه مقلوب القِماط . والله أعلم . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : أوّل من أسرج فى المساجد تَميمٌ الدّارِىّ . وروى عن أنس أن النبىّ

---

(١) نشط الحبل : ربطه .

صلى الله عليه وسلم قال : "من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يصلّون عليه و يستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه و إن كنس غبار المسجد نقد الحُور العين" .
قال العلماء : و يستحب أن ينوّر البيت الذى يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، و يزاد فى شهر رمضان فى أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والاصالِ . رِجَالٌ ﴾ اختلف العلماء فى وصف الله تعالى المسبِّحين ؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لايشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كلّ شغل و بادروا . ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر عنه والحسن « يسبَّح له فيها » بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعله . وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحمزة يقرءون « يُسَبِّح » بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قرأ « يسبَّح » بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دلّ عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبّحه رجال ؛ فيوقف على هذا على « الآصال » . وقد ذكر سيبويه مثل هذا . وأنشد :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومة * ومُخْتَبِط مما تُطيح الطّوائحُ (١)

المعنى : يبكيه ضارع . وعلى هذا تقول : ضُرِب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو . والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء ، والخبر « فى بيوت » ؛ أى فى بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير فى « ترفع » ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛

(١) اختلف فى قائله ، ونسبه صاحب الخزانة لنهشل بن حَرِيّ . وهذا البيت من أبيات فى مرثية أخيه يزيد ، ومطلعها :
لعمرى لئن أمسى يزيد بن نَهْشَل * حَشَا جَدَث تسفى عليه الروائح
وقوله : « ضارع » من الضراعة ، وهو الخضوع والتذلل . و « المختبط » الذى يسألك من غير معرفة كانت بينكما ؛ وأراد به هنا المحتاج . و « تطيح » تذهب وتهلك . و « الطوائح » جمع مطيحة ، وهى القواذف . و « الحشا » ما فى البطن . و « جدث » بفتح الجيم والثاء : القبر . و « الروائح » : الأيام الروائح .

مسبّحا له فيها ، ولا يوقف على « الآصال » على هذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر البـاء لم يقف على « الآصال » ؛ لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه . وقد تقدم القول فى « الغدو والآصال » فى آخر « الأعراف »(1) والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قيل : معناه يصلى . وقال ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله « بِالغدوّ والآصالِ » ، أى بالغداة والعَشِيّ . وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالغدو صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن اسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة — روى أبو داود عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من خرج من بيته متطهّرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المُحْرِم ومن خرج إلى تسبيح الضُّحَا لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المُعْتَمِر وصلاةٌ على إثر صلاة [لا لَغْوَ بينهما](2) كتاب فى عِلِّيِّين " . وخرّج عن بُريدة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بشّر المشّائين فى الظُّلَم إلى المساجد بالنور التـام يوم القيامة " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نُزُلًا فى الجنة كلما غَدَا أو راح" . فى غير الصحيح من الزيادة "كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لاجتهد فى كرامته " ؛ ذكره الثعلبي . وخرّج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خَطْوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " . وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضّأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه(3) إلا الصلاةُ لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ وحُطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه والملائكة يصلّون على

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) زيادة عن سنن أبى داود .
(3) النهز : الدفع .

أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهُمّ ٱرحمه اللّهم ٱغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيــه ما لم يُحْدِث فيــه " . فى رواية : ما يُحــدث ؟ قال " يَفْسُو أو يَضْرِط " . وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضور الجنازة أحبّ إليك أم الجلوس فى المسجد؟ فقال : من صلّى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ؛ والجلوس فى المسجد أحبّ إلى ؛ لأن الملائكة تقول : اللّهُمّ ٱغفر له اللهم ٱرحمــه اللّهم تُبْ عليه . وروى عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كونوا فى الدنيــا أضيافا وٱتخذوا المساجد بيوتا وعوّدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء. تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وتؤمّلون مالا تدركون" . وقال أبو الدَّرْداء لابنــه : ليكن المسجد بيتَــك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " إن المساجد بيوت المتقين . ومن كانت المساجد بيتــه ضمن الله تعــالى له الرَّوح والراحة والجواز على الصراط " . وكتب أبو صادق الأزدى إلى شعيب بن الحَبْحاب : أنْ عليك بالمساجد فٱلزمها ؛ فإنه بلغنى أنها كانت مجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخَوْلانِىّ : المساجد مجالس الكرام من النــاس . وقال مالك بن دينار : بلغنى أن الله تبارك وتعالى يقول " إنى أَهُمّ بعذاب عبادى فأنظر إلى عُمّار المساجد وجلساء القرآن ووُلْدان الإســلام فيسكن غضبى " . وروى عنــه عليه السلام أنه قال : سيكون فى آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حِلَقًا حِلَقا ذِكْرُهم الدنيــا وحبّها فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة" . وقال ٱبن المسيِّب : من جلس فى مسجد فإنما يجالس ربّه ، فمــا حقّه أن يقول إلا خيرا . وقــد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه[1] كفاية . وقد جمع بعض العلماء فى ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلّم وقت الدخول إن كان القوم جلوسا ، و إن لم يكن فى المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبــل أن يجلس ، وألا يشترى فيه ولا يبيع ، ولا يَسُلّ فيه سهما ولا سيفا ، ولا يطلب فيه ضالة ، ولا يرفع فيه صوتا

(١) راجع ج ٨ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلّم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطّى رقاب الناس، ولا ينازع فى المكان، ولا يضيّق على أحد فى الصف، ولا يمرّ بين يدى مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخّم، ولا يتمخّط فيه، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشىء من جسده، وأن يُنَزَّه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أدّى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له وحِصْناً من الشيطان الرجيم . وفى الخبر " أن مسجدا ارتفع بأهله إلى السماء يشكوهم إلى الله لما يتحدّثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشّعْبِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتراب الساعة أن يُرَى الهلال قَبَلاً[(1)] فيقال لليلتين وأن تُتّخذ المساجد طُرُقا وأن يظهر موت الفجأة " . هـذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذَرِيح عن الشعبى عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبى مرسلا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقـة كان يُعَـدّ من الأبدال[(2)] . وفى البخارى عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من مَرّ فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا بِنَبْل فليأخذ على نِصالها لا يَعْقِر بكفّه مسلما " . وخرّج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البُزاق فى المسجد خطيئة وكفّارتها دفنها " . وعن أبى ذَرٍّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " عُرِضت علىّ أعمال أمّتى حَسَنُها وسيئها فوجدتُ فى محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ووجدت فى مساوى أعمالها النُّخاعة[(3)] تكون فى المسجد لا تُدفن " . وخرّج أبو داود عن الفرج بن فضالة عن أبى سـعد[(4)] الحميرى قال : رأيت واثلة بن الأَسْـقع فى مسجد دمشق بَصَق على الحصـير ثم مسحه برجله؛ فقيـل له : لم فعلت هذا؟ قال : لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضا فلم يكن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصُر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أى يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يتطلب . وهو بفتح القاف والباء » .
(٢) الأبدال : قوم من الصالحين، بهم يقيم الله الأرض، أربعون فى الشام وثلاثون فى سائر البلاد، لا يموت منهم أحد الا قام مكانه آخر؛ فلذلك سموا أبدالا . وواحد الأبدال العُبّاد بِدْل وبَدَل . وقال ابن دريد : الواحد بديل .
(٣) النخاعة : النخامة . (٤) فى الأصول : « عن أبى سَعيد الخدرى » وهو تحريف؛ لأن فرج بن فضالة لم يرو عن أبى سعيد الخدرى، وإنما روى عن أبى سعد الحميرى، وأبو سعد هذا صاحب واثلة بن الأسقع .

الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى، ولعلّ واثلة إنمـا أراد هذا فحمل الحصـــير عليـــه .

السادسة عشرة — لمـا قال تعالى : « رجال » وخصّهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظّ لهنّ في المساجد؛ إذ لا جمعة عليهنّ ولا جماعة، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل. روى أبو داود عن عبد الله رضي الله عنــه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتُها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها" .

السابعة عشرة — قوله تعالى . ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ ﴾ أي لا تشغلهم . ﴿ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة . فإن قيل : فلمَ كرّر ذكر البيع والتجارةُ تشمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا بيع ». نظيره قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »(1) قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الجـلّاب المسافرون، والباعة هم المقيمون . ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف في تأويله؛ فقال عطاء : يعني حضور الصلاة؛ وقاله ابن عباس، وقال: المكتوبة . وقيل عن الأذان؛ ذكره يحيى بن سلام . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى؛ أي يوحدونه ويمجّدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق؛ قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسّوق وقـد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلّوا في جماعة فقال : فيهـم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ » الآية . وقال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقيل : إن رجلين كانا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أحدهما بياعا فإذا سمـع النداء بالصلاة فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وَضعًا ، وإن كان بالأرض لم يرفعه . وكان الآخر قَيْنًـا يعمل السيوف للتجارة، فكان إذا كانت مِطْرقته على السّنْدان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هــذا ثناء عليهما وعلى كل من ٱقتـــدى بهمـا .

(1) آخر ســورة الجمعــة .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ هذا يدلّ على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكرارا . يقـال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواما فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفا و بعدها ألف ساكنة فحذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء فجاز حذفها، و إن لم تضف لم يجز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَد عِدَة، ووَزَن زِنَة، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفت واوا؛ لأن الأصل وَعَد وِعْدَةً، ووَزَن وِزْنة، فإن أضفت حذفت الهاء، وأنشد الفراء :

إنّ الخَلِيط أجَدُّوا البَيْنَ فٱنْجَرَدُوا * وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذى وَعَدُوا

يريد عِدَة، فحذف الهاء لمـا أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نُجُب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأزِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعُمّارها متعلقون بها فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرّبون أو أنبياء مرسلون فينادَى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ". وعن علىّ رضى الله عنه أنه قال : يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا ٱسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهى من ذكر الله خراب، شرُّ أهلِ ذلك الزمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود؛ يعنى أنهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ قيل : الزكاة المفروضة؛ قاله الحسن. وقال ابن عباس : الزكاة هنـا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يعنى من هوله وحذر الهـلاك . والتقلّب التحوّل، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هى ترجع إلى أماكنها ولا هى تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل والعَمَى بعد البصر . وقيـل : تتقلّب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من

الهلاك ، والأبصار تنظر من أىّ ناحية يعطَوْن كتبهم ، وإلى أى ناحية يؤخذ بهم . وقيل : إن قلوب الشاكين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين ؛ وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد » (١) ؛ فما كان يراه فى الدنيا غَيًّا يراه رُشْدًا ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم فى الآخرة . وقيل : تقلّب على جمر جهنم ؛ كقوله تعالى : « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ » (٢) ، «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ» (٣) . فى قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار . وقيل : تقلب بأن تلفحها النار مرة وتُنْضِجها مرة . وقيل إن تقلب القلوب وَجِيبها (٤) ، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحى الأهوال . ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فاقتصر على ذكر الرغبة . الثانى — أنه فى صفة قوم لا تكون منهم الكبائر ، فكانت صغائرهم مغفورة . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — ما يضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها . الثانى — ما يتفضل به من غير جزاء . ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى من غير أن يحسابه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية لعطائه . وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قُبَاء ، فحضر عبد الله بن رَوَاحة فقال : يا رسول الله ، قد أفلح من بنى المساجد ؟ قال : "نعم يا بن رواحة" قال : وصلّى فيها قائما وقاعدا ؟ قال : "نعم يابن رواحة" قال : ولم يبِت لله إلا ساجدا؟ قال : "نعم يابن رواحة . كُفَّ عن السَّجْع فما أعطى عبد شيئا شرا من طلاقة فى لسانه" ؛ ذكره الماوَرْدىّ .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق . (٢) آية ٦٦ سورة الأحزاب . (٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .
(٤) وجب القلب وجيبا : اضطرب .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لمـا ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهّب متلمّسا للدّين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : فى أهل الكتاب . الضحاك : فى أعمال الخير للكافر ، كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يُرَى نصف النهار فى ٱشتداد الحَرّ ، كالمـاء فى المفاوز يلتصق بالأرض . والآلُ الذى يكون ضُحًا كالمـاء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وسُمِّىَ السَّراب سرابا لأنه يَسْرُب أى يجرى كالمـاء . ويقال : سَرَب الفحل أى مضى وسار فى الأرض . ويسمى الآلَ أيضا ، ولا يكون إلا فى البَرِّيّة والحر فيغترّ به العطشان . قال الشاعر :

فكنت كمُهْرِيق الذى فى سِقائه * لِرَقـراقِ آلٍ فوق رابِيَـةٍ صَلْد

وقال آخــر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم * كلَمْع سراب بالفــلا متألق

وقال ٱمرؤ القيس :

ألم أُنْضِ المَطِىّ بكل خَرْقٍ * أَمَقِّ(١) الطُّولِ لمّـاع السراب

والقيعة جمع القاع ، مثل جيرة وجار ، قاله الهَرَوِىّ . وقال أبو عبيدة : قِيعةٌ وقاعٌ واحد ، حكاه النحاس . والقاع ما ٱنبسـط من الأرض وٱتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضـعُ المنخفض الذى يستقر فيـه المـاء ، وجمعه قِيعان . قال الجوهرى : والقاع المستوى من الأرض ، والجمع أَقْوُع وأقواع وقِيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ والقِيعة مثل القاع ، وهو أيضا من الواو . وبعضهم يقول : هو جمع . ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ أى العطشان . ﴿ مَاءً ﴾ أى يحسَب السّراب ماء . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ مما قدّره ووجد أرضا لا ماء فيها . وهذا مَثَل ضربه الله تعالى للكفار ، يُعَوِّلون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) فى الأصول : « طويل الطول » والتصويب عن ديوان امرئ القيس . والأمق : الطويل . قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) : وفى البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة «أمق» الى «الطول» فيتوهم أنه من إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الأمق هو الطويل ؛ وليس على ما يتوهم ؛ إنما هو كما تقول : «بعيد البعد» .

قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السّراب إلا أرضا لا ماء فيهـا ؛ فهو يهلك أو يموت . ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِنْـدَهُ ﴾ أى وجد الله بالمرصاد . ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أى جزاء عمله . قال آمرؤ القيس :

فَوَلَّى مُدْبِرًا يَهْوِى حَثِيثًا * وأيقن أنّه لاقَى الحِسابَا

وقيل : وَجَد وعْد الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حَشْره؛ والمعنى متقارب . وقرِئ « بِقِيعَات » . المهدوِىّ : ويجـوز أن تكون الألف مُشْبَعَة من فتحة العين . ويجوز ان تكون مثل رَجُل عِزْهٍ وعِزْهاة؛ للذى لا يقرب النساء . ويجـوز أن يكون جمع قِيعة ، ويكون على هذا بالتـاء فى الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهما الهمز؛ يقال : ظمِئ يظمأ ظَمَأً فهو ظمآن ، وإن خفّفت الهمزة قلت الظمان . وقـوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتـداء « أَعْمَالُهُـمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كَسَرَابٍ » الخبرُ، والجملة خبر عن « الذين » . ويجوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، فحذف المضاف .

قوله تعـالى : أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِـهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ ﴾ ضرب تعالى مثلا آخر للكفار؛ أى أعمالهم كسراب بِقيعة أو كظلمات . قال الزجاج : إنـ شئت مثّـل بالسّراب وإن شئت مثّل بالظلمات ؛ فـ« أوْ » للإباحة حسبما تقدم من القول فى « أَوْ كَصَيِّبٍ »[(١)] . وقال الجُرْجَانىّ : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار، والثانية فى ذكر كفرهم، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم؛ وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ »[(٢)] ؛ أى من الكفر إلى

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٥ طبعة ثانية أو ثالثة .　　(٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

الإيمـان . وقال أبو عليّ : « أوْكظلمات » أوكذى ظلمات ؛ ودل على هذا المضاف قولهُ تعالى : « إذا أخْرَجَ يَدَهُ » فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيرىّ : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمـال الكفار ، وعند الجُرْجانى لكفر الكافر ، وعنـد أبى علىّ للكافر . وقال ابن عباس فى رواية : هـذا مَثَل قلب الكافر . ﴿ فِي بَحْـرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قيل : هو منسوب الى اللُّجّة ، وهو الذى لايُدْرك قعره . واللُّجّة معظم المـاء ، والجمع لجج . والْتجّ البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روى عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : " من رَكب البحر إذا الْتجّ فقد بَرِئت منه الذِّمة " . والْتجّ الأمر إذا عَظُم واختلط . وقوله تعالى : « حَسِبَتْهُ لُجَّـةً »(١) أى ما له عمق . ولَجَّجَتِ السفينة أى خاضت اللُّجة (بضم اللام) . فأما اللَّجّة (بفتح اللام) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لَجَّة الناس ؛ أى أصواتهم وصَخَبهم . قال أبو النَّجْم :

* فى لَجَّةٍ أمْسِـكْ فُلاَناً عن فُلِ *

والتجت الأصـوات أى اختلطت وعظمت . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ أى يعـلو ذلك البحر اللُّجّىّ مَوْج . ﴿ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أى من فوق الموج موجٌ ، ومن فوق هـذا الموج الثـانى سحاب ؛ فيجتمع خوفُ الموج وخوفُ الريح وخوفُ السحاب . وقيـل : المعنى يغشاه موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : المَوْج يتبع بعضـه بعضا حتى كأن بعضـه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هـذا الموج سحـاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهمـا — أنه قـد غَطّى النجوم التى يُهتَدَى بهـا . الثانى — الريح التى تنشأ مع السحابِ والمطر الذى ينزل منه . ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبَزّى عن ابن كثير « سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة والخفض . قُنْبُل « سحابٌ » منوّنا « ظلماتٍ » بالجر والتنوين . الباقون بالرفع والتنوين . قال المهدوِىّ : من قرأ « مِنْ فوقه سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحابُ رحمةٍ ، إذا ارتفع فى وقت المطر . ومن قرأ « سحابٌ ظلماتٍ » جَرّ « ظلماتٍ » على التأكيد لـ«ظلماتٍ »

(١) آية ٤٤ سورة النمل .

الأولى أو البــدل منها . و « سحابٌ » ابتــداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « سحابُ ظلمــاتٍ » فظلمات خبر ٱبتداء محذوف؛ التقــدير : هي ظلمات أو هــذه ظلمات . قال ابن الأنباريّ : « من فوقه موج » غير تام؛ لأن قوله « من فوقه سحاب » صلة للمَوْج، والوقف على قوله « من فوقه سحاب » حَسَن ، ثم تبتــدئ « ظلمــاتٌ بعضها فوق بعض » على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهــل مكة أنهــم قرءوا « ظُلُماتٍ » على معنى أو كظُلُماتٍ ظُلَماتٍ بعضُها فوق بعض؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب .

ثم قيــل : المراد بهــذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليــل وظلمة البحر؛ فلا يُبصر من كان في هــذه الظلمات شيئا ولا كَوْكبا . وقيل : المــراد بالظلمات الشدائد؛ أي شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللُّجِّي قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحَيْرة ، وبالسحاب الرَّيْنُ والخَتْمُ والطبع على قلبه . روِى معناه عن ابن عباس وغيره؛ أي لا يُبصر بقلبه نور الإيمــان، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها . وقال أُبَيّ بن كعب : الكافر يتقلّب في خمس من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمــله ظلمة ، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصــيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير . ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ ﴾ يعني الناظر . ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي من شــدّة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكَد؛ وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يَكَدْ » لم يطمع أن يراها . وقال الفَــرّاء : كاد صــلة ، أي لم يرها؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرّد : يعني لم يرها إلا من بعــد الجهد؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة، وقد رآه بعد يأس وشدّة . وقيل : معناه قَرُب من الرؤية ولم يرِ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا، وكاد النعام يطير، وكاد المنتعل يكون راكبا . النحاس : وأصح الأقوال في هــذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا ﴾ يهتدى به أظلمتْ عليه الأمور . وقال ابن عباس : أي من لم يجعل الله له دِينا فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نورا يمشي به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة؛ كقوله تعالى : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ »[(١)] . وقال الزجاج : ذلك فى الدنيا؛ والمعنى : من لم يهـده الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت فى عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدِّين فى الجاهليـة ، ولَبِس المُسُوح ، ثم كفر فى الإسـلام . المـاوَرْدِىّ : فى شيبة ابن ربيعة ، وكان يترهّب فى الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدِّين، فكفر فى الإسلام .

قلت : وكِلاهُمَا مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرهما . وقد قيل : نزلت فى عبد الله بن جَحْش، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصّر بعد إسلامه . وذكر الثّعلبىّ : وقال أنس قال النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : " إن الله تعالى خلقنى من نور وخلق أبا بكر من نورى وخلق عمر وعائشة من نور أبى بكر وخلق المؤمنين من أمتى من نور عمر وخلق المؤمنات من أمتى من نور عائشة فمن لم يحبنى ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور" . فنزلت « ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له مِن نُورٍ » .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ لمـا ذكر وضوح الآياتِ زاد فى الحجة والبيّنات، وبيّن أن مصنوعاته تدلّ بتغييرها على أن لها صانعا قادرا على الكمال؛ فله بِعْثة الرسل ، وقـد بعثهم وأيّدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب فى « ألم تر » للنبىّ صلى الله عليه وسلم، ومعناه : ألم تعلم؛ والمراد الكُلّ . ﴿ أنّ اللهَ يُسَـبِّحُ له مَنْ فِي السمواتِ ﴾ من الملائكة . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ والطَّـيْرُ صَافّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لمـا سواه من الخلق . وقال سفيان : للطير صلاةٌ ليس فيهـا ركوع ولا سجود . وقيل : إنّ ضربها بأجنحتها صلاة، وإن أصواتها

(١) آية ٢٨ سورة الحديد .

تسبيح؛ حكاه النقاش . وقيــل : التسبيح هاهنا ما يرى فى المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافاتٍ » مصطفات الأجنحة فى الهواء . وقرأ الجماعة « والطّيرُ » بالرفع عطفا على « مَنْ » . وقال الزجاج : ويجوز « والطيرَ » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسمعته يخبر «قمتُ وزيدًا» بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قمت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب . ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قــد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أى علم صلاة المصلِّى وتسبيحَ المسبِّح . ولهــذا قال : ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَــا يَفْعَلُونَ ﴾ أى لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل » عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسّره ما بعده . وقد قيــل : المعنى قد علم كلُّ مُصَلٍّ ومسبّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كُلِّفه . وقرأ بعض الناس « كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه » غير مسمًّى الفاعل . وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ « كلٌّ قد علَّم صلاتَه وتسبيحه » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلٌّ قــد علّمه الله صــلاته وتسبيحه . ويجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علّم غيرَه صلاته وتسبيحه ، أى صــلاة نفسه ؛ فيكون التعليم الذى هو الإفهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعَلِّم . ويجوز أن يكون المعنى كلٌّ قد استدل منه المستدِلّ ، فعبّر عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدوِىّ . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر تأكيدا ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ والنَّجْوَى » . والصلاة قد تسمَّى تسبيحا ؛ قاله القُشَيْرِىّ . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ تقدّم فى غير موضع .

قوله تعــالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَــهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْــرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِــهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْــلَ وَٱلنَّهَــارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ ذكر من حججه شيئا آخر؛ أى ألم تر بعينَىْ قلبك . « يُزْجِي سَحَابًا » أى يسوق إلى حيث يشاء . والريح تُزْجِي السحاب ، والبقرة تزجى ولدها أى تسوقه . ومنه زجا الخراجُ يزجو زَجاءً (ممدودا) إذا تيسّرت جِبايته . وقال النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى * أزجِى حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ

وقال أيضا : أسْرَتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ * تُزْجِي الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى يجمعه عند انتشائه؛ ليقوَى ويتّصل ويَكْثُف . والأصل فى التأليف الهمز؛ تقول : تألف . وقرئ « يُوَلِّف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ، ولكن معناه جمع؛ ولهذا قال : « يُنْشِئُ السَّحاب » . و« بين » لا يقع إلا لاثنين فصاعدًا ، فكيف جاز بينه ؟ فالجواب أن « بينه » هنا لجماعة السحاب؛ كما تقول : الشجر قد جلستُ بينه لأنه جمع ، وذكّر الكناية على اللفظ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر — وهو أن يكون السحاب واحدا فجاز أن يقال بينه؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة، كما قال :

* ... ... بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ *

فأوقع « بين » على الدخول، وهو واحد لاشتماله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة؛ لأن الكوفة أماكن كثيرة؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأصمعي أن هذا لا يجوز، وكان يروى :

* ... ... بين الدَّخُول وحَوْمَلِ *

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى مجتمعا، يركب بعضه بعضا؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ »[1] . والرَّكْم جمع الشيء؛ يقال منه : رَكَم الشيءَ يرْكُمه رَكْمًا إذا جمعه وألقى بعضه على بعض . وآرتكم الشيءُ وتراكم إذا اجتمع . والرُّكْمة الطين المجموع . والرُّكَام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرْتَكَمُ الطريق (بفتح الكاف) جادّته . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فى « الوَدْق » قولان : أحدهما — أنه البرق؛ قاله أبو الأشهب العقيلي . ومنه قول الشاعر :

أثرنا عَجَاجة وخرجن منها * خروجَ الوَدْق من خَلَل السحاب

(١) آية ٤٤ سورة الطور .

الثـانى — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر :

فلا مُزْنة ودَقَتْ ودْقَها * ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالهـا

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدْقٌ وسَحٌّ وديمَةٌ * وسَكْبٌ وتَوْكَافٌ وتَنْهَملانِ

يقال : ودَقَت السحابة فهى وادقة . وودَق المطر يَدِق ودْقًا ؛ أى قَطَر . ووَدَقْتُ إليه دنوت منه . وفى المثل : وَدَق العيرُ إلى المـاء؛ أى دنا منه . يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه . والموضع مَوْدِق . ووَدَقْتُ [به] وَدْقًا استأنستُ به . ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل : ودَقَتْ تَدِق وَدْقًا ، وأَوْدَقَتْ واستودَقَتْ . وأتان وَدُوق وفرس وَدُوق ، ووَدِيق أيضا ، وبها وِداق . والوَدِيقة : شدّة الحَرّ . وخِلال جمع خَلَل؛ مثلُ الجبل والجبال ، وهى فُرَجُه ومخارج القطر منه . وقد تقدم فى « البقرة »(1) أن كعبا قال : إن السحاب غِرْبال المطر؛ لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العـالية « من خلله » على التوحيد . وتقول : كنت فى خلال القوم ؛ أى وسطهم . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ قيل : خلق الله فى السماء جبالا من بَرَد ، فهو ينزِّل منها بَرَدًا ؛ وفيه إضمار ، أى ينزِّل من جبال البرد بَرَدًا ، فالمفعول محذوف . ونحو هـذا قول الفرّاء ؛ لأن التقدير عنـده : من جبال برد؛ فالجبال عنـده هى البرد . و « بَرَدٍ » فى موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المعنى : من جبالٍ بردٍ فيهـا ، بتنوين جبال . وقيل : إن الله تعـالى خلق فى السماء جبالا فيها برد؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « من » صـلة . وقيل : المعنى وينزل من السماء قدر جبال؛ أو مثل جبال من بَرَد إلى الأرض؛ فـ « من » الأولى للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانيـة للتبعيض لأن البَرَد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البَرَد . وقال الأخفش : إن « مِن » فى الجبال و « بَرَد » زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب؛ أى ينزل من السماء بَرَدا يكون كالجبـال . والله أعلم . ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٠١ طبعه ثانية .

فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة . وقد مضى فى « البقرة »[1] . و« الرعد »[1] أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثا عُوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ من شدّة بَريقه وضوئه . قال الشّماخ :

وما كادت إذا رفعَتْ سَـــناهَا * لِيُبْصِر ضوءهـا إلّا البَصِـــيرُ

وقال امرؤ القيس :

يضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ * أهـان السَّليط فى الذُّبال المُفتَّلِ[2]

فالسَّنَا (مقصور) ضَوْء البرق . والسَّنَا أيضا نبت يتداوَى به . والسَّناء من الرفعة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصّفاء؛ فأطلق عليـه اسم الشرف . قال المبرّد : السَّنَا (مقصور) وهو اللمع؛ فإذا كان من الشّرف والحسب فهو ممدود، وأصلهما واحد وهو الالتماع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سَنَاءُ بُرَقِه » قال أحمـد بن يحيى : وهو جمع بُرْقة . قال النحاس : البُرْقة المقدار من البَرْق، والبَرْقة المرّة الواحدة . وقرأ الجَحْدَرِيّ وابن القَعْقاع « يُذْهِب بالأبصار » بضم اليـاء وكسر الهاء ؛ من الإذهاب ، وتكون البـاء فى « بالأبصار » صلةً زائدة . الباقون « يَذْهَبُ بالأبصار » بفتح الياء والهاء، والباء للإلصاق . والبَرْق دليل على تكاثف السحاب، و بشير بقوّة المطر، ومحذّر من نزول الصواعق . ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ قيل : تقليبهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر . وقيل : تقليبهما نقصهما وزيادتهما . وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضَوْء الشمس أخرى؛ وكذا الليل مرّة بظلمة السحاب ومرّة بضوء القمر؛ قاله النقاش . وقيل : تقليبهما باختلاف ما يقدّر فيهما من خير وشر ونفع وضرّ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى الذى ذكرناه من تقلّب الليل والنهار، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى اعتبارا ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى لأهل البصائر من خَلْق .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٨ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ قرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « وَاللهُ خَالِقُ كلِّ » بالإضافة . الباقون « خلق » على الفعل . قيل : إن المعنيين فى القراءتين صحيحان . أخبر الله عز وجل بخـبرين ، ولا ينبغى أن يقال فى هـذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن « خلق » لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العمـوم ؛ كما قال الله عز وجل : « الخالق البـارئ » . وفى الخصوص « الحمـد لله الذى خلق السموات والأرض » وكذا « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » . فكذا يجب أن يكون « اللهُ خَلَق كلَّ دابّة من ماء » . والـدّابة كل ما دَبَّ على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دَبّ يَدِب فهو دابّ ؛ والهاء للبالغة . وقـد تقدم فى « البقرة »(1) . ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ لم يدخل فى هذا الجنّ والملائكة ؛ لأنا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل فى الصحيح "أن الملائكة خُلقوا من نور والجنّ من نار"(2) . وقد تقدم . وقال المفسرون : « من ماء » أى من نُطْفة . قال النقاش : أراد أُمْنِيَة الذكور . وقال جمهور النَّظَرة : أراد أن خِلْقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من المـاء والطين ؛ وعلى هذا يتخرّج قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشيخ الذى سأله فى غَزاة بدر : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن من ماء" . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من المـاء ؛ وخلق النار من المـاء ، وخلق الريح من المـاء ؛ إذ أوّل ما خلق الله تعالى من العـالم المـاء ، ثم خلق منه كل شيء .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية . (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بطنِهِ » المشىُ على البطن للحيّات والحُوت، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرِّجْلين للإنسان والطير إذا مشى . والأربع لسائر الحيوان . وفى مصحف أُبَىّ « ومنهم من يمشى على أكثر »؛ فعمّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسّرطان والخشَاش ؛ ولكنه قرآن لم يثبته إجماع ؛ لكن قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهى قوام مشيه، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مَشْيه إلى جميعها . قال آبن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هى محتاج إليها فى تنقّل الحيوان ، وهى كلّها تُحرك فى تصرفه . وقال بعضهم : ليس فى الكتاب ما يمنع من المشى على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منهـا ما يمشى على أكثر من أربع . وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشى على أكثر من أربع؛ كما وقع فى مصحف أُبَىّ . والله أعلم . و« دَابّة » تشمل مَن يعقل ومالا يعقل؛ فغلّب من يعقل لمـا آجتمع مع من لا يعقل؛ لأنه المخاطب والمتعبّد؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشى » فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع ؛ أى لولا أن للجميع صانعا مختـارا لمـا اختلفوا ، بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو كقوله : « يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إن فى ذَلِك لآياتٍ »[(1)] . ﴿ يَخْـلُقُ اللهُ مَا يَشَـاءُ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ممـا يريد خلقـه ﴿ قَـدِيرٌ ﴾ . ﴿ لَقَـدْ أَنْزَلْنَـا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْـدِى مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تقدم بيـانه فى غير موضـــع .

قوله تعـالى : وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(١) آية ٤ ســورة الرعد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ يعني المنافقين ، يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أي و يقولون، وكذبوا . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الطبري وغيره : إن رجلا من المنافقين اسمه بشر كانت بينه و بين رجل من اليهود خصومة في أرض ، فدعاه اليهوديّ إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلا ، فأبى من ذلك وقال : إن محمدا يَحيف علينا ؛ فلنُحَكِّم كعب بن الأشرف ؛ فنزلت الآية فيه . وقيل : نزلت في المغيرة بن وائل من بني أميــة ، كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، وقال : إنه يُبْغضني ؛ فنزلت الآية ، ذكره المــاوَرْديّ . وقال : «لِيَحْكُمَ» ولم يقل ليحكما لأن المعنيّ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، و إنمــا بدأ بذكر الله إعظاما لله واستفتاح كلام .

الثانيــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلانٌ لحكم فلان يذعن إذعانا . وقال النقاش : « مذعنين » خاضعين ، مجاهــد : مسرعين . الأخفش وابن الأعرابي : مُقِرّين . ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شكّ وريْب . ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ أم حَدَث لهم شك في نبوّته

وعدله . ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أى يجور فى الحكم والظلم . وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشدّ فى التوبيخ وأبلغ فى الذّم؛ كقول جَرير فى المدح :

ألستم خير من ركب المطايا * وأندَى العالمين بُطُونَ راح

﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثة — القضاء يكون للسلمين إذا كان الحكم بين المُعَاهَد والمسلم ولا حقّ لأهل الذّمة فيه . و إذا كان بين ذِمّيين فذلك إليهما . فإن جاءا قاضيَ الإسلام فإن شاء حكم و إن شاء أعرض ؛ كما تقدم فى « المائدة » [1] .

الرابعة — هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذمّ من دُعى إلى رسوله ليحكم بينه و بين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَفِى قُلُوبِهِمْ مرض » الآية . قال ابن خُوَيْزِ منداد : واجب على كل من دُعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو عداوة بين المدّعى والمدّعى عليه . وأسند الزهراوِيّ عن الحسن ابن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يُجب فهو ظالم ولا حقّ له" . ذكره الماوَرْدِيّ أيضا . قال ابن العربى : وهذا حديث باطل ؛ فأما قوله "فهو ظالم" فكلام صحيح ، وأما قوله "فلا حقّ له" فلا يصح ، و يحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى الى كتاب الله وحكم رسوله . ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، و إن كان ذلك فيما يكرهون ؛ أى هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

(١) راجع ج ٦ ص ١٨٤

يقولون سمعنا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها فى قوله « ان يقولوا » نحـو « وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » (١) . وقيل : إنمـا قولُ المؤمنين ، وكان صلة فى الكلام ؛ كقوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » (٢) . وقرأ ابن القَعْقَاع « لِيُحْكَمَ بينهم » غير مسمّى الفاعل . علىّ بن أبى طالب « إنمـا كان قول » بالرفع .

قوله تعـالى : وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر به وحكم . ﴿ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ قرأ حفص « وَيَتَّقْهِ » بإسكان القاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :

ومن يَتَّـقْ فإنّ الله معـه * ورِزْقُ الله مُؤْتابٌ وغادِى

وكسرها الباقون ، لأن جزمه بحذف آخره . وأسكن الهـاء أبو عمرو وأبو بكر . واختلس الكسرة يعقوب وقالُون عن نافع والبُسْتِىّ عن أبى عمرو وحفص . وأشبع كسرة الهاء الباقون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ذكر أسـلم أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسـلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ! قال : نعم ! إنى قرأت التوراة والزّبور والإنجيل وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : «ومن يُطِعِ اللهَ» فى الفرائض «ورَسُولَه» فى السنن «ويَخْشَ اللهَ» فيما مضى من عمره «ويَتَّقْهِ» فيما بقى من عمره « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز من نجا من النـار وأدخل الجنـة . فقال عمر : قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " أوتيتُ جوامع الكَلِم " .

(١) آية ١٤٧ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٩ سورة مريم .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ عاد إلى ذكر المنافقين، فإنه لما بيّن كراهتهم لحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا؛ فنزلت هذه الآية . أى وأقسموا بالله أنهم يخرجون معك فى المستأنف ويطيعون . ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أى طاقة ما قدروا أن يحلفوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين . وقد مضى فى « الأنعام »[1] بيان هذا . و «جهد» منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساما بليغا . ﴿ قل لا تقسموا ﴾ وتم الكلام . ﴿ طاعة معروفة ﴾ أولى بكم من أيمانكم؛ أو ليكن منكم طاعة معروفة ، وقول معروف بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد عُرِفت طاعتكم وهى الكذب والتكذيب ؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . ﴿ إنّ الله خبير بما تعملون ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل .

قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ بإخلاص الطاعة وترك النفاق . ﴿ فإن تولّوا ﴾ أى فإن تتولّوا، فحذف إحدى التاءين . ودلّ على هذا أن بعده «وعليكم» ولم يقل وعليهم . ﴿ فإنما عليه ما حُمّل ﴾ أى من تبليغ الرسالة . ﴿ وعليكم ما حُمّلتم ﴾ أى من الطاعة له؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ جعل الاهتداء مقرونا بطاعته . ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾ أى التبليغ ﴿ المبين ﴾ .

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٢

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (٥٥)

نزلت فى أبى بكر وعمـر رضى الله عنهما ؛ قاله مالك . وقيـل : إن سبب هـذه الآية أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم شكا جَهْد مكافحة العدوّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سرًّا وجهرا، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح . فقال رجل : يا رسول الله، أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : "لا تلبثون إلّا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملإ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة". ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان فى هذه الآية دلالة على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ لأن الله جل وعز أنجـز ذلك الوعد . قال الضحاك فى كتاب النقاش : هـذه تتضمن خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "الخلافة بعدى ثلاثون". وإلى هذا القول ذهب ابن العربىّ فى أحكامه، وآختاره وقال: قال علماؤنا هذه الاية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم، وأن الله استخلفهم ورضى أمانتهم، وكانوا على الدِّين الذى آرتضى لهم، لأنهم لم يتقدّمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فآستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين ؛ فنفذ الوعد فيهـم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نَجَز ، وفيهم نَفَذ ، وعليهم وَرَدَ، ففيمن يكون إذاً ، وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هـذا، ولا يكون فيما بعده . رضى الله عنهـم . وحكى هـذا القولَ القُشَيْرى عن

ابن عباس. واحتجُّوا بمـا رواه سَفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سَمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكا". قال سفينة: أمسك [عليك][1] خلافة أبى بكر سنتين، وخلافة عمر عشرا، وخلافة عثمان ثنتى عشرة سنة، وخلافة علىّ ستًّا. وقال قوم: هذا وعد لجميع الأمة فى ملك الأرض كلّها تحت كلمة الإسلام؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: "زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منهـا". واختار هـذا القول ابن عطية فى تفسيره حيث قال: والصحيح فى الآية أنها فى آستخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملّكهم البلاد ويجعلهم أهلها؛ كالذى جرى فى الشأم والعراق وخراسان والمغرب. قال ابن العربى: قلنا لهم هذا وعد عام فى النبوّة والخلافة وإقامـة الدعوة وعموم الشريعة، فنفذ الوعد فى كل أحد بقدره وعلى حاله؛ حتى فى المفتين والقضاة والأئمـة، وليس للخلافة محل تنفذ فيـه الموعدة الكريمة إلا من تقدّم من الخلفاء. ثم ذكر اعتراضا وانفصالا معناه: فإن قيل هـذا الأمر لا يصـح إلا فى أبى بكر وحده، فأما عمر وعثمان فقُتِلا غِيلَةً، وعلىّ قد نُوزِع فى الخلافة. قلنا: ليس فى ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأىّ وجه كان، وأما علىّ فلم يكن نزاله فى الحرب مُذْهِبًا للأمن، وليس من شرط الأمن رفع الحروب إنمـا شرطه مِلْك الإنسان لنفسه باختياره، لا كما كان أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم بمكة. ثم قال فى آخر كلامه: وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين؛ فهذا نهاية الأمن والعز.

قلت: هذه الحـال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية، بل شاركهم فى ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم. ألا ترى إلى إغزاء قريش المسلمين فى احد وغيرها وخاصّـة الخَنْدق، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال: «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وِمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَـدِيدًا[2]». ثم إن الله ردّ الكافرين لم ينالوا خيرا، وأمّن

(١) زيادة عن ابن العربى. والخطاب لسعيد بن جمدان راوى الحديث عن سفينة.
(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب.

المؤمنين وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » . وقوله « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعني بني إسرائيـل ، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر ، وأورثهم أرضهـم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا »(١) . وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين، ثم إن الله تعـالى أمّنهم ومكّنهم وملّكهم ، فصح أن الآية عامّة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص لايكون إلا بخبر ممن يجب [له] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسكُ بالعموم . وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لمـا قال أصحابه : أما يأتي علينا يوم نأمن فيـه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : "لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والله لَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" . خرّجه مسـلم في صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية معجزة النبوّة؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعـالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يعني أرض مكة ؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعـالى ذلك فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيـل؛ قال معناه النقاش . الثاني — بلاد العرب والعجم . قال ابن العربيّ : وهو الصحيح؛ لأن أرض مكة محرّمة على المهاجرين، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لكن البائسُ سعد بن خَوْلة" . يرثي له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ مات بمكة . وقال في الصحيح أيضا : "يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسـكه ثلاثا" . واللام في « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم » جـواب قَسَم مُضْـمَر؛ لأن الوعد قول، مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنّهم في الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها . ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيل، أهلك الجبابرة بمصر والشأم وأورثهم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة «كما اسْتَخْلَفَ» بفتح التاء واللام؛ لقوله «وَعَدَ» . وقوله « لَيَسْتَخْلِفَنّهم » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضّل عن عاصم « اُستُخلِف » بضم

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

التاء وكسر اللام على الفعل المجهول . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(١) وقد تقدم . وروى سليم بن عامر عن المِقْداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مَدَر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل أمّا بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها " . ذكره الماوردى حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم؛ وهو القول الثانى ، على ما تقدم آنفا . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل، وهى قراءة الحسن ، وٱختيار أبى حاتم . الباقون بالتشديد؛ من بدّل، وهى اختيار أبى عبيد؛ لأنها أكثرما فى القرآن، قال الله تعالى: «لا تَبْدِيلَ لكلماتِ الله» . وقال : « وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً » ونحوه، وهما لغتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجَهْم عن الفَرّاء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدّلنّهم » مشددة، وهذا غلط على عاصم؛ وقد ذكر بعده غلطا أشدّ منه، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بدّلته أى غيرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدِلْ لى هذا الدرهم ، أى أزله وأعطنى غيره . وتقول : قد بدّلت بعدنا ، أى غيّرت؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر؛ والذى ذكره أكثر . وقد مضى هذا فى «النساء»(٢) والحمد لله، وذكرنا فى سورة «إبراهيم»(٣) الدليلَ من السنة على أن بدل معناه إزالة العين؛ فتأمله هناك . وقرئ «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا»(٤) مخففا ومثقلا . ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ هو فى موضع الحال ؛ أى فى حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم . ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها — لا يعبدون إلهًا غيرى؛ حكاه النقاش . الثانى — لا يراءون بعبادتى أحدا . الثالث — لا يخافون غيرى ؛ قاله ابن عباس . الرابع — لا يحبّون غيرى ؛ قاله مجاهد . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى بهذه النعم . والمراد كفران النعمة؛ لأنه قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبله .

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٣ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٤ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢ (٤) آية ٣٢ سورة القلم .

قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

تقدّم؛ فأعاد الأمر بالعبادة تأكيدا .

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هـذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعدٌ بالنصرة . وقراءة العامة « تَحْسَبَنّ » بالتاء خطابا . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو حَيْوة « يَحْسَبَنّ » بالياء، بمعنى لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض؛ لأن الحُسْبان يتعـدّى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علىّ : يجوز أن يكون الفعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لا يحسبنّ محمد الذين كفروا معجزين فى الأرض . فـ « الذين» مفعول أوّل ، و « معجزين » مفعول ثان . وعلى القول الأوّل « الذين كفروا » فاعل « أنفسهم » مفعول أوّل، وهو محذوف مراد «معجزين» مفعول ثان . قال النحاس : وما علمت أحدا من أهل العربية بَصْرِيًّا ولا كوفيًّا إلا وهو يخطِّئ قراءة حمزة؛ فمنهم من يقول : هى لحن؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبنّ . وممن قال هـذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف؛ وأجازه على ضعفه، على أنه يحـذف المفعول الأوّل ، وقـد بيناه . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول فى هـذه القراءة : يكون « الذين كفروا » فى موضـع نصب . قال : و يكون المعنى ولا يحسبنّ الكافر الذين كفروا معجزين فى الأرض .

قلت : وهـذا موافق لمـا قاله الفراء وأبو علىّ ؛ لأن الفاعل هناك النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى هـذا القول الكافر . و « معجزين » معناه فائتين . وقد تقـدّم[1] . ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اى المرجع .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قال العلماء . هذه الآية خاصّة والتى قبلها عامّة؛ لأنه قال : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خصّ هنا فقال : « لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فخصّ فى هذه الآية بعض المستأذنين، وكذلك أيضا يتأول القول فى الأولى فى جميع الأوقات عموما . وخص فى هذه الآية بعض الأوقات ، فلا يدخل فيها عبد ولا أَمَة؛ وَغْدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل : نزلت فى أسماء بنت مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت عليه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدْلِج على عمر؛ وسيأتى .

الثانية — اختلف العلماء فى المراد بقوله تعالى « لِيستأذِنْكم » على ستة أقوال :

الأول — أنها منسوخة، قاله ابن المسيّب وابن جبير .

الثانى — أنها ندب غير واجبة؛ قاله أبو قِلَابة، قال : إنما أمروا بهذا نظرا لهم .

الثالث — عنى بها النساء؛ قاله أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ . وقال ابن عمر : هى فى الرجال دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس — كان ذلك واجبا، إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب، ولو عاد الحال لعاد الوجوب؛ حكاه المهدوِىّ عن ابن عباس .

السادس — أنها محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء؛ وهو قول أكثر أهل العلم؛ منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ . وأضعفها قول السُّلَمِيّ لأن «الذين» لا يكون للنساء فى كلام العرب، إنما يكون للنساء «اللاتِى واللَّواتِى» . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال فى كلام العرب ، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك بدليل، والكلام على ظاهره ، غير أن فى إسناده لَيْث بن أبى سليم[1] . وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول : آية لم يؤمر بها أكثر الناس آيةُ الاستئذان وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن علىّ . قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس «يأمر به» . وروى عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا : يابن عباس، كيف ترى فى هذه الآية التى أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها [أحد][2]، قول الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لِيستأذِنْكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم يَبْلُغُوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مَرّاتٍ من قبل صلاة الفجر وحين تَضَعُون ثيابَكم من الظَّهِيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم» . قال أبو داود : قرأ القَعْنَبِيّ إلى «عليمٌ حكيمٌ» قال ابن عباس : إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحبّ السّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم سُتُور ولا حِجال[3] ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجلُ على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان فى تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك [بعد][2] .

قلت : هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت فى كثير من مساكن المسلمين فى البوادى والصحارى ونحوها . وروى

---

(١) فى تهذيب التهذيب : «قال ابن حبان اختلط فى آخر عمره، فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، ويأتى عن الثقات بما ليس من حديثهم . وقال البزار : كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه... الخ» .

(٢) زيادة عن سنن أبى داود .	(٣) الحجال : جمع الحجلة (بالتحريك) وهو بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .

وَكيع عن سفيان عن موسى بن أبى عائشة عن الشعبى « يأيها الذين آمنوا لِيستأذنْكُم الذين ملكت أيمانكم » قال : ليست بمنسوخة . قلت : إن الناس لا يعملون بها ؛ قال : الله عز وجل المستعان .

الثالثة — قال بعض أهل العلم : إن الاستئذان ثلاثا مأخوذ من قوله تعالى «يأيها الذين آمنوا لِيَستأذِنْكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم يَبْلُغوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مرّات» قال يزيد: ثلاث دفعات . قال : فورد القرآن فى المماليك والصبيان ، وسنّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجميع . قال ابن عبد البر : ما قاله من هذا و إن كان له وجه فإنه غير معروف عن العلماء فى تفسير الآية التى نزع بها ، والذى عليه جمهورهم فى قوله « ثلاثَ مرّات » أى فى ثلاث أوقات . و يدلّ على صحة هذا القول ذِكْرُه فيها « من قبل صلاة الفَجْر وحين تَضَعُون ثيابَكم من الظَّهِيرة ومن بعد صلاة العشاء » .

الرابعة — أدّب الله عز وجل عباده فى هذه الآية بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم ، والأطفالُ الذين لم يبلغوا الحُلُمَ إلا أنهم عَقَلُوا معانى الكَشْفة ونحوها ، يستأذنون على أهليهم فى هذه الأوقات الثلاثة ، وهى الأوقات التى تقتضى عادة الناس الانكشافَ فيها وملازمةَ التعرِّى . فما قبل الفجر وقتُ انتهاء النوم ووقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب النهار . ووقتُ القائلة وقت التجرّد أيضا وهى الظهيرة ، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه وٱشتد حَرّه . و بعد صلاة العشاء وقت التّعرِّى للنوم ؛ فالتكشف غالب فى هذه الأوقات . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلِج إلى عمر بن الخطاب ظَهِيرةً ليدعوه ، فوجده نائما قد أغلق عليه الباب ، فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فٱنكشف منه شىء ، فقال عمر : وَدِدت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ؛ ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجدا شكرا لله . وهى مكية .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُـلُمَ مِنْكُمْ ﴾ أى الذين لم يحتلموا من أحراركم ؛ قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق كان[1] يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم ممـا ملكت أيمـانكم ؛ على التقديم والتأخير، وأن الآية فى الإماء . وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكّنها الحسن بن أبى الحسن لثقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و «ثلاثَ مرّات» نصب على الظرف ؛ لأنهـم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنمـا أمروا بالاستئذان فى ثلاثة مواطن، والظرفية فى « ثلاث » بيّنـة : مِن قبل صـلاة الفجر، وحين تَضَعُون ثيابكم من الظّهيرة، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرات فى كل وقت . ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ قرأ جمهور السبعة « ثلاثُ عَوْراتٍ » برفع « ثلاث » . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم «ثلاثَ» بالنصب على البدل من الظرف فى قوله «ثلاثَ مرات » . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفَرّاء : الرفع أحب إلىّ . قال : وإنمـا آخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات . والرفع عند الكسائى بالابتداء، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد، وقال نَصًّا بالابتداء . قال : والعَوْرات الساعاتُ التى تكون فيها العَوْرة، إلا أنه قرأ بالنصب، والنصب فيه قولان : أحدهما — أنه مردود على قوله «ثلاثَ مرّات» ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليـه مقامه . و « عَوْرات » جمع عَوْرة ، وبابه فى الصحيح أن يجىء على فعلات (بفتح العين) كجَفْنة وجَفَنات، ونحو ذلك . وسكّنوا العيْن فى المُعْتَلّ كبَيْضة وبَيْضات ؛ لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو بَيَضـاتٍ رائحٌ مُتَأَوِّبٌ ＊ رَفِيقٌ بمسح المَنْكِبَيْن سَبوحُ[2]

[فشـاذّ] .

---

(١) كذا فى نسخ الأصـل ، وظاهر أن فى العبارة سقطا .

(٢) كذا فى اللسان مادة « بيض » . والذى فى نسخ الأصـل :

أبو بيضـات رائح أو مُغْتَدٍ ＊ عجلان ذا زاد وغـير مزوّد

وهذا البيت للنابغة الذبيانى، وصواب إنشاده : أمن آل ميّة رائح أو مُغْتَدٍ ＊ ... ... الخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى فى الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذّلين . ﴿ طَوَّافُونَ ﴾ بمعنى هم طوافون . قال الفراء : كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز الفراء نصب « طوافين » لأنه نكرة، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يجيز البصريون أن يكون حالا من المضمرَيْن اللّذَين فى « عليكم » وفى « بعضكم » لاختلاف العاملين . ولا يجوز مررت بزيد ونزلت على عمرو العاقلَيْن، على النعت لهما . فمعنى « طَوّافون عليكم » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم؛ ومنه الحديث فى الهرّة "إنما هى من الطوّافين عليكم أو الطوّافات"[1]. فمنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا؛ لأن حقيقة العَوْرة كل شيء لا مانع دونه، ومنه قوله « إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة للمَدْخَل، فبيّن العلة الموجبة للإذن، وهى الخلوة فى حال العورة؛ فتعين آمتثاله وتعذر نسخه . ثم رفع الجُنَاح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضكم على بعض . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى يبيّن الله لكم آياته الدالة على متعبّداته بياناً مثل ما بيّن لكم هذه الأشياء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] تقدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ يريد العَتَمة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تَغْلِبَنّكم الأعراب على آسم صلاتكم ألَا إنّها العِشاء وهُمْ يعتِمون بالإبل". وفى رواية "فإنها فى كتاب الله العِشاءُ وإنها تُعْتِم بِحِلاب الإبل" . وفى البخارى عن أبى بَرْزة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤخّر العشاء . وقال أنس : أخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم العشاء . وهذا يدل على العشاء الأولى . وفى الصحيح : فصلّاها، يعنى العصر بين العشاءين المغرب والعشاء . وفى الموطّأ وغيره : ولو يعلمون ما فى العَتَمة والصبح لأتَوْهما ولو حَبْواً . وفى مسلم عن جابر

(١) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على معنى الشك من الراوى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، يريد أن هذا الحيوان لا يخلو أن يكون من جملة الذكور الطوافين أو الإناث الطوافات (عن الباجى) .

(٢) راجع ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱبن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الصلواتِ نحوًا من صلاتكم ، وكان يؤخّر العَتَمة بعد صلاتكم شيئا ، وكان يُخفّف الصلاة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : وهذه أخبار متعارضة ، لا يُعلم منها الأول من الآخر بالتاريخ ، ونهيه عليه السلام عن تسمية المغرب عشاء وعن تسمية العشاء عَتَمة ثابت ، فلا مردّ له من أقوال الصحابة فضلًا عمن عداهم . وقد كان ٱبن عمر يقول : من قال صلاة العتمة فقــد أثم . وقال ٱبن القاسم قال مالك : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » فالله سماها صلاة العشاء فأحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تسمّى بمـا سمّاها الله تعالى به ، ويعلّمها الإنسان أهله وولده ، ولا يقال عَتَمة إلا عند خطاب من لا يفهم . وقد قال حسان :

وكانت لا يزال بهـا أنيس　*　خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشــاءُ

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيْفٍ　*　يؤرّقنى إذا ذهب العشــاء

وقد قيل : إن هذا النهى عن ٱتباع الأعراب فى تسميتهم العشاء عَتَمة ، إنمـا كان لئلا يُعدل بها عما سمّـاها الله تعالى فى كتابه إذ قال : « ومن بعــد صلاة العشاء » ؛ فكأنه نَهْىُ إرشاد إلى ما هو الأَوْلى ، وليس على جهــة التحريم ، ولا على أن تسميتها العتمة لا يجوز . ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قد أطلق عليها ذلك ، وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وقيل : إنمـا نهى عن ذلك تنزيها لهذه العبادة الشريفة الدّينية عن أن يطلق عليها ما هو ٱسم لفعلة دُنْيَوِيّة ، وهى الحَـلْبة التى كانوا يحلبونها فى ذلك الوقت ويسمونها العتمة ؛ ويشهد لهذا قوله : "فإنها تُعْتِم بحِلاب الإبل" .

الثامنـــة[1] ـــ روى ابن ماجه فى سننه حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن عُمارة بن غَزِيّة عن أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "من صَـلّى فى جماعة أربعين ليلة لا تفــوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله له بها عِتْقًا من النار" . وفى صحيح مسلم عن عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى

(١) تقدّم أن المسائل سبع .

الله عليه وسلم : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصفَ الليل ومن صلّى الفجر فى جماعة فكأنمـا قام الليلَ كلّه ". وروى الدَّارَقُطْنِيّ فى سننه عن سُبيع أو تُبَيْع عن كعب قال : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى العشاء الآخرة وصلّى بعدها أربع ركعات فأتمّ ركوعهن وسجودهن ويعلم ما يقترئ[1] فيهن كن له بمنزلة ليلة القدر .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

قرأ الحسن « الحُلْم » فحذف الضمة لثقلها . والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان فى الأوقات الثلاثة المذكورة، وأبيح لهم الأمر فى غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى فى هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال فى الاستئذان فى كل وقت . وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال فى الأولى « لِيَسْتَأْذِنْكُم » لأن الأطفـال غير مخاطبين ولا متعبَّدين . وقال ابن جُرَيج : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال أبو إسحاق الفَزَارِيّ : قلت للأوزاعيّ ما حدّ الطفل الذى يستأذن ؟ قال : أربع سنين، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزهريّ : أى يستأذن الرجل على أمه؛ وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) يقترئ بمعنى يقرأ .

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ القواعد واحدتها قاعد، بلا هاء؛ ليدلّ حذفها على أنه قعود الكِبَر، كما قالوا : آمرأة حامل؛ ليدلّ بحذف الهاء أنه حمل حَبَل . قال الشاعر:

فلو أنّ ما في بطنــه بين نِســوَةٍ ＊ حَبِلْن و إن كنّ القــواعد عُقرَا

وقالوا في غير ذلك : قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها ، بالهــاء . والقواعد أيضا : إساس البيت؛ واحده قاعدة، بالهاء .

الثانيـــة — القواعد : العُجّز اللواتي قعدن عن التصرف من السنّ، وقعدن عن الولد والمَحِيض؛ هــذا قول أكثر العلماء . قال ربيعة : هي التي إذا رأيتها تستقذرها من كِبَرِها . وقال أبو عبيدة : اللاتي قعــدن عن الولد ؛ وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتَع؛ قاله المهدويّ .

الثالثـــة — قوله تعالى :﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ إنمـا خص القواعد بذلك لآنصراف الأنفس عنهن؛ إذ لا مذهب للرجال فيهن ، فأبيح لهن ما لم يبح لغيرهن،وأزيل عنهن كُلْفة التحفظ المتعب لهن .

الرابعـــة — قــرأ آبن مسعود وأُبَيّ وآبن عبـاس « أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيـابهن » بزيادة « من » . قال آبن عباس : وهو الجِلْباب . وروى عن آبن مسعود أيضا «من جلابيبهن» . والعرب تقول : امرأة واضع ، للتي كَبِرت فوضعت خِمارها . وقال قوم : الكبيرة التي أَيِست من النكاح، لو بدا شعرها فلا بأس؛ فعلى هذا يجوز لهـا وضع الخمار . والصحيح أنها كالشابة في التستّر؛ إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذي يكون فوق الدِّرع والخِمـار ؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات ولا متعرضات بالزينــة لِيُنْظَر إليهن؛ فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرّج : التكشّف والظهور للعيون؛ ومنه : بروج مشيّدة.و بروج السماء والأسوار؛ أي لا حائل دونها يسترها.

وقيل لعائشة رضى الله عنها : يا أمّ المؤمنين، ما تقولين فى الخضاب والصِّباغ والتمائم والقُرْطين والخَلْخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكنّ قصةُ امرأة واحدة ، أحلّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروْا منكن مُحَرَّما . وقال عطاء : هذا فى بيوتهن، فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب . وعلى هذا «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن . وعلى هذا يلزم أن يقال : إذا كانت فى بيتها فلا بد لها من جلباب فوق الدِّرع، وهذا بعيد ، إلا إذا دخل عليها أجنبى . ثم ذكر تعالى أنّ تحفّظ الجميع منهن ، واستعفافَهنّ عن وضع الثياب والتزامَهنّ ما يلزم الشباب أفضل لهن وخير . وقرأ ابن مسعود « وأن يتعففن» بغير سين . ثم قيل : من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صِنفان من أهل النار لم أرهما قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس ونساءٌ كاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مائلات رءوسهن كأَسْنِمة البُخْتِ المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن رِيحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" . قال ابن العربى : وإنما جعلهنّ كاسيات لأن الثياب عليهنّ، وإنما وصفهنّ بأنهنّ عاريات لأن الثوب إذا رَقَّ يصفهنّ، ويبدى محاسنهنّ؛ وذلك حرام .

قلت : هذا أحد التأويلين للعلماء فى هذا المعنى . والثانى — أنهنّ كاسيات من الثياب عارِياتٌ من لباس التّقْوَى الذى قال الله تعالى فيه : «ولِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ»[1] . وأنشدوا :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلّب عُرْيَاناً وإن كان كاسِيا
وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربِّه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصِيا

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُـدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضون علىّ[2] وعليهم قُمُص منها ما يبلغ الثُّدِىّ ومنها ما دون ذلك ومَرّ عمر ابن الخطاب وعليه قميص يجرّه " قالوا : ماذا أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال : " الدِّين " . فتأويله صلى الله عليه وسلم القميص بالدِّين مأخوذ من قوله تعالى : « ولباسُ التَّقْوَى ذلك خير» . والعرب تكنى عن الفضل والعفاف بالثياب؛ كما قال شاعرهم :

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف . (٢) الذى فى صحيح مسلم : « يعرضون وعليهم ... » .

* ثياب بنى عوف طهارى نقية [(١)] *

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : "إن الله سيُلبسك قميصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه" . فعبّر عن الخلافة بالقميص، وهى استعارة حسنة معروفة .

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين، وهو اللائق بهنّ فى هذه الأزمان، وخاصّةً الشباب، فإنهنّ يتزيّن ويخرجن متبرّجات؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التّقْوَى حقيقة، ظاهرا وباطنا، حيث تُبْدِى زينتها، ولا تبالى بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهنّ، وذلك مشاهد فى الوجود منهنّ، فلو كان عندهنّ شىء من التقوى لما فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك. ومما يقوى هذا التأويل ما ذُكر من وصفهنّ فى بقيّة الحديث فى قوله : "رءوسهنّ كأسنمة البُخْت" . والبُخْت ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة؛ شبه رءوسهنّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنّ على أوساط رءوسهنّ . وهذا مشاهد معلوم، والناظر إليهنّ ملوم . قال صلى الله عليه وسلم : "ما تركتُ بعدى فتنةً أضرّ على الرجال من النساء" . خرّجه البخارى.

قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

(١) هذا صدر بيت لأمرئ القيس، وعجزه كما فى ديوانه :

* وأوجههم عند المشاهد غُرّانُ *

فيــه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء فى تأويل هـذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها ــ هل هى منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمة؛ فهذه ثلاثة أقوال:

الأوّل ــ أنها منسوخة من قوله تعالى: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إلى آخر الآية؛ قاله عبد الرحمن آبن زيد ، قال : هـذا شيء قد آنقطع، كانوا فى أوّل الإسـلام ليس على أبوابهم أغلاق، وكانت الستور مرخاة، فربمـا جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيـه أحد؛ فسوّغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحـلّ لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وآنقطع . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يَحْتَلِبَنّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه ..." الحديث . خرّجه الأئمة .

الثـانى ــ أنها ناسخة؛ قاله جمـاعة . روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لمـا أنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» قال المسلمون: إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، وأن الطعام من أفضـل الأموال، فلا يحلّ لأحد منّا أن يأكل عند أحد، فكفّ الناس عن ذلك؛ فأنزل الله عز وجل «ليس على الأعمى حرج ــ إلى ــ أو ما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَه» . قال : هو الرجل يوكّل الرجل بضيعته.

قلت : علىّ بن أبى طلحة هذا هو مولى بنى هاشم سكن الشام، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد، واسم أبيه أبى طلحة سالمٌ، تُكلِّم فى تفسيره؛ فقيل : إنه لم ير آبن عباس، والله أعلم .

الثـالث ــ أنها محكمة؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم؛ منهم سعيد بن المسيِّب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزُّهْرِىّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُون فى النَّفِير مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمْناهم ويقولون : إن احتجتم فكُلُوا؛ فكانوا يقولون إنما أحلُّوه لنا عن غير طِيب نَفْس؛ فأنزل الله عز وجل «ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم» إلى آخر الآية . قال النحاس : «يوعِبون» أى يخرجون بأجمعهـم فى المغازِى؛

يقال : أَوْعَب بنو فلان لبنى فلان إذا جاءوهم بأجمعهم . وقال ابن السكّيت : يقال أَوْعب بنو فلان جلاءً ؛ فلم يبق ببلدهم منهم أحد . وجاء الفرسُ برَكْض وَعِيب ؛ أى بأقصى ماعنده . وفى الحـديث : "فى الأنف إذا ٱستوعِب جَدْعُه الدِّيَةُ" إذا لم يترك منه شيء . واستيعاب الشيء استئصاله . ويقال : بَيْتٌ وَعِيبٌ إذا كان واسعا يَسْتَوْعِب كلّ ما جُعل فيه . والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى ، واحدهم ضَمِن مثل زمِن . قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روى فى الآية ؛ لمـا فيه عن الصحابة والتابعين من التوفيق أن الآية نزلت فى شيء بعينه . قال ابن العربى : وهذا كلام منتظم لأجل تخلّفهم عنهم فى الجهاد و بقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله «أَوْ مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ» قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيدا جدا . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به من المشى ، وما يتعذّر من الأفعال مع وجود العَرَج ، وعن المريض فيما يؤثّر المرض فى إسقاطه ؛ كالصــوم وشروط الصـلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك مبيّنا : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيّن مفيد ، يَعْضُده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل .

قلت : وإلى هذا أشار ٱبن عطية فقال : فظاهر الآية وأمرُ الشريعة يدلّ على أن الحرج عنهم مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتهم فيه الإتيـان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ؛ فالحرج مرفوع عنهم فى هـذا . فأما ما قال النـاس فى هذا الحرج هنا وهى :

الثانيـــة ــــ فقال ٱبن زيد : هو الحرج فى الغزو ؛ أى لا حرج عليهـم فى تأخرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، معنًى مقطوع من الأوّل . وقالت فرقة : الآية كلّها فى معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تتجنّب الأكل مع أهل الأعذار ؛ فبعضهم كان يفعل ذلك تقذُّرا لجَوَلان اليد من الأعمى ، ولانبساط الجلسة من الأعرج ، ولرائحة المريض وعلّاته ؛ وهى أخلاق جاهليـة وكبر ؛ فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجا من غير أهل الأعذار ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء فى الأكل ، لعدم الرؤية فى الأعمى ، وللعجز عن المزاحمة فى الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فنزلت الآية فى إباحة الأكل معهم . وقال ابن عباس فى كتاب الزهراوى : إن أهل الأعذار تحرجوا فى الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فنزلت الآية مبيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئا ذهب به إلى بيوت قرابته ؛ فتحرج أهل الأعذار من ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أى ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطَب وغير المخاطب غلّب المخاطب لينتظم الكلام . وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة فى قوله « فى بيوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيتُه ؛ وفى الخبر " أنت ومالك لأبيك " . ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكّم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى فى الظاهر ألا يكون الابن مخالفا لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنت ومالك لأبيك " بقوىّ لوَهْى هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبىّ صلى الله عليه وسلم علِم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقد قيل إن[1] المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أى ومالك لك . والقاطع لهذا التوارثُ بين الأب والابن . وقال الترمذى الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التى فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شىء قد أفادهم هذا الرجل الذى له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القُوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شىء من ملكهم فليس عليه فى ذلك حرج .

(١) فى بعض النسخ : « إن معنى » .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهـم هي إذنٌ منهـم . وذلك لأن في تلك القرابة عَطْفًا تسـمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيئهم ويُسَرّوا بذلك إذا علموا . ٱبن العربي: أباح لنـا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان محرزا دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الآدخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعني مما ٱختزنتم وصار في قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غَلَقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقتادة ومجاهد . وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأُجَراء . قال ٱبن عباس : عنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ما له ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيِّم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يَطْعَم الشيء اليسير . ٱبن العربي : وللخازن أن يأكل مما يُخزن إجماعا ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حَرُم عليه الأكل. وقرأ سعيد بن جُبير «مُلِّكْتُم» بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضا «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح؛ وقد مضى في «الأنعام»[(1)] . وقرأ قتادة « مفتاحه » على الإفراد . وقال ٱبن عباس : نزلت هذه الاية في الحارث ٱبن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازِيًا وخلّف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

السادســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك العدوّ؛ قال الله تعـالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »[(2)] . وقال جرير :

دعَوْن الهـوَى ثم ٱرْتَمَيْنَ قلوبَنا * بأسهم أعداء وهن صـديقُ

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) آية ٧٧ سورة الشعراء .

والصـديق من يَصْدقك فى مودّته وتَصْدقه فى مودّتك . ثم قيل : إن هـذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ »(١)، وقوله تعـالى : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : " لا يحل مال آمرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه " .
وقيل : هى محكمة؛ وهو أصح . ذكر محمد بن ثَوْر عن مَعْمَر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطَبًا فجعلت آكله؛ فقال : ماهذا؟ فقلت : أبصرت رطبا فى بيتك فأكلت؛ قال : أحسنت؛ قال الله تعالى : «أَوْ صَدِيقِكُمْ» . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله «أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحُبّ(٢) ؟ قال : أنت لى صديق ! فما هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبى طلحة المسمّى ببَيْرَحا(٣) ويشرب من ماء فيهـا طيّب بغير إذنه ، على ما قاله علماؤنا؛ قالوا : والمـاء متملّك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثمـاره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسـير مؤنته، أو لمـا بينهما من المَودّة . ومن هذا المعنى إطعام أمّ حَرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها؛ لأن الأغلب أن ما فى البيت من الطعام هو للرجل، وأن يد زوجته فى ذلك عارِيَة . وهذا كله مالم يتخذ الأكل خُبْنة(٤)، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تافها يسيرا .

السابعـة — قرن الله عز وجل فى هـذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لَصيق . قال آبن عباس فى كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنّميين « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٥) .

قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه . وقد مضى بيان هـذا والعلة فيه فى « النساء »(٦) . وفى المثل « أيّهم أحب إليـك أخوك أم صديقك » قال : أخى إذا كان صديقى .

---

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (بضم الحاء المهملة) : الجرة الضخمة؛ والخابية . وقال ابن دريد : هو الذى يجعل فيه المـاء؛ فلم ينوعه . (٣) راجع الكلام على ضبطها فى معجم البلدان لياقوت .
(٤) الخبنة : معطف الإزار وطرف الثوب؛ أى لا يأخذ منه فى ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء .
(٦) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ وما بعدها .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قيل : إنها نزلت في بني ليث بن بكر، وهم حيّ من بني كِنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له * أكِيلًا فإني لست آكله وَحْدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضــيفه؛ فنزلت الآية مبيّنة سُنّة الأكل ، ومذهبة كلّ ما خالفها من ســيرة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرّما، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأكيل لحَسَن، ولكن بألا يحرم الانفراد .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ «جميعا» نصب على الحال . و «أَشْتَاتًا» جمع شَتّ، والشَّتُّ المصدر بمعنى التفرّق؛ يقال : شتّ القوم أي تفرّقوا . وقد ترجم البخاريّ في صحيحه (باب ــ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية . و (النِّهْــد والاجتماع) . ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هــذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم في الأكل . وقد سوّغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فصارت تلك ســنّة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النِّهْــد والولائم وفي الإملاق في الســفر . وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك . والنِّهد : ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر في النفقة ينفقونه بينهم؛ وقد تناهدوا؛ عن صاحب العين . وقال ابن دُرَيد : يقال من ذلك : تناهــد القوم الشيء بينهم . الهَرَويّ : وفي حديث الحَسَن "أخرجوا نِهْدَكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم" . النِّهد : ما تخرجه الرُّفقة عند المناهدة ؛ وهو استقسام النفقة بالسويّة في السفر وغيره . والعرب تقول : هات نِهْدَك ؛ بكسر النون . قال المهلّب : وطعام النِّهد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسّواء، وإنمــا يأكل كل واحد على قدر نَهْمته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

تركها أشبه بالوَرَع . وإن كانت الرُّفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ؛ لأنهم لا يتناهدون إلا لِيُصيبَ كلّ واحد منهم من ماله ، ثم لا يدرى لعل أحدهم يقصّر عن ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإنما يكونون أضيافا والضّيفُ يأكل بِطِيب نَفْس ممّا يُقدَّم إليه . وقال أيوب السِّختيانى : إنما كان النِّهد أن القوم كانوا يكونون فى السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويهيّئ الطعام ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذى تصنع كلُّنا نحب أن نصنع مثله فتعالوْا نجعل بيننا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضعوا النِّهد بينهم . وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرّى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجه أصحابه ، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سرًّا دونهم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ اختلف المتأولون فى أى البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النَّخَعِىّ والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلِّموا على من فيها من ضيفكم . فإن لم يكن فى المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله . وقيل: يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أنفسكم » الآية، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أى فسلموا على أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبى رباح . وقالوا : يدخل فى ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتا لغيره ٱستأذن كما تقدّم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد فى الخبر، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ، فإن كان فيه أهله وخدمه

فليقل : السلام عليكم . و إن كان مسجدا فليقل : الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وعليــه حمل ابن عمر البيتَ الفارغ . قال ابن العربي : والذى أختاره إذا كان البيت فارغا ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبــد بحــال ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد تقــدم فى سورة « الكهف »[(1)] . وقال القُشَــيْرِى فى قوله « إذا دخلتم بُيُوتًا » : والأوجه أن يقال إن هــذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيــه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، و إن لم يكن فيــه ساكن يقول الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، و إن كان فى البيت من ليس بمسلم قال الســلام على من ٱتبع الهــدى ، أو السلام علينا وعلى عبــاد الله الصالحين . وذكر ابن خُوَيْز مَنْداد قال : كتب إلىّ أبو العباس الأصمّ قال حدثنا محمــد بن عبد الله بن عبــد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أســلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أهلها وٱذكروا اسم الله فإن أحدكم إذا ســلّم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه لا مَبِيت لكم ها هنا ولا عَشاء و إذا لم يسلّم أحدكم إذا دخل ولم يذكر ٱسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه أدركتم المبيت والعشاء " .

قلت : هذا الحديث ثَبَت[(2)] معنــاه مرفوع من حديث جابر ، خرّجه مسلم . وفى كتاب أبى داود عن أبى مالك الأشجعىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وَلَجَ الرجل بيته فلْيقل اللّهُمَّ إنى أسألك خير الوُلُوج وخير الخروج بٱسم الله وَلَجْنَا و بٱسم الله خرجنا وعلى الله ربّنا توكلنا ثم ليسلّم على أهله " .

الحــادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ مصدر ، لأن قوله « فسَلِّموا » معناه فحَيُّوا . وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودّة المسلَّم عليه . ووصفها أيضــا بالطّيب لأن سامعها يستطيبها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تشبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه السُّنَن ، أى كما بيّن لكم سُنّة دينكم فى هذه الأشياء يبيّن لكم سائر ما بكم حاجة إليه فى دينكم .

(1) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٦	(2) كذا فى الأصول . وقد ورد معنى هــذا الحديث فى كتاب الأدب المفرد للبخارى من رواية جابر .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ « إنّما » فى هذه الآية للحصر ؛ المعنى : لا يتمّ ولا يكمل إيمانٌ من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنّت فى أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله فى وقت الجمع ، ونحو ذلك . وبيّن تعالى فى أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فختم السورة بتأكيد الأمر فى متابعته عليه السلام ؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانيــة — وآختلف فى الأمر الجامع ماهو ؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سُنّة فى الدِّين ، أو لترهيب عدو باجتماعهم وللحروب ؛ قال الله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » . فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور فى ذلك . والإمام الذى يُترقّب إذنه هو إمام الإمْرة ، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مَكْحُول والزُّهْرِىّ : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغى أن يُستأذن إذا قدّمه إمام الإمرة ، إذا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على فيه فليخرج دون إذن ، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبى صالح رَعَف يوم الجمعة فآستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضى أن يُستأذن أميرُ الإمْرة الذى هو فى مقعد النبوّة ، فإنه ربمــا كان له رأى فى حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فأما إمام الصــلاة فقط

فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدّين للذى هو فى مقعد النبوّة . وروى أن هذه الآية نزلت فى حفر الخَندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عُيَيْنة بن حِصْن؛ فضرب النبيّ صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يتسلّلون لِواذًا من العمل و يعتذرون بأعذار كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت فى عمر رضى الله عنه ، آستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غَزْوة تَبُوك فى الرجعة فأذن له وقال : " انطلق فوالله ما أنت بمنافق" يريد بذلك أن يُسمع المنافقين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه فى العُمْرة فقال عليه السلام لما أذن له : " يا أبا حَفْص لا تنسنا فى صالح دعائك" .

قلت : والصحيح الأوّل لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربيّ ما ذكره فى نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، وأن ذلك مخصوص فى الحرب . قال : والذى يبين ذلك أمران :

أحدهما — قوله فى الآية الأخرى : «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» . وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون و يخرجون عن الجماعة و يتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله جميعهم بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك يتبيّن إيمانه .

الثانى — قوله «لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» وأىّ إذن فى الحدث والإمام يخطب، وليس للإمام خيار فى منعه ولا إبقائه، وقد قال «فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»؛ فبيّن بذلك أنه مخصوص فى الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى . ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذَن و إن شاء منع . وقال قتادة : قوله «فأذن لمن شئت منهم» منسوخة بقوله «عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لهم» . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ﴾ أى لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذرا . ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ يريد : يَصيح من بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظّموه كما قال فى الحُجُرات «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ»[(1)] الآية . وقال سعيد بن جُبير ومُجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله ، فى رِفق ولِين ، ولا تقولوا يا محمد بتَجَهُّم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخّموه . ابن عباس : لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ التسلّل والانسلال : الخروج . واللِّواذ من الملاوذة ، وهى أن تستتر بشىء مخافة مَن يراك ؛ فكان المنافقون يتسلّلون عن صلاة الجمعة . « لِوَاذًا » مصدر فى موضع الحال ؛ أى متلاوذين ، أى يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه آستتارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاه النقاش ، وقد مضى القول فيه . وقيل : كانوا يتسلّلون فى الجهاد رجوعا عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لواذا فرارا من الجهاد ؛ ومنه قول حسان :

وقريشٌ تجول منا لِوَاذا[(2)] * لم تحافظ وخَفّ منها الحُلُوم

وصحّت واوها لتحركها فى لاوذ . يقال : لاوذ يلاوذ ملاوذة ولِواذا . ولاذ يلوذ [لوذا] ولِياذا ؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعا للاذ فى الاعتلال ؛ فإذا كان مصدرَ فاعَل لم يُعَلّ ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلّ .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بهذه الآية آحتجّ الفقهاء على أن الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذّر من مخالفة أمره ، وتوعّد

(1) آية ٣

(2) فى الأصول : « منكم » والتصويب عن الديوان ، والرواية فيه :
وقريش تلوذ منا لواذا * لم يقيموا وخف منها الحلوم

بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُــمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتحرُم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يُسلّط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير في « أَمْرِهِ » قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه الســلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يُعرضــون عن أمره . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هــذا الموضع زائدة . وقال الخليــل وسيبويه : ليست بزائدة؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره؛ كما قال :

* ... لم تَنْتَطِق عن تَفَضُّلِ[(1)] *

ومنه قوله : « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى بعد أمر ربه . و« أن » فى موضع نصب بـ « يَحْذَر » . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذر زيدا ، وهو فى « أن » جائز؛ لأن حروف الخفض تحذف معها .

قوله تعــالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

قوله تعــالى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يجازيكم به . و « يعــلم » هنــا بمعنى علم . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعــد ما كان فى خطابٍ رجع فى خبر؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بمــا تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

---

(١) هذا من معلقة امرئ القيس . والبيت بتمــامه :
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها * نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

***

تم بعون الله تعالى الجــزء الثــانى عشر من تفســير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر، وأوله سورة "الفرقان"

*
* *

كَمُلَ طبع الجزء الثانى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٣٠ ربيع الأوّل سنة ١٣٦١
(١٦ أبريل سنة ١٩٤٢) م
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣ / ١٩٤١ / ٥٠٠٠)

